جيفري لانغ

ضياع ديني

صرخة المسلمين في الغرب !!



جيفري لانغ

- أستاذ مشارك بقسم الرياضيات في جامعة كنساس، من أكبر الجامعات في الولايات المتحدة الأمريكية.
- ولد لأسرة كاثوليكية بمدينة بريدجبورت في ولاية كونيتيكت.
- قضى 18 عاماً الأولى من حياته في المدارس الكاثوليكية.
- قرأ القرآن فاعتنق الإسلام عام 1982، بعد سنة من حصوله على الدكتوراه من جامعة بوردو.
- تزوج امرأة مسلمة سعودية، وهو أب لثلاث بنات.
- ألّف العديد من الكتب الإسلامية التي تعدُّ من أفضل الكتب مبيعاً في المجتمع المسلم بالولايات المتحدة الأمريكية.

منها:

- حتى الملائكة تُسأل
- رحلة الإسلام في أمريكا
- الصراع من أجل الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

ضَيَاعُ دِينِيْ

صرخة المسلمين في الغرب

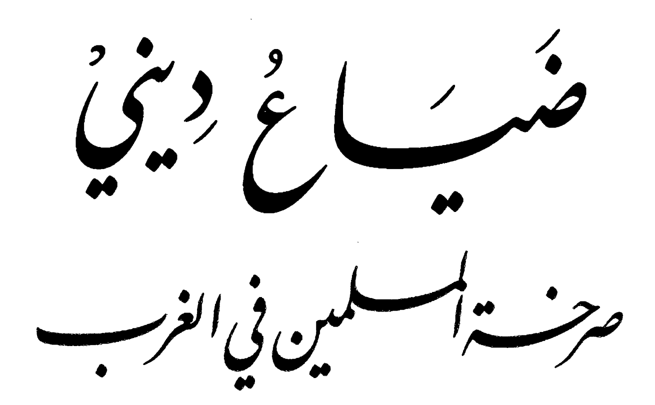
ضياع ديني: صرخة المسلمين في الغرب=Losing my religion
/ جيفري لانغ؛ ترجمة إبراهيم يحيى الشهابي .- دمشـــق:
دار الفكر ٢٠٠٧ .- ٤٠٨ ص؛ ٢٥ سم.

ردمك 978-9933-10-577-8

١- ٢١٠.١ ل ا ن ص ٢- العنـــوان
٣-لانغ ٤- الشهابي

مكتبة الأسد

جيفري لانغ



ترجمة

إبراهيم يحيى الشهابي





دار الفكـــر – دمشـــق ☎ ٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١ | دار الفكر المعاصر – بيروت ☎ ٠٠٩٦١ ١ ٨٦٠٧٣٩

http:/www.fikr.com - e-mail:fikr@fikr.net

ضياع ديني

صرخة المسلمين في الغرب

تأليف: جيفري لانغ

الترجمة: د. إبراهيم يحيى الشهابي

الرقم الاصطلاحي: ٢٠٠٠,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 978-9933-10-577-8

الرقم الموضوعي: ٢١٨ (قضايا إسلامية اجتماعية وأخلاقية)

٤٠٨ ص، ١٧ × ٢٤ سم

الطبعة الرابعة : ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م

ط١/٢٠٠٧م

LOSING MY RELIGION
A CALL FOR HELP

Jeffrey Lang

amana publications

First Edition
(1425AH/2004AC)

amana publications
10710 Tucker Street
Beltsville, Maryland 20705-2223 USA
Tel: (301) 595-5777 / Fax: (301) 595-5888
E-mail: amana@igprinting.com
Website: www.amana-publications.com

Library of Congress Cataloging-in-Publications Data

Lang, Jeffrey.
Losing my religion : a call for help / Jeffrey Lang.-- 1st ed.
p. cm.
Includes index.
ISBN 1-59008-027-0
1. Islam--United States. 2. Muslims--United States. 3. Muslim converts--United States. 4. Muslim families--United States--Religious life. 5. United States--Religious life and customs. 6. Religious life--Islam.
I. Title.

BP67.A1L36 2004
297.5'74'092--dc22

2004013559

Printed in the United States of America by
International Graphics
10710 Tucker Street
Beltsville, Maryland 20705-2223 USA
Tel: (301) 595-5999 Fax: (301) 595-5888
Website: igprinting.com
E-mail: ig@igprinting.com

المحتوى

عمّ يتساءلون؟!

كلمة للناشر

لسوف يثير هذا الكتاب اعتراضات شتى ممن قد يرون فيه جرأة على قواعد إسلامية مسلَّمة عندهم، أو يرون فيه نظرات مختلفة عما ألفوه مئات السنين من فهمٍ للإسلام صاغوا بموجبه عاداتهم وتقاليدهم. . .

ربما رأوا فيه تشكيكاً يقلقهم حول ما عدّوه ثوابت لا يستسيغون طرح أي أسئلة بشأنها، بله إثارة نقاش حولها.

وربما رأوا فيه تطاولاً على علماء يجلونهم ويثقون بهم، يثير حفيظتهم. . .

لقد سبق لدار الفكر أن قدمت لقرائها كتابَيْ جيفري لانغ **(الصراع من أجل الإيمان)** و**(حتى الملائكة تسأل)**؛ عرض فيهما رحلته من الإلحاد الصارم إلى الإيمان الملتزم، عرضاً أثار دهشة كل من قرأهما وإعجابه.

واشتهر جيفري لانغ في تجربته الإيمانية تلك، ورحب به جمهور غفير من المسلمين في أمريكة، مثلماسعد سائر المسلمين في العالم بانضمامه إليهم. ورأوا فيه موئلاً يطارحونه همومهم ومشكلاتهم، وينهالون عليه بأسئلتهم تترى على موقعه الإلكتروني.

طَرحت عليه المرأة المسلمة مشكلتها إذ تعاني من مجافاة المجتمع الغربي لها من جهة، ومن المعاملة غير اللائقة لها في المراكز الإسلامية التي يديرها مهاجرو الجيل الأول من المسلمين من جهة أخرى.

وطَرح عليه شباب المسلمين من الجيل الثاني شكواهم من تزمت القائمين على المراكز الإسلامية في الغرب الذين نقلوا عاداتهم وتقاليدهم من بلدانهم، وكانوا حراساً أشداء عليها، أكثر من حرصهم على تطبيق روح الإسلام ومقاصده العليا في المجتمع الجديد.

وطرحوا عليه معاناتهم من وطأة الحياة في بيئة اجتماعية تتناقض عاداتها مع أحكام الإسلام، وتستبيح محرماته، وتنكر معروفه ومسلَّماته.

وسألوه عن موضوعات شتى أشكلت عليهم في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف؛ شجعتهم مناهج البحث العلمي الحديث على طرح أسئلتهم حولها..

لكن سؤال ابنته ذات التسعة أعوام عن موقفه منها لو غيرت دينها إلى النصرانية، كان صدمة كبيرة له، دفعته إلى التفكير من جديد في تساؤلات شباب الجيل الثاني من أبناء المسلمين، ومعتنقي الإسلام من الأمريكيين.. فكان هذا الكتاب..

إنه صرخة بمثابة نداء استغاثة لأولئك المفكرين المسلمين الذين أنسوا بما نشؤوا عليه مما قدمه الآباء لهم في بيئاتهم، وأداروا ظهورهم لأولئك الذين يعيشون وراء البحار في بيئة ومناخ فكري واجتماعي مختلف..

أجل!! ها هو جيفري لانغ يطلق صرخته لإدراك عقيدة الأجيال التالية من أبناء المسلمين المهاجرين لأمريكة، قبل أن ينفضّوا عنها ليغرقوا في خضم الثقافة الأمريكية؛ الموّارة بالحركة والنمو، المزدهية بالتفوق والهيمنة، الطافحة بالاستهلاك والإباحية والإغراء.

وبالحرقة ذاتها سبق لأحد المفكرين المسلمين - وكان عائداً من رحلة ثقافية إلى أمريكة - أن أطلق صيحة استنفار للعقل الإسلامي الغائب في غفوة طال أمدها: «أمريكة تراودنا عن نفسها!!» تعبيراً عما قوبلت به محاضراته عن الإسلام في جامعة (جورج تاون) من دهشة لدى الشباب الأمريكي المتعطش للمعرفة..

إنه القلق ذاته يساور الشباب في الحالين: حالِ جيلٍ يُطلب إليه التشبث بالدين، فإن هو تساءل عن المسوِّغات: جاءه الجواب: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/٧٤].

وحال جيلٍ أخرجه زخرف المادة وفتنة العلمانية من الدين، فلم يُرضيا تطلعاته وأشواقه، بل رآه ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: ٢٤/٣٩] فراح يقلب وجهه في السماء باحثاً عن حقيقة مقنعة..

ولئن تشاطر جيفري لانغ والمهاجرون الآباء الغيرة على الدين، والخوفَ من ابتعاد الأجيال التالية عن المسجد، وانصهارها في بوتقة المجتمع الجديد وثقافته المغايرة، فإن البواعث مختلفة؛ وشتان..

بين غيرة من حصَّل دينه بكد ذهنه، وإعمال فكره، وعرق جبينه، ومعاناة بحثه عن الحقيقة المتوارية خلف سحب من الأوهام، في غياهب بحر من الشكوك؛ يبددها وهماً إثر وهم، وشكاً إثر شك، حتى تنتقل به في رحلة مضنية شاقة وطويلة؛ من ظلمة الإلحاد إلى نور اليقين، فيتضح له الطريق، ويتبين له الرشد من الغي، فيعض عليهما - اليقين والرشد - بالنواجذ، ويخشى عليهما من عاقبتي الجهل والكسل، ويجتهد في حملهما رسالةً إنسانية حية، متنامية وفاعلة؛ تترك في محيطها أثراً إيجابياً، وتضفي عليها قيمة، وتجعلها أملاً..

وبين من آل إليه دينه إرثاً مجانياً من دون كدٍّ ولا نصَب؛ فهو إما يزدهي به في متحف يعرض فيه منجزات الأجداد، فيكون له فضل تحنيطه وصونه، وتقديمه مادّة تاريخية للأجيال. وإما يدفنه بعيداً عن الأنظار؛ يكتنزه أملاً في أن تكتشفه ذات يوم أجيال قادمة خلال تنقيبها عن الآثار. وإما يبدده؛ يستمتع بإنفاقه ذات اليمين وذات الشمال؛ شأن الوارث السفيه؛ لا يعرف لإرثه قيمة، ولا يتخذه رأسمالٍ ينميه أو يضيف إليه شيئاً يسجله التاريخ باسمه ويذكره له، فهو يبوء بإثم تفريطه به، وعجزه عن المحافظة عليه، بله تنميته، وهو ينظر إليه يتلاشى، ويتناوشه الحاسدون الحاقدون.

إنه لبون شاسع بين الموقفين:

موقف أصحاب الرسالات المنفتحة على الآخر بلا حدود ولا قيود، تحاوره بعقلانية، تأخذ منه وتعطي من دون مسلمات مسبقة، إنما هو المنطق والبرهان والدليل والبينات: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١/٤٣] وهذا الموقف الإيجابي القابل للنماء والتقدم، في مسار التطور الذي جعله الله قانوناً للخلق المستمر المتنامي ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١/٣٥] وجعله هدفاً لارتقاء الإنسان في معارج الحضارة من خلال كدحه ومعاناته ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦/٨٤].

وموقف أتباع الرسالات المنكفئين على الذات، يطوفون حولها، يثقلون نصوصها بالشروح والحواشي حتى تحجبها عن الأنظار، وتحجب عنها النور والهواء. يطوقونها بأسيجة من الحمايات والحرس الشديد؛ تضيِّق عليها الخناق حتى تفصمها عن الواقع فلا تعيش إلا في الماضي والذكريات. وذلك كله إنما يتم بدوافع خيِّرة؛ من الحب والتقديس والحفظ والرعاية، فعلَ الأم بوليدها تبالغ في لفه بالأغطية؛ يدافعها عن نفسه مخافة الاختناق بها، أو فعلَ دودة القز تلتف بخيوط الحرير حتى إذا ضاقت بها ذرعاً، ثقبت شرنقتها وتحولت إلى فراشة تطير حرة في الفضاء.. إنه موقف مغرق في السلبية لا تطيق الرسالات المكث فيه؛ يتحول فيه الخطاب من خطاب منفتح على الخارج ليتفاعل ويتنامى، إلى خطاب منغلق على الذات ليضمر ويتآكل، ومن البلاغ المبين بالحجة والبرهان بعيداً عن حدود المكان والأعراق والألوان، إلى الدفاع عن الذات في قرى محصنة أو من وراء جدر، وإنه لعمري هو عين ما وقع فيه أتباع الرسالات السابقة، وحذرنا الله تعالى من الوقوع فيه في سورة الحديد [١٦/٥٧] من طول الأمد وقسوة القلب ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. وما طول الأمد سوى الوقوف في المكان على حالٍ واحدة، دون تقدم يذكر لم يعد الإنسان يحتمله في عصرٍ أخذت معلومات الإنسان تتضاعف خلال العقد الواحد من الزمان؛ ولا يكاد إسهام المسلم في إنتاجها وتوليد معارفها يجاوز الصفر إلا قليلاً.

لقد راح جيفري لانغ يستطلع الأجيال التالية من المسلمين ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١/٧٨] وأدرك أن إجابات آبائهم المنبعثة عن أشواقهم المترسخة في أعماقهم وثقافاتهم التي حملوها معهم من أوطانهم؛ لن تجديهم نفعاً، بعد أن تأثروا بمناهج البحث العلمي الجديدة، فقدم لهم - على تردد وتعبير عن قلة زاده - ما استطاع إليه سبيلاً من إجابات، وأراد أن يشرك القارئ وكل غيور على مستقبل الإسلام في هموم الجالية وأسئلتها.

وفي سياق استطلاعه أسئلة الأجيال، خصص فصلاً لإشكالية الحديث النبوي، ونظراً لخصوصية هذا الفصل، ولكونه بحثاً علمياً (أكاديمياً) مطولاً، يحتاج إلى جهود علمية متخصصة لمناقشته وتمحيصه، فقد رأت دار الفكر أن تستلّه لتصدره في كتاب مستقل.

ودار الفكر التي تعودت من قرائها؛ أنهم ليسوا مجرد متلقين منفعلين، بل ناقدين فاعلين، سوف تخصص في موقعها على الإنترنت حيزاً لتعليقاتهم وإسهاماتهم؛ تعصف به أفكارهم وتساؤلاتهم، لتضعها بين أيدي العلماء المتخصصين؛ متوخية أن تضيف بها إلى جهود أسلافنا العظام، إضافات تكسر حالة العقم والجمود والتوقف الذي طال أمده، وتليق بعصر المعرفة الذي زودهم بأحدث مناهج البحث العلمي، ووضع في أيديهم أرقى تقنيات الحواسب والاتصالات التي يسرت لهم سبله.

محمد عدنان سالم

مقدمة المترجم

عندما قرأت هذا الكتاب وجدت نقطة مشتركة بيني وبين المؤلف هي نقطة الإيمان بالله وبكتابه القرآن الكريم ورسوله النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبالتالي اعتناق الإسلام عن عقل ويقين ودراسة واعية، وليس بالوراثة.

كان من المستبعد أن يرث المؤلف الإسلام لأنه من أبوين مسيحيين، ومن بيئة ومجتمع مسيحيين، لكن معاملة والده السيئة واللاإنسانية لوالدته، وسلوك والده السِّكير، وصبر أمه المؤمنة كانت نقطة انطلاق نحو الإلحاد والكفر بالدين كله. بيد أن الظروف وضعته أمام مصحف باللغة الإنكليزية، فقرأه من باب الفضول فاكتشف الحقيقة الساطعة وتبين له أن هذا القرآن هو حتماً من عند الله، فآمن بالله بعد أن ألحد، واعتنق الإسلام بعد أن كفر بالأديان.

أما أنا فمن الطبيعي أن أرث الإسلام لأني من أبوين مسلمين متدينين، من بيئة ومجتمع إسلاميين. ولكن تشريدنا - نحن الفلسطينيين - من بلادنا بسبب الإرهاب اليهودي واغتصاب أرضنا وهدم بيوتنا، وإلقاءنا في مهب الريح، واقتلاعنا من التاريخ، وقذفنا إلى المجهول بلا حاضر ولا مستقبل، نسير على دروب التشرد كجماعات النمل، جعلني أفكر وأنا أتأمل هذه الآلاف المؤلفة من النساء والرجال والولدان والشيوخ الهائمين على وجوههم إلى حيث لا يدرون بلا طعام ولا شراب ولا حتى غطاء: أطفال يموتون جوعاً وعطشاً، وآخرون يضيعون عن أهلهم، وشيوخ يهلكون تعباً وإعياء، وحوامل يضعن على الطريق؛ فصدر عني تساؤل بصوت مسموع: هل يعقل أن يكون للكون إله ويحدث هذا الذي أراه بأُم عيني؟ فردَّ عليَّ طفل مشرد مثلي كان يسير معي دون أن يشعر أحدنا بالآخر: نعم. لنا إله، ولكنه في إجازة.

أخذت هذه الشكوك تنمو في رأسي وفي نفسي خصوصاً بعد أن صرت أرى وأسمع عبارة "بني إسرائيل" تتكرر في القرآن. فقلت في نفسي: ما هذا القرآن الذي يفرد حيزاً كبيراً لبني إسرائيل، وهم الذين اغتصبوا فلسطين وقتلوا أهلها وشردوهم وهدموا بيوتهم، وما زالوا يرتكبون من الجرائم ما تقشعر له الأبدان؟! فأهملت مسألة الدين ووجود الإله.. لم أكفر تماماً كما حصل للمؤلف، ولكني نسيت الموضوع، ولم أعد أعيره أي اهتمام.

وفي يوم من الأيام حينما كنت معلماً في مدرسة ابتدائية بقرية من قرى حوران، مع زميل لي مسيحي كلفتني مديرية التربية بتدريس مادة الدين الإسلامي لأنني المعلم المسلم (هكذا كان مكتوباً في الهوية الشخصية) فيها، فأجبت بجرأة: كيف أدرس شيئاً لا أومن به؟ فكان جواب المديرية: لا مفر لك، يجب أن تعلّم مادة الدين الإسلامي.

وبينما أنا غارق في حيرتي، وصل مصحف كان قد طلبه أخي الأكبر، وهو معلم أيضاً يحمل شهادة الاجتياز للتعليم العالي من فلسطين. هذا المصحف ترجمه وشرحه علماء باكستانيون، حصلوا على شهادة العالمية من الأزهر الشريف، وشهادة دكتوراه في الدين من فرنسة. المهم أني شرعت أقرأ فيه علّي أفهم شيئاً أستطيع تدريسه. كنت قبل ذلك قد درست أدبيات الأحزاب والأيديولوجيات المختلفة: الشيوعية الماركسية اللينينية، والأيديولوجيات القومية، والإقليمية، فلم أخرج من هذه الدراسات بقناعة تشجعني على تبني إحداها. وعندما بدأت أقرأ في هذا المصحف أخذت الحقيقة تظهر شيئاً فشيئاً حتى سطعت واضحة لا لبس فيها. زالت كل الشكوك التي كانت تساورني حول وجود الله، والمشيئة الإلهية، والقضاء والقدر، ثم تبين لي أن ذكر بني إسرائيل في القرآن الكريم هو من باب التعريف بهذه الفئة وتوجيه البشر إلى البناء الحضاري عن طريق قبول الآخر والتحاور معه، والتفاعل الحضاري بعيداً عن العصبية والعنصرية والروح العدوانية، سواء على الرسل أو على الفئات الأخرى من البشر، والتخلص من النزعة القومية، وإرساء المحبة، ومن باب رسم الخطوط الرئيسة لمواجهة الانحرافات ومحاولات التخريب. فآمنت بالله

وبالإسلام عن عقل ويقين وعلم ووعي، وليس عن وراثة. وقمت بتدريس مادة الدين الإسلامي وأنا واثق من نفسي، حتى إن مفتش الديانة قال بعد حضوره درساً لي: «قضيت سنوات طويلة في التوجيه، وحضرت دروساً كثيرة لرجال دين وغيرهم، فلم أشهد درساً أجمل وأمتع وأوضح من هذا الدرس؛ حياك الله يا بني ووفقك».

ومنذ ذلك الحين أخذت أتعمق في هذا الفكر المتوازن الذي يرسم الخطوط الواضحة للبشرية كي تبني حضارة إنسانية يسودها الإعمار والسلام والأمن والحب، وكي تستمر بالتقدم والبناء عن طريق التفاعل والحوار الودي. فكان إيماني بالله وكتبه ورسله إيماناً راسخاً لا يتزعزع، ووصلت بعون الله، إلى درجة التسليم الكامل لله سبحانه وتعالى، ومن سلَّم أمره لله لا يُخيِّب الله له أملاً.

أما فيما يتعلق بما تعانيه أمتنا اليوم من تمزق وامتهان على يد أعدائها؛ فقد وجدت الحل في القرآن أيضاً. وهو أن مرضنا أساساً يكمن في انفصام الشخصية الذي تعاني منه الأمة. فشخصيتها متحللة إلى العنصرين المكونين لها: العروبة والإسلام. ووُضِعَ العنصران في مواجهة بعضهما البعض كعدوين، تماماً كما لو حللنا الماء إلى عنصريه: الهيدروجين والأوكسجين، فنفقد الماء ونموت عطشاً ولو كان عنصراه موجودين. والحل إذن في إعادة بناء الشخصية العربية الحضارية بإحداث تفاعل بين العروبة والإسلام[١].

(١) انظر كتاب "الشخصية العربية" للمترجم.

المقدمة

ذات مساء صيفي قبل بضع سنين، كنت وابنتي جميلة نتمشى في المنطقة المجاورة، عندما فاجأتني بالسؤال التالي: «بابا، ماذا ستفعل إن صرت مسيحية في يوم ما؟» طرحت السؤال بجدية، دلَّت على أنه لم يكن مجرد افتراض، خصوصاً وهي في التاسعة من العمر.

ظننت أن قلبي قد توقف لحظة عندما وقفت هناك عاجزاً عن الكلام. أحسست بخواء في صدري وفي جوف معدتي. فهل هي ابنتي تلك التي تسألني هذا السؤال؟ ابنتي التي شهدتني ألقي محاضرات في طول البلاد وعرضها عن الإسلام، والتي ترافقني كل ليلة إلى الصلاة، والتي جرت بيني وبينها أحاديث عديدة عن الدين؟ لم أكن أتصور أبداً أن تخطر ببالها مثل هذه الفكرة.

سألتها: محاولاً جهدي أن أبدو متزناً غير متلعثم. «هل تعرفين كثيراً عن المسيحية؟» فأجابتني قائلة: «فقط كنت أتساءل إن كنت ستغضب مني؟ هل غضبت جدتي وهل غضب جدي منك عندما تخليتَ عن المسيحية؟».

كان جميلاً منها أن تُجري مثل هذه المقارنة، إذ ساعدتني بذلك على الهدوء قليلاً. فأجبتها متذكراً الصدمة والقلق اللذين ظهرا على وجه أمي والهياج الذي أبداه أبي؛ لقد هال الأمر أمي فانهارت، وهددني أبي بطردي من البيت، إذ عدَّ ذلك، كما هي العادة، إهانة شخصية له، وقال لي: «أتظن أنك ذكي جداً يا جفري؛ حسناً سأريك، سنرى كيف ترى الحياة في الشارع، لن ندخلك المدرسة أبداً، أيها الصبي؛ سوف تعيش في المجاري مع أفكارك الجديدة!!».

سألتني جميلة ثانية: «هل ستغضب مني؟».

فأجبتها، محاولاً ستر مشاعري: «الغضب ليس هو الكلمة المناسبة. لا أنكر أني سأُحبط جداً، لأنني أجد سلاماً وجمالاً رائعاً في الإسلام، وأود دائماً أن يشاركني أبنائي بهذا السلام وهذا الجمال، فكل ما يهمني في هذه الحياة هو أسرتي وعقيدتي».

سرنا هادئين دقيقة من الزمن، ثم بادرتني القول: «أنا لا أفكر حقاً، يا أبتِ، أن أصبح مسيحية، ولكني أظن أحياناً أنه من الأسهل على المرء ألا يكون مسلماً».

كان لابد لي من إخفاء قلقي؛ إذ لم أشأ أن يخشى أبنائي من مصارحتي بما يدور في خلدهم بشأن الدين. يمكن أن يكون من الصعب أن ينشأ المرء مسلماً في أمريكة. وشعرت بأهمية انفتاحهم عليّ، والإفصاح عن مشاكلهم إذا ما أردت أن أكون عوناً لهم. المسألة هي أنني لم أكن أتوقع مثل هذا السؤال الذي ينبغي أن أعالجه وأصلحه.

فقلت لها: «جميلة!! عليك أن تفهمي قبل كل شيء أنني أحبك، وسأظل أحبك دائماً مهما كنت، ومهما حدث. لقد أحببتك منذ وُلدت، ومنذ اللحظة التي وضعتك الممرضة بين ذراعي، فأخذت أذرع المكان جيئة وذهاباً محملقاً فيك. كنت أشعر كأني في عالم آخر، في السماء!! وعندما أرادت الممرضة فيما بعد أن تأخذكِ مني لم أستطع التخلي عنك، ولن يتخلى عنك قلبي أبداً - فهو لك دوماً. وعندما تكبرين سوف تختارين ما تعتقدين أنه الصواب. وسأكون لك عوناً وناصحاً، ولكن ستفعلين في النهاية ما ترينه أفضل ولو عارضناك أنا وأمك. وكل ما أريده هو أن يكون اختيارك صادراً عن تفكير وفهم. على أي حال، لماذا تشعرين أنه من الصعب على المرء أن يكون مسلماً؟».

تطرقنا في أثناء سيرنا إلى الأعياد الدينية، وبعض متطلبات الشعائر الدينية، وتحريم لحم الخنزير، والمواعيد، مع أنّ هذه الأمور لا تُعدُّ، في الواقع، قضايا حاسمة عندها، بأي حال من الأحوال. وأعتقد أنها تطرقت إليها لتعبر عن قلقها العام الغامض بشأن كونها مسلمة. وبرغم ما هي عليه من ذكاء، فلا أظن أنها فهمت - وهي ما زالت في التاسعة من العمر - سبب شعورها بقيد العقيدة

التي ورثتها. بيد أن تلك كانت بداية ما سأشخصه بأنه طور النقد والاحتجاج الذي يمر به أبنائي في أثناء نمو دينهم، فيثيرون أسئلة ويعبرون عن تحفظات تتعلق بممارسات المسلمين ومعتقداتهم.

لدى تأملي في ما مضى من أحداث، وجدت أنه ينبغي ألا أُصعق بسؤال جميلة. أعتقد أنه سيكون لدى كثير من الأطفال الأمريكيين، المولودين من أبوين مسلمين مثل هذه المشاعر في وقت من الأوقات. فبادئ ذي بدء، يولد هؤلاء الأطفال في جالية إيمانية يزدريها كثيرون من الأمريكيين ويخشونها. ويرغب الأطفال، طبعاً، في أن يتلاءموا مع بيئتهم، وسيكون ربطهم بشعب محتقر وغريب مصدر قلق وعدم استقرار شديدين؛ إذ اتخذ فهمُ الإسلام منذ هجوم الإرهابيين في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ مساراً سلبياً، مع أن الموقف الأمريكي العام تجاه العقيدة وأبنائها كان وما زال موقف استنكار، وعدم احترام. أذكر مقالة بحثية ظهرت قبل عام ٢٠٠١ تقول: إن أكثر من تسعين بالمئة من صور المسلمين التي عرضت في القرن المنصرم في الروايات والأفلام الإنكليزية كانت صوراً سلبية. وبناء على ما رأيته في طفولتي، أخذ يساورني إحساس داخلي بأن صورة المسلم سلبية أيضاً في وسائل الإعلام الأخرى كالتلفاز وأفلام الكرتون، والكتب الهزلية وألعاب الفيديو.

يقضي الطفل جزءاً كبيراً من وقته في المدرسة، ويتوقع الطلبة المسلمون أن يواجَهوا هناك بالتعصب. إذ يمكن أن يكون الشباب أحياناً حقودين جداً، ولكن الأكثر سوءاً هو أن بعض المدرسين محدودو التفكير كبعض الأطفال، وأن بعضهم يستخدم الصف ليلقي بموعظة تتسم بضيق الأفق. ومنذ أن بدأت التحدث علناً عن الإسلام قبل ثمانية عشر عاماً، صارت تردني باستمرار رسائل مسلمين من جميع أنحاء البلاد يشتكون من مدرسين يحقّرون الإسلام في الصف. كذلك واجه أطفالي الأمر نفسه خلال تعلمهم في المدارس. ففي هذا العام مثلاً كانت مدرِّسة التربية المدنية (الحقوق والواجبات والقوانين) تقول لطلبة السنة السابعة: إن الإسلام يشجع العنف، في حين أن المسيحية تحث على السلام. كما قالت مدرسة ابنتي سارة لطلبة السنة التاسعة: إن المسلمين ناكرون للجميل «لأننا (برأيها) نرسل إليهم المساعدات الإنسانية فيقابلونها بالهجمات الإرهابية علينا».

ومن المظالم التي تقوم في معاهد التربية والتعليم إهمال الأعياد الإسلامية في المدارس إهمالاً كلياً - حتى ولو أحاط الآباء المسلمون المدرسين والإدارات علماً بحلول هذه الأعياد - في حين أنه يُطلَب إلى الطلبة المسلمين الاشتراك في احتفالات الأعياد اليهودية - المسيحية.

وبالإضافة إلى ما يواجهه الأطفال المسلمون الذين يمارسون شعائرهم من تحيُّز وتحامل، فإنهم يُدفعون إلى هامش المجتمع الأمريكي؛ لأن سلوكهم وأخلاقهم مخالفة لقواعد السلوك الاجتماعية الأمريكية. فالممارسات الجنسية قبل الزواج، على سبيل المثال، تعد في أمريكة مَعْلماً جذاباً ومقبولاً على نطاق واسع من معالم ثقافة الشباب، في حين أن القرآن يعدُّه جريمة يعاقب عليها، واقترافها من أخطر الآثام. يبدأ كثير من الأمريكيين بضرب مواعيد الغرام وهم ما يزالون في المدرسة الابتدائية، أما الإسلام فإنه يحرّم مثل هذه المواعيد تحريماً مطلقاً بغض النظر عن العمر. كذلك فإن شرب الخمر المحرم عند المسلمين يشجَّع عليه ويحتفَل بشربه في أمريكة، كما أن الأزياء الغربية تصمم بحيث تكشف جمال المرأة للعامة، في حين يخفي لباس المسلمة ذلك الجمال. إضافة إلى أن المهاجرين المسلمين الذين يحثهم دينهم وثقافتهم على احترام الكبار احتراماً بالغاً يصدمون عندما يرون عدم الاكتراثِ والوقاحة التي يعامل بها الأطفال الأمريكيون آباءهم وأمهاتهم.

وهناك أمثلة أخرى عديدة، لكن هذه تكفي لتبين أن المسلم الملتزم بشعائر دينه سيكون خارج السرب الرئيسي.

على الرغم من وجود نقاط اختلاف، لا شك فيها، بين الإسلام والثقافة الشعبية الأمريكية، فإن المسافة الملحوظة بينهما يمكن أن تتعاظم بسبب الخلط بين الدين والثقافة. إذ يدير غالبية المساجد في أمريكة مهاجرون أو طلبة أجانب زائرون؛ كثيرون منهم يساوون الإسلام بنسخه المعروفة في مواطنهم التي تدمج في إطارها العادات والمواقف التي لا علاقة لها أساساً بما يتطلبه النص الديني صراحة. ولمواءمة المنظورات الثقافية المتنوعة مع الجالية الإسلامية الأمريكية، يتبنى زعماء الجالية غالباً وجهة النظر الأكثر تشدداً، ولو كان ما يعززها من

الأحاديث ضعيفاً أو من القرآن غامضاً. ولهذا الموقف أسباب عديدة، منها أن الناس يميلون إلى الخوف من القسوة والجمود اللذين يقترنان عادة بالورع الشديد، بيد أن عدم المرونة هذا يمكن أن يكون رد فعل على النسق الشائع في الثقافة الغربية، وانعكاساً لتفضيل المسلم العادي تحاشي ارتكاب الخطأ في المسائل الدينية الأكثر تشدداً. ربما يكون الجمود نتيجة كون المحافظين أكثر الفئات توحداً وحزماً في المسجد.

تتجلى نزعة الانصياع إلى وجهة النظر المتزمتة بوجه خاص في معاملة النساء عند الجالية الإسلامية الأمريكية. إذ لا تشجَّع النسوة عادة على تأدية الصلاة في المسجد، وإن فعلن يعزلن في غرفة بعيدة عن قاعة الصلاة الرئيسية، ومن ثمَّ فلا يرى زوار المساجد من المصلين سوى الرجال. كما يفصل النساء عن الرجال في أكثر اجتماعات الجالية كالرحلات أو المحاضرات أو ولائم العشاء أو احتفالات الأعياد أو المؤتمرات. كذلك يحال دون وصول المرأة إلى موقع الزعامة أو القيادة في كثير من الجاليات، ونادراً ما تشمل مجالس المديرين أو اللجان التنفيذية نساءً.

مع بقاء الهيمنة على المؤسسات الإسلامية الأمريكية محصورة بين من نشؤوا خارج الولايات المتحدة من المسلمين، لابد أن نتوقع من خطاب المسجد وأسس تفكيره اختلافاً عن خطاب التيار العام وأسس تفكيره، وهنا مرة أخرى نقول: إن الخلط بين الدين والثقافة هو السبب الذي يجعل المسلمين المولودين في أمريكة يشعرون يائسين بالابتعاد فكرياً عن المسجد. والمعضلة عند كثير من المسلمين الشباب هي الحاجة لتبني طريقتين في التفكير لا تتوافقان. فالمسجد يشدد كثيراً على التقاليد والامتثال لها، في حين أن الثقافة الأوسع التي يعيش فيها المسلم الأمريكي الشاب تمجد العقلانية الفردية. يحترم المسلمون قواعد السلوك وأحكامها التي تعد في نظرهم خالدة لا تقبل التغيير، في حين أن التيار العام الأمريكي يشجع على التكيُّف والإبداع. إذ يولي النظام التربوي الأمريكي أهمية للتساؤلات النقدية والموضوعية، في حين أن الجالية الإسلامية تقاوم ذلك بشدة عند تطبيقه على الإسلام. تعلم المدارس الأمريكية طلبتها التحدي وطرح

الأسئلة بلا حرج، في حين أن المسجد يعلّم روّاده ألا يعرّضوا تقاليدهم الدينية للتساؤل .مما لا شك فيه أن كل دين في أمريكة يواجه هذه التوترات نفسها، أما فيما يتعلق بالإسلام فإن كثيراً من تقاليد المسلمين وأعرافهم قد جُعلت مثالية بحيث لم تترك مجالاً لإعادة التفسير والتأويل والتكيُّف، ومن ثم فسحت مجالاً واسعاً لخلق الشكوك في أذهان الشباب المسلمين.

وهكذا يولد الأطفال المسلمون في أمريكة في خضم صدام ثقافات راديكالية متنافرة؛ ثقافة المسجد والثقافة الأمريكية السائدة. إننا نستطيع الحكم -حين نرى غياب الجيل الثاني وما بعده من الأجيال عن المساجد- أن أكثرية المسلمين يختارون تلافي المواجهة بابتعادهم عن المسجد وغيره من المواقع الإسلامية. لا غرابة في ذلك؛ إذ نشأ الجيل الثاني في قلب أكثر الثقافات دينامية في العالم، تلك التي أثرت في أقصى مراكز الأرض. فقد انتشرت الموسيقا والتكنولوجية والأزياء ووسائل الترفيه والتسلية الأمريكية، حتى الأخبار الأمريكية فقد شاعت في أنحاء العالم قاطبة. والأطفال في البلدان الأجنبية، وحتى في البلدان الإسلامية، يغنون الأغاني الشعبية الأمريكية، ويقلدون حياة المشاهير الأمريكيين، ويشاهدون الأفلام الأمريكية، ويناصرون أبطال الرياضة الأمريكيين المفضلين لديهم، ويتناولون وجبات الطعام الأمريكية السريعة، ويلبسون آخر (الموضات) الأمريكية. فإذا ما كان لأمريكة مثل هذا النفوذ في البلدان الأجنبية، فإننا نجزم بأن مظهر الجيل الثاني من المسلمين الأمريكيين وتفكيره سيكونان أمريكيين بالتأكيد. ولهذه الأسباب ولأسباب غيرها سنبحثها لاحقاً، تبدو ثقافة المسجد الخاصة في نظر كثير من المسلمين نقيضاً تاماً للمجتمع الأوسع الذي ينبغي أن يعيشوا ويتعلموا ويعملوا فيه. وبما أن الممسكين بزمام هذه الثقافة قادة مسلمون أكثر التصاقاً بالنموذج الفعلي للإسلام الحقيقي، فإنه يغدو من الصعب على كثيرين من أبناء الجيل الجديد أن يروا أي صلة للإسلام بحياتهم. وبالنظر إلى هذه العوامل، أعتقد أنه من الغريب ألا يتساءل الطفل المسلم الأمريكي في لحظة ما عن شرعية عقيدته.

ولا بد لنا من الاعتراف بأنه ليس غالبية الشباب المسلمين فقط غير مرتاحين للجالية الإسلامية الأمريكية، بل الجالية نفسها كذلك غير مرتاحة. إن كثيرين من

المسلمين المهاجرين الأوائل، كمثل غيرهم من المهاجرين الآخرين، ينزعجون من الفجوة الثقافية التي تنشأ بينهم وبين الجيل الثاني الذي يكتسب بسرعة طرق التفكير الأمريكية وعاداته. وتنشأ الأزمة الدينية عند الأتقياء الورعين؛ لأنهم يعدُّون الثقافة الوطنية (ثقافة أوطانهم الأصلية) هي الثقافة الإسلامية، أما الثقافة الإسلامية في أمريكة فليست إسلامية؛ الأمر الذي يعني - عندما يصل الأمر إلى أنماط السلوك - اعتبار تلك الأنماط خاطئة وغير مرغوب فيها. لذلك يحترس كثيرون من المهاجرين المسلمين احتراساً شديداً من أن يتأمرك الجيل القادم. ويشكو الشباب المسلمون غالباً، من أن أبناء الجيل الأكبر يختبرون ولاءهم للثقافة الوطنية، ويفضحونهم إذا لم يسلكوا مسلك الشباب المسلمين في أوطانهم الأصلية. ومن المفارقات أنه برغم تحامل المجتمع السائد على الشباب المسلم أحياناً وتجاهله لهم، فإن كثيراً من هؤلاء الشباب الذين تواصلتُ معهم أكدوا أن غير المسلمين عموماً يقبلونهم أكثر مما تقبلهم الجالية الإسلامية. إذن، هذا هو عامل آخر من عوامل إبعاد الجيل الثاني عن المسجد.

من الأمور الحاسمة التي تبعث الحيوية في أي مجتمع ديني؛ قدرته على اجتذاب الأبناء والأحفاد وغيرهم من الذين يعتنقون الإسلام. وبموجب هذا المعيار يُعَدُّ أداء الجالية الإسلامية في أمريكة ضعيفاً، بغض النظر عن انتشار المساجد والمنظمات الإسلامية. إن أحدث موجة من هجرة المسلمين إلى أمريكة بدأت في أواخر خمسينات القرن العشرين وما زالت مستمرة حتى اليوم. وقد ظهر اليوم أعداد كبيرة من مسلمي الجيلين الثاني والثالث الذين يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن ليس من أبناء الجيل الثاني في المساجد الأمريكية سوى قلة قليلة، أما الجيل الثالث فلا وجود له تقريباً في هذه المساجد. وقد دخلت أعداد كبيرة من الجالية الأمريكية الإفريقية الإسلام منذ ستينات القرن العشرين، كما رفده آخرون من بقية السكان بصورة ثابتة، بيد أن غالبية معتنقي الإسلام يبتعدون عن الجالية، ولا يُرى في المساجد إلا أعداد يسيرة من أبنائهم وأحفادهم.

يعطي مجتمعنا في لورنس (Lawrance) صورة واضحة عن الاتجاه العام في المدن الجامعية. يقع مسجدنا في محيط حرم جامعة كنساس (KU) على مسافة

خمس عشرة دقيقة سيراً على الأقدام من أبعد نقطة من أرض الجامعة، وعلى بعد ما لا يزيد عن ربع ساعة بالسيارة من أي موقع في المدينة. يقيم أكثر من سبع مئة مسلم وغرباء آخرون في المدينة (ويُقدر عددهم بنحو أربع مئة)، ومع ذلك فلا يؤدي من بينهم صلاة الجمعة أكثر من عشرين شخصاً؛ أما بقية المصلين، وعددهم مئتان تقريباً، فهم من الزائرين القادمين من وراء البحار. وهناك مئتان وخمسون طالباً على الأقل من أبوين مسلمين في جامعة كنساس؛ لا أحد منهم يؤم المسجد. شهدت جاليتنا نحو ثلاثين أمريكياً اعتنقوا الإسلام في غضون خمس عشرة السنة الماضية؛ وقد كفَّ معظمهم تقريباً عن المجيء إلى المسجد بعد اعتناقهم الإسلام بوقت قصير، وارتد منهم ما لا يقل عن عشرة. وتضم المدرستان الثانويتان المحليتان تقريباً ستين طالباً، أحد أبوي كلٍّ منهم مسلم، ولا يؤم المسجد منهم أو يشارك في مناسبات الجالية المسلمة إلا قليل. تعدُّ المساجد التي يديرها المهاجرون أحسن حالاً من تلك التي يديرها طلبة أجانب، ومع ذلك فتتميّز كلها بقلة روادها من مسلمي المنطقة، وندرة روادها من المسلمين المواطنين.

ولما لم تقم علاقة للغالبية الساحقة -من الأمريكيين من سلالة مسلمة- بالمسجد، فإنه لا يوجد أدنى اهتمام بها من قبل المؤسسة الدينية الإسلامية. يشار إلى هذه القضية أحياناً في المطبوعات والمؤتمرات الإسلامية، بيد أن الموضوع لا يلقى من الاهتمام إلا قليلاً، الأمر الذي يوحي بأن المسلمين في أمريكة، إما أنهم لا يدركون هذه المشكلة، أو أنهم لا يأبهون بها. ولولا أني تلقيت استغاثات، خلال سنوات عديدة، من آباء أطفال ارتدوا عن الإسلام، لافترضت أن الجهل أو اللا مبالاة هما سبب الصمت تجاه هذا الأمر، فلماذا نتحاشى هذا الموضوع؟ وبالرغم من طرحي لهذا السؤال مرات عديدة، فإنني لا أعرف الجواب بوضوح، ولكني أعتقد أن سبب الصمت هذا ناجم عن مزيج من الإنكار والجبرية (الإيمان بالقضاء والقدر)، والارتباك، والروح الانهزامية. فبعض المسلمين يرون في حضور حفنة من شباب المسلمين في المؤتمرات الإسلامية دليلاً على أن الأمور كلها بخير، ويؤكد الآخرون أن الله بمعجزة سوف يقلب الأمور رأساً على عقب. ويخجل كثيرون من الآباء من

بحث الصعوبات التي يواجهها أبناؤهم فيما يتعلق بالدين، ويشعر آخرون أنهم مسحوقون ومقهورون، وليس لديهم ما يدلهم على كيفية الرد على هذه المشكلة.

سوف يستمر هرب أبناء المسلمين وأولئك الذين اعتنقوا الإسلام من المساجد ما لم تقرر الجالية مواجهة المسألة بجدية؛ وهذا لا يمكن أن يحدث ما لم تُفهم الأسباب الكامنة وراءها. وبالطبع، ربما يظن بعض الزعماء المسلمين أن الخطأ يقع كله على عاتق المحرومين، الذين يفضلون المتع الزائلة في الثقافة الشعبية على مطالب الحقيقة؛ ولكن ربما يقع الخطأ كذلك على عاتق الجالية؛ لأنها لا تبذل جهداً كافياً للوصول إلى الناس، أو لأنها ترتكب أخطاء فادحة في هذا الشأن. من الواضح أنه لا يمكن إدراك الأسباب الكامنة وراء الخروج من مجتمع المسلمين المولودين في أمريكة ما لم تقم رغبة صادقة في الاستماع إلى شكاواهم، ومع ذلك تبقى عقبات كأداء. ليست المسألة أن يهرع المحرومون إلى المسجد يعللون غيابهم عنه. فلو كانوا مرتبطين بالجالية أو مهتمين بها لما بقوا بعيدين عنها. ويفترض أن يكون لدى أقاربهم فكرة، ولو طفيفة، عن أسباب عدم رضاهم، ولكن ثقافة المسجد، كما ذكرنا آنفاً، هي ثقافة شرق أوسطية، توصف عادة بأنها ثقافة مخجلة، لا يفكر المرء من أبنائها حتى بتهوية غسيل الأسرة القذر. جرت دراسات حول اندماج المسلمين في الغرب، ولكني لم أجد أي دراسة تستكشف بصورة منهجية أسباباً جذرية لبعد الجيل الثاني ومعتنقي الإسلام عن المسجد. ونأمل أن تظهر دراسات وأبحاث من هذا القبيل قريباً.

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب ليس مسحاً لهذه المسألة، لكنه مفعم بظواهر انفصال المواطنين المسلمين عن المسجد. ولأسباب ما، بدأت بعد نشر كتابي (حتى الملائكة تسأل)[1] أتلقى قدراً كبيراً من الرسائل الإلكترونية وغيرها لأشخاص من أبوين مسلمين، وممن اعتنقوا الإسلام، ومن غير مسلمين؛ يطلبون مني الكتابة عن أنواع عديدة من القضايا الدينية. وقد أبدت الغالبية

(١) منشورات أمانا (Amana)، بلتسفيل (Beltsville)، MD، ١٩٩٧. ودار الفكر، ٢٠٠١م.

العظمى في هذه المراسلات شكوكاً بشأن الإسلام، واعترف قسم كبير منها صراحة بعدم إيمانه بالإسلام. وقال عدد منهم: إنهم في طريق التخلي عن الإسلام، أو هم على وشك التخلي؛ وشعر آخرون أن شكوكهم دفعتهم للردة عن الإسلام. وقد صدمت صدمة عميقة بأولئك الذين يكتنفهم الشك؛ فهم يشعرون بالحاجة إلى اختبار الدين، وشعرت كذلك بالقلق والحرج إذ لجؤوا إلي، لأني أحس دائماً بأنني لست أهلاً لهذه المهمة. ووجدت نفسي، بمرور الزمن، أواجه باستمرار بعض الأسئلة، لذلك ابتكرت في حاسوبي الشخصي ملفاً أسميته (Losing My Religion) (ضياع ديني) أجمع فيه الأسئلة وإجاباتي عنها، بحيث أرجع إليها بين حين وآخر. وبهذه الطريقة أصبحت قادراً على استرجاع تأملاتي السابقة حول موضوع ما، إذا برز ثانية في محادثة أخرى. كانت معظم هذه الإجابات قصيرة نوعاً ما، إلا أن بعضها تطور حتى أصبح بحثاً مطولاً. وهذه الإجابات الطويلة تشكل فصول الكتاب التي أُلحق بها أكثر الأسئلة طرحاً، مع الإجابات القصيرة عنها.

قسم كبير من الذين بعثوا برسائلهم تعرضوا إلى علم الدين الإسلامي، الأمر الذي يبدو للوهلة الأولى غريباً؛ لأن الذين هداهم الله إلى الإسلام يؤكدون بساطة العقيدة الإسلامية وتماسكها. ومع ذلك فإن علم الدين هو تنظير بشري بشأن الطبيعة وشرائع الله، ومن ثم فهو غير كامل مهما كان متقناً؛ والواقع أن نزعة المسلمين لتصوير رأي العلماء الأقدمين بأنه الرأي المثالي، هي سبب كثير من الصراع بين الإيمان والعقل الذي يدور في أوساط أصحاب الرسائل، لذلك حاولت في جوابي عن أسئلتهم العقائدية أن أوضح لهم بأن ما أقدمه من رأي ليس هو الحقيقة الخالصة التي لا مراء فيها، بل هو محاولة لإشراكهم في خبرتي عندما سويت الأمر ـ من خلال قراءتي للقرآن الكريم ـ بيني وبين القضايا التي حجبتني ذات يوم عن الإيمان بالله. وهكذا فإني أحاول قدر الإمكان أن أعيد ذلك في الفصل الأول، وهو عن إحياء تجربتي لدى قراءة القرآن أول مرة. وأقول: «إعادة إحياء تجربتي» ولا أقول: «عرضها ثانية» لأنه من المستحيل أن يعيد المرء التجربة ذاتها بعد انقضاء أكثر من عشرين سنة. لذلك فإن الفصل

الأول مبني على ذكرياتي الأولى عن الأفكار العقائدية المطروحة فيه، وكان يساورني أمل في أنه من الأسهل الرجوع إليها لو طرحت في سياقها التجريبي الأصيل.

أما الفصل الثاني[1] فيبحث في أسباب نفور الجيل الثاني من المسلمين ومعتنقي الإسلام من المساجد، التي يكثر ترددها على ألسنة الناس، وفي بعض الاقتراحات العامة، للتغلب على هذه الأسباب.

وكما ذكرت آنفاً، فإن بقية الكتاب تتألف من أسئلة نوعية تتبعها إجابات موجزة. وتجري أحياناً مقارنة بين مقاربتين مختلفتين دون تفضيل إحداهما على الأخرى، لأني شعرت، بكل بساطة، أنه ما من مناقشة تعد ذات فائدة تذكر.

ويتضمن الفصل الثاني كذلك في آخره أمثلة من شهادات مسلمين أمريكيين بشأن صراعاتهم العقائدية. وقد حاولت، بفضل هذه البيانات والأسئلة الشخصية التي تغطي أكثر من ثلث النص، أن أقدم مقطعاً عرضياً لما وصلني من رسائل واتصالات.

إن الهدف الأساسي من هذا الكتاب، كما يدل العنوان، ليس الحديث عن الإسلام بإسهاب، بل مشاركة القارئ بمنظور يتعلق بالغالبية العظمى للجالية الإسلامية الأمريكية، كنت محجوباً عنه. لقد أحبط انفصال المسلمين المواطنين الواضح والمستمر والكلي عن المساجد جميع المحاولات التي بذلها النشطاء المسلمون لإقامة مجتمع إسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية قابل للحياة، ذاتي الدعم. وسيكون إهمالاً مني للعقيدة وتقصيراً بحقها إن لم أشرك المؤمنين الآخرين المهتمين بمضمون الرسائل التي تلقيتها، وإن لم أشرك الناس كافة بهذا المضمون. ولهذا، رأيت أنه من المهم جداً أن أكون صريحاً وموضوعياً، وألا أتحاشى الجدل، إذ إن عرض أي حالة ضد موقف معين أو معه عرضاً

(١) حذفنا الفصل الثاني المتعلق بعلم الحديث للأسباب المشار إليها في مقدمة الناشر، وصار الفصل الثالث بذلك هو الفصل الثاني (الناشر).

ضعيفاً سوف يزيد المرتابين ابتعاداً ونفوراً؛ خاصة إن كان الموضوع لتحدي التقاليد.

إنني أعترف اعترافاً كاملاً بضخامة المشكلة التي يواجهها هذا الكتاب، ولست خير من يتصدى لها، بيد أني أرى أن هذا الكتاب خطوة أولية تنتظر إسهامات من هم أكثر أهلية مني، وهكذا فإن العنوان لا يعكس الأسئلة العديدة التي تعدُّ لُبَّ هذا الكتاب فحسب، بل يعكس هذا الاعتراف أيضاً.



الفصل الأول

ضياع ديني

إننا لا نختار دائماً ذكرياتنا، بل تنساب إلى عقولنا، وتملأ اللحظات الخالية من التفكير.

كنتُ في الثامنة من العمر، أنام في سريري آخر الليل، حينما أيقظني صياح والدي في الطابق الأسفل. رجل ضخم، قوي؛ طوله ستة أقدام، يزن **٢٣٥** باونداً، كتفاه كبيرتان؛ ذراعاه قويتا العضلات، رأسه كبير عريض، وقبضتاه ضخمتان كالملزمة، يفتخر ويلوح بهما أحياناً لأبنائه في أثناء مداعبته لهم. كانت تتقاطع مع صرخاته العميقة المرعدة فتراتٌ قصيرة من صوت أمي المخنوق. حاولت حجب لعناته وتهديداته بدفن رأسي تحت الوسادة، ولكن دون جدوى. فكأن عاصفة عنيفة كانت توقظني في منتصف الليل، لا يستطيع المرء إبعادها، وما عليه إلا الانتظار حتى تنجلي، ويساوره الأمل أخيراً في ألا يكون قد تضرر أحد. أتوسل إلى الله، كما كنت أفعل مراراً، أن يزيح والدي من حياتنا، ويحمي أمي وينقذنا من هذا الكابوس الذي لا ينتهي.

سمعت صوت ارتطام مفاجئ، كأنما دفع أحدهم قطعة أثاث إلى الجدار. قفزت، دون تفكير، من سريري، وهرعت إلى الطابق السفلي، ثم إلى الممر

المظلم تجاه المطبخ. ولدى وصولي إلى مدخله تجمدت في مكاني؛ إذ رأيت أمي على بعد بضعة أقدام ملتصقة بطاولة المطبخ وجسد والدي متكئ عليها. تدير رأسها إلى اليمين وتبعد ظهرها إلى الوراء لاتقاء وجهه الذي لا يبعد عن وجهها سوى بوصات قليلة. وبينما كان يكيل لها الإهانات بصوت هادر ممسكاً ذراعها بقبضتيه الضخمتين، أخذت أفكر بطريقة لإيقافه، وأنا مرعوب، ينتابني الهلع، ألهث بصوت عال لهاثاً ثقيلاً، كصوت مروحة قوية.

يبدو أن والدي أدرك وجودي بالرغم من أنه لم يلتفت فتوقف عن الصراخ وأبقى والدتي محصورة إلى الطاولة. تقدمت خطوة لأرى إن كانت والدتي قد تضررت، فأدارت رأسها نحوي، وتغيرت تعبيراتها بسرعة من لهجة خوف الأم على ابنها إلى لهجة المتماسك القوي، وقالت لي بلهجة موزونة جداً وكأنها رئيسة ممرضات في غرفة الطوارئ «جيف، كل شيء على ما يرام. أنا وأبوك نتحدث فقط. سأكون بخير. عد الآن إلى سريرك». لم أتزحزح، بالرغم من أن لهاثي هدأ قليلاً. فكررت أمي القول: «جيف، لا تقلق. إننا نتناقش في أمر ما، ليس إلَّا. أرجوك يا ولدي أن تعود إلى سريرك».

حرر والدي أمي، وتوجه دون الالتفات إلي نحو خزانة الكؤوس والأكواب. وأجبت أمي بشفتين مرتجفتين محاولاً ألَّا أبكي: «حسناً، أمي» واستدرت عائداً عبر الممر إلى الطابق العلوي.

لم أومن بالله بسهولة. فقد بدأت في سن مبكرة أشك بوجود خالق رحيم حكيم. وغالباً ما كنت أسمع رفاقي يقولون: إنني رفضت المسيحية من أجل الإسلام. ولم يكن الأمر كذلك.

نشأت في مدينة صاخبة عنيفة، في بيت لا يقل عنها صخباً وعنفاً. كان والدي على الدوام متوحشاً مدمراً؛ يحاول أن يكبت غضبه كل ليلة بشرب مفرط للخمر. وإدمانه على الخمر جعله أكثر تقلباً وأسرع إثارة. إذ تراه يضحك ويمزح في لحظة، ويستشيط غضباً في اللحظات التالية. وكان العيش مع والدي كمن يحمل علبة من النيتروغليسرين. كنت أدرك دائماً أن أدنى إثارة غير متوقعة تجعله ينفجر، وعندها لا يهدأ ولا يأوي إلى فراشه إلا بعد ساعات وبعد تناول قدر

كبير من الخمر. عشت وإخوتي الأربعة طفولة قلقة يسودها الرعب. وأسوأ ما كان في حياتنا رؤية والدي وهو يوبخ أمي بطريقة ساخرة مهينة ويهددها.

إن كون الطفل هدفاً لغضب والده لا يعد سيئاً حقاً؛ لأنه لا يفكر حينئذ إلا بنجاته. فعندما يوجه أبوك لكماته إليك أو يرفسك بقدمه طارحاً إياك على الأرض، أو يطاردك في البيت مهدداً: «لأذبحنَّك أيها الولد» فإن كل ما تفكر فيه إذ ذاك هو النجاة. أن لا تفكر -في حمأة الهجوم- بنتائجه أو بما يسفر عنه؛ وعندما ينتهي الأمر فإنك تختلق له الأعذار، لأنك تظن أنك ربما تستحق ذلك، إن لم يكن على ما فعلته الآن فعلى فعلة ارتكبتها في الماضي. أما رؤيتك والدك يهجم على أمك فإن الخوف الذي يتولد لديك يختلف تماماً عن أي خوف آخر؛ لأنها كما تعلم هي المنبع الوحيد للطف والحنان والحب والحماية، ومن ثم، فإذا ما حاول الوالد أن ينهي ذلك كله، فإنك تفقد كل شيء. ومع ذلك، وبغض النظر عن الخوف الذي ينتابك، فإنك تشعر بالإثم يجتاحك من جهات مختلفة. فهناك إثم صادر عن الكراهية التي تنمو فيك تجاه والدك، لأننا تعلمنا أن نحب آباءنا ونحترمهم، وقد وُلدنا مرتبطين بهم ارتباطاً طبيعياً. وهناك إثم صادر عن معرفتك بأنك أنت سبب العنف الذي مارسه والدك ضد أمك. إذ ربما تكون قد أثرت غضبه بطريقة لا تعيها. وربما يكره أن تكون سبباً في إثارة جدال بينه وبينها. أقسى إثم على الإطلاق إدراكك أنك لا تستطيع فعل شيء لمنع والدك من إيذاء أمك. وحرصاً على سلامتك تختبئ في فراشك عندما يصب أبوك جام غضبه على أمك، وبذلك تكون قد استبدلت بالسلامة الشخصية احترام الذات. إنك تعاني مع حادثة كهذه، بل تدرك بوضوح أكبر ضعفك وتخنثك (ضعفك الجنسي) وعجزك، وتفاهتك وجبنك والكره الذي ينمو ويفرّخ في ذاتك ليس فقط تجاه الرجل الذي نسميه (أباً)، بل تجاه نفسك أيضاً. إذ من المريع جداً أن تضع شخصاً ما في الخيار بين نفسه وبين أمه، إنه لظلم فادح.

عندما سرت في جنازة أمي بعد بضع سنين، كان الذين يعزونني يصفونها بالطريقة ذاتها قائلين: «أمك يا جيف كانت قديسة حقاً». ويبدو أن كل من يعرفها يشفق عليها، ويعجب بها لتحملها والدي طيلة تلك السنين التي عاشتها

معه، بكل صبر وقوة ورحمة ومرح. ومع ذلك لم تعدّ نفسها ضحية أبداً، ولم تسع إلى اكتساب عطف أحد؛ لأنها تعتقد أن الزواج الذي عقد مع زوجها عندما كانت في الحادية والعشرين من عمرها زواج مقدس لا يجوز انتهاكه. فضلاً عن أنها كانت تقول دائماً: إنها تحب والدي، الأمر الذي كان من الصعب علي أن أفهمه.

كانت أمي قوية الإرادة واثقة بنفسها تنبض حيوية ونشاطاً. وكان شعارها المفضل «حيث تتوافر الإرادة، تتوافر الوسيلة». وكانت تقول دائماً: كل شيء ممكن بعون الله، وما من أحد ولا من شيء يستطيع تدميرها أو إذلالها.

لقد صدمنا جميعاً عندما أصيبت في السابعة والستين من عمرها بانهيار عصبي. فقد كنا نؤمن بعزيمتها التي لا تضعف ولا تدمَّر. وبعد ذلك لم تعد هي أمنا التي نعهدها، إذ قضت السنوات الست الأخيرة من عمرها تصارع ما وصفه الأطباء بأنه مسٌّ من الاكتئاب. توفي والدي بعدها بسنة.

ما زلت أفتقد أمي افتقاداً موحشاً. فقد كانت لزمن طويل هي الشخص الوحيد الذي أستطيع محبته. كانت أقرب أصدقائي إلي، حاميتي وبطلي الوحيد. كانت كاثوليكية عميقة الإيمان، ممرضة متفرغة وقفت حياتها للآخرين، يحبها الجيران كلهم، وكانت أكثر من عرفت إحساناً وعطاء.

أتذكر كيف كانت تزور بانتظام كبار السن، وفارغي الصبر، وسيئي الطبع، كما نزور جارة إيطالية لتغسل قدميها وتقلم أظافرها. وأتذكر كم كانت تعطف على مرضاها في المشفى، وكيف كان حديثهم عنها مفعماً بالدفء والحب؛ أسمع ذلك عندما كنت آتي وأنا في العقد الثاني من عمري لأصطحبها إلى البيت من العمل. وأتذكر أيضاً كم كانت معلمة وأمّاً عظيمة، وكم كانت صادقة مخلصة أمينة، لم تشتم أحداً، ولم تعامل أحداً بوقاحة قط. وفوق ذلك كله كم كانت تحب أبناءها الخمسة، وكم كانت تشقى لتعيلنا وتوفِّر لنا حياة عادية سعيدة قدر المستطاع بالرغم من التخلف الذي اكتسبناه.

عندما كنت صغيراً كنت أحلم بحياة ليست فيها والدي. كنت أريد أن يختفي

العنف. كنت أريد أن أتخلص من الخوف. كنت أشعر أني وقعت في شرك حلم مزعج لا مخرج منه. لذلك كنت أصلي لله وأدعوه أن يزيح والدي من حياتنا وأن يوقف الألم، ولكنَّ والدي ظل موجوداً دائماً، فشرعت أشك منذ حداثة سني بوجود الله.

لم أستطع أن أفهم السبب الذي جعل الله يحكم على والدتي بالعقاب مدى الحياة. لم أستطع أن أتخيل أي ذنب اقترفت، أو أي ذنب اقترفناه - نحن أبناءها - ليكون جزاءَنا مثل هذا الأب. كنت أفتقر للرشد الذي يمكنني من فرز هذه الأسئلة وتصنيفها بالرغم من أنه كان يمور في نفسي غضب، ويهيمن علي خوف يحفزانني على إثارتها. كنت أصغر من أن أدرك الحكمة التي تجعل أمي تعاني من عنف والدي وسوء معاملته؛ كنت أصغر من أن أفهم لماذا يترك الله أطفالاً يرتعدون خوفاً في فراشهم كل ليلة، يخشون ألا يروا أمهم صبيحة اليوم التالي، كنت أصغر من أن أفهم كيف تشمل رحمة الله وعفوه والدي بكل ما يبوء به من إخفاق ذريع، كل ما كنت أراه في عالمي هو الفوضى والعنف؛ ولهذا كان سهلاً علي أن أشك بوجود الله.

أعتقد أنه غدا من الواضح الآن أن أسأل لماذا لم أجد الله في الكاثوليكية أو في المسيحية؛ لأن صورة والدي المرعبة كانت دائماً تلوح أمامي بيني وبين المسيحية فتحجبني عن الحقيقة التي ربما اكتشفتها. لم أترك المسيحية بسبب أي عقيدة أو لاهوتيات، بل تركتها وتركت الإيمان بالله بسبب الخوف والغضب المنسوجين في فوضى طفولتي وجرحها.

إن الاضطراب الذي حصل في الستينات والسبعينات من القرن العشرين عزز شكوكي وارتيابي. كذلك اغتيال جون روبرت كنيدي ومارتن لوثركنغ ومخازي الرئيس نيكسون ونائب الرئيس أغنيو وسقطاتهما والشغب العرقي، وقتال العصابات الذي تفجر في مدن كمدينتي، ومذبحة فيتنام الغريبة الشاذة التي لا معنى لها.. كل ذلك عزز وثبّت الدرس الذي انغرس في نفسي، وهو أن العالم يسوده عنف عشوائي، غامر، غير مميِّزٍ، فبدأت في وقت مبكر من حياتي أتساءل: لماذا؟

لماذا تجري الأمور على هذه الشاكلة؟

لماذا خلق الله مثل هذا العالم العنيف الناقص؟

لماذا لم يضعنا في السماء منذ البداية ولم يبقنا هناك؟

لماذا جعلنا نزاعين للإجرام، قابلين للفساد والتخريب؟

بما أن الله يريدنا أن نستسلم لإرادته، فلماذا لم يجعلنا كذلك منذ البداية؟

لماذا لم يجعلنا ملائكة، أو شيئاً آخر أفضل إذا كان ذلك ضمن قدرته؟

لماذا جعل الأقوياء يعذبون الضعفاء ويضطهدونهم؟

لماذا يجعل الأطفال الأبرياء الذين لا يلامون يُجرحون جروحاً عميقة لا تمَّحي بعنف لا يلائم تكوينهم؟

كنت أريد أن أعرف لماذا، وأطالب بالجواب. وما كنت أبالي إن جاء الجواب من السماء أم من الجحيم، من ملاك أم من شيطان، من البابا أم من تشارلز مانسون (Charles Manson)، كنت أريد تفسيراً مقنعاً مترابطاً. كنت أريد أن أعرف الحقيقة، لا أكثر.

كنت في السادسة عشرة من عمري عندما قررت ألا أومن بالله، وعلى الرغم من بقائي كافراً إحدى عشرة سنة أو اثنتي عشرة تقريباً، فقد حافظت، كبقية الملحدين، على اهتمامي بمعتقدات الآخرين. لا أريد أن أصف نفسي باحثاً خلال هذه الفترة من حياتي، بالرغم من أني كنت أبحث دون أن أعي ذلك. أظن أني كنت أريد أن أفهم الظاهرة التي اعتقدت أنها خدعتني وخانتني، فهماً أفضل.

وجدت دائرتي الاجتماعية تنجذب بمرور الزمن من منظور ديني إلى منظور آخر. انسقت، في سنواتي الجامعية الأولى، باتجاه زملاء لي ملحدين، ثم باتجاه أصدقاء يهود في أثناء الجزء الأخير من دراستي الجامعية الأولى. كان جل أصدقائي في بداية دراستي الجامعية من البروتستانت، ولكني اقتربت في السنتين الأخيرتين من طلاب هندوسيين وبوذيين جاؤوا من وراء البحار. لم

أتعمد اختيار أصدقائي بناء على خلفياتهم الدينية - بل كان ذلك على ما يبدو عفوياً وعرضياً - ومع ذلك فلدى استرجاعي للأمور بدا لي أنه كان نموذجاً محدداً في صداقاتي.

كنت متطلعاً لمعرفة أفكار الآخرين بشأن الدين، ولكني لم أكن مندفعاً، على ما أعتقد، كان إصغائي أكثر من كلامي. وإذا سُئلت عن معتقداتي، لا أخفيها، ولكن إجاباتي كانت قصيرة وفي الصميم قدر المستطاع. لم أكن أرغب في أن تكون عقيدتي عقبة في طريق صداقاتي، على أي حال، لم تكن غالبية الناس مهتمة بالإلحاد كثيراً.

وبالرغم من أني نادراً ما كنت أنتقد معتقدات أصدقائي، فقد وجدت تلك المعتقدات أقل إمتاعاً وإقناعاً كلما كانت عقلانية ومترابطة، إذ كان الشخص يحل العديد من النزاعات بين الإيمان والعقل بفضل تقليص الفروق بين الله والبشر أو إلغائها؛ فيجعلُ الله أكثر قرباً من البشر، والبشر أكثر ألوهية، ومع ذلك يستخلصون أن الله أو الآلهة غير جديرين بالعبادة، وأن البشر أكثر نبلاً وفضيلة من الله أو الآلهة التي خلقتهم. ومن الأمثلة الصارخة على ذلك الميثولوجيا الإغريقية التي أعتقد أنها أكثر علوم اللاهوت واقعية وصدقاً. فهي تفسر أن الشر والفوضى في العالم قد أوجدهما آلهة أصحاب نزوات يتسلون بصراعنا، ويمارسون الحياة من خلالنا، دون أن يجازفوا بشيء أو يعانوا أي ألم.

كان أصدقائي من اليهود والبوذيين والهندوسيين مرتاحين إلى إلحادي، أما بعض أصدقائي المسيحيين فلم يكونوا كذلك، وكانوا يشعرون أحياناً أنه لابد من الإفصاح عن موقفهم هذا. وكان ذلك يقود في بعض الأحيان إلى مجادلات حادة. وعندما كان يحصل ذلك كنت أعود إلى طرح أسئلتي الأساسية التي كنت أطرحها في أثناء طفولتي، وهي: لماذا خلقنا الله عنيفين ومخربين، وذوي نزعة قوية للشر؟ لماذا لم يضعنا في السماء منذ البداية بطبيعة غير قابلة للغواية. لماذا منحنا عقلاً إذا كان له أن يتصارع مع الإيمان؟

التحقت عام ١٩٨٢ عندما كنت في الثامنة والعشرين من عمري بأعضاء الهيئة التدريسية لجامعة سان فرانسيسكو (USF)، أقدم جامعة يسوعية في

أمريكة. وبعد وصولي هناك بوقت قصير كونت صداقة حميمة مع أسرة مسلمة من السعودية. كانوا طلاباً ثلاثة في الجامعة: محمود، وعمر، وراجية قنديل - أخوان وأخت - كلهم في مطلع العشرينات من أعمارهم.

بالرغم من أني كنت لا أعرف عملياً شيئاً عن الإسلام، لكني كنت أفترض - ولا أدري لماذا - أن الدين الإسلامي، أكثر أديان العالم خرافة. بدأت أتفحص فكرتي المسبقة هذه بعد أن جرت أحاديث مع أصدقائي الجدد. كانت أفكارهم الدينية تتبع ميثولوجيا محددة وأساساً منطقياً معيناً، ووجدت، بالرغم من أني لا أستطيع استرجاع ما قالوه، أن عقيدتهم ليست أتفه من غيرها.

سألني أصدقائي هؤلاء، في أثناء حديث جرى بيننا، عن عقيدتي الدينية، وعندما أخبرتهم أنني لا أومن بالله، وبيَّنت لهم الأسباب باختصار لم ألحظ عليهم أي رد فعل سوى محمود، فإنه قال شيئاً مفاده أن الدين يتعارض مع العقل، ولذلك يجب أن يقبل عن طريق الإيمان. لم يكن محمود، بالطبع، هو أول من قال لي ذلك، فكنت أسمع مثل هذا القول طيلة حياتي.

وبما أني كنت كثيراً ما أضيع مفاتيحي كنت أترك باب مكتبي في جامعة سان فرانسيسكو غير مقفل. وكثيراً ما كنت أجد على طاولتي عندما أدخل ملاحظات وواجبات مدرسية تركها لي الطلبة. وبعد أن أخبرت أبناء قنديل عن إلحادي بيوم أو يومين، وجدت على مكتبي كتاباً سميكاً ذا غلاف أخضر، كتب على غلافه (القرآن الكريم). فزعت واضطربت بادئ الأمر، إذ عرفت أنَّ أحد أبناء قنديل قد وضعه هناك، ولكني تساءلت لماذا وضعوه، وما الذي يريدون قوله؟! ظننت أنهم كانوا يحاولون إدخالي الإسلام، وأنهم يريدون القول: «إذا ما كان لصداقتنا أن تستمر فلابد أن تعتنق الإسلام». ومع ذلك، كنت كلما فكرت في الأمر أدركت أني كنت أبالغ. فأولاً، لم يكن أبناء قنديل متدينين باعترافهم هم. وتأكد ذلك لي من واقع أن حياتهم التي كانت متناقضة مع كثير من الأنظمة الإسلامية التي كانوا يتحدثون عنها. وثانياً، كان لهم أصدقاء كثيرون من غير المسلمين، ولم يظهروا أي اهتمام بفتح حديث معهم حول دينهم. وثالثاً: عندما كنا نناقش دينهم كنت أنا الذي أفتح الموضوع. فاستنتجت

أن تقديم كتابهم لي كان بريئاً، لظنهم أنه إن كان لدي أسئلة تتعلق بدينهم فلابد لي من أن أقرأ كتابهم. وهذا معقول لأنهم كانوا يعانون صعوبات في أثناء تعاملهم مع أسئلتي.

هل أنت تتحدث إلي؟

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢]، أحسست برعشة تنتابني عندما قرأت هذه الآية. أخذت أفكر في نفسي: هل أنت تخاطبني؟

كنت ما أزال في الصحيفة الثانية من القرآن، حين تشكل لدي إحساس، أخذ يتكرر كلما سرت قدماً في قراءةِ النص. ففي الصحيفة السابقة من الكتاب نجد السورة الأولى (الفاتحة) التي هي أساساً دعاءٌ للهداية، ونصها: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ١/١-٧].

في الصحيفة الثانية، في بداية السورة الثانية، يجيب الله نفسُه القارئَ ويبين له أن الهداية التي دعا لها قبل قليل هي بيديه. ففكرت، إذن أنت تقول: إن الهداية التي دعوت للحصول عليها موجودة في هذا الكتاب. نظرت مرة أخرى إلى الآية الثانية: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢/٢].

فقلت لنفسي: «يا لها من طريقة أصيلة ملائمة لعرض الوحي!!» فبدلاً من سرد تاريخ شعب، أو سيرة معلم عظيم، أو مجموعة من أقوال نبي، قام مؤلف الكتاب الذي افترضت أنه محمد بوضعه على صيغة خطاب مباشر من الله إلى البشر. فاعتقدت أن هذا هو بالضبط ما نتوقعه من وحي إلهي؛ وكأنه الوصايا العشر وُسّعت حتى صارت كتاباً.

وكنت كلما تقدمت في القرآن ازداد احترامي لمهارته، لقد تأثرت بوجه خاص بالطريقة التي تجعلني أكرر الإحساس الذي تحدثت عنه آنفاً بيد أنه- على المستوى الأعمق- تولد لدي شعور غريب بأن القرآن كان يخاطبني فعلاً؛

في الفكر والروح، بل أكثر من ذلك، ولكني أفتقر للكلمة التي تعبر عن هذا الشعور. تبينت أن المؤلف قد أدخل إلى النص عدداً من المقاطع يعلم أنها ستثير أسئلة وردود فعل معينة لدى القارئ، ومن ثم يجيب على ردود فعله المتوقعة سلفاً في مقاطع تالية. إن مقدرة القرآن هذه في إشغال القارئ بحديث ذهني وروحي - أو كما قال فريدريك دِنِي (Fredrick Denny) «قدرته على قراءة القارئ»[1] - تمنحه طاقة نفسية هائلة، وهذا، على ما أعتقد، هو سبب حماس المسلمين الديني المعروف. أحسست أنه لابد أن يكون المؤلف ذا بصيرة نافذة في الطبيعة البشرية، خصوصاً وأن مقدرة القرآن المتأصلة فيه ما زالت- من وجهة نظري وبفضل خبرتي- قوية جداً بعد أربعة عشر قرناً من ظهوره أول مرَّة.

تلخص الآيات التسع والعشرون من السورة الثانية موضوعات القرآن الكبرى ببلاغة وفصاحة نادرتين؛ هذه الموضوعات هي: حاجة الإنسان إلى التسليم الذاتي لله، ونبوة محمد، واليوم الآخر، واستخدام القرآن الرمزية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٦]، وبعث الإنسان، وسيادة الله المطلقة. وتصف هذه الآيات كذلك المستمعين المحتملين للكتاب. القراء الذين هم أكثر استفادة من القرآن هم المؤمنون المخلصون. والقراء الأقل انتفاعاً بالقرآن هم مُغلقو العقول الرافضون للقرآن. وفيما بين الفئتين الأدعياء والمخادعون (المنافقون)، الذين يدعون الإخلاص في الإيمان ولكنهم يضعون مصالحهم الدنيوية والذاتية فوق الإيمان. هؤلاء لا ينتفعون من قراءة القرآن ما لم يغيروا بنيتهم الفكرية.

من حيث الشكل لا تختلف مقدمة القرآن عن مقدمات كثير من النصوص التعليمية، التي تصف محتويات الكتاب والشروط اللازمة لتعلمها.

---

(١) فريدريك دِني، الإسلام (نيويورك هاربر و رو، ١٩٨٧)، ص ٨٨.

إنك تحدثني

تعرض الآيات ٣٠ - ٣٩ من السورة الثانية (البقرة) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ حكاية الرجل الأول والمرأة الأولى، وتتصف هذه الحكاية بميزة خاصة بها بالرغم من أنها تشترك في كثير من التفاصيل مع رواية الكتاب المقدس. قمت بمسح هذه الآيات مرات عديدة، ولكني لم أستطع أن أفهم تماماً ما الذي يحاول هذا الكتاب أن يصل إليه. وبدا لي كأنه يقول شيئاً عميق الأغوار، أو أنه مضطرب. فقررت أن أقرأ النص ببطء، وعناية فائقة، سطراً سطراً، لأرى ما إذا كان في جملته يعرض رؤية متماسكة ومترابطة.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠].

فاجأتني الآية الثلاثون من سورة البقرة هذه، ليس لأنها تبدأ بقصة رمزية تتعلق بأول رجل وأول امرأة، بل بالطريقة التي تعرض بموجبها هذه الحكاية. وعندما قرأتها هذه المرة، شعرت أني وحيد (معزول) وكأن مؤلفها دفعني جانباً، وألقى بي في فضاء خال صامت كي يحدثني وحدي مباشرة.

تساءلت بادئ ذي بدء ما إذا كان المؤلف قد سمع بحكاية آدم وحواء التقليدية خطأً أو أنه أساء فهمها، لأن هذه الآية تنفي مغزاها وجوهرها. ولكن بعد أن قرأت الآية للمرة الثانية والثالثة والرابعة بدأت أدرك أن المؤلف قد غيَّر ترتيب تفاصيل الحكاية القديمة أو عدَّلها.

مسرح أحداث الآية هو السماء حيث يعلن الله للملائكة أنه سيضع إنساناً على الأرض ليمثله هناك: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. فاعترضت قائلاً لنفسي: لقد أخطأ، فالبشرية لم توضع في السماء لتقوم بوظيفة إيجابية؛ بل وضع البشر على الأرض عقوبة لهم على خطيئة آدم. ومع ذلك فليس في هذه الآية أيُّ إشارة إلى أي خطيئة ارتكبها آدم أو ارتكبتها حواء، والآيات التالية تبين أنه لم تُرتكب أي خطيئة بعد.

إن الملائكة هم الذين اعترضوا قائلين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ويبدو أن الملائكة هم الذين يريدون إرجاع الحكاية إلى معناها التقليدي - إلى الحكاية التي نشأت على سماعها. فسؤالهم في الأصل كان: لماذا تخلق أكثر المخلوقات عنفاً واقترافاً للذنوب؟ لماذا تضع على الأرض من يحدث فيها خراباً ودماراً؟ ويكتسب هذا السؤال قوة أعظم، لأنه طرح في السماء. لأن الله كان على وشك أن يصنع بشراً من أكثر المخلوقات نقصاً في بيئة يبدي فيها أسوأ دوافعه الإجرامية، ويتصرف تحت وطأة وهم كونه بعيداً عن الله. وبعبارة أخرى كان السؤال: لماذا يخلق الله هذه الأنواع الفاسدة ويضعها على الأرض، في حين أنه قادر على جعلها ملائكة تكون في السماء؟

كان هذا هو سؤالي!! هذا هو اعتراضي!! لقد غُلّفت حياتي كلها في هذه الأسطر الثلاثة أو الأربعة!! شعرت وكأن القرآن يعبثُ بعواطفي، يتلاعب بهذه الحكاية ليستفزني. ولكي تسوء الأمور أكثر، يجيب الله الملائكة قائلاً: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وكأنه يقول: «أنا أعرف ماذا أفعل تماماً».

فصرخت في عقلي: لا، إنك لا تستطيع أن تفعل بي ذلك. إنك لا تستطيع

أن تأخذ أذيتي وغضبي وحياتي، وتضعها كلها أمامي وتقول لي: إنك تعرف ما تفعل!! لا يمكنك الإفلات من ذلك بسهولة، أنت صنعتني على هذه الشاكلة.

ثم لمعت في ذهني فكرة، هي أني كنت أشكو لله الذي لم أومن به بعد.

افتح عينيك

بعد أن طرح الملائكة سؤالهم مباشرة كان من المفروض أن يعود المؤلف إلى رواية الكتاب المقدس التقليدية لتكتمل الحكاية. فعند تلك النقطة كان بإمكانه أن يجعل الله يجيب الملائكة بقوله: «نعم، أنتم أيها الملائكة محقون في وصفكم للطبيعة البشرية، ولذلك سأعاقب بني البشر بأن أجعل هذين الزوجين وسلالتهما كلها يعانون في الأرض عندما يقع هذان الاثنان في الخطيئة حتماً». ومع ذلك لا يعد هذا جواباً كاملاً على سؤال الملائكة، لأنه لا يوضح في المقام الأول السبب الذي من أجله خلق الله هذا الكائن الفاسد، ولكنه على الأقل يعود إلى فكرة أن الحياة على الأرض عقوبة على الخطيئة البشرية وليست فرصة لنا، لنكون ممثلين لله على الأرض.

لقد بدا لي على الفور أن للقرآن برنامجاً آخر، وأن له رؤية ورسالة مختلفتين كلياً. فبدلاً من أن يعود إلى الخطوط التقليدية، فإنّه يبدأ جوابه على سؤال الملائكة بالتركيز على ذكاء الإنسان ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣١-٣٤]، ومن ثم على الخيار الأخلاقي ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٥-٣٦]، وأخيراً على الهداية الإلهية ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ

كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٧-٣٩].

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣١].

تذكرت أن آدم، بموجب الكتاب المقدس، سمَّى المخلوقات التي حوله، ولكن ذلك لم يرق إلى أن يصبح جزءاً من تعليل صنع البشرية وخلقها. لقد بدأ القرآن، على أي حال، جوابه عن سؤال الملائكة بلفت الانتباه إلى هذه النقطة.

تعجبت للطريقة التي يجمع فيها هذا الكتاب هذا القدر الكبير من المعنى في كلمات قليلة. ولنلاحظ أن آدم لم يُسَمّ الأشياء المحيطة به فحسب، بل إن الله علَّمه، الأمر الذي يؤكِّد على مقدرة الإنسان على التعلُّم، وعلى ذكائه، ولنلاحظ أيضاً ما يتعلمه آدم. إنه يكتسب القدرة على تسمية كل الأشياء، وعلى وضع رموز لفظية لما يدركه كله، ولأفكاره جميعها، وخبراته، ومشاعره. ويؤكد القرآن على موهبة اللغة من دون مواهب الإنسان الأخرى، لأنها على ما يبدو هي الأداة الفكرية المتطورة جداً التي تميز الإنسان من بقية المخلوقات الأرضية. فبفضل اللغة ينمو بنو الإنسان، أكثر من أي موهبة أخرى، ويتقدمون ويتعلمون فرادى وجماعات، لأنها تزودنا بوسيلة التعلُّم ممن لا صلة لنا بهم، بما في ذلك الأشخاص الذين يعيشون في زمن غير زماننا وأمكنة غير مكاننا يتلقون تعليماً غير تعليمنا، الأمر الذي يضفي على التعلُّم البشري (الصفة التراكمية) المتفوقة[١].

---

(١) قال محمد أسد في تعليقه على (سورة العلق) في كتابه (رسالة القرآن)، دار الأندلس، جبرالتر، ١٩٨٠، ص ٩٩٣، الحاشية ٣: إن القرآن يؤكد مراراً وتكراراً على هذه النقطة. ويبرز مهارات القراءة والكتابة بصورة خاصة ويصفها بأنها من أعظم المواهب الفكرية التي منحها الله للإنسان. انظر على سبيل المثال ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٩٦/ ١-٥].

إذن وضع الله الأشياء التي سماها آدم أمام الملائكة، ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾. وتبين هذه الآية بوضوح بروز الذكاء البشري في الجواب عن سؤال الملائكة. إذ سأل الملائكة لماذا يخلق الله مثل هذا المخلوق العنيف الضار؟ في حين أنهم، حسب رأيهم، أسمى من الإنسان وأكثر تفوقاً، لأنهم مستسلمون كلياً لإرادته، يمجدونه ويسبحونه ويقدسونه. أما القرآن فيقول في هذه الآية وما يليها مباشرة: إن للبشر سمات أخرى، من بينها الذكاء، تشكل الإنسان، وهي عند الله أعظم من سمات الملائكة، بصورة كامنة على الأقل.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٢].

اعترف الملائكة بعجزهم عن مواجهة التحدي. فهم يفتقرون إلى الأهلية الفكرية التي تمكّنهم من ابتكار رموز ومفاهيم لما يشهدونه. ويشرحون ذلك بأن مثل هذه الأهلية تتطلب ذكاء (معرفة وحكمة) بعيدة عن منالهم. واعترفوا أن هذه المهمة هينة لله لأنه هو (العليم الحكيم)، أما الملائكة فهم يفتقرون إلى مثل هذه الصفات.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٣].

نجح آدم حين أخفق الملائكة مبيناً ذكاءه المتفوق عليهم. وعلى الرغم من أنّه (آدم) لا يمتلك حكمة الله وعلمه، لكنه وهب من الحكمة والمعرفة أكثر مما أعطي الملائكة.

بدأت أعتقد أن المؤلف ما أساء فهم صيغة الكتاب المقدس لهذه الحكاية، بل كان يعيد سبكها ليجعل لها معنى أصيلاً. فيقول: صحيح أن الله خلق في الإنسان القدرة على ارتكاب الخطأ، ولكنه منحه صفات أخرى، لم يستطع الملائكة فهمها ولا تقديرها حق قدرها، وهذا يلائم تصحيحاً أبعد منالاً، ولذلك يقول الله: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ولم ينته هذا السؤال الموجه إلى الملائكة، عند هذه النقطة بل استمر.. ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾.

فتساءلت في نفسي: «ما الذي يخفيه سؤالهم؟» إن ما كشفه سؤالهم كان واضحاً. لقد كشف النزعات التخريبية الشريرة عند البشر، ولكن ما الذي أخفاه؟

ثم خطر لي أن الملائكة أكدوا على جانب واحد من جوانب الشخصية البشرية، وهي قدرته على ارتكاب عنف شديد وخطأ جسيم، ومع ذلك كان الملائكة يجهلون، مثلي، الجانب الآخر من الطبيعة البشرية. صحيح أن بعض الناس يستطيعون ارتكاب أخطاء فادحة، ولكن آخرين يستطيعون فعل خير عظيم. وبعض الأفراد قادرون على التضحية بالنفس، وعلى القيام بأكثر الأعمال عدالة ونبلاً، وأوسعها إحساناً وكرماً، وأشدها دفئاً ولطفاً. ويستطيع ناسٌ أن يبدوا أعلى درجات الرحمة والعطف تجاه أقرانهم البشر. ومع ذلك، كان مثلي كمثل الملائكة، لم أفكر بهذا. إذ كنت لا أرى، لزمن طويل، سوى الجانب المظلم من الشخصية البشرية. صحيح أن بعضنا يمكن أن يكون مدمراً جداً، ولكن في الناس من يمكن أن يكونوا خيرين جداً ولطفاء، ونحن نعرف نماذج عظيمة من كلا الاتجاهين. وغالباً ما يظهرون على مسرح الدراما البشرية ذاته، لأن ظهور أحدهما يحفز ظهور الآخر. ويبدو أن الخير عند بعض الناس ينتج الأسوأ، وأن الشر عند بعضهم ينتج الأفضل. لذلك يمكن أن ينشأ الخير والشر من المحيط نفسه والظروف ذاتها، وأحياناً يتعايشان في البلد نفسه والمدينة نفسها، أو في المنطقة المجاورة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٤].

لو كان لدي أدنى شك في أن القرآن يعدّ الشخصية البشرية أعظم من الشخصية الملائكية، فإن هذه الآية قد أزالت كل شك. فعندما نجح آدم وأخفق الملائكة قال الله لهم: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ فسجدوا مظهرين اعترافهم بتفوقه. والسجود رمز للخضوع، وهكذا يبدو أن القرآن الكريم يشير إلى أن الملائكة سيخدمون البشر في تطورهم ونموهم على الأرض.

ومع ذلك، رفض إبليس (الشيطان) أن يسجد، وبرفضه يبين الله أن أصل نشوء الخطيئة. فليس أصل الخطيئة- كما في القرآن- هو المال أو الطمع، أو

الشهوة، بل الكبر الزائف المدمر للذات. وهكذا يُدخل القرآن الشيطان، عنصراً رئيساً آخر إلى الدراما وإلى جوابها على سؤال الملائكة الأصلي: ولكن لماذا؟ ما سبب الحاجة إلى الشيطان؟ لماذا يخلق الله مخلوقاً مهمته الوحيدة إبعاد الرجال والنساء عن فعل الخير؟

حتى هذه النقطة نجد أن القرآن قد جمع عناصر جواب ذكي عن سؤال الملائكة. أما الآن فقد بدا لي أنه بدأ يعود إلى حكاية الكتاب المقدس: الشيطان يغوي الإنسان، يرتكب الإنسان الخطيئة فيحكم على الإنسان ونسله كله بالعيش على الأرض. ومع ذلك وعدت نفسي أن أُبقي عقلي مفتوحاً، ولا أقحم تفسيراتي غير اللازمة للكتاب. سأعطيه فضيلة الشك. فسألت نفسي: «ما غاية الشيطان؟».

لكل ثقافة معتقداتها المتميزة من غيرها بشأن الشيطان، ولكنه في الأيديولوجيات الدينية كلها يلعب دور المضلل، المغوي الخفي الذي يسرب إيحاءات شريرة إلى أفكارنا. وكما أن الملائكة، بالنسبة إلينا، هم مصدر الحوافز الشهمة الخيِّرة، فإن الشيطان يحثنا على ارتكاب الخطأ، نعتقد أنهما كليهما صوتان متعارضان في عقولنا عندما نتصارع مع معضلة أخلاقية.

فتساءلت في نفسي: هل الأمر هكذا؟ هل يقول القرآن: إنه بالإضافة إلى موهبة الذكاء التي منحنا الله إياها، قد جعل كلاً منا كائناً أخلاقياً، يفهم الصواب والخطأ؟ هل يقول القرآن إن الله زودنا كذلك بإلهام ملائكي وإغواء شيطاني ليعزز من وعينا الأخلاقي[1]؟ هل القرآن يبرز أهمية كوننا مخلوقات نستطيع، بل يجب أن نمارس خيارات أخلاقية؟ على الرغم من أني لم أستطع إدراك أي غاية منطقية يخدمها هذا التكوين، فإني كذلك لم أستطع أن أرى كيف يخالف هذا ما عرضه القرآن حتى الآن. ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٥].

---

(١) لقد تأكدت هذه الفكرة في عدد من النصوص، مثل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩١/ ٧-١٠].

ما أزال أفقد ثقتي بالكتاب. فعلى الرغم من البدايات الرائعة فإن القصة، على ما يبدو، تعود إلى نسخة الكتاب المقدس: آدم وحواء يأكلان من الشجرة ويعاقبان بالحياة على الأرض. ومع ذلك فهناك أمر غريب في هذه الآية، ففي حكاية الكتاب المقدس يبدو الله غاضباً من آدم وحواء اللذين تحدياه فأكلا من الشجرة، لأنها شجرة المعرفة والخلود، فإذا أكل منها البشر يصبحون آلهة وينافسون الله.

أما في هذه الآية فقد خاطب الله آدم برحمة وعبارات جليّة ليس فها ما يوحي بأنه سيكون للشجرة أثر كبير في آدم وحواء. بل يبدو أن الشجرة قد اختيرت عشوائياً، وسوف يبين القرآن فيما بعد أن الشيطان هو الذي أغوى الزوجين بقوله لهما: إنهما إذا ما أكلا من هذه الشجرة فسيخلدان، ويكون لهما مملكة لا تزول: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٠-١٢١].

ولكن صفة الشجرة هذه اختلقها الشيطان من عنده. إذ لا تدل أي إشارة على أن الله كان قلقاً من عصيان الزوجين له، بل يخبرهما فقط أنهما إن أكلا منها، فإنهما يقترفان خطأ.

لابد لنا، في ضوء الآيات السابقة، أن نستخلص أن الزوجين قد ارتكبا خطأ في النهاية. فلماذا جعل الله الإنسان كائناً أخلاقياً خاضعاً للإغواء؟ كل ما حكته لنا القصة حتى الآن، بدءاً بطرح الملائكة لسؤالهم حتى ظهور الشيطان، يوحي بأن الله يعلم أن الزوجين سيخطئان، وأنه خلقهما على هذه الشاكلة عمداً.

كذلك لا نعلم إن كان هذا هو الأمر الأول الذي أصدره الله للزوجين. لم يخبرنا القرآن بذلك. ربما تكون أوامر قبله. وكل ما نعرفه أن هذا هو الأمر الأول الذي يعصيانه. ولا أدري إن كان مغزاه الحقيقي الوحيد هو أن يكون هذا هو أول اختيار مستقل يمارسه الزوجان فيها وهي المرة الأولى التي يختاران،

أن يفعلا غير ما أخبرهما به الله. ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٦].

كنت، لدى وصولي إلى هذه الآية، على وشك إغلاق القرآن وتنحيته جانباً إلى الأبد، لأنني اقتنعت بأنه قد ترك مساره الأولي، وعاد إلى الموضوع التقليدي الذي مفاده أن حياتنا في الأرض عقوبة تقوم أساساً على خطيئة آدم وحواء. ولكن الصياغة الذكية الحصيفة لها أدخلتني في لغز وحيرتني. إذ لم تشر الآية إلى أعظم خطيئة في تاريخ البشرية، الخطيئة التي يعاني بسببها جنس البشر كلهم من الآلام ويواجهون الصعاب والموت، بوصفها مجرد (زلة)؟

إن كلمة (Slip) الإنكليزية التي هي ترجمة لكلمة (زلة) العربية لا تعني أكثر من فقدان آني للتركيز، انزلاق مؤقت لموطئ القدم، خطيئة صغيرة بسيطة لا يترتب عليها نتائج هامة أو خطيرة. فظننت في البداية أن الترجمة خاطئة. ولكنني اكتشفت أن كلمة (زلة) العربية تعطي المعنى نفسه. فسألت نفسي: كيف يكون ذلك، ألم يدرك المؤلف فداحة خطيئة آدم وحواء؟

فعدت وقرأت هذه الآية وما قبلها عدة مرات. ثم خطر لي ما يأتي: هل ارتكب الزوجان جريمة خطيرة إلى هذا الحد؟ ربما أنا ممن لا يستطيعون التخلي عن التفسير التقليدي. ربما كنت أقاوم رسالة القرآن. ولكنهما، بعد ذلك كله، لم يقترفا جريمة قتل أو اغتصاب، أو زنى، أو هجوم!! فلا يعدو الأمر أنها شجرة، ليس إلَّا!!

فتبين لي أن وصف هذه الخطيئة بـ (زلة) مناسب جداً، وهذا يفسر لهجة النص الهادئة، فبدلاً من أن يقول النص للزوجين إنكما ستعانيان معاناة قاسية على الأرض، يقول لهما: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾. ليس في هذه الكلمات أي نغمة غضب أو توبيخ من الله. صحيح أن الله يقول لهم - للبشر أجمعين على ما يبدو - وربما للشياطين والملائكة كذلك ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، ولكن سؤال الملائكة في الآيتين ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى

ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠] و ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٤] من سورة البقرة قد توقع هذه الحالة مسبقاً.

كنت مهتماً كذلك في بيان أن (الزلة) هذه أدت إلى خروجهما من الحالة التي كانا عليها. فأي حالة تلك التي خرجا منها؟ كل ما يكشفه النص هو أنهما لم يعودا في حالة الامتثال التام لإرادة الله، أي أصبحا الآن قادرين على اختيار الخطأ والصواب على حد سواء. ولكن هل هذه الحالة إيجابية؟ كيف يمكن لتلك الحالة أن تساعد الرجال والنساء على أن يتصرفوا على الأرض ممثلين لله؟ يمكنني - في الغالب - أن أجيب عن هذه الأسئلة ولكني لا أستطيع جمع أجزاء الإجابات وتأليفها معاً. فهناك أسئلة أخرى كثيرة جداً تندفع إلى ذهني، وهناك أجزاء كثيرة جداً للأحجية.

ظل الشك يتسلل إلى أفكاري، أيضاً، ربما أكون كريماً جداً مع القرآن، مانحاً إياه الكثير من منافع الشك. ربما تصور هذه الآية الحياة على الأرض عقوبة للبشر. وربما يقص القرآن علينا حكايتين متناقضتين بآن واحد. وربما لم يستطع المؤلف أن يفرز أي رسالة يريد إيصالها إلينا.

شعرت أن الآيات القليلة التالية ستحسم الأمر. فإن صوَّرت الله غاضباً منتقماً ومعاقباً يكون القرآن قد ابتعد عن حواره الأصيل في رده على سؤال الملائكة. وإن لم تُصوره كذلك، فإنه يتوجب عليَّ عندئذ إعادة النظر في تفكيري.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٧].

إن لهجة الآية بعيدة عن الإدانة وتؤكد على رحمة الله وعفوه. وتدل الآية التالية على أن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه هي كلمات عزاء وأمل: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٨].

ترسم هاتان الآيتان صورة ودية تعاطفية؛ أُرسل الزوجان إلى الأرض ليشرعا في إقامتهما الأرضية. ولا بد لنا من الافتراض أنهما مفعمان بالندم على ما فعلا، ويعتريهما الخوف من حياة في بيئة لا يألفانها. فيلتفت الله إليهما ليحيطهما بالعفو والرحمة، وليطمئنهما بأنه سيرسل لهم (آدم وحواء وذريتهما) هداية من السماء لئلا يخشوا شيئاً إذا ما اتبعوا تلك الهداية، تماماً كما يواسي الأب أو الأم ابنهما بحنان، يقول الله لهم: «أنا أعرف أنكم خائفون، وأعلم أن تلك الحياة صعبة عليكم، ولكن ستكونون بخير. إذ سأكون معكم أهديكم باستمرار. وما عليكم إلا أن تفتحوا أعينكم وآذانكم وقلوبكم على آياتي الكثيرة، وعندئذ لن يكون ما تخشونه».

وهكذا نرى أن الله يعفو عن الزوجين، ويساعدهما. ولكن نتساءل مرَّة أخرى، لماذا لم يعدهما إلى الجنة؟ لنفرض، على سبيل المثال، أن ابنتي أخطأت فحسمت من مصروفها خمس دولارات عقوبة لها على خطيئتها. ولنفرض أنها اعتذرت لي بعد ذلك وسامحتها، ولكني قلت لها سأظل أحسم الدولارات الخمس من مصروفك، فسيكون ردها الطبيعي، ولكنك عفوت عني، ومع ذلك ما زلت تعاقبني!! احزم أمرك. وهكذا، إذا كان الله قد عفا عن الزوجين، فلماذا يتركهما في الأرض؟

جاءني الجواب بسرعة ورود السؤال إلى ذهني: لأن الحياة في الأرض، حسب مفهوم القرآن، ليست عقوبة. إذ يؤكد الله منذ بداية الحكاية أن لوجودنا في الأرض غاية أعظم. فظلت الحكاية مترابطة منسجمة ما دمت محتفظاً بهذا الرأي. ولنلاحظ أن القرآن يكرر بيانه: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ ولكنه هذه المرة يحيط العبارة بخطوط تؤكد عفو الله وعزاءه وتطمينه لهما. وكأن الكتاب يقول لي آخر مرة: «لم يضعك الله على الأرض ليعاقبك».

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٩]. ما الذي جعله يقول ذلك؟ أحسست بدفقة من السخط والنقمة، كنت معجباً بمقاربة القرآن الذكية، وإذ به يلجأ إلى أسلوب الترهيب. فقلت لنفسي شاكياً:

تلك ضربة تحت الحزام، ومع ذلك صممت على الاستمرار بالقراءة دون تهديدات، ولو من باب الفضول. لقد تلقيت التهديد في حياتي بما فيه الكفاية ولم تسفر تلك التهديدات إلا عن مزيد من المقاومة والاشمئزاز. ربما يستطيع القرآن تهديد الآخرين، أما أنا فلن أخاف. سأستمر بتحليل هذا الكتاب صحيفة صحيفة، وسطراً سطراً.

ربما أكون قد انزعجت من هذا البيان، بيد أن تاريخي القصير مع الكتاب علمني أنه عندما يغضبني نص ويثيرني، فإنه غالباً ما يتضمن دليلاً هاماً على وجهة نظره. فعندما نظرت إلى هذه الكلمات عن كثب، وجدت، مرة أخرى، أن الصياغة محيرة. فحتى هذه النقطة من الحكاية كان القرآن يروي حكاية آدم وحواء، وقصة بداية تجربتهما على الأرض. أما هذه الآية، فتحمل القارئ، بفضل الانتقال المفاجئ إلى صيغة الماضي، إلى المستقبل البعيد، إلى خلاصة الدراما البشرية في الآخرة حيث تعيد عرض حالة أولئك الذين رفضوا وجحدوا بآيات الله وهم في الأرض. إنه ابتكار بالغ الذكاء لأن البيان ينهي حديث الله مع الزوجين الأولين حول العزاء والعطف، وفي الوقت نفسه يطرح تحذيراً للقارئ في الآية التالية دون أن يحدث ذلك انقطاعاً في انسياب الأفكار.

لنفرض، جدلاً وجود إله حقاً. فهل يرفض أي امرئ آياته عن علم ويكذبها، أو أن الناس لا يدركونها بسبب غموضها؟ هل يرفض الناس عن وعي ما يشعرون أنه حق؟ هل يتعجلون في عقولهم ما يحسون أنه صحيح؟ هل يخالفون ضميرهم عناداً؟

قلت لنفسي - طبعاً -: نعم إنهم يتعجلون، وأنا كذلك. فكم من مرة أنكرت الحقيقة وتلاعبتُ بها لأنغمس في رذيلة شخصية؟ وكم من مرة سوغت أفعالاً تبدو بوضوح وجلاء أنها مدمرة ومحطمة للذات، رافضاً أن أعترف بأخطائي حتى لنفسي؟ وحتى إذا كان استمراري فيما أشعر أنه خطأ يجعلني خاوياً، جاحداً، قلقاً، فإني أركب رأسي وأتابع السير في الطريق نفسها. فقلت

لنفسي: إذا كان الله موجوداً، فإني بالتأكيد قد تجاهلت آياته، ولكن (إذا) هذه كبيرة.

كما صعقتني عبارة (أصحاب النار) لأن الصاحب هو العزيز علينا، وهو من نسعى إلى صحبته. فهل يقول القرآن إن هناك من الناس من يسعون إلى شقائهم الذي سيعانونه في اليوم الآخر ويتوددون له؟ وعندما يقول القرآن: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فهل يلمح إلى أن جهنم التي سيدخلونها في الآخرة قد بدأت، بمعنى من المعاني، في حياتهم الدنيا؟ حتى وإن تدفقت مئات الأسئلة إلى ذهني، ولم أستطع بعد رؤية الصورة الكبيرة، فإني أدركت أني أخوض معركة. فإن قادتني هذه الآيات العشر إلى هذا الكرب، فلا بد أن التحدي الذي ينتظرني سيكون كبيراً. لا يعني ذلك أني آمنت بالله، أو أن هذا المؤلف ليس بشراً، بل يعني أني أواجه خصماً فائق القدرة.

أسئلة

لم أقرأ بحياتي شيئاً سبب لي تشويشاً أكثر من هذه الآيات العشر ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠-٣٩] من سورة البقرة. إذ لم أستطع التوقف لحظة عن التفكير فيها. كنت أفكر فيها ليل نهار - في أثناء الطعام، وخلال ذهابي إلى عملي وإيابي منه، وعندما أجلس وحدي، وحين أشاهد التلفاز، ووقت آوي إلى فراشي. وظللت أقلبها وأراجعها في ذهني محاولاً تجميعها معاً كقطع الأحجية. وغدت هي المحك عند قراءتي لبقية القرآن. وكلما أتيت إلى نص يبدو أنه ذو علاقة بموضوع غاية الحياة، أقارنه بالأفكار التي طرحت في هذه الحكاية. بدأت أشعر رويداً رويداً أني كنت أحل شيئاً من عقدة الأسئلة المتشابكة التي أوجدتها لي هذه القصة، ولكني لم أستطع تجميعها في تفسير معقول لوجود الإنسان على الأرض.

كنت تواقاً لمتابعة تحقيقاتي وتقصياتي، ولكن كان ينقصني الصبر. فالقرآن لا يبحث فقط في غاية الحياة، بالرغم من أن كل شيء يبحثه له علاقة بها بطريقة أو بأخرى، بل يشتمل كذلك على حكايات، وأمثال، وتحذيرات، وأنباء سارة. إنه يحتوي أوصافاً درامية للجنة وللجحيم، وليوم الدينونة الأخير، ولحوادث الطبيعة. ويقدم توصيات ومناقشات ضد من ينتقصون من قدره، وبراهين على أصوله الإلهية. ويحتوي مناشدات عقلية وعاطفية وروحية. إنه يبحث في استخدامه للرمزية وأهمية العقل البشري وحدوده. ويتحدث عن الحقائق والوقائع الخفية وراء إدراك البشر. ويخبرنا بأسماء الله الحسنى وبعلاقتنا معه، وينسج ذلك كله في الكتاب دون الإطالة في أي موضوع، بل يرسم صوراً قوية واضحة، ويبعث إلينا برسائل جلية خاطفة، وينقل تركيزنا من أحد جوانب الحقيقة إلى الجانب الآخر.

وقبل أن أعود إلى بحثي في الجواب عن أسئلة الملائكة، فكرت في أن هذا المكان هو المكان المناسب لدراسة بعض الأسئلة التي طرحت علي بشأن مواجهتي الأولى للقرآن.

■ السؤال الأول (من طالب أمريكي مسلم في مدرسة ثانوية)

أواجه صعوبات في فهم حكايات القرآن. إذ يبدو بعضها منافياً للعلم أو التاريخ. وهذا يثير في نفسي الشكوك. نصحني والدي أن ألجأ إلى شيخ كانوا يعتقدون أنه ربما يشفيني مما أنا فيه، ولكن ذلك لم ينفع. إذ قال لي الشيخ: إن من يحمل هذه الشكوك فهو كافر، وما علي إلّا أن أطردها من ذهني، ولكني لم أستطع التوقف عن التفكير فيها رغم محاولاتي الكثيرة. هل حدث لديك إشكالات مماثلة عندما قرأت القرآن؟ إن كان الأمر كذلك، فكيف تغلبت عليها؟

لابد لي من الاعتراف أنني لم أكن، في أثناء قراءتي الأولى للقرآن، مهتماً بتاريخ أحداثه وحكاياته، بقدر ما كنت مهتماً أساساً فيما سيقوله بشأن غاية الحياة. إن مقاربتي لحكايات القرآن - بل مقاربتي للقرآن كله - قد تحددت بفضل خبرتي المكتسبة من آيات سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾. بدا لي جلياً، من منظوري وخلفيتي، أن القرآن كان يعيد سرد حكاية من أكثر حكايات البشر إثارة واستحواذاً على العقول، ليس بهدف إرضاء فضول القارئ

بشأن أصول الإنسان البيولوجي الحديث، بل بهدف استخدامها وسيلة لتصحيح أكثر المفاهيم خطأً في التاريخ. لقد استحوذت علي تضمينات هذه النسخة من قصة أول زوجين بشريين. شعرت أنه كان وراء هذا الوحي رؤية منطقية عقلانية عميقة لغاية الحياة، وأن كل كلمة من هذا الكتاب تدور حول هذه الرؤية. فصممت أن ألتقط قبساً من تلك الرؤية عن طريق البحث في كل آية عن مفاتيح لحل هذا اللغز. وهكذا عندما قرأت الحكايات ركزت على ما يمكن أن تقوله بشأن الوجود البشري؛ أما قضية دقة الحكايات وأحداثها التاريخية فلم تكن ذات أهمية عندي.

وبعد اعتناقي الإسلام ازداد اهتمامي بهذه المسألة. اكتشفت، من جهة، أن الأكثرية الساحقة من المسلمين يعتقدون أن كل قصة من قصص القرآن تمثل أحداثاً واقعية حقيقية، وقعت في الماضي؛ واكتشفت، من جهة أخرى، أن كثيراً من مفسري القرآن يشعرون أن بعض القصص تتضمن حكايات رمزية وأمثالاً، بالرغم من أنهم لا يتفقون على التفاصيل. في حين أني أميل إلى الرأي الثاني، فما زلت أشعر بالحاجة إلى دراسة قصص القرآن بعناية أكثر باذلاً جهدي قدر المستطاع لتحديد ما عُرض منها على أنه تاريخ[1].

ليس القرآن، كما قلت سابقاً، كتاب تاريخ ولا كتاب سيرة. تتخلل القرآن قصص بعض الشخصيات المشهورة عند العرب في القرن السابع بما فيها شخصيات توراتية وإنجيلية[2]، ولكنه لا يحدد لها تواريخ ولا يعطي نقاطاً تاريخية مرجعية، الأمر الذي يجعل من المستحيل تحديد موقع هذه الأحداث

---

(١) القرآن نفسه يشير باستمرار إلى الحكايات بوصفها (قصصاً) أو (أنباء) وهما صفتان تختلفان عن وصفهما (تاريخاً). إن وصف القرآن لرواية عيسى بأنها (قصة حقيقية)، وتوجيهه لسرد حكاية معينة على أنها حقيقة يمكن اعتباره تأكيداً لتاريخيتها.

(٢) يفترض القرآن أن شخصيات الكتاب المقدس التي يذكرها مألوفة عند السامعين، ويبدو أن اليهود والمسيحيين والوثنيين في الجزيرة العربية قد تبنوا من خلال قرون من التبادل الثقافي التراث الشفهي لبعضهم البعض.

في التاريخ دون العودة إلى مصادر خارجية. ولا يقدم من القصص المتواصلة إلّا قليلاً. فهناك حلقات تشمل معظم الأشخاص المذكورين في القرآن موزعة على النص كله دون الإشارة إلى تسلسلها التاريخي إلا ما ندر. لم تُعرض القصص أبداً في سياقها التاريخي، بل تبدأ مفاجئة بصيغة تقحم القارئ في سرد متواصل مثل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أو ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ أو ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ في حين أن تحاشي ذكر التفاصيل الزمنية ربما يعزز التوجه غير الزمني للحكايات، وييسر على القارئ معرفة شخصياتها الرئيسة فإنها تجعل من الصعب نقدها تاريخياً. إن ما يجعل ذلك أصعب هو أن القرآن يصر في مواضع عديدة على استخدام الرمزية، ولكنه لا يقدم وسائل صارمة وسريعة لتحديد أي الآيات رمزية وأيها غير ذلك رغم أنه يؤكد أن كليهما يكشف حقيقة(١). وهذا يترك الاحتمال مفتوحاً أمام بعض الحكايات للاستفادة من الرمز، كما أن صياغة بعضها تقر بالتأكيد هذه الحقيقة. ولننظر في هذين النصين من قصة آدم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١١]. ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٢]. ففي الآية الأولى انتقال من صيغة الجمع المخاطب في العبارتين الأولى والثانية إلى (آدم) في العبارة الثالثة موحياً أن البشر يعرَّفون بآدم. الصياغة بالتأكيد، ليست حرفية ملتزمة بالتسلسل الزمني، وإلا فإننا نفهم من الآيتين الأوليين أننا خُلقنا ثم صُوّرنا، ثم صدر الأمر إلى أول إنسان. أما الآية الثانية فتفصح عن نفسها، إذ من الصعب أن نفهم لها تفسيراً حرفياً.

ويمكن أن تكون قصة ذي القرنين في سورة الكهف مثالاً آخر على الحكايات الرمزية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٦].

---

(١) انظر السؤال الثالث في هذا الفصل.

منذ القِدَم، أربكت هذه الآية، المفسّرين والمؤولين الذين بحثوا في التاريخ عن نبي فاتح وصل إلى مشرق الشمس ومغربها. بعضهم قال: إن ذا القرنين هو الإسكندر الكبير، وهو أمر مشكوك فيه، لأن الإسكندر كان وثنياً. فضلاً عن وصفه بأنه وصل إلى مغرب الشمس في عين حمئة، ووجد أناساً عندها، ربما يكون دليلاً على السمة الرمزية للنص.

لقد تركتني دراستي لقصص القرآن حيث بدأت تقريباً، عاجزاً عن القول بثقة مطلقة: إن هذه تاريخية أو تلك رمزية. لم أنزعج من ذلك على أي حال، بل بالعكس جعلتني هذه المسألة أشعر أن حدسي الأصيل تجاه قصص الصراع الأخلاقي والروحي الملحمية هو حدس دقيق؛ أي إن غايتها الأساسية ليست التأريخ بل عرض الحقائق الجوهرية. يوضح القرآن هذه الحقيقة في سورة الكهف حيث يريد للقارئ ألا يضيع في المجادلات الحمقاء حول تفاصيل الأحداث الدقيقة: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٢].

ثم، مرة أخرى، بعد بيان ثانوي ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۚ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٣-٢٤] ينهي القرآن نقده لهذا النمط من التأمل العبثي بهذه الملاحظة: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٥-٢٦].

ما يراد بيانه هنا هو أن الجدال في أمور تافهة مخالف لغاية الحكاية وأسلوبها.

والواقع أن رواية القصص بطريقة غير تاريخية واضحة توحي بأن القرآن يقصد ألا يفصح عما يتعلق بتاريخية القصص، وهو أمر معاكس للنزعة البشرية

الطبيعيّة لتأريخ مثل هذه الحكايات. ظن بعض المستشرقين أسلوب القرآن غير التاريخي في سرد القصص يعكس الثقافة الشفوية السائدة التي انبثق منها، وكذلك فإن التفاصيل التاريخية تهمل في مثل هذا الوسط، ولكن الكتاب المقدس والحديث النبوي النابعين من البيئة ذاتها يعطيان أمثلة مناقضة تماماً لهذه الفرضية. أما بالنسبة إلي على الأقل فإن أسلوب القرآن السردي دليل على عبقريته وحنكته، لأنه يعرض القصص بطريقة لا يكذب فيها افتراضات السامعين الأوائل، الذين يتقاطع لديهم التاريخ مع الأسطورة والشعر والمثل تقاطعاً كبيراً، ولا يطعن فيمن يأتون في زمن الريبة والشك الذين يهتمون بالتمييز بين هذه الأنماط.

■ السؤال الثاني (من طالب جامعي أمريكي مسلم):

سمعت أنك أسلمت بعد أن قرأت القرآن. وأتساءل عمّا إذا كانت آيات القرآن هي التي أقنعتك بحقيقة الإسلام. وبما أنك متخصص بالرياضيات، هل اكتشفت أي عجائب رياضية في القرآن أقنعتك به؟

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٠-٣٣].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً

نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٢-٢٢].

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٤١/ ٥٣].

كما قلت في جوابي السابق لم أكن مهتماً بالبحث عن معلومات في القرآن تتفق مع العلم الحديث أو تختلف معه. إذ لم أكن في ذلك الحين مؤمناً، لم أكن مؤمناً حتى بالله نفسه، ولم أتوقع أن يكون الكتاب - بوصفه ذا أصول قديمة - على حالة من المعرفة العلمية الحالية. وبدلاً من ذلك كنت أركز على اكتشاف المعنى الذي يضفيه القرآن على الوجود البشري. ولدى متابعتي قراءة القرآن اكتشفت فيه أموراً جعلتني أشكك في إلحادي؛ الأمر الذي قادني في النهاية إلى اعتناق الإسلام. ومع ذلك حيرتني بعض التأكيدات الواردة في القرآن عن عجائب الطبيعة التي يصفها بكلمة (آيات)، فمثل تلك الآية التي اقتبستها آنفاً والتي تتحدث عن أن السماء والأرض كانتا متصلتين (رَتقاً)، وأن كل شيء حي أساسه من الماء، وأن الشمس والقمر يسيران في فلكين دائريين، وتصف كذلك نمو الكائن البشري قبل الولادة. لم تثبت مثل هذه التأكيدات شيئاً بالنسبة إلي، لأن صياغتها ملغزة أحياناً، وتتجنب الشروح التحليلية التي تفرض النتيجة القائلة بأن هذه المعلومات تتفق مع المكتشفات الحديثة، ولكنها لفتت انتباهي. فهناك بضعة بيانات في القرآن يشكك فيها العلماء المحدثون بالتأكيد (مثل كون آدم أبا البشر أو كون عمر نوح تسع مئة وخمسين سنة) ولكني استطعت أن أجدها فقط في الحكايات وليس بين الآيات الطبيعية. إذ لم يكن واضحاً، بناء على ما قلته قبل قليل بشأن القصص والحكايات الرمزية في القرآن، أن المطلوب التعامل مع هذه القصص بوصفها تاريخاً.

لم أدرك عجائب نوعية معينة ذات طبيعة رياضية في أثناء قراءتي الأولى، ومع ذلك لابد لي من القول: إني كنت أحترم العبقرية التي أنتجتها وأخشاها إجلالاً. فإيجازها العجيب واقتصارها في التعبير أوحيا منطقاً محيّراً. إن الحكمة

الجليلة المغلفة بعبارات رائعة الإتقان تشير إلى معرفة تتجاوز خبرة أي إنسان. كما أن مقدرة هذا الكتاب على الوصول إلى الناس متعلميهم وأمييهم والتأثير فيهم حتى يسلّموا بدعوته باستخدام الكلمات نفسها لا يمكن أن تتأتى إلا من لدن خبير بالنفس البشرية. كنت أشعر وأنا أقرأ القرآن أني أزداد ثقافة باستمرار، وأنه يرفعني إلى آفاق من التفكير أعلى وأسمى - تتعلق بالحياة والإنسانية والمحاكمة والروحية - حتى إن لم أقبل مقولته المركزية بشأن وجود الله.

عندما اعتنقت الإسلام عام ١٩٨٢ كانت الجالية الإسلامية الأمريكية منشغلة بدراسة معجزات القرآن وآياته الكونية، وكانت توزع مطبوعات عديدة حول التوافق بين المعطيات العلمية القرآنية والعلم الحديث، وهيمنت أنشطة إلقاء المحاضرات حول هذا الموضوع على جهود المهتدين والهادين. وشعر كثير من المؤمنين أن هذه المعلومات سوف تقنع بالتأكيد الأمريكيين بحقيقة الإسلام. هذا الحماس لإثبات الأصل الإلهي للقرآن أفسح المجال أمام نزعة تدعو لرؤية مفادها أن القرآن يستبق كل المكتشفات العلمية والنظريات الحديثة. وكان كثير من هذه الدراسات أبعد من أن تحمل على محمل الجد، وكانت سيئة الحظ، لأنها مالت إلى التعتيم على بحث آخر ذي مصداقية في هذا المجال، هو كتاب موريس بوكاي (Maurice Bucaille) بعنوان: (الكتاب المقدس والقرآن والعلم) الذي ما زال هو العمل الرُّشَيمي باللغة الإنكليزية حول معجزات القرآن[1]. أما أنا فأرى أنّ من أهم العلائم المقنعة ليس وجود أي علاقة محددة، بل هي حقيقة أن أياً منها لا يمكن إثبات تعارضها مع ما تم توطيده من علوم اليوم حتى وإن كانت تشير إلى مصفوفة واسعة من الظواهر، ورغم انتشار المعتقدات الخاطئة حول حوادث الطبيعة التي سادت في زمن النبي وبعده بقرون عديدة. وعلى الرغم من أنني لم أركز على معالم الإعجاز في القرآن عند قراءتي الأولى، إلا أنني أوليتها اهتماماً شديداً في القراءات التالية وأصبحت بالنسبة إلي من دعائم قراري اعتناق الإسلام.

(١) دار سيفرز (Seghers) للنشر، باريس، ١٩٧٧.

■ **السؤال الثالث (من أمريكي اعتنق الإسلام في العشرينات من عمره):**

لم أقرأ القرآن قبل اعتناقي للإسلام، ولكني أقرؤه الآن. لقد فهمت مراده بوجه عام، ولدي أمور لم أفهمها. كنت أتساءل هل في القرآن أي بيانات تشعرك أنها تتعارض مع العقل، وإن كان فيه مثل هذه البيانات، فكيف تعاملت معها؟

أكذب لو قلت: إنني لم أشك في آية واحدة من آيات القرآن على أساس عقلي، ولكن هذه الأمثلة قليلة جداً ومنطقها الإجمالي حازم ومؤكد، بحيث اعتقدت أن المسألة ربما تكون مسألة تفسير أو ترجمة، وليست مسألة صراع أصيل مع العقل. ووجدت بالوقت المناسب أن المسألة فعلاً هي مسألة تفسير أو ترجمة بقدر ما يتعلق الأمر بالنصوص التي وجدت فيها صعوبة.

من المهم أن تميّز بين الصراع مع العقل والصراع مع العواطف والآراء الشخصية. فقد بدت لي بعض العقوبات القرآنية قاسية في البداية، بيد أن ذلك كان تقويماً شخصياً، وليس موضوعياً، ربما يعكس الخلفية الليبرالية والأكاديمية الغربية. ومن ناحية أخرى رأيت أن هذه العقوبات تساعد على عدم تشجيع السلوكات المستهدفة، ومن ثم فهي منسجمة مع أهدافها، ومن ثم لم أجد أي تناقض منطقي في ذلك. وهكذا عندما نتكلم عن التناقضات مع العقل في القرآن فإننا نشير إلى البيانات الموجودة في الكتاب التي تتعارض مع بيانات أخرى في النص أو مع حقائق موطدة جيداً. تتألف الفئة الأخيرة من مكتشفات تاريخية وعلمية لا خلاف عليها، ولكن كما قلت في جوابيَّ السابقين لم أر حواراً جاداً صارماً ضد القرآن في هذا المجال.

إنَّ بعض التأكيدات القرآنية المتعلقة بالغيب - أي الحقائق والوقائع التي تقع خارج نطاق الإدراك البشري أو الخبرة الإنسانية - مثل الآخرة، والجنة، والنار، وأسماء الله الحسنى وأفعاله، وغير ذلك - ربما تبدو عرضة للتساؤل، خصوصاً إذا ما أُخذت بحرفيتها، على أي حال لا يشجِّع القرآن على الخوض في هذه القضايا في مواضع عديدة: في مطلع سورة البقرة نجد دفاع الكتاب عن استخدامه للرمزية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦].

من الجدير بالملاحظة أن هذا البيان يبدو صحيحاً بعد الوصف الحسي للجنة التي تنتظر المؤمنين المخلصين في الآخرة ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥]، وهو وصف يناسب بصورة خاصة تصورات العرب في القرن السابع. ومن المهم أيضاً أن هذا النص قد ورد بين الآيات التسع والعشرين الأولى من سورة البقرة التي تعد تلخيصاً لموضوعات القرآن الكبرى.

وفي سورة آل عمران، يؤكد القرآن أنه يستخدم باستمرار لغة رمزية، ويحذر أولئك الذين يسعون إلى نسفه، فيأخذون بالمعنى الحرفي لنصوصه الرمزية، ويلومهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٣/ ٧].

وهنالك، أيضاً إشارة هامة إلى معركة بدر حيث هَزَم المسلمون -الضعفاء عُدّةً، القليلون عدداً- أعداءهم الذين اضطهدوهم من قبل. إذ يبدو أن القرآن يصرح بأن علينا ألّا نتوقع دائماً اختبار وحي الله بصورة واقعية ملموسة. ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٩-١٠].

هنالك بيانات أخرى في القرآن، كالتصريح المتعلق بالأوصاف التصويرية النابضة بالحياة بجهنم والتهديدات بعقاب الكافرين: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ٢٠/ ١١٣].

فضلاً عن أنَّه يستخدم باستمرار عبارة التشابه (أو ضرب مَثَل الجنة وجهنم وحالة الكافرين، وغير ذلك) عندما يتحدث عن وقائع وحقائق تقع خارج نطاق الخبرة البشرية. وهكذا فإننا نقرأ في سورة النور بعد الوصف الرّائع لنور الله، قوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٥].

إن مثل هذه التأكيدات بشأن استخدام الكتاب للرمزية والحكايات الرمزية تدحض أكثر الاعتراضات عقلانية على شرح القرآن للحقائق والوقائع التي تقع خارج نطاق الخبرة البشرية. بل يجعل نقد هذا النمط أكثر صعوبة بفضل إدخال مصطلحات ملغزة إلى هذه المناقشات. إذ إن القرآن لدى إدارته وتوجيهه للصياغات التقليدية، يتجنب إلزام نفسه بأي من مواقف المجادلات اللاهوتية الشهيرة. ومن الأمثلة الجيدة على ذلك مسألة القضاء والقدر.

ترى معظم الأديان التوحيدية أن الله بكلّ شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، والقرآن يشير إلى ذلك. ومع هذا إذا كان الله يعلم المستقبل، فإنه يبدو أن هذا المستقبل ينبغي أن يكون ذا كيان ثابت. فإذا ما كان هذا الأمر كذلك، فهل من العدل أن نحاسب على ذنوبنا؟

بالطبع، لا يعني علم الله بالمستقبل أنه يتضمن فرض حدوثه. ولا تتناقض قدرة الله علينا مع تزويده لنا بحرية الاختيار وتنفيذه. لكن القرآن يتحاشى الوقوع في شرك استخدام العبارات والكلمات المرادفة حقاً للقضاء، والتقرير والتحديد سلفاً عندما يبحث الإرادة الإلهية والإرادة البشرية، لأنه لدى استخدام مثل هذه المصطلحات فإنها تقحم تناقضاً منطقياً مع الافتراضات المتعلقة بالله، وهي مسألة لا مفر منها.

إن المقولة الإشكالية التي مفادها أن القضاء والقدر يفترض لدى تطبيقه على الله أن الله موجود في زمن مثلنا، وأنه هو الذي يحدد المستقبل، يقرره سلفاً. على أي حال، إذا كان الله يسمو فوق مخلوقاته - ويشير القرآن إلى أن الله يسمو فوقهم في مواضع عديدة - فإنه عندئذ لا يكون مقيداً بحدود الزمان والمكان التي تقيدنا نحن؛ ليس لله مستقبل أو ماض، كما لنا نحن. فهو مستقل

عن عوالم الزمان والمكان التي يخلقها ولا يخضع لقيودها. فعندما يقال: إن الله يقضي المستقبل ويقدره يبرز على الفور افتراضان متناقضان يتعلقان بالله، هما أنه يتجاوز الزمن ويسمو عليه وأنه موجود فيه. ومن ثم سيكون من الخطأ تطبيق كلمة (يقضي، يقدر) على الله؛ لأنها تضع الله في زمن وتفترض أنه يتعامل ليس مع مستقبلنا، بل مع مستقبله هو كذلك(١).

هناك تأكيدات في القرآن بشأن معرفة الله التامة بكل ما يُعَدُّ بمنظورنا مستقبلاً وبشأن تقرير الله للعديد من الأحداث، بيد أن الكلمات والصياغة المستخدمة غير مألوفة وغير تفسيرية، فأحياناً يذكر القرآن: أن مثل هذه الأحداث (مكتوبة)(٢)، وكأنه يريد القول: إن الحياة على الأرض أشبه بكتاب، والأيام التي نقضيها فيها هي صحف هذا الكتاب التي نسهم في واحدة منها فقط في وقت واحد خلال عيشنا، ومع ذلك فإن الله يراها كلها بآن واحد. أما القول، بأن الله قد كتب لا يعني أنه قد فرضها سلفاً. يمكن للبعض - طبعاً - أن يفسر هذه العبارة بهذه الطريقة، ولكن لا يمكن، استناداً إلى القرآن وحده، إثبات أن هذا هو التفسير الوحيد المقبول. فبفضل الصياغة المميزة وغير المباشرة يتخطى القرآن التناقض الظاهري للقضاء والقدر، بينما يوصل فكرة معرفة الله التي تسمو على معرفة بقية المخلوقات وسيادته للخلق كلهم(٣).

---

(١) لمزيد من البحث في هذا الموضوع انظر السؤال السابع في هذا الفصل.

(٢) كما في الآيات الآتية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٥]؛ ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٨]؛ ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ١٥/ ٤]؛ ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢١].

(٣) هنالك أمثلة أخرى على هذا النوع. إذ يذكر القرآن أحياناً أن الأمور «قد قررت» أو «أنجزت من قبل»، بمعنى (قضاء من الله) وأن هناك مصطلحات وأحداثاً قد (سميت) أو (حددت).

وبالمثل، عندما يؤكد القرآن أنه ما من شيء يكشف إلا وفق إرادة الله، إذ يقول: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ١٣/٨]، ربما يكون هذا مكاناً آخر ملائماً للاستعاضة عن كلمة (القضاء) أو ما يعادلها من الكلمات المعروفة جيداً، إذا كان الكتاب يؤيد مسألة التقرير المسبق، ولكنه مرَّة أخرى يدخل مصطلحات جديدة دون تحديد ما تعنيه بالضبط[1]. وبذلك، يفتح القرآن البابَ للقارئ كي يفسر العبارة وفق منظوره الفكري.

إن استخدام القرآن للمصطلحات غير التقليدية في بحثه (الغيب) متطابق ومتزامن باستمرار. فغموض القرآن بشأن ما يقع خارج نطاق الخبرة البشرية وفهمها يعد معتمداً بوضوح، وهكذا، بالإضافة إلى احتوائه نصوصاً لا تؤخذ بحرفيتها، فإنه يصوغها بطريقة تجعل من الصعب أخذها حرفياً.

كما أن قراءة القرآن مترجماً تجعله مصدراً محتملاً للتناقض العقلي المنطقي. إذ إن اللغة محدودة بصورة معقدة بالتاريخ وبالثقافة اللذين نشأت فيهما، تعكس

(١) الآيـــات: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ١٣/٨]؛ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢١]؛ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/١٨]؛ ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٦/٣٨-٣٩]؛ ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٧]؛ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣١]؛ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٩-٥٠]؛ ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ٨٠/ ١٨-١٩]؛ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١-٣]. لقد اخترت هذا المثال بعينه على استخدام القرآن لعبارات ملغزة، لأنني وجدت غالبية المسلمين يساوون الكلمة العربية (قدر) مع (القضاء والقدر) رغم أن هذا التفسير يبدو غير ملائم في هذه الآيات. وتبين أن قضية (القضاء والقدر) قد جرى حولها جدال حاد في القرون الإسلامية الأولى. يمثل هذا التفسير الخاص لكلمة (قدر) موقفاً عقائدياً تبناه، حتى غدا اتجاهاً سياسياً في الفكر الإسلامي.

تراثاً مميَّزاً وبُنَىً اجتماعية، وآراء عالمية خاصة بها. ففي كل لغة كلمات وتعابير عديدة ليس لها ما يطابقها في لغات أجنبية. وهكذا فإن الترجمة ليست - في الواقع - عملية تحويل مجموعة من العبارات إلى مجموعة مطابقة لها من العبارات في لغة أخرى؛ تتضمن أخذ المعنى المتأصل فطرياً في ثقافة ما وإسقاطه على لغة أجنبية. فالمترجم أساساً مفسر يتضمن عمله اختيار معنى من بين المعاني المحتملة في كلا جانبي العملية. وبغض النظر عن أمانة المترجم وسعة معرفته، فلن تكون الترجمة سوى نقل تقريبي. وكلما كان الاختلاف بين ثقافتين كبيراً كانت الترجمة بينهما أصعب. ومن الصعب أن يتصور المرء ثقافتين أكثر بعداً بعضهما عن بعضٍ من الثقافة العربية في القرن السابع الميلادي والثقافة الغربية الحديثة.

ففي العربية تشتق الكلمات من جذور صحيحة. وتتألف الغالبية العظمى من الجذور من ثلاثة حروف صحيحة، والقلة القليلة جداً تتألف من حرف واحد، أو حرفين أو أربعة، أو حتى خمسة. ويقترن بأي جذر معنى أساسي تحمله الكلمات المشتقة منه كلها. وأول ما يكتشفُه دارس العربية الطيف الواسع من المعاني المقترن بمعظم الكلمات. ففي معجم لين (Lane) العربي - الإنكليزي تغطي معظم قوائم الكلمات والمعاني المقترنة بجذر واحد صفحات عديدة، لأن كثيراً من المصطلحات والعبارات تقبل ظلالاً مختلفة وكثيرة من المعنى. فهذا الثراء وهذه المرونة اللذان تتمتع بهما المفردات العربية هما اللذان منحاها هذه الطواعية المشهورة، الأمر الذي جعلها وسيطاً مثالياً للشعر، ذلك الفن العربي السائد منذ أقدم العصور[(١)].

يعترف العرب دائماً بجمال القرآن وفصاحته اللذين لا يضاهيان. وهكذا فإن أي ترجمة ستكون بالتأكيد أدنى بكثير من الأصل، ولكن الأهم وخصوصاً من الناحية الجمالية أنها ستكون أدنى مقدرة على إيصال الرسالة، لأن المدى

(١) ما زال إلقاء الشعر والمباريات الشعرية في العالم الناطق بالعربية يحظى بجمهور كبير جداً. فالأفلام والمسرحيات، والمسلسلات التلفزيونية التي تعالج الحياة العائلية، والعروض المختلفة والاحتفالات الجماهيرية تتضمن غالباً فقرات لإلقاء الشعر.

الواسع للمعاني المحتملة سيُضحى به لدى اختيار المترجم معادلاً أجنبياً. وربما يقود ذلك، على ما يبدو إلى تناقضات عديدة[(١)].

ومن الأمثلة على ذلك ترجمة علي يوسف للآية التالية:

"Many are the Tinns and Men We have made for hell: They have hearts wherewith they understand not, eyes wherewith they see not, and ears wherewith they hear not. They are like Cattle - ney misguided: fii they are heed less (of Our signs).

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٩].

يبدو أن السطر الأول - المترجم - يدل بالتأكيد على أن بعض الأشخاص مقدر لهم الجحيم، لولا الحقيقة التي مفادُها أن بقية الآية تشير إلى أن مثل هؤلاء الأشخاص كان مصيرهم جهنم لأنهم كانوا غافلين عن آيات الله. ومع ذلك فإن فاتحة الآية تبدو أنها تؤيد مفهوم القضاء والقدر الكلي. إن الكلمة العربية التي ترجمها علي إلى كلمة (made) هي (ذرأ). وترجم بعض المترجمين هذه الكلمة إلى كلمة أشد حدة وهي (خلق) إن (معجم اللغة العربية المكتوبة الحديثة)[(٢)] لمؤلفه هانس ويهر (Hans Wehr) الذي يعد أكثر المعاجم (العربية - الإنكليزية) انتشاراً واستخداماً، لم يدرج أياً من هذه المعاني أو ما يقاربها تحت مادة هذا الفعل. بين كتاب (انسجام القرآن) لقسيس أن كلمة (ذرأ) وردت في القرآن ست مرات، وردَّها في كل هذه المواضع، ما عدا في الآية [١٧٩] من سورة الأعراف الآنف ذكرها إلى معنى (بعثر / نثر) أو (كثّر) وهي معانٍ تتفق مع مضامين الكلمة الأساسية ودلالاتها[(٣)]. كما أن معجم لين العربي - الإنكليزي

---

(١) بالنسبة إليّ، كان هذا هو المصدر الرئيسي للتناقضات التي لوحظت مع العقل.

(٢) معجم العربية المكتوبة الحديثة، هانس ويهر، مطبعة جامعة كورنيل (Cornell)، ١٩٦١، إتاكا (Ithaca)، N.Y

(٣) حنا، قسيس (Hanna E. Kassis)، انسجام القرآن، مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٨٣، =

الهام يدرج معنى (يخلق)، ولكن ليس كمعنى أولي، ولكنه يقتبس من المفسرين الكلاسيكيين للقرآن، (وللآية ١٧٩ من سورة الأعراف) كمثال على هذا المعنى. ومن ثم، لم يكن هذا المعنى، على ما يبدو، مقترناً بكلمة (ذرأ) في عصر الجاهلية، ولكنه أُدخل فيما بعد بزمن طويل، وعكَس الاتجاهات العقائدية لبعض المذاهب الفكرية. وتشير كل المراجع والمصادر إلى أن المعاني الأولية المقترنة بكلمة (ذرأ) هي أقرب إلى (ينثر)، (يبعثر)، (ينشر)، (يرش)، (يلقي)، (يبذر)، (يكثّر)، (يضاعف). إضافة إلى أن الآية تبدأ بكلمة (لقد) التي هي أداة تأكيد لفعل منجز. ومن الترجمات الطبيعية لكلمة (ذرأ) ما يأتي:

"We have already cast into hell many of the jinns and hummans. they have hearts....".

لذلك، يبدو أن هذه الآية لا تتحدث إطلاقاً عن القضاء والقدر، خصوصاً وأن السياق يبين أن هذا النص وما سبقه مباشرة يشير إلى أولئك الذين يرفضون آيات الله (أو وحيه) متعمدين ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٢]، وأرى أن هذه الآية تعد مثلاً رائعاً آخر على ما يفعله القرآن دائماً، وهو أنه يشير أحياناً إلى الأحداث في اليوم الآخر بصيغة زمنية غير صيغة المستقبل. يقول المعلقون: إن هذا ابتكار قواعدي للتأكيد على حتمية وقوع هذه الأحداث، ولكني أشعر أنها تشرح كذلك وتدعم فكرة أن الله يسمو على الزمان والمكان، وأن الآخرة تحصل في خلق آخر مختلفٍ جداً.

= ص ٣٧٧. وترد الكلمة كذلك في الآيات التالية: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٦]؛ ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ١٣]؛ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٧٩]؛ ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١١]؛ ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٤].

لقد بحثت آنفاً ما أعتقد أنه بعضٌ من أكثر مصادر التناقض الظاهر بين القرآن والعقل. وتبين لي من المراسلات مع الشباب الأمريكيين المسلمين أن معظم المشاكل من هذا النوع تنشأ من الحرفية المفرطة لفهم الكتاب، ومن طبيعة العيوب والقيود التي تفرضها الترجمة. ومع ذلك، بغض النظر عن معرفة المرء باللغة العربية والتاريخ العربي القديم والثقافة العربية القديمة، فإنَّ علينا أن نظل مدركين لحدود اللغة البشرية المتأصلة عندما نتكلم عن (الغيب)، وخصوصاً عن (الله). وكما قلنا من قبل، تتأصل اللغة في الخبرة البشرية، ولكن بما أن الله يتكلم غالباً عن حقائق ووقائع تتجاوز الخبرة البشرية، فإن لغات البشر كلها، بما فيها العربية، تعد محدودة المقدرة على إيصالها إلينا. وهكذا، مهما بلغت أنظمة التواصل لدينا، ومهما بلغت فلسفتنا من تعقيد وتطور، فلسوف تظل هناك مسائل لا نستطيع بلوغها. وهذا هو مضمون الآية الآتية، كما أعتقد: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٧].

■ **السؤال الرابع (من حِرَفي كندي، أحد الملحدين الغربيين الكثيرين الذين كتبوا لي يطرحون علي أسئلة):**

لم أفكر أبداً في الإيمان بالله، أو حتى في أن يكون لي إحساس غامض في روحانيتي. ومع ذلك، وقعت مؤخراً في حب امرأة مسلمة وقعت هي الأخرى في حبي. كانت تشعر بأن مستقبلنا سيتعزز لو شاركتها بعقيدتها، ولكنها لا تريدني أن أعتنق الإسلام إلا عن قناعة تامة. قرأت كتابك (حتى الملائكة تسأل)، وأقوم الآن بقراءة القرآن، ولدي بعض الأسئلة أود طرحها عليك، ولكن دعني أبدأ بأمر مباشر، وهو وصايا القرآن. لقد وجدت بعض تشريعات القرآن قد أكل الدهر عليها وشرب، ووجدت بعض العقوبات التي ينص عليها قاسية جداً. وفيما يخص العقوبات، ألم يعلم الله أن زمناً أكثر لطفاً ورفقاً سيأتي؟ وكنت دائماً أتساءل: هل كانت تشريعات القرآن عقبة كأداء أمام اعتناقك الإسلام؟.

لم تدخل وصايا القرآن في قراري اعتناق الإسلام. بل إن الفضول هو الذي دفعني إلى قراءة القرآن، بيد أن ذلك سرعان ما تحول إلى التزام بمعرفةِ المعنى الذي يضفيه على الحياة البشرية. أذكر أني كنت أمر على الآيات التشريعية مرور الكرام، لأنني كنت أظن أن لا علاقة مباشرة لها بهذه المسألة. وأظن أنني ما إن بدأت آخذ دعوة القرآن إلى التوحيد مأخذ الجد حتى تجاوزت تشريعاته تقريباً، لأن معظم التشريعات قد وردت قبل ذلك. ربما يكون هذا هو أحد الأسباب التي لم تجعل لتشريعات الكتاب وزناً ثقيلاً في قراري. كما أنني لم أكن أعرف كثيراً من المسلمين العائدين عندئذ، ولم أكن أعرف كيف يفسر المشرعون المسلمون هذه الوصايا، ولا كيف يطبقونها. كما أني قليل الدراية بالقانون، ولكنه كان يبدو لي أنه علم شخصي جداً، فهو خلافاً للرياضيات - حيث يكون الحل الصحيح فوق المنازعات بغض النظر عن مشاعرك المسبقة - في حين يبدو أن المناقشات والبراهين في القانون تعتمد إلى حد كبير على التفسير. وأعتقد أن هذا هو سبب آخر جعلني لا آبه كثيراً بوصايا القرآن لأنني، كذلك، لم أكن أعرف كيف يرد المسلمون المعاصرون عليها.

ومع ذلك كانت تذهلني دقة كثير من توجيهات القرآن. كما يبدو أن وصايا القرآن التي تشكل ٣٪ من النص تقريباً تختلف عن أسلوب القرآن إجمالاً، إذ إن القرآن، فيما يتعلق بالموضوعات الأخرى، لا يحصر نفسه في مكان محدد وزمان معين، لكن غالبية أوامره الإلهية تخاطب قضايا فورية كان الرسول وصحابته قد واجهوها، وكثير منها كانت محددة بظروفهم وبيئتهم. وتقدم العلاجات القرآنية غالباً مواصفات عالية المستوى غير مألوفة. إذ يشير الكثير منها إلى أمور تتعلق بالثقافة العربية في القرن السابع الميلادي، كالشروط المفروضة على لباس المرأة التي تعود إلى بعض أصناف ألبسة النساء العربيات في ذلك الزمن ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى

ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٠-٣١]، أو أمره للمؤمنين لزيادة عدد خيولهم استعداداً للحرب ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠]. يحتوي القرآن عدداً كبيراً من الأوامر التي يمكن اعتبارها شاملة عالمية، كتعليماته المتعلقة بالاعتداء العسكري، والقتل، والسلب والنهب، والغش، والربا، والخمر، والسرقة، والزنى، وفرض الدين على الناس بالقوة. ومع ذلك فهناك توجيهات وأوامر إن أُخذت بحرفيتها بدت مهجورة في غالب المجتمعات الحديثة، كأحكام القرآن بشأن العبيد والجواري، أو الأحكام التي تطبق حصراً على النبي وآله[1].

---

(١) ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا

=

لم أستغرب تعمد القرآن الغموض بشأن العديد من القضايا، واعتماد التحديد والتقنية بشأن نصائحه وتحذيراته القانونية. لماذا لم يقدم القرآن أحكام سلوك قليلة كالوصايا العشر لموسى أو كالموعظة على الجبل للمسيح، يرجع إليها الناس كافة في كل زمان ومكان بصورة مباشرة؟ ومع ذلك تبين لي جلياً أني عندما طرحت هذه الأسئلة كنت ساذجاً.

من الواضح أن من مهام القرآن الفورية إصلاح المجتمع العربي في القرن السابع الميلادي وحشد العرب. وبالحكم على المجتمع العربي في ذلك الزمن من خلال قواعده وقوانينه نجد أنه كان مشلولاً وآسناً بسبب انتشار الفوضى السياسية لانعدام وجود أي نظام حكم، وانتشار العنف والرذيلة والفساد. ولكي يصبح المجتمع العربي هو المسؤول عن حمل هذا الوحي الذي أريد له أن يكون للناس كافة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٨١/ ٢٧] كان لابد أن يخضع إلى عملية تحويل كاملة لتخليص نفسه من عناصر العادات التي تضعفه وتدمره، وإلا لبقي القرآن محصوراً في قطاع من شبه الجزيرة العربية، وعندئذ

= كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٣-٥٠]؛ ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٢-٥٣].

سيغيب في عالم النسيان. وهذا يفسر جزئياً تلك الطبيعة التقنية الواضحة لأحكام القرآن، لأن النصائح المجردة نادراً ما تؤدي إلى إصلاح سريع شامل[١].

ومن جهة أخرى، رغم أن معظم التنظيمات والقوانين القرآنية، تجيب عن مشاكل نوعية تنشأ في بيئة ثقافية تاريخية خاصة، فإن أنماط المشاكل التي خاطبها القرآن تعد في غالبيتها جوهرية وأساسية للمجتمعات البشرية كافة. فتوجيهاته العديدة للمرأة، على سبيل المثال، تهدف كلها إلى تحسين وضعها، ولو ضمن إطار معقد وقيود طبيعية مماثلة للبيئة الاجتماعية القائمة حينذاك. فالقرآن يوفر للمرأة مستوى من الاستقلال المالي الذاتي، إذ خصص لها حصة ثابتة من الإرث، وإن كانت نصف ما خصص للرجل ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١١] لأن الرجال كانوا هم الذين يجنون رزق الأسرة ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٣٢-٣٤]. وأمر الرجال بتقديم المهر عند كتابة عقد الزواج ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤/ ٤].

---

(١) برأيي أن النصائح والتوجيهات العامة نادراً ما تسفر عن إصلاح مجتمعي حتى على المدى الطويل.

كما أن القرآن أدخل المرأة عالم المال فأتاح لها أن تكون شاهداً على عقود عمل عالية المستوى، ولما كانت النساء عموماً غير خبيرات بمثل هذه الصفقات، فقد طلب القرآن أن تكون شهادة امرأتين مقابل شهادة رجل ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٢]. وسنَّ القرآن قوانين طلاق مفصلة، ليضمن لهن حقوقهن العادلة كالرجال ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٨]. وبما أن على المرأة المسلمة المطلقة أن تنتظر، خلافاً لمطلِّقها، نحو ثلاثة أشهر قبل الزواج ثانية، لمعرفة ما إذا كانت حاملاً، ومعرفة نسب الجنين، فإن القرآن يعترف ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٨][1]. ويقف ضد الاستغلال الجنسي والمضايقات الجنسية بأن يطلب من الرجال والنساء على حد سواء أن يغض كل منهم بصره عن الجنس الآخر، ويطلب إلى المرأة أن تحتشم في لباسها ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٠-٣١].

وبالمثل، فإن الأحكام القرآنية التي تتعلق بالرق، والتي ينبغي أن تلغي مؤسسة الرق برمتها في زمن السلم[2] يجب أن تؤدي في العصور الحديثة إلى

---

(١) وكما ذكرنا سابقاً يحصل الرجال على حصة أكبر من الإرث.

(٢) إن القرآن الذي لم يسمح باسترقاق أحد سوى أسرى الحرب ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٧]؛ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا
=

حماية العمال من سوء المعاملة والاستغلال. إنَّ فرض القرآن ضريبة سنوية على الثروة (الزكاة) لاستخدامها في إعالة المحتاجين يدل على أن المجتمع ملزم برعاية رفاه المواطنين(١). ورداً على مشكلة تزايد الأرامل والأطفال الذين لا آباء

= بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ٤] يأمر بإعتاق الأرقاء كفارة لعدد من الخطايا العامة ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧]؛ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٩٢]؛ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٨٩]؛ ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٣]؛ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ٩٠/ ١٣]، ويمنح الأرقاء ريوعاً قانونية لشراء حريتهم وإعتاق أنفسهم ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٣]. ومن المؤسف أن الدول الإسلامية كانت آخر الدول التي ألغت الرق قانونياً.

(١) الآيات: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٣]، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢/ ١١٠]، ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ =

لهم في المجتمع الإسلامي الأول - كمشكلة الأمهات الوحيدات المحرومات اليوم - يشجع الرجال على الزواج من الأرامل من أجل إعالتهن وأطفالهن إعالة مالية وعاطفية، ولكنه يحدد عدد الزوجات اللائي يجوز أن يحتفظ بهن الرجل في زمن واحد بأربع ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٤/ ٣][1]. ويواجه القرآن مسألة الغش والاحتيال في العمل فيطلب إلى المتعاملين في أي عمل أن يكتبوا عقوداً بينهم، ويقدم تعليمات مفصلة حول كيفية صياغة هذه العقود التي تحوي حماية للطرف الأضعف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٢-٢٨٣]. وفي القرآن تنظيمات بشأن الحرب تحرِّم العدوان العسكري، ولا تسمح بالقتل إلا دفاعاً عن النفس، وضد

= [البقرة: ٢/ ١٧٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٧]؛ ﴿لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١٦٢]؛ ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٨].

(١) لم يكن عدد الزوجات محدداً قبل نزول هذه الآية.

الاضطهاد[(١)]. وفيه كذلك عدد من التعليمات بشأن أمور الدولة وإدارتها وسياستها، بعضها غريب تماماً على العرب القدماء، تؤكد على احترام القيادة، واحترام حقوق الآخرين، واحترام القانون وقرارات المجتمع التي تُتخذ عن طريق مشاورات مشتركة[(٢)]. وقد عالج القرآن مشكلة المدمنين على الخمر

---

(١) الآيات: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠-١٩٣]؛ ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٤/ ٩١]؛ ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦١]؛ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٩-٤٤]. انظر كذلك مناقشات المؤلف في كتابه (الصراع من أجل الإيمان)، منشورات دار الفكر ١٩٩٨م، وكتابه (حتى الملائكة تسأل)، منشورات دار الفكر ٢٠٠١م.

(٢) انظر مثلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ
=

والقمار بأن حظر شرب الخمر وممارسة الميسر مبتدئاً بالقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٩].

في حين أن أحكام القرآن تجيب عن إشكالات فورية في المجتمع الإسلامي الأول، فإن غالبية هذه المشاكل التي تخاطبها هذه الأحكام موجودة في أي مجتمع. فمثل هذه القضايا، كقضية ظلم المرأة، واستغلال اليد العاملة، والرفاه الاجتماعي، والأمهات الأرامل المحرومات، والأطفال المهجورين، والحرية الدينية، والصفقات التجارية الاحتيالية، والحرب العادلة، وتنظيم الدولة، وإعادة تأهيل المدمنين، والقمار، والبغاء، والقذف والتشهير، كلها تهم في الواقع كل ثقافة. ومن ثم فإن تشريعات القرآن -فضلاً عن تقديمها علاجات في بيئة تاريخية معينة- تعدُّ أمثلة ونماذج يمكن تعميمها على بيئات أخرى.

وعندما يقدم القرآن حكماً، فليس من الصعب فهم الغاية الكامنة وراءه. وعندما لا يكون الأمر كذلك، فإن القرآن غالباً ما يوضح غاية أكبر من الأمر أو الحكم. ومن ثم فإن أمره للنساء أن يدنين من جلابيبهن على جيوبهن يعود إلى نص يتعلق بالحشمة والحياء ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ

= فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١-١٦].

ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٠-٣١]. وعندما يأمر المؤمنين أن يعدوا ما يستطيعون من قوة ومن رباط الخيل استعداداً للحرب ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠] فإن القرآن يبين أن الغاية من ذلك هو إدخال الخوف في قلوب الأعداء المعروفين وغير المعروفين، أي ردعهم عن القيام بأي عدوان.

وبعد أن يحدّد القرآن الفرق بين ما يرثه الرجل وما ترثه المرأة، ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١١] يبين أن السبب هو كون الرجال مكلفين بإعالة الأسرة والإنفاق عليها من مالهم ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٣٣-٣٤].

ومع ذلك فعندما تلخص أحكام القرآن مقاصد أساسية معينة ومبادئ قانونية، فإنه يعني بذلك توسيعها وتكييفها مع التغيرات والتحولات التي ترتبط بالزمن،

والتي ستحصل بالتأكيد. وبعد أن دخلتُ الإسلام، اكتشفت أن علماء الشريعة الإسلامية يقرون بهذا الرأي من حيث المبدأ، ولكنهم متشددون ومحافظون جداً في تطبيقه. فهم عندما يوسعون نطاق أمر قرآني أو يكيفونه فإنما يفعلون ذلك باتجاه مزيد من القسوة الأشد. فالتفكير السائد بين المسلمين هو أنه من الأفضل الأخذ بالتشدد. وأنا لا يمكنني مشاركتهم هذا الشعور.

دعني أختم بتأملات موجزة تتعلق بإنسانية عصرنا والعقوبات الإنسانية. أنا لست مقتنعاً أن زماننا ألطف وأرق من الزمن الذي أنزل فيه القرآن. فالقرن العشرون كان أكثر القرون عنفاً. ربما يبدو العالم من زاوية ستارة الحرم الجامعي الآمنة والساكنة، مكاناً رحيماً، ولكنه لا يبدو كذلك من زوايا الشوارع الوضيعة في المدن الأمريكية الداخلية أو إذا ما نظرنا إليه من أمكنة أخرى في العالم تواجه عنفاً متطرفاً وظلماً فادحاً بصورة روتينية وكجزء من حياتها اليومية.

صحيح أن قليلاً من العقوبات القرآنية لا تنسجم مع المشاعر الغربية الحالية، ولكن ليست المشاعرُ الغربية الحالية هي المعيارَ الموضوعَ الذي تقاس به إنسانية النظام الاجتماعي إجمالاً. فكل مجتمع يستخدم عقوبات ليردع أفعالاً يعدّها إجرامية، بل يبذل جهداً لتحقيق توازن بين المتطلبات، لا ليكون مفرطاً في العقوبة مقابل حماية البريء. وربما يبدو أن النظام القانوني المثالي هو ذلك الذي يسفر عن حد أدنى من الآلام البشرية التي تعانيها ضحية الجريمة، ويعانيها المجرم عند إنزال العقوبة به[1]. فإذا أمكن سن قانون مثلاً، يلغي الجريمة كلياً ولا يسبب أي متاعب أو معاناة للمواطنين، فسيكون أفضل قانون ممكن بغض النظر عن نظام العقوبة فيه، ما لم يتضرر أحد بسبب هذا القانون، وبما أنه لا يوجد نظام قانوني قادر على إزالة الجريمة، ومع غياب المعايير التي تقيس المعاناة الإنسانية الإجمالية، فإن المسلمين يعتقدون أن المجتمع الذي يعكس شرائع القرآن وروحه بصورة أوثق سيكون من وجهة النظر الكمالية أكثر إنسانية

(١) إذا كانت هناك وسيلة لقياس المعاناة البشرية ومعايرتها، فإنه يمكن اعتبار كمية المعاناة الإنسانية الناجمة عن الجريمة ومعاقبة المجرمين مقسومة على حجم السكان في مجتمع ما مؤشراً جيداً على تقويم الإنسانية الإجمالية لأي نظام قانوني.

من غيره. بالطبع، الإيمان بهذا شيء، وخلق مجتمع شيء آخر، ولكن ذلك يعيدنا ثانية إلى مسألة التفسير.

عودة إلى الملائكة

تبدأ قصة آدم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠-٣٩] بتأكيد مذهل حول البشر: يخلق الله البشر ويسكنهم في الأرض ليكونوا ممثلين لله فيها. وبدلاً من بدء الحكاية بتقويم سلبي للبشر، يبدؤها القرآن بتقريظ إيجابي فائق لإمكانات الإنسان. وعندما تساءل الملائكة بصورة طبيعية عن هذا الاختيار -انطلاقاً من كونهم أحق من الإنسان بهذه الخلافة، لأن البشر فاسدون، متمردون، ومخلوقات عنيفة، في حين أن الملائكة لا يخطئون مستسلمون لله- جاء جواب الله إليهم في القرآن بأنه يعلم تماماً ماذا يفعل. ومع ذلك لم يبعد القرآن سؤال الملائكة عند هذه النقطة؛ لأن السؤال الذي طرحوه مهم جداً وصعب للغاية. فشرَع القرآن بالإجابة عن السؤال في الآيات التسع التالية مقدِّماً -على ما يبدو- مفاتيح جوهرية عديدة أو قطعاً للأحجية.

وأدل نقطة يضعها القرآن - والبدء بهذه النقطة يعد أسلوباً فاتناً وساحراً - هي أن البشر مخلوقات فائقة الذكاء، ويشكل ذلك إشارة بارزة إلى الغاية من خلقه. ثم يشير القرآن إلى أن الناس - رجالاً ونساءً - كائنات أخلاقية، مخلوقات ذات ضمير، تملك حساً عميقاً بالخطأ والصواب. وأنهم معرضون إلى إغراءات خيّرة وشريرة وعليهم أن يختاروا بينها. وهكذا فإن الله قد منح الإنسان موهبة إدراك الخطأ والصواب، وزوده بالقدرة على التصرف بناء على قراراته الأخلاقية. ويبين القرآن كذلك أن للبشر قدرة على إدراك الخطأ من الصواب بأنفسهم. ومن النقاط الهامة التي تبرزها هذه القصة هي أن البشر سوف يعانون في الأرض، إذ قال الملائكة: إن الإنسان سيفسد فيها ويسفك الدماء، ويأمر الله الإنسان أن يهبط إلى الأرض، ليكون بعض الناس لبعض عدواً. على أي حال، يبدو واضحاً من قصة أول رجل وأول امرأة من البشر في القرآن أن الحياة على الأرض والمتاعب التي سيلقاها الإنسان فيها لا تعني عقوبة للبشرية. والمعاناة التي سيلقاها الإنسان إنما هي من خطة الله. وتؤكد القصة كذلك على دور الهداية الإلهية وعفو الله في حياة البشر، والنتائج الرهيبة التي تترتب على رفض هذا الدور.

عرفتَ أني قرأت القصة كثيراً، وأن بعض الموضوعات التي اعتقدت - بسبب تكويني- أن القصة تطرحها جواباً عن تساؤل الملائكة لا تعدو كونها سراباً. ربما أكون قد أطلقت العنان لخيالي على غاربه. وربما أكون قد أسقطت صراعاتي التي عانيتها في أثناء طفولتي على الحكاية، ومع ذلك لم يمض وقت طويل حتى وجدت ما يؤكد افتراضاتي؛ لأنني وأنا أشق طريقي في القرآن اكتشفت أنه يؤكد بالفعل أن العقل، والضمير، والإرادة والاختيار، والخطأ، والندم، والمعاناة، وهداية الله، والعفو كلها تلعب دوراً جوهرياً في تطور البشر على الأرض ونموهم. على أي حال، لا أتصور أبداً كيف يمكن أن تجتمع هذه العناصر كلها لتخدم غاية نهائية لا يمكن بلوغها بكفاءة أكثر إذا لم يكن هناك إله.

ألا يستخدمون عقولهم؟

«الرَّبُّ لطيف ومحب، يا بني».

«إن كان كذلك، فلماذا يسمح بهذه المعاناة الكبيرة والعنف الشديد على الأرض؟».

هذه محادثة جرت بيني وبين أمي مرات عديدة من قبل، ويبدو أنها كانت تتكرر أكثر عندما أعلنت إلحادي لأسرتي. قالت لي: «هنالك أشياء لا تستطيع عقولنا المحدودة إدراكها».

فقلت لها ساخطاً: «لقد سمعت ذلك آلاف المرات، وفي كل مرَّة يثار اعتراض منطقي عقلاني على الإيمان بالله، يقال لنا: إن فهمنا محدود جداً، بحيث لا يستطيع إدراك الحكمة من أعمال الله وفهمها. إن ما استحوذ علي حقاً هو أن الناس يستمرون في إيجاد مختلف أنواع المناقشات المنطقية ضد وجود الله، والجواب الوحيد عليها كلها هو أن عقولهم صغيرة جداً فلا تستوعب ذلك - ومن ثم يقبلون بهذا بوصفه نقاشاً مضاداً! وربما يظن المرء أن ذلك يشكل لديهم شكوكاً كبيرة».

فأجابتني قائلة: «لكل امرئ شكوكه في وقت ما. فأنا كانت لدي شكوك وأنا في عمرك».

فأجبتها: «إذن، لماذا بقيت على الإيمان؟ فإن كان لدينا شك في الطيار، فإننا لا نركب الطائرة، وإن كان لدينا شك في سلعة، فإننا لا نشتريها. وإن كان لدينا شك في تكامل شخصية سياسي وصدقه، فإننا لا نصوت له. ولكن الدين تحوم حوله شكوك عديدة معقولة صحيحة، ومع ذلك يؤمن به الناس، فهل يغسلون عقولهم بأنفسهم، أو أنهم يتحاشون العقوبة الخالدة بتسليم أنفسهم على نحو أعمى إلى شيء لا معنى له؟».

فردَّت أمي قائلة: «الإيمان هبة من الله، يا جيف. فما إن تؤمن حتى تتبدد الشكوك كلها».

فأجبت: «إذن لماذا لا يمنح هذه الهبة للناس أجمعين؟ لماذا لم يهبني إياها؟!».

«فقالت: حاول أن تكون مؤمناً، يا ولدي».

«فقلت: أنا لا أعرف. وكأنك تقولين عليك أن تنزع الشكوك من رأسك، وأن تتجاهل ميولك الطبيعية وتجبر نفسك على الإيمان. أليس ذلك نوعاً من غسل الدماغ الذاتي؟!» فطمأنتني أمي قائلة: «لا تقلق، يا جيف. سوف تجد الله يوماً ما». فأجبتها ضاحكاً: «وما الذي يجعلك متيقنة هكذا؟» فأجابتني بابتسامة واثقة: «كانت جدتي تقولي لي: حيث يميل الغصن تنمو الشجرة».

عندما احتج الملائكة على إعلان خلق البشر، فإن أول ما أشار الله إليه ليبين لهم مدى سطحيتهم، هو (الذكاء البشري). يؤكد القرآن - أساساً - على أن السمة البشرية هذه يكرمها الله أكثر من تكريمه لعدم ارتكاب الملائكة الخطأ[1]. وهكذا يوضح القرآن من البداية أن الله لا يريد أساساً، للبشر أن يكونوا ملائكة، وأن البشر بكل ما فيهم من أخطاء وتعقيدات وتناقضات فإن لديهم القدرة على أن يكونوا أعظم من الملائكة، وأن الذكاء البشري يلعب دوراً جوهرياً في ذلك. لقد فاجأني إبراز العقل في البحث الروحي البشري. إذ كنت أعتقد دائماً أن العقل ينسف الإيمان في النهاية، بيد أن هذا الكتاب يقول إن الإيمان يزول عندما يتجاهل العقل، وعند تطبيقه تطبيقاً ضعيفاً.

تعد اللهجة العقلية المنطقية، التعليمية -في غالب الأحيان- من أكثر معالمه بروزاً، فمن أهم موضوعاته الجوهرية هي أن الناس يتجاهلون آيات الله أو يرفضونها ويفسدون الدين لأنهم لا يستعملون عقولهم. «فهم لا يعقلون»[2]. ينعى

---

(١) يوضح القرآن فيما بعد أن إبليس الذي رفض السجود لآدم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٤] والذي جعل الزوجين ينزلقان ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٦] لم يكن ملاكاً، بل كان من الجن، مخلوقاً حساساً واعياً خفياً، وهكذا فإنه قابل لارتكاب الخطيئة.

(٢) ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا

القرآن على الذين ينتقصون من قدره: فيسألهم مستغرباً: «أفلا تعقلون؟»(١).
إن الله يكشف آياته، ودروسه، ونصائحه «لعلكم تعقلون (أيها الكفار)!!»(٢).

= يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧١]؛ ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥/٥٨]؛ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٢]؛ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٣]؛ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣٤]؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ٤]؛ ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحشر: ٥٩/ ١٤].

(١) ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٤]، ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٧٦]؛ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٥]؛ ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٢]؛ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٩]؛ ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ١٦]؛ ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [هود: ١١/ ٥١]؛ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٩]؛ ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٦٧]؛ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٨٠]؛ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٦٠]؛ ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ [يس: ٣٦/ ٦٢]، ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [يس: ٣٦/ ٦٨]؛ ﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٣٨].

(٢) ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٧]، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٢]؛ ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ =

وفي القرآن يعد العقل والإيمان حليفين، كما أنَّ اللامنطق والإيمان الزائف حليفان، ويظهر الصراع بوضوح في هذه الآيات[(١)]: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾. الذين ينتفعون بالقرآن هم العقلاء ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[(٢)] ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي

= عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥١]؛ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٢]؛ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٢٤/ ٦١]؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٧]؛ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣]؛ ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٧].

(١) ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦]؛ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٦]؛ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٥٩].

(٢) ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٩]، ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٧]، ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٩]؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٣/ ٧]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ =

﴿ٱلْعِلْمِ﴾(١)، و﴿يَعْقِلُونَ﴾(٢)، . . . .

= ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٠]؛ ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ١٠٠]؛ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١٢/ ١١١]؛ ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٣/ ١٩]؛ ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٥٢]؛ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٣٨/ ٢٩]، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٣٨/ ٤٣]؛ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٩]، ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٨]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢١]؛ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر: ٤٠/ ٥٤]؛ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: ٦٥/ ١٠].

(١) ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١٦٢]؛ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٤]؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٠]؛ ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٩]؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٦]؛ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٦]؛ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٦]؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١١].

(٢) ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ =

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾(١) في حين أن الذين يعارضون الوحي فهم «مغرورون»(٢)

= ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٤]؛ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٨]؛ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ١٣/ ٤]؛ ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٦٧]؛ ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٥٤]، ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٨]؛ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٣٥]؛ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٤]، ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٨]؛ ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٥].

(١) ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٤]؛ ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠٣]؛ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٨]؛ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٠٢]؛ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٤٣]؛ ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢٠]؛ ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٤].

(٢) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٤]؛ ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٠]، ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ =

و﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[(١)]، ....

= يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٠]؛ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥١]؛ ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٩]؛ ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٣٥]؛ ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٤]؛ ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٠]؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٨٢/ ٦].

(١) ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٤]؛ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٤/ ٦٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٤/ ١١٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٤/ ١٣٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٤/ ١٦٧]؛ ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٣٢]؛ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣]؛ ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ١٩/ ٣٨]؛ ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٥٤]؛ ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [الحج: ٢٢/ ١٢]؛ ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠٦]؛ ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٩٧]؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٥]؛ ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ٣١/ ١١]؛ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن =

و«قوم يجهلون»(1)، . . . .

= يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٦]؛ ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٨]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٤]؛ ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٣٦/ ٢٤]؛ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٦٩]؛ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٢]؛ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٠/ ٢٥]، ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٠/ ٥٠]؛ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٨]؛ ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٢]؛ ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٧]؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٢]؛ ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٩].

(1) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٦٧]، ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٣]؛ ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٥]، ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١١١]؛ ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٨]، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٩]؛ ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ١١/ ٢٩]، ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ =

و«سفهاء»[(١)]، و«لا يفقهون»[(٢)]، و«إنما يتبعون الظن»[(٣)]، . . . .

= أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود: ١١/ ٤٦]؛ ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٣٣]، ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٨٩]؛ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٣]؛ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٥٥]؛ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٥]؛ ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٤]؛ ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٢٣].

(١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٣]، ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٠]؛ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ [الجن: ٧٢/ ٤].

(٢) ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤/ ٧٨]؛ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٥]؛ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٩]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٥]؛ ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٨٧]، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٧]؛ ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ٥٩/ ١٣]؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ٣]، ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ٧].

(٣) ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النساء: ٤/ ١٥٧]؛
=

ويتبعون ما كان عليه آباؤهم ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾[1].

= ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ٦/١١٦]، ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ٦/١٤٨]؛ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ١٠/٣٦]، ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ١٠/٦٦]؛ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٢٠]؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٤٥/٣٢]؛ ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٣/٢٣].

(١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٧٠]؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٥/١٠٤]؛ ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ٦/١٤٨]؛ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٢٨]، ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٧٠]، ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٧٣]؛ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠/٧٨]؛ ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١١/١٠٩]، ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١/٦٢]، ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ١١/٨٧]؛ ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾

=

يمتحن القرآن القارئ دوماً بطريقة سقراطية؛ إذ يطرح افتراضاته للمناقشة. يسأله مراراً وتكراراً: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ﴾(1)، ....

= [إبراهيم: ١٤/ ١٠]؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ١٦/ ٣٥]؛ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٢٤]؛ ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٧٤]؛ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٣٦]؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢١]؛ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٤٣]؛ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٦٩-٧٠]؛ ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٢-٢٤].

(1) ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٠]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٦]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٧]؛ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ١١/ ٢٨]، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ١١/ ٦٣]، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ١١/ ٨٨]؛ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٢]؛ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٦٣]؛ ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٠٥]؛ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾

=

و﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ﴾(1)، و﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾(2)، . . . .

= [القصص: ٢٨/ ٧١]، ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٢]؛ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣٨]؛ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤١/ ٥٢]؛ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٨]، ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ [الملك: ٦٧/ ٣٠]؛ ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾ [العلق: ٩٦/ ٩]، ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [العلق: ٩٦/ ١١]، ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩٦/ ١٣].

(1) ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٥٠]، ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٥٩]؛ ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٧٥]؛ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٠]؛ ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢٣]؛ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٤]، ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ١٠]؛ ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣/ ١٩]؛ ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٣٣]؛ ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٥٨]، ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٦٣]، ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧١]؛ ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [الماعون: ١٠٧/ ١].

(2) ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٤]؛ ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٢]؛ ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ =

و﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾[(١)]، الرسالة واضحة تماماً: لكي نكون مؤمنين حقيقيين صادقين لابد من تحرير أنفسنا من التصورات والمفهومات الموروثة، ولا بد من فحص معتقداتنا عقلياً.

يلعب التعلم دوراً جوهرياً في التطور البشري الروحي. يحث القرآن القارئ على التلاوة فيقول له: ﴿اقْرَأْ﴾، و ﴿الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، ﴿عَلَّمَ الْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. [العلق: ١، ٣، ٤، ٥]. في الحياة، والطبيعة، والتاريخ، والقرآن (آيات) و(دروس) ﴿لِّأُوْلِى الْأَلْبَٰبِ﴾[(٢)]. ويبين أكثر من مئة مرَّة بأنه أُنزل ليفصل الآيات.

= يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٦]؛ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٥]؛ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤]؛ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢١]؛ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٩].

(١) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٨٢]؛ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٤].

(٢) ﴿وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى الْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٩]؛ ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى الْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٧]، ﴿يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٩]؛ ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّٰسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٣/ ٧]، ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى الْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣]، ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى الْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٠]؛ ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللَّهَ يَٰٓأُوْلِى الْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ١٠٠]؛ ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى الْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١٢/ ١١١]؛ ﴿أَفَمَن =

يعلم الله الإنسان بصورة مباشرة وغير مباشرة، وأحياناً بطريقة رائعة دون أن نشعر بأنه يعطينا تعليمات ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٩٦/ ٤-٥][1].

= يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٣/ ١٩]؛ ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٥٢]؛ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ١٦/ ٦٦]؛ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٢١]؛ ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٢٤/ ٤٤]؛ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٣٨/ ٢٩]، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٣٨/ ٤٣]؛ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٩]، ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٨]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢١]؛ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر: ٤٠/ ٥٤]؛ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ١٠]؛ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٧٩/ ٢٦].

(١) ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣١]، ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٩]، ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥١]، ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٢]، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٩]، ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا

=

وهكذا فإنه يختبرنا بطرق عديدة(١).

= ﴿ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٢]؛ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٤]؛ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١١٣]؛ ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ١١٣]؛ ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٣٧]؛ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٦٥]؛ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٠]؛ ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣/ ٥]؛ ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢]، ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٤]؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٢]؛ ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٩٦/ ٤-٥].

(١) ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٩]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٥]؛ ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٢]، ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٤]، ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ =

. . . .

= أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٦]؛ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥/ ٩٤]؛ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٥]؛ ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤١]، ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٣]، ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٨]؛ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ١١/ ٧]؛ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٦]؛ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٢]؛ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٧]؛ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٥]؛ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٣٠]؛ ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٠]؛ ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ١١]؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٠٦]؛ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ٤٤/ ٣٣]؛ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ =

وبما أن الحياة على الأرض قد صُورت كمرحلة تربوية تعليمية من مراحل خلق الإنسان، فليس غريباً أن يُلوَّن يوم القيامة، كما هو موصوف في القرآن باللون الأكاديمي. إنه لا يختلف عن نهاية فصل دراسي أو عن يوم التخرج في الجامعة. إذ سوف يصنف البشر إلى ثلاث فئات ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝٢٦ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝٢٧ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٣٨ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝٤٠ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ۝٤٦ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝٤٨ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦/٧-٥٦]: السابقون السابقون في الإيمان، وهم الذين يفوزون بفضل استسلامهم وخضوعهم لله، ولذلك سيكونون الأقربين لله، ثم أصحاب الميمنة؛ وهم الذين عملوا من الصالحات في الدنيا

= وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ٤]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ٣١]؛ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٦٧/ ٢]؛ ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ٦٨/ ١٧]؛ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٢]؛ ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ٨٩/ ١٦].

ما يؤهلهم لدخول الجنة، ولكنهم لم يبلغوا مستوى الامتياز والفوز الذي بلغه السابقون. ثم أصحاب المشأمة وهم الذين أخفقوا في الدنيا وسوف يعانون في الحياة الآخرة. ولسوف يعرض سجل الأعمال، لا يترك صغيرة ولا كبيرة. وسيهلع المذنبون في هذه اللحظة عندما يدركون مصيرهم ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٩]. إذ ستكون يومها وجوه الذين خابوا في الحياة الدنيا خاشعة، عاملة، ناصبة، أما وجوه الذين أفلحوا في دنياهم فستكون ناعمة لسعيها راضية ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ٨٨/ ١-١٦]. وسوف يؤتى المفلح، كتابه بيمينه في الآخرة ويقول ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾؛ أما الخاسر فسوف يؤتى كتابه بشماله أو وراء ظهره ويقول ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٦٩/ ١٩-٣٠]؛ و ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ٧-١١].

يستخدم القرآن وسائل أخرى لتشجيع مقاربة الإيمان مقاربة عقلية ومنطقية. إن الحافز العام في القصص هو الجدال العام الكبير بين النبي أو المؤمن والمعارضين، مع اكتساب المنطق اليد العليا. وقصة إبراهيم تشتمل على كثير من هذه المواجهات[(١)]. فعندما قال إبراهيم للطاغية: إن ربه هو الذي يحيي ويميت،

(١) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: =

. . . .

= ٦/ ٧٤]؛ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا (٤١) إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا (٤٢) يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا (٤٣) يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا (٤٤) يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا (٤٦) قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا (٤٧) وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا (٤٨) فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا (٤٩) وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم: ١٩/ ٤١-٥٠]؛ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ (٥١) إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ (٥٢) قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٥٤) قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٦) وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ (٥٨) قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٩) قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ (٦٠) قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ (٦١) قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ (٦٦) أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (٦٧) قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ (٦٨) قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٥١-٧١]؛ ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ (٧٠) قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ (٧٢) أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ (٧٥) أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ (٨١) وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٧٠-٨٢]؛ ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ =

قال الطاغية: إنه هو الآخر يحيي ويميت، فزجَّهُ إبراهيم في زاوية حرجة، إذ قال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٨]. وبالأسلوب ذاته، عندما اتهم زعماء القوم إبراهيم بتحطيم آلهتهم - وهو الذي حطمها فعلاً - وطلبوا منه أن يبين من فعل ذلك، أشار إبراهيم إلى كبير الأصنام الذي لم يكسره، فأدركوا على الفور ورطتهم المنطقية؛ لأنهم لو اعترفوا بأن بيان إبراهيم مضحك ومدعاة للسخرية، لكانت عبادتهم لهذه الآلهة المصنوعة بأيديهم مدعاة للسخرية كذلك ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ

= ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ١٦-٢٥]؛ ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٨٣-٩٨].

هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٥١-٧١].

ويضرب القرآن باستمرار الأمثال ويستخدم الأمور المتناقضة ظاهرياً، لبيان الأخطاء الشائعة في تفكيرنا. ويضرب لنا المثل الآتي على كيفية استخلاص النتائج المغلوطة، بناء على دليل ظرفي. والتشابه المضروب هو الكلب ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٦].

فالمفكر المهمل ربما يصر على أنه ينبغي ركل الكلب الذي يلهث مادامت الكلاب تلهث في مثل هذه الحالة، دون أن يتنبّه إلى أن الكلاب تلهث أيضاً، وإن تركت بحالها دون أن يركلها أحد.

ويبين القرآن في سورة الكهف كيف يجادل الناس في تفاصيل تافهة:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٢].

وفي حكاية موسى مع الخضر ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا

﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٦٠-٨٢] يضرب الله مثلاً على معاناة البشر ويبين أن موسى، مثله كمثل غالبيتنا نحن البشر، يقفز مراراً إلى استنتاجات مغلوطة مبنية على دليل غير كاف.

ربما يكون المثال الآتي المتعلق بأصل الشر أكثر الأمور التي يطرحها القرآن تناقضاً ظاهرياً: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤/ ٧٨-٧٩].

المسألة التي يريد القرآن إبرازها هنا هي أن كل شيء من عند الله في النهاية، حتى مقدرة الإنسان على فعل الشر والخوض فيه. ومع ذلك فما دام الله قد وهبنا مقدرة اختيار وفعل، فإن ذلك الخيار في النهاية هو خيارنا. وعندما نختار القيام بعمل خير، بأننا نكسب -بدلالة نمونا الشخصي- المنافع الناجمة عن ذلك الخير، وأن هذه المنافع من عند الله، وبفضل الطريقة التي

خلق الله بموجبها شخصية الإنسان. وعندما نختار الشر فإننا نحرم أنفسنا من المنافع الشخصية التي يمكن أن نحصل عليها، بل نؤذي أنفسنا، وبالمقابل فإن الشر الحقيقي الذي نعاني منه - وهو التدمير الذاتي - إنما حصل بأيدينا.

وهناك مظهر آخر من مظاهر القرآن التي تميّز صفته العقلية والمنطقية هي أن فيه حوارات عامة وما يدحضها بالبينة والحجة. ولا بد أن نلاحظ أن هذه المجادلات ذاتها ما زالت تدور اليوم في دوائر عديدة. فالرأي القائل بأن القرآن قد ابتدعه شخص ممسوس، أو ابتكره من عقله ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٤]؛ ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦٨/ ٥-٦]؛ ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٨١/ ٢٢] أو أنه تزوير ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٣٧]؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١١/ ١٣] دحضهُ القرآن بتحدي المرجفين بعمق بيانه الذي لا يضاهى، وبتماسكه الذي لا يماثله تماسك وانسجام، وبفصاحته التي لا تجاريها فصاحة.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٨٢].

فهذا القرآن كتاب لا يقدر على مثله غير الله، بل بالعكس هو تأكيد للوحي الذي أنزل من قبله، وبيانٌ أكثر تفصيلاً للكتاب - لا ريب فيه - من ربّ العالمين.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٣٧-٣٨].

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١١/ ١٣].

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٨].

إن تنويه القرآن بفصاحته العربية الفائقة، يعد دحضاً للتهمة القائلة: إن رجلاً أعجمياً مسيحياً أو يهودياً هو الذي علم محمداً ولقنه الكتاب ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٣].

ودفعاً للادعاء بأن محمداً لم يكن مخلصاً، وأنه كان يسعى لذاته، يؤكد القرآن أنه يمجد الله ويسبحه وحده ولا يسأل لقاء ذلك في الدنيا أجراً للنبي[١]. بل على العكس، يؤكد القرآن الحقائق الأخلاقية والروحية فيما أنزل من وحي قبله، بحيث لا يستطيع اليهود ولا النصارى اتهام القرآن دون أن يتهموا كتبهم.

خطأ ما، في هذه الصورة

إن الأهمية التي يوليها القرآن للعقل سعياً للوصول إلى الإيمان تعد مذهلة، خصوصاً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الزمان والمكان اللذين ظهر فيهما القرآن أول مرة[٢]. إن شبه الجزيرة العربية كانت في تلك الأيام، وبكل المقاييس،

(١) ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥٧]؛ ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٤٧]؛ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٣٨/ ٨٦]؛ ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٣].

(٢) حتى في العصر الحديث يعد إصرار القرآن على أن العلم ضروري للدين تصوراً راديكالياً. إذ إن صراع العقل والدين قد أصبح أمراً بدهياً في الفكر المعاصر، وليس أن مثل هذا الصراع قد تمت (برهنته) بمعنى أنه قد تبين بصورة قياسية أن الإيمان بالله يقود دائماً إلى تناقض منطقي، بل إن هذا الصراع يعد مفهوماً إذا تولد عن طريق التجربة التاريخية والخبرة الشخصية. فلدينا - من جهة - تاريخ طويل من اضطهاد الفلاسفة والعلماء من قبل المؤسسة الدينية؛ ومن جهة أخرى، لدينا الإحباط العام الذي حل بالعقلانيين العاجزين عن الحصول على إجابات مرضية عن أسئلتهم اللاهوتية. لذلك =

بعيدة عن كونها موطناً للتعلُّم أو الفلسفة. كان العرب قساة، فقراء، أُميين، غير مثقفين، يصارعون دائماً بيئتهم الفاسدة، ويتصارعون فيما بينهم على ما يمكن أن يمد حياتهم بأَوَد العيش. وإذا كانت الأديان الكبرى الأخرى في العالم ظهرت في مجتمعات متطورة ومشذبة، فقد ظهر القرآن أول مرَّة فيما يمكن وصفه بحق صحراء ثقافية. ويتفق المؤرخون على أن العرب كانوا بدائيين، ليس لديهم ميراث فني أو أدبي أو علمي يستحق الذكر. لم يكن لهم مذاهب فلسفية ولا أعمال فنية بصرية أو أدبية بارزة؛ ولم يكونوا على علم بالرياضيات العالية، وليس لديهم كتاب إلهي أو كتابات مقدسة. لم يعرفوا أي شكل من أشكال الفن المتطور سوى الشعر الذي كانوا يتداولونه شفوياً. . في مثل هذه البيئة لا يتوقع أن تنتج عملاً بمثل هذه العبقرية وهذه القوة الأدبية. ربما نفترض أن نضجاً ثقافياً تدريجياً قد حصل على مدى طويل قبل ظهور القرآن.

ليس لدينا ما يدل على أن محمداً قد تلقى تعليماً رسمياً. ربما يكون قد قاد رحلات من القوافل في العشرينات من عمره، بيد أن ذلك لا يهيئ له فرصة تنمية مهاراته الفكرية إلى مثل هذا المستوى. فأسلوب القرآن كله، وتأكيده على العقل، وانسجامه المنطقي، واستخدامه العبقري للغموض والرّمزية، وجماله، وإيجازه، كل ذلك يوحي بأن مؤلفه ذو بصيرة وحكمةٍ أتت من وراء حدود شبه الجزيرة العربية البدائية المتخلفة المعزولة حينذاك.

ظننت أنه اجتمع للقرآن أكثر من مؤلف واحد، ولكن، خلافاً للكتب المقدسة الأخرى، ليس فيه ما يؤيد ذلك. إذ من الواضح أن الشخصية الكامنة وراء الوحي هي واحدة وانسجامها عظيم جداً، لدرجة أنه لا يمكن أن يكون عملاً جماعياً، كما يقول الكتاب المقدس.

= من الأدق والأصوب القول: إن العقل والإيمان قد استخدما دائماً ضد بعضهما البعض بدلاً من القول: إنهما بالضرورة متناقضان. هنالك اليوم، في التراث التوحيدي، من يُصرّ على وحدة العقل والإيمان. ولا بد من بيان أن غالبية مسلمي اليوم، خصوصاً علماء الدين، مدركون للمقاربة العلمية إلى الإسلام ويعونها. يبدو أنهم يعتمدون على التراث أكثر من اعتمادهم على العقل. ليست هذه هي الحال دائماً في العالم الإسلامي، خصوصاً في القرون الأولى من التاريخ الإسلامي.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٨٢].

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٨].

إن التفسير الوحيد الذي توصلت إليه هو أن محمداً؛ هو أعظم عبقرية بشرية؛ لأن التاريخ قد عرف موهوبين بصورة فائقة، ولكن أحداً لم يستطع تجاوز الزمان والمكان مثل محمد، فأنشتاين كان عالماً فيزيائياً مذهلاً؛ بيد أن تطويره لنظرية النسبية كان مسبوقاً لقرون من الاكتشافات في علم الفيزياء تسير كلها في هذا الاتجاه. فلو لم يتوصل أنشتاين إلى النظرية النسبية لتوصل إليها أحد أقرانه، ربما بعده بوقت قصير. وبراهين أندرو وايلز (Andrew Wiles) الحديثة على نظرية فيرمات (Fermat) الأخيرة يعد إنجازاً رائعاً، إلّا أن مئات من سنوات التقدم في الرياضيات والعمل في هذه المسألة أسهمت في وصوله إلى هذا الحل. وكان كل من موزارت وكوخ وشكسبير شخصية استثنائية، لكن أعمالهم قامت على اتجاهات ضمن بيئتهم الثقافية وعكستها. أما ظهور القرآن المفاجئ في الحجاز فيبدو كأنه شجيرة ورد تظهر فجأة كاملة التفتح في أكثر قطاعات الربع الخالي من شبه الجزيرة العربية قحطاً.

شعرت أن لو كان محمد هو مؤلف القرآن لكان إلى جانب كونه ألمع عقل في التاريخ، شديد الورع والإخلاص والغيرية؛ إذ يعد القرآن أصفى وأنقى شهادة على التوحيد في الوجود، ويبدي التزاماً عاطفياً رحيماً عميقاً بمساعدة البشرية، يرشد الرجال والنساء إلى محبة الله والحياة الورعة. ويبدو كذلك أن النبي كان متواضعاً ناكراً للذات بصورة ملحوظة؛ لأن الكتاب يؤكد على أن محمداً ليس سوى واحد من الناس، وأن دوره لا يعدو إيصال الرسالة، وأنه لا يتمتع بقوى خارقة، وأنه كغيره من بني البشر، عليه أن يدعو ربه كي يهديه ويغفر له[1]، وينتقده القرآن ويقومه في مناسبات عديدة.

---

(١) ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٧]؛
=

فمثل هذا التواضع نادر في أشخاص متفوقين فكرياً على أقرانهم.

لذلك، إذا كان محمد قد ألف القرآن، فذلك يعني أنه قد عكف بنفسه على خدمة الله والبشرية وتعليم الفضيلة، ولكني مع ذلك لا أستطيع تجاهل أنه قد دبَّر أكبر خدعة بتلفيقه لكتاب يصور نفسه أنه رسالة مباشرة من الله إليه. لا يستطيع على مثل هذه الكذبة الهائلة أن ينتج دعوة إلى الحقيقة والخير بمثل هذه القوة. خطر ببالي أن يكون النبي ذا شخصيات متعددة، غير أن القرآن ليس أوهاماً شخصية منقسمة، فضلاً عن أنه ليس من تأليف أشخاص متعددين أيضاً.

وأخيراً وضعت مسألة مؤلف القرآن جانباً. وعلى أي حال لم تكن تلك المسألة متكاملة مع غايتي، فقررت أنه إذا كان محمد هو مؤلف الكتاب فإنه، بلا شك، الاستثناء البشري الفائق، وإن لم يكن هو مؤلف القرآن، فإن مؤلفه الحقيقي يكون قد أفلت كلياً من مشهد التاريخ.

= ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٤٩]؛ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١١/ ١٢]؛ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٨]؛ ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٤-٧٥]، ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٠-٩٤]؛ ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧].

خيار صعب

أذكر ذات يوم من أيام السنة الخامسة، في أثناء درس الديانة، عندما كنا نتلو بصورة جماعية نصوصاً من كتاب الديانة، أتينا إلى عبارة تقول: «العقيدة الكاثوليكية هي الدين الصحيح الوحيد» فرفعت يدي، فقالت الأخت بيرناديت (Bernadette): «نعم، يا جيفري؟» قلت لها: «ألا تقول لنا كل معلمة ديانة إن دينها هو الدين الوحيد الصحيح؟ أعني أني لا أتصور أن تقول لنا: إنَّ ديناً آخر هو الدين الوحيد الصحيح. فكيف نعرف أي دين هو الصحيح؟».

حملقت الأخت بيرناديت في وجهي شاردة مدّة ثانيتين، ثم قالت ببطء وحذر: «سوف أسأل الأب هانوفر (Hanover) عن ذلك، وأعود إليك».

لم تعد إلي أبداً، وربما تكون قد نسيت الموضوع كله. لم أطرح السؤال ثانية، ولكنه ظل يؤرقني.

قال لي أحد الأصدقاء ذات يوم: «كلما كبر العقل، ازدادت الخيارات صعوبة»، ويبدو أن القرآن يوضح هذه النقطة في قصة أول زوجين [البقرة ٢/ ٣٠ - ٣٩] ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾. إذ ما إن توطد تفوق البشرية بذكائها على الملائكة حتى أعد القرآن المسرح لبيان أول عرض للإرادة

الحرة التي يتمتع بها الزوجان: آدم وحواء. فبين أن البشر سيكونون عرضة لوسوسة الشياطين وإيحاءات الملائكة، وأن حالتهم في الآخرة تتقرر بناء على خياراتهم التي يقومون بها الآن. ومن المعقول جداً أن تكون الإرادة البشرية قد ظهرت مباشرة بعد عقل الإنسان، لأنه لا يمكن لأي منهما أن يكون دون الآخر. فالذكاء لا يمكن أن يستخدم من دون اختيار، والاختيار عمل فكري.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦].

يؤكد القرآن ضرورة أن يكون الإيمان طوعياً. فالإيمان الصحيح خيار. وينبغي أن يكون إرادياً وعقلياً؛ لأنه ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦]. يؤكد القرآن أن الله قادر على أن يجعل الناس أمة واحدة، ويجعل دينهم ديناً واحداً، ولكن، لله في خلقه شؤون أخرى.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة: ٥/ ٤٨].

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٩].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٩٩].

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٣].

يستطيع الله أن يجعل البشرية متجانسة مؤمنة به - كل فرد من أفرادها نسخة روحية عن الآخر - ولكنه بدلاً من ذلك منحنا الطاقة الفكرية للاختيار ومكّننا من ممارسة خياراتنا لغاياتها المتوقعة بصورة طبيعية. وعلى الرغم من أن خياراتنا يمكن أن تؤثر في الآخرين، فإننا نحن المستفيدون الأساسيون منها.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٤].

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٩٢].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤١].

ربما يبدو من الآيات المقتبسة آنفاً أن الناس - رجالاً ونساء - أحرار تماماً، وأن الله يترك العالم يسير في مساره دون تدخل. وعلى الرغم من إلحادي فإنني أود لو يكون هذا هو موقف القرآن، بيد أن الأمر ليس كذلك، بالتأكيد. إذ يقول لنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، بحيث لا يحدث شيء من دون إذنه، وإنه يؤثر في مفهومات الناس وتقديراتهم ويهدي المؤمنين، ويتيح للكافرين أن يضلوا، ويدير الدراما البشرية، بحيث يضع الأفراد في مواقف حرجة أو يُعرضهم للامتحان. ولذا فإن قدرة الله على الخلق -كما في القرآن- كله شاملة، بحيث يترك انطباعاً بأن ما من شيء يحدث مصادفة، وأن في صميم كل مواجهة أو حدث دنيوي فرصاً إلهية للنمو الروحي. وعلى الرغم من أن القرآن يؤكد أن الناس أحرار فيما يختارون، فهم ليسوا مستقلين كما يظنون. إذ تُهيّأ لهم الفرصُ دائماً ليمارسوا اختياراتهم الأخلاقية والروحية.

ربما يكون وهم الاستقلال هذا ضرورياً لنمو البشرية وتعلُّمها، لأننا لو أدركنا باستمرار حضور الله المهيمن فسيكون من المستحيل تقريباً أن يحصل إغواء أو أن يحدث نمو روحي. إذ من الأسباب التي تجعل الخيار بين فعل الخير وفعل الشر ممكناً جزئياً ظنُّنا أننا بعيدون عن الله. ومن ثم فإن أول إغواء للزوجين حصل في الجنة عندما نسيا الله.

وبالمثل فهما عندما كانا جاهزين للانتقال إلى المرحلة الثانية من الخليقة، قال الله لهما: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ مشيراً إلى أنهما سينفصلان عن الله. ومع ذلك ينبئنا القرآن الكريم أن الله دائماً معنا في واقع الأمر: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٦]. ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٥٠]. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ

أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ٥٠/ ١٦]. ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٨٣-٨٥].

إن وهم الاستقلال الذاتي يعزز ويقوي مقدرتنا على الاختيار والتعلم من تجارب الحياة. ويتيح لنا فرصة تطبيق ما نتعلمه بصورة مستقلة. فللتعلم - سواء كان داخل الصف أم خارجه - مرحلتان جوهريتان: التعليم والتجربة، وتصل المعرفة إلى مستوى آخر عندما توضع تحت الاختبار. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٥-١٥٦]. ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٦]. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٨]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٥]. ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٨]. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٧]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٥]. ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٦٧/ ١-٢].

يتعزز إدراكنا بالاستقلال الذاتي بفضل إحساسنا بالزمن الذي يتيح لنا الشعور بأن نتائج اختباراتنا الشخصية ولقائنا مع الله في الآخرة بعيدة فيما يأتي من الزمان. ومن ثم لا نشعر فقط أننا بعيدون عن الله مكاناً، بل زماناً أيضاً. ومرَّة أخرى فإن القرآن ينبئُنا، على أي حال، أن إدراكنا للزمن ليس حقيقياً من ناحية موضوعية، وسوف ندرك ذلك عندما ندخل الحياة الآخرة. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ

يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٧٩/ ٤٦]. ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: ١٠/ ٤٥]. ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٢]. ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرًا ١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمًا﴾ [طه: ٢٠/ ١٠٣-١٠٤]. ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٢-١١٤].

فالزمن الذي ندركه إذن هو وهم آخر من أوهام هذه الحياة. فما يعد بطيئاً وسيراً تاريخياً عنيداً ليس إلا ومضة عين عند الله[1]. وعلى الرغم من أننا نشهد إرادته تتحقق عبر أيام أو سنين، فإنه عند الله مجرد أمر: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[2]، ويبين القرآن السمة الوهمية للزمن بمقارنة يوم الله بيوم الأرض، حيث اليوم عند الله بألف سنة مما نعد على الأرض ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٥]، بل بخمسين ألف سنة مما نعد ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج: ٧٠/ ٤]، ومن ثمَّ فالزمن الذي ندركه ليس إلا موضوعاً آخر من موضوعات الخلق الذي نعيش فيه، ليس له وجود أو فاعلية خارج عالمنا، هناك حيث تحيط إرادة الله وعلمه بالزمان والمكان (بلحظة) خالدة واحدة خارج الزمن. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٩-٥٠].

---

(١) على الرغم من أن يوم القيامة بعيد من منظور البشر، فهو أقرب من لمح البصر كما يقول القرآن: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [النحل: ١٦/ ٧٧].

(٢) ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ٢/ ١١٧]؛ ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ١٦/ ٤٠]؛ ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٣٦/ ٨٢]؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٨]؛ ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٥٠].

إن وهم الانفصال عن الله زماناً ومكاناً ليس هو الإدراك الخاطئ الوحيد الذي نخضع له. إذ يؤكد القرآن في آيتي ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٥] و ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٠] أن الحياة ليست إلا متاع الغرور: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾. ومع كل صحيفة من القرآن أقرؤها تتعزز لدي صورة الحياة بأنها اختبار وامتحان، مثلها كمثل مسألة رياضية خُلقت لتتحدى البشر وتحثهم على النمو الأخلاقي والفكري والروحي. وكما أن المعلم يغادر غرفة الصف ليراقب الطلبة من مرآة خلفية ذات اتجاه واحد، كذلك خلق الله لنا وهم الانفصال عنه ليغذي نمونا الشخصي ويرعاه. وبفضل تسلحنا بالعقل والاختيار، وضعنا في بيئة معادية، برغبتنا على ما يبدو، لكي نصنع مصيرنا بأيدينا. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٩٩-١٠٠].

يقدم هذا النص خلاصة لاذعة لموقف القرآن فيما يتعلق بالإرادة الإلهية وإرادة الإنسان. فليست مشيئة الله إجبار الناس على الإيمان، بل ينبغي أن يؤمن الناس بمحض إرادتهم. ومع ذلك، رغم ضرورة كون الخيار حرّاً فإنه ليس مستقلاً عن الله أبداً. لأنه هو الذي يرعى ذلك الخيار ويتلقاه ويجيب عنه بطرق واضحة أو خفية بارعة. أما أولئك الذين يرفضون ذلك الخيار عناداً وبطريقة غير عقلانية، فإن الله سيتركهم في الكفر يعمهون. فالخيار، والعون الإلهي، والعقل هي مفاتيح الإيمان الأصيل.

ولكن لماذا يكون ذلك؟ وكيف؟ ما الإيمان الذي يجمع بين العقل والخيار؟ كنت أعتقد أن الإيمان هو اعتراف بحقيقة مفترضة ثم التوافق

معها، الأمر الذي يكون مغروساً في الجنس البشري. والواقع أن القرآن يشير إلى أن لدى المخلوقات الأخرى نزعة طبيعية مسبقة أو غريزة لخدمة الله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ٢٢/١٨]؛ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٢٤/٤١]. أما البشر فينبغي أن يكون إيمانهم أكبر وأعظم وأعقد، ولكن ما هو؟

شعرت وكأني أشاهد شاشة تلفاز تصفو صورته تارة، وتتشوش أخرى. أظن أحياناً أني على وشك رؤية الصورة الكبيرة، ولكني أراها مغلفة باعتبار آخر. ومعاناة البشر على الأرض، برأيي، ليست سوى لهو كبير. فما الدور الممكن الذي تستطيع القيام به؟

لماذا أنا؟

قالت غيردا (Gerda) لراجية (Ragia) غاضبة: «لماذا كان ينبغي أن يحدث هذا لي؟ أنت تدخنين علبة سجائر يومياً، ومع ذلك تتمتعين بصحة جيدة. وأنا لم أدخن مرةً في حياتي، ومع ذلك فأنا مصابة بسرطان الرئة. أنت التي يجب أن تصابي بسرطان الرئة، ولست أنا».

غضبتُ مما قالته غيردا لراجية. إذ إن أمنياتها لزوجتي - وهي ألطف وأرق مخلوق عرفته - أن تصاب بالسرطان لم يكن لها داعٍ أبداً.

فقلت لراجية: «هذا قول غريب يصدر عن ملحدة متطرفة، فلمن نشكو؟ للطبيعة؟ أتعني، أنها عاجزة عن معرفة كيف أدَّت نتيجة واحدة قريبة من نتائج الأسباب والمؤثرات التي حدثت منذ الانفجار الكبير إلى إصابتها بالسرطان؟ ولاتريد أن تُستثنى من حوادث الحياة التي لا حصر لها، إذا لم يكن هناك إله؟»."

تلقينا نداء من غيردا عندما كانت في ألمانية للعلاج. وصعقت إذ طلبت مني أن أصلي من أجلها وأدعو لها بالشفاء. وعلى الرغم من أنني قلت لغيردا: إنني سأفعل، فقد كنت أظن أن الصلاة ستكون أجدى لو أدتها هي ودعت لنفسها.

قالت متأثرة بحماس وصوتها يتقطع عاطفة: «إن تجاوزتُ هذه المحنة فسوف أدرس الدين دراسة جادة».

إن أطباء غيردا في ألمانية أخضعوها لمعالجة جديدة تماماً. فعلى الرغم من أنَّ السرطان قد وصل عندها إلى درجة متقدمة بحيث كان أملها في الشفاء ضعيفاً، فقد كان العلاج ناجحاً وعادت إلى لورنس (Lawrence) بارئة من أي أثر للمرض. لقد أحدث فيها هذا الصراع مع المرض تحولاً عميقاً، ولكن ليس في الاتجاه الذي يتوقعه المرء.

فعلى ما أعلم، لم تفِ بوعدها القيامَ بدراسة الدين بصورة جادة، وظلت ملحدة صخّابة عدوانية كما كانت. ليس هذا غريباً، إذ يخطر ببال كثير من الملاحدة أفكار أخرى مؤقتة عندما يقعون في محنة[1]. بيد أن نظرتها إلى الحياة

(١) ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ١٢]؛ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٥٤ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٥٣-٥٥]؛ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٧]؛ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٥-٦٦]؛ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٣٣ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٣-٣٤]؛ ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٢]؛ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٨]، ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٩].

انكفأت إلى الداخل بصورة درامية. كانت غيردا قبل مرضها تحسن إلى أصدقائها وصديقاتها، كما كانت مخلصة لهم، كريمة معهم. وعندما تطرقنا إلى هذه النقطة في حديث بيننا، قالت لي: «كانت تلك خطيئة كبرى من خطاياي. لقد تعلمت قيمة الحياة ورأيت كم هي ثمينة. كنت بلهاء إذ كنت أعطي إلى الآخرين من نفسي كثيراً. لن أفعل ذلك ثانية».

بعد سنة من تسلمها تقريراً بسلامة صحتها، اكتشف الأطباء أن المرض قد عاودها. وأكدوا على عجزهم من أن يفعلوا شيئاً ما دام المرض قد تقدم كثيراً جداً. فقالت لزوجتي شاكية بصورة غير متوقعة: «أي إله هذا الذي يفعل بي ذلك؟» لم تجب راجية عن سؤالها الساخر المناهض للدين، وإذا كانت غيردا راغبة في بحث الدين بهدوء واحترام كانت راجية أكثر رغبة منها، ولكنها عندما سمعت كلاماً ساخراً كهذا، فضلت تجاهلها. فقالت راجية دون تفكير، وبصورة مفاجئة: «ربما يكون قد منحك فرصة أخرى».

لم يكن من عادة غيردا أن تترك خصمها يقول الكلمة الأخيرة، خصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بالدين، ومع ذلك ظلت صامتة مستغرقة في التفكير. ربما بسبب تدهور حالتها الصحية والجسمية.

عزلت غيردا نفسها عن أصدقائها خلال الأشهر القليلة المنصرمة من المرض، وقالت لراجية عبر الهاتف: إنها لا تريد أن ترى أحداً «هكذا». كانت غيردا وزوجها يعلّمان الرياضيات في جامعة كنساس. وعلمت بوفاتها من مذكرة القسم. التي جاء فيها: إن أسرتها لن تقيم عزاء لها، والذين يرغبون في تقديم العزاء، يمكنهم أن يتبرعوا لصندوق المنحة الدراسية الذي أسسه زوجها إحياء لذكراها.

تطرح المعاناة الإنسانية دائماً معضلة للفكر الديني. فهل هي لتسلية آلهة متنافسة ضجرة، متقلبة المزاج؟ هل هي عقوبة على طبائعنا الخاطئة؟ هل هي شيء ينبغي أن ننقذ أنفسنا منه.؟ هل هي مظهر ضروري من مظاهر الخلق، لا بد من تجاوزه بفضل التدريب الروحي والتأمل؟ هل هي نتاج حوادث تقع مصادفة في عالم لا إله فيه؟

كل هذه الأسئلة تسلّم من دون جدال أن المعاناة البشرية ضارة وغير مرغوب فيها[١]. هذا طبيعي ما دامت تعكس المنظور البشري، أي تعكس رأي من يشعر أنه ضحية. على أي حال، للقرآن حُكْمٌ مختلف تماماً في معاناة البشر على الأرض. إذ يقول: إن المعاناة عنصر ضروري وجوهري لعملية النمو البشري، وإن على البشر جميعاً - أخياراً وأشراراً، خاطئين وأتقياء، مؤمنين وغير مؤمنين - أن يجربوا هذه المعاناة. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٥-١٥٦].

إن انهيار أمي الذي لم تعد بعده كما كانت عليه أبداً، قد حصل بعد اعتناقي للإسلام بسنوات عديدة. ربما كنت أراها تذوي في صراعها ضد الذُّهان الذي بدا وكأنه يحصرها ويستولي عليها بعد أن تحملت والدي هذا العمر كله. ولكنني بعد انهيارها العقلي، كنت أرى لمحات القوة الروحية ما زالت متوطنة فيها.

وقبل أن ترحل من الدنيا، قالت لي في لحظة وضوح ذهني وصفاء عاطفي: «أنا لست خائفة من الموت، هل أنت خائف يا جيف؟» فأجبتها قائلاً: «الموت لا يخيفني، ولكني قلق على أفراد أسرتي، ومع ذلك أعلم أن الله سيرعاهم». فقالت: «أفهم ذلك، ولكن أسرتي لم تعد بحاجة إليّ، وأنا جاهزة للرحيل».، فأدركت عندئذ أن هذه هي المرة الأخيرة التي ربما أراها

---

(١) تطرح المعاناة، في نظري، مشكلة عقلية منطقية فلسفية أكثر مما هي شخصية عاطفية. نظرت إليها في كتابتي هذه من منظار كوني وليس من زاوية فردية، ومع ذلك أشعر أن الله في كثير من الحالات لا يفرض المعاناة على الأفراد، بل يسمح بالكارثة أن تحل وفق قوانين الطبيعة المتمثلة في الأسباب والنتائج المتأصلة في الخلق. ويتجلى ذلك بواقعة أن المخلوقات نفسها - نباتات وحيوانات - تصارع من أجل البقاء بالطريقة ذاتها التي يتبعها البشر. فبالنسبة إلينا، على أي حال، يقدم هذا الصراع اختبارات وامتحانات يتمكن فيها الأفراد من النمو أو التراجع في أسماء الله الحسنى حسبما يستجيب كل شخص إلى صراعه الشخصي.

فيها. فقلت لها : «سأفتقدك جداً، يا أمي» محاولاً منع دموعي من التساقط. فأجابتني قائلة: «أعرف أنك ستفتقدني، ولكن لا بأس ستكون الأمور على ما يرام. فرأيت في وجهها تلك اللحظة قوة هائلة وسلاماً عظيماً مما ألفت رؤيته فيها جيداً».

على الرغم من أن الله يسمح للناس أن يبتعدوا عن قوانينه، ويُنزلوا الأذى بالآخرين، ويسببوا لهم المعاناة، فإنّه يمكن أن يحوِّل مثل هذا الشر إلى خير لأولئك الصابرين. وبقدر ما يتعلق الأمر بمعاناتي وأنا طفل أستطيع القول بصدق: إنني انتفعت كثيراً من تلك المعاناة. إن تجاوزي محنة الأب المسيء والعيش وسط جيران عنيفين، قد أثر في تشكيل شخصيتي ومنحني رؤية للحياة فائقة الجمال. والواقع أني أشكر الله على طفولتي، لأنها أتاحت لي أن أتذوق حبّ الله ورحمته بطرق لم أكن بقادر على التمتع بهما دون ذلك.

إذن لابد أن يعاني كل امرئ ألماً أو خسارة أو صعوبة أو كارثة خلال وجوده على الأرض بغض النظر عن دينه. شعرت بأن ذلك كان إيماناً صريحاً، لكن عبارة ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ بدت لي في الوهلة الأولى متفائلة جداً أو غير معقولة في نص يتحدث عن شقاء البشر. هل القرآن غافل عن الأذى الذي تسببه المعاناة القاسية لشخصياتنا؟ بل يؤكد القرآن عكس ذلك، أي إن بإمكاننا الحصول على فائدة كبيرة من الطريقة التي نردُّ بموجبها على مصائب الحياة. وهذا الرد مرتبط بحالنا في الحياة الآخرة ارتباطاً وثيقاً. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٤].

توقفت عند هذا النص وقرأته مرات عديدة. ما علاقة المعاناة بالجنة؟ هكذا خطر لي. لماذا لا يمررنا في هذه المرحلة الأرضية ثم يضعنا في السماء؟ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ﴾ لم لا؟ لم لابد من المعاناة؟ ما العلاقة بين المعاناة والسماء؟ لماذا لم يُوَضّح الأمر؟! ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ

﴿أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم﴾ ما الذي تقوله هذه الآية؟ ما الذي يفوتني فهمه منها؟ ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

نلاحظ أن تصوير المعاناة البشرية هذا يتضمن المؤمنين المتقين - ﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ - وكان كربهم شديداً، وزلزلوا زلزالاً شديداً جداً حتى إنهم صاحوا قائلين: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟ لماذا ينبغي أن يتحمل أهل الخير كرباً وخوفاً؟ هكذا تساءلت. لماذا علينا أن نحيا حياة محفوفة بالمخاطر لا استقرار فيها ونتعرض للعطب؟ ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٦]. لماذا نموت إذا كنا سنعاد إلى الحياة كرَّة أخرى؟ كل هذه الأسئلة دارت في رأسي. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٥].

يكرر القرآن تذكيرنا بعد هذه الآيات التي تؤكد ضرورة المعاناة على الأرض، بأننا إليه راجعون. فهل المعاناة تقربنا أكثر من الله بطريقة جوهرية ما؟ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ٦]. كيف نكدح إلى ربنا كدحاً؟ كيف تقربنا مصائبنا من الله أكثر؟ استطعت أن أرى تأكيد هذه الفكرة، ولكني لم أستطع أن أجد الجواب أو الرد. استطعت أن أرى بوضوح أن الكتاب يلح على أن المعاناة عنصر حاسم في ارتقاء البشر وتطورهم، ومع ذلك لم أستطع أن أجد سبب ذلك. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ٩٠/ ٤-١٧].

كان هذا النص بالنسبة إلي من النصوص الكثيرة التي يكثر تردادها وتفتح العيون، مع انتقالها المفاجئ من زاوية رؤية غير متوقعة إلى زاوية أخرى،

وهو نموذج تصارعت معه مصارعة قاسية. فآية ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ صعقتني بصراحتها الصارمة، على الرغم من أنني رأيتها، تتلاءم مع كل شيء طرحه القرآن حتى الآن. سواء بالمصادفة، أم بفضل التصميم العظيم، لا أنكر أن البشر ملائمون بصورة جلية للكفاح والكدح. إذ يبدو أن نوعنا البشري ينتعش ويرتقي على الكدح تماماً، كما كانت المأساة والكفاح من معالم تطورنا ومن عناصر توجيه هذا التطور عبر التاريخ. حتى عندما لا تكون الصعوبة من نصيبنا فإننا نسعى إليها من باب التحدي الذاتي والمنافسة الذاتية. ومع أن «الإنسان خلق في كبد» فإن القرآن لا يركز هنا على الدور الذي لعبه هذا الكدح في تقدم البشر الدنيوي. إنه مهتم أكثر بنتائجه الأخلاقية والمعنوية والروحية، ويبدأ بالتحذير من نتائجه السلبية المحتملة، إن الصراع الذي ينتهي بالنماذج يؤدي إلى الكبرياء والشعور بالأمن، والذي ينتهي بالإخفاق يؤدي إلى اليأس، وكلتا الحالتين يمكن أن تؤدي إلى فقدان الإيمان بالله أو إلى الثقة بقدرة الله أو إلى كليهما معاً، وأحياناً قد تؤدي إلى اللا أدرية أو إلى الإلحاد. لذلك يقول القرآن: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾.

إن عبارة الندم التعجبية التي يقولها الإنسان: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ تمثل صورة مصغرة عن حياة الصراع من أجل الدنيا فقط.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾. نقرأ عبارات عديدة مماثلة في القرآن تتحدث غالباً عن نِعمة السمع والبصر والقلب (الذي يمثل، على ما يبدو، العقل البشري في معناه العام)[1] بوصفها نعماً يسيء

---

(١) ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٥]؛ ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٧٨]؛ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٦]؛ ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٣٢/
=

الإنسان استخدامها غالباً. ويخبرنا القرآن هنا أنه بفضل الملاحظة والتواصل تنجلي أمام الإنسان طريق السعادة والخير، وأنه بفضل دراسة الحياة من حولنا، سيتبين لنا بوضوح ما الذي يجعل الناس راضين مطمئنين حقاً.

لدى قراءتي لهذا السطر تذكرت أمي. فبالرغم من كل الصعوبات والمتاعب التي واجهتها كانت دائماً في سلام مع نفسها (مطمئنة). وكانت تعلمنا أن مفتاح السعادة هو في إعطاء الآخرين، ولدى التفكير بآخرين مطمئنين كنت أعرفهم تيقَّنتُ أنهم كانوا يعيشون على المبادئ نفسها.

عندما استولى عليّ التفكير في أمي انتابني شعور بالحزن لأني أدركت أني لم أنصفها. فعلى الرغم من حبي لها وإعجابي بها كنت أعتقد أنها تعيش في وهم وأنها كانت نمطاً من دون كيشوت الأنثى. وكنت أستغرب من تعاميها عن الحقيقة، كيف لا ترى أن الحياة ليست كلها عطاء، ولكنها صراع على البقاء، ومنافسة، وحماية للنفس من مصائب الحياة وصروف الدهر. أما الآن فقد عرفت -من حياتي وحياة الآخرين ممن أعلم أنهم يعيشون على هذا المعتقد- أن صفات الحياة هذه التي ذكرتها ليست هي السبيل إلى السلام الذاتي الداخلي. فلو توقفت لأفكر فيما يجري حولي لتبين لي بسهولة أن في الحياة طريقين فحسب، وأني كنت أسير في الطريق القاحلة، إذ تجاهلت، كغيري، صعود الهضبة: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: ٩٠/ ١١-١٧].

«العقبة»[1] اختيار للكلمات رائع، فهي، من جهة، تعني العمل المضني

= ٩]؛ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٢٦]؛ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٣].

(١) ترجمت كلمة «العقبة» هنا بصعود التل / الهضبة. ولكنها تفيد أيضاً «الطريق المنحدر»، أو «النزول الشديد الانحدار» أو «الممر الجبلي».

الذي يحتاج إلى كفاح وصبر، وهذا منسجم مع كل ما يقوله القرآن بشأن الحياة الناجحة. ومن جهة ثانية، يمكن أن ترمز إلى طريق السمو الروحي، الصعود الشاقولي نحو الاقتراب من الله.

الفضل للقرآن في أني فهمت المعنى الأول بسهولة. إذ أرى أن الحياة المخصصة لمساعدة الآخرين صعبة ولكنها مجزية، والسعي للمصلحة الذاتية ربما يبدو أكثر سهولة، ولكن ليس هو السبيل إلى الرضا والاطمئنان الحقيقي. ومع ذلك لم أستطع رؤية العلاقة بين ارتقائنا الشخصي وعلاقتنا بالله. فهل هناك رابطة عضوية بينهما؟ هل تضحياتنا الذاتية تقربنا أكثر من الله بطريقة جوهرية؟ وإلا، فإنه يبدو أن بالإمكان تجنب هذه المرحلة الأرضية من وجودنا، وأن بالإمكان الاقتراب من الله دون المعاناة والكفاح في الأرض. ومع ذلك يبين القرآن لنا أن حياتنا على الأرض تخدم غاية جوهرية: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩١]. ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٥]. ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٤٤/ ٣٨].

أفترض أن النبأ الطيب هو أنني اكتشفت في أثناء قراءتي للقرآن أن كثيراً من اعتراضاتي على وجود الله لم تكن صارمة كما ظننت. إذ جعلتني أشكك بالمقولة التي بنيت عليها إلحادي. أما النبأ السيئ فهو أني لم أستطع من خلال قراءتي ما يقارب ثلاثين صحيفة منه، اكتشاف الغاية الحقيقية التي تقومُ عليها الحياة. لقد أعانني أصدقائي المسلمون قليلاً. إنهم لم يفهموا حقّاً أسئلتي، والجواب الوحيد الذي كانوا يقدمونه هو أننا موجودون هنا فلابد من تقويمنا، عشوائياً في الظاهر، عندما ندخل الحياة الأخرى. يبدو أن هذا الحد من المعرفة كان كافياً لهم ولم يحاولوا قط التعمق أكثر، ولكن ذلك لم يكن يكفيني ويئست من إيجاد تفسير معقول. ومع ذلك جعل القرآن الأمرَ يبدو سهلاً، تماماً كما أشرح لطلبتي شيئاً واضحاً كان غائباً عن أذهانهم عندما يستصعبون مسألة ما. وتساءلت هل فاتني شيء ما، عندما استصعبت

الأمر. فقررت أن المكان المناسب للبحث هو في وصف القرآن للعلاقة بين الله والبشر. كيف وصف القرآن العلاقة بين الله والمؤمنين، وهل هو يصف المؤمنين الصادقين؟ وكيف يصف الله؟ وما العلاقة بين هذه العناصر إن وجدت؟

وقبل الالتفات إلى هذه الأسئلة لابد لي من القول: إن وصف القرآن لسمة الحياة الخادعة قد انتزع شيئاً من اعتراضي على المعاناة البشرية في الأرض. ولنذكر أن الناس عندما يدخلون الحياة الآخرة ويسألون عن المدة التي أقاموا فيها على الأرض فإنهم لا يتذكرون إلا صوراً خافتة بعيدة وكأنهم قد صحوا من نومهم. إن صورة الحياة هذه الشبيهة بالحلم تعززها أوصاف عديدة في القرآن ليوم القيامة. حيث ينفخ في الصور لإيقاظ الموتى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٣]. وسيندفع الكافرون من قبورهم -التي يشير إليها القرآن بوصفها «أمكنة نومهم»- مذعورين. وسوف يكون الناس سكارى وما هم بسكارى، وكأنهم في حالة إغماء ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٨]. سيكونون كالتائهين؛ وتبدو لهم الحياة الدنيا خيالات ووهماً ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٨٨]؛ وسيكون بصر الناس مضطرباً مثلما يكون عند استيقاظهم من النوم ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ [القيامة: ٧٥/ ٧]، وسوف يقوى البصر، ويرون الحقيقة الحالية التي أصبحوا فيها ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٥٠/ ٢٠-٢٢] وفي [الآية ٤٢] من سورة الزمر ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقارن القرآن الاستيقاظ من النوم بالانبعاث من الموت.

توحي هذه الأوصاف -بغض النظر عما نعانيه ونتحمله في الأرض من آلام ومعاناة- بأننا نكون في الحياة الآخرة أشبه بنائم يستيقظ من كابوس حلم به. وكل الآلام والكروب التي بدت لنا في الحياة الدنيا شديدة وواقعية ستبدو في الحياة الآخرة عندما ندخل المرحلة الثانية من حياتنا مجرد وهم بعيد أشبه بالخيال. لا يقول القرآن: إن الحياة في الأرض ليست حقيقة واقعة، بيد أن المعاناة التي نخوضها فيها ستبدو لنا غير واقعية عندما ندرك الحقيقة الأكبر للحياة الآخرة.

ما شأن الحب بنا؟

يتحدث القرآن دائماً عن حب الله. الله يحب الذين يعملون الصالحات ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٥]؛ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٤]، ١٤٨؛ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ١٣]، ويحب التوابين ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٢] والمتطهرين ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٨] والمتقين ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٦]؛ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٤]، ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٧] والصابرين ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/

١٤٦] والمتوكلين على الله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩] والمقسطين ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٢]؛ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ٩]؛ ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٨] والذين يقاتلون في سبيله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٦١/ ٤]؛ وبالمقابل يحب المؤمنون الله. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٥]. ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣١]. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤].

لابد من ملاحظة أنه حيث يذكر القرآن محبة الله يكون ذلك حصراً في سياق العلاقة بين الله والمؤمنين المخلصين الذين يلزمون أنفسهم بحب الله وبالعيش التزاماً بذلك الحب. وبالمقابل، يتجرد من علاقة الحب هذه أولئك الذين استسلموا للشر، كالطغاة والمعتدين والفاسدين والخاطئين، والكافرين، والأشرار، والمتكبرين، والآثمين، والمبذرين، والخائبين، والظالمين[1]. ومع

(١) ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠]، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٥]، ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٦]؛ ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٢]، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن

أن الله يحب الناس كافة، ويمنحهم كل ما هو مقترن بالحب مثل الرحمة والعطف والإحسان والحماية والرعاية واللطف والصدق والرأفة(١)، فإن حب الله

= يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٧]، ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٠]؛ ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٤/ ٣٦]، ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١٠٧]؛ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ٨٧]؛ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤١]؛ ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣١]، ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٥]؛ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٥٨]؛ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ١٦/ ٢٣]؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٨]؛ ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٧]؛ ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٤٥]؛ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٨]؛ ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٠]؛ ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٣].

(١) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٧]؛ ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١١٠]؛ ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ
=

معروف إنه بالتأكيد يمنح لأولئك الذين يشاركون الله هذا الحب ويحبونه. وبعبارة أخرى، عندما يتحدث القرآن عن حب الله، فإنه يتحدث عن علاقة متبادلة يشترك فيها الله والمؤمنون، ويرفضها كثيرون[(١)].

ويؤكد القرآن كما أشرنا آنفاً، أن أعمالنا لا تنفع الله، بل الإنسان هو الذي ينتفع بها أو يخسر. ومع ذلك، يبين القرآن أنَّ الله يريد من خلال التجربة الأرضية التي يخوضها الإنسان أن يرفع الأشخاص الذين يحبونه[(٢)]. إذ يمكن لأي فرد أن يتبع هذا السبيل أو لا يتبعه، والقرآن يؤكد أن هناك من يسلكون هذا السبيل وأن ارتقاءهم وتطورهم هو موضوع الحياة على الأرض[(٣)].

= ﴿ٱلْحَسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٢]؛ ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٦]؛ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٣١]؛ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٦]؛ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٣]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٤٦]؛ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣]؛ ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٤٠/ ٧]؛ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٨].

(١) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٩]؛ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥٠]؛ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٧٣].

(٢) انظر السؤال التاسع من هذا الفصل.

(٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤]؛ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾ =

ثم أصبح السؤال، بالنسبة إلي: «كيف تعزز حياة التقوى العلاقة مع الله؟» أفهم كيف تسهم في فهمنا لليُسر والسعادة والرفاه، وكيف تمنحنا نمواً ذاتياً، وسلاماً داخلياً، ولكن كيف تجعلنا أقدر على الاتصال بالله؟ ألا نستطيع - كذلك - أن نحصل على هذه الرابطة من دون كفاح ومعاناة على الأرض؟ ألا يمكن أن نُبَرمج كي نحب الله؟ ما زلت أدعو إلى القضايا ذاتها.

ماذا تريد مني؟

ليس من الصعب أن يجد المرء في القرآن ما يريده الله من المؤمنين الصادقين. فهو يكرر وصفهم بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾(١)، . . . . . .

= إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٣٩-٤٣]؛ ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٥].

(١) ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٨٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٧]؛ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٤/ ٥٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ٤/ ١٢٢]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٥/ ٩]؛ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٢]؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ١٠/ ٩]؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود: ١١/ ٢٣]؛ ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٩]؛ ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٣]؛ ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٢]، ﴿وَأَمَّا مَنْ =

. . . .

= ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٨]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٧]؛ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ١٩/ ٦٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٩٦]؛ ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٧٥]، ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٨٢]، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ٢٠/ ١١٢]؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٤]؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ٢٢/ ١٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٢/ ٢٣]، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٠]، ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٦]؛ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٢٤/ ٥٥]؛ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٠-٧١]؛ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٦٧]؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَثواب﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٠]؛ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٩]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٥٨]؛ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ١٥]، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٤٥]؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ [لقمان: ٣١/ ٨]؛ ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٩]؛ ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٤]، ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ =

. . . .

= وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٧]؛ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٧]؛ ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٣٨/ ٢٤]؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٤١/ ٨]؛ ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٢]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٣]، ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٦]؛ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢١]، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٣٠]؛ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٢]؛ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٩]؛ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٦٤/ ٩]؛ ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ٦٥/ ١١]؛ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ٢٥]؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج: ٨٥/ ١١]؛ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٩٥/ ٦]؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٩٨/ ٧]؛ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١٠٣/ ٣].

وبما أن غاية وجودنا الأساسية، كما رأينا، هي أن نحب الله وأن يحبنا الله، ومن الواضح أن الإيمان أمر جوهري، لأننا لا يمكن أن نقيم علاقة حميمة مع من ننكر وجوده. ومع ذلك فإنه ليس واضحاً كيف يجب أن تعزز حياة التقوى علاقتنا بالله. الجواب العام هو أن الله صالح وأعمالنا الصالحة ترضيه وأعمالنا الطالحة تغضبه، ومع ذلك فإنه بإمكانه أن يجنبنا الخطيئة، ويجعلنا نجتاز هذه المرحلة الأرضية، وأن يُسكننا على الفور في الجنة، ويرضى عنا منذ البداية. فإذا كان الإيمان بالله والعيش في الأرض حياة تقوى تقربنا من الله فلابد أن يتم ذلك بطريقة جوهرية ما؛ لأن الله لا يفعل شيئاً باطلاً[(١)].

تقع الأعمال الصالحة في القرآن ضمن ما يسمى بالقانون الذهبي القائل: «عامل الآخرين كما تحب أن يعاملك الآخرون». وعلى الرغم من أن الكتاب يحتوي على أمثلة عديدة من الأعمال الصالحة، فإنه لا يحتوي إلا على قليل من المفاجآت، ولا يحتوي على ما يلقي ضوءاً مباشراً على العلاقة بين فعل الخير وحب الله. ولقد دُهشت بإصرار القرآن الشديد على النشاط الاجتماعي، على «الجهاد في سبيل الله» و «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». ورغم أني لم أعترض أخلاقياً على الحملة من أجل العدالة، فإني لم أتوقع أن يؤكد القرآن تأكيداً على ضرورة الانخراط في الحياة السياسية والاجتماعية، لأني كنت أعتقد أن الدين شأن خاص وشخصي. فالتصور بأن الإيمان يجب أن يتضمن عملاً قويّاً لخير المجتمع وإصلاحه جعلني أتساءل حول تعاظم العلاقة بين الإيثار والاقتراب أكثر من الله.

لقد وضعت قائمة قصيرة بالأعمال الصالحة التي يشجع عليها القرآن، أملاً في أن أجد دليلاً على تعاظم هذه العلاقة. ولم يكن غريباً أن تتألف القائمة من

---

(١) ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩١]؛ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٦-١٧]؛ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٥]؛ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٤٤/ ٣٨].

الأعمال التي يعترف العالم كله بأنها فضائل؛ إذ على الإنسان أن يكون رؤوفاً ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٨٣]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٥]؛ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٣٤]، وأن يكون رحيماً ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ٩٠/ ١٧]، وأن يصفح ويعفو عن الآخرين ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٧]؛ ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ١٤]؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ٦٤/ ١٤]، وأن يكون مقسطاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٥٨]؛ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٢]؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠] وأن يحمي الضعيف وأن يسعى للمعرفة والحكمة ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ٢٠/ ١١٤]؛ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٤]، وأن يكون كريماً ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧١]؛ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٥]، وأن يكون لطيفاً ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى

ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٤/ ٣٦]، وأن يكون مسالماً ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦١]؛ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٣]؛ ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ٣٥]؛ وأن يحب الآخرين. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٩٦-٩٧].

ينبغي أن نعلِّم الآخرين هذه الفضائل ونشجعهم على ممارستها ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ٩٠/ ١٧]؛ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١٠٣/ ٣] علينا أن نتعلمها ضمناً وننشأ عليها كذلك.

تتضمن قصص الأنبياء أوامر رسل الله إلى مجتمعاتهم وأسرهم كي يتبنوا هذه الأخلاق، ولكن أكثر الناس كانوا يُعرضون.

ليس في قائمتي ما هو بارز بصورة خاصة، وليس فيها ما يشير إلى سبب عدم إمكانية تلافي المعاناة البشرية، وليس فيها مفتاح لفهم السبب في عدم برمجتنا بحب الله، فكل ما في هذه القائمة هو: «علينا أن نكون مقسطين، صادقين، رؤوفين، رحماء، لطفاء، كرماء، حماة للآخرين، غفورين، مسالمين، حكماء، ساعين للمعرفة، محبين.. إلخ».

ما زالت أفكاري تدور في دوائر. فأنا قادر على الفهم بأن هذه الصفات تجلب الصفاء والسكينة، أما كيف تيسر الاتصال بالله، فهذا ما لم أفهمه.

لو كان الله واحداً منا

لو كان الله واحداً منا لهانت الأمور أكثر، لأنني عندئذ سأستطيع فهمه فهماً يمكنني - على الأقل - من إدراك العلاقة بين الأعمال الصالحة وحب الله. إذ يمكنني فهم الآخرين لأني أشاركهم خبرات وتجارب، ومخاوف متماثلة، وآمالاً

وأحلاماً متشابهة، وحاجات ومصاعب وأفراحاً متقاربة. يمكنني أن أنتمي إليهم وأرتبط بهم، لأننا كائنات من نوع واحد لا نختلف إلا بفروق طفيفة. أما الله فليس كأحدنا. إذ يذهب القرآن إلى القول بأننا لا يمكن أن نفهم الله، وأن الله يتعالى عما يصف الناس ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٠] وأنه ليس كمثله شيء ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١١] ولا يقارن بشيء، وليس له كفؤ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١١٢/ ٤]. ولا يمكن أن يكون الأمر سوى ذلك. إذ كيف للكائنات البشرية الفانية والمحدودة والمادية، والمعتمدة على غيرها، والمعرضة للمخاطر والضعيفة والمقيدة والمخلوقة والمحدودة بالزمان والمكان، أن تفهم من هو خالد، وغير محدود، وغير عادي، ومستقل تماماً، غير معرض لأي مخاطر، القوي العليم الحكيم خالق كل شيء ومتجاوز لكل شيء. ليت القرآن أعطانا مزيداً من أوصاف الله؛ بحيث نستطيع ملء الفراغ في السطور. فأنا لم أسر في هذا الطريق الطويل فقط لأكتشف أن الله لا يمكن فهمه ولا إدراكه، وأنه سر غامض ولغز لا يحل، وأنه لا أمل لي.

لا عجب في أننا نحن البشر ننزع إلى تأليه أنفسنا وإلى أنسنة الله. وبالرغم من أن هذا يخلق لي معضلات عقلية منطقية أكبر فإنها قابلة للحل؛ إذ يُضفي ذلك شيئاً من الواقعية الملموسة على الله. أظن أني أحب أن أمتلك كعكة، وآكلها أيضاً. وأريد أن يكون الله منزهاً عن الخلق، مختلفاً كلياً عن البشر الذين أنا واحد منهم، وأن نستطيع الوصول إليه في الوقت نفسه.

يالبلاهتي، إذ كنت أوهم نفسي بأن القرآن يمكن أن يجسِّر الهوّة اللامحدودة بين الله والبشر، وبأنه سيربط منطقياً بين المعاناة البشرية والحب الإلهي. إننا لا نفهم الشخصية البشرية؛ فكيف يُعقل أن نفهم العلاقة بين الله والإنسان. لقد قرأت القرآن كله لأبرهن لنفسي أني كنت محقاً دائماً في افتقاد أي نوع من العقلنة اللاهوتية للوجود البشري.

وأخيراً بدأت أرى الأمور بوضوح ثانية. كنت مخطئاً عندما قلت: إننا نفهم - نحن البشر - بعضنا بعضاً. فنحن لا نفهم إنسانيتنا، ولا نعرفها إلا من خلال التجربة. فأنا لا أفهم من أنا تماماً، ولا ما دوافعي ونوازعي، ولا أفهم حالات القلق التي تنتابني، ولا أحلامي، ولا عواطفي، ولا ضميري ولا نفسي. فأنا لا أفهم البشرية فكرياً. بل أفهمها من خلال كوني بشراً. ومن ثم فإن معرفتي بالبشرية معرفة شخصية لا موضوعية. فإذا ما كنا عاجزين عن الاقتراب من معرفة الإله، وهذا هو موقف القرآن، على ما يبدو، فإننا لا نستطيع فهم الله بطريقة واقعية ذات معنى. وبما أن القرآن يصر على أن الله لا يماثل شيئاً من خلقه، وأنه لا شيء مما نعرفه يستطيع الإحاطة به، فإن القرآن يجعل من المستحيل عملياً إقامة علاقة معه. وعلى الرغم من أن المؤلف قد شنَّ حملة رائعة وقدم قطعة أدبية منطقية رائعة، فإنه لم يعرض تفسيراً متناسقاً كاملاً لسبب وجودنا على الأرض. ومع ذلك فإنه لا يوجد ما يخجل منه، لأنه قصَّر فيما يقصر فيه حتماً هو وغيره، إذا ما وقعوا في الفضاء غير المحدود بين الله والإنسان.

كان هذا بالنسبة إلي إدراكاً أجوفَ، فلم أشعر بالنصر في أي شكل من الأشكال. فقد مرَّت علي أوقات وأنا أقرأ فيها القرآن، وأكون على وشك الاستسلام، أشعر أن كلمات المؤلف -صوته- تغمرني وأن الله هو الذي يكلمني من خلال هذا الكتاب. ولا أرتبك إن قلت: إني كنت أتأثر بحيث تنهمر دموعي على وجنتي في مناسبات عديدة، وأشعر أني في حضرة قوة هائلة ورحمة غامرة. كانت اللحظات الروحية هذه تأخذني دائماً على حين غرة. وكنت أحاول مقاومتها، وإبعادها عني، ولكنها كانت أقوى من أن تقاوم، وكانت مؤثرة جداً بحيث لا يمكن دفعها، لذلك كانت مقاومتي تضعف أكثر كلما توغلت في النص أكثر. وأتت عليَّ لحظات تيقنت فيها من وجود الله، عندما كنت أشعر بوجود إله أعرفه، ولكني كنت أحاول نسيانه. لم أعرف إن كنت في حالة أفضل أو أسوأ لدى قراءة القرآن، ولكني عرفت أني تغيرت، وأني لم أعد أثق بإلحادي.

حتى في هذه الحالة، فقد آن الأوان لأن أستمر في حياتي، آن الأوان أن أتوقف عن تعذيب نفسي بشأن وجود الله، وأن تعيق هذه المسألة سعادتي. من

الأمور التي جذبتني إلى سان فرانسيسكو هي أنها مكان يعيش الناس فيه حياتهم بكل أبعادها. وبعد إحدى وعشرين سنة من التعلّم في المدرسة، أصبحتُ جاهزاً لجني منافع عملي. آن الأوان لأنفع نفسي. لدي الدوافع ولدي الفرصة والوسيلة. كنت شاباً، أعزبَ، يقال: إني وسيم، وحياتي العملية المهنية جيدة. فقد آن الأوان لأبدأ المرح.

اذكر اسمي

ثم، بعد قراءتي للقرآن بوقت ليس بطويل، ربما بعد أسبوعين، أخذت أفكر فيه. كان يخطر ببالي على صورة سلسلة غير متوقعة، أفكر فيه وأنا أشاهد مباراة كرة قدم على شاشة التلفاز، وعندما أغوص في عالم وعيي.

ليس صحيحاً أن القرآن لا يخبرنا عن الله إلا قليلاً، بل إنه يخبرنا كثيراً كثيراً، ولكني، لسبب ما، لم أنتبه إلى ذلك. فلو ألقيت نظرة سريعة على مطلع أي سورة، أو انتقلت إلى أي صحيفة من القرآن لوجدت ما كنت أبحث عنه إن قرأت الآيات بتروٍّ وعناية؛ لأن القرآن يحفل بآلاف الأوصاف لله، التي تربط بين العمل الصالح بالاقتراب أكثر من الله.

وعلى الرغم من أنني قرأت القرآن من الغلاف إلى الغلاف، وتأملت في كل آية وحللتها، فقد أهملت في ذهني الإشارات الوفيرة إلى صفات الله في القرآن. إنها تكاد تثقب الصحائف، وترد على هيئة بيانات وصفية ثنائية بسيطة، مثل: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/١٢٩]، و ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٢٦/٦٨] و﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١٧/١].

يشير القرآن إلى هذه الصفات بالأسماء الحسنى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٨٠]. ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١٠]. ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٢٠/٨]. ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ

عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٣-٢٤].

كنت أعتقد أن القرآن يستخدم الأسماء الحسنى هذه كابتكار أدبي يتوج بها صفحات القرآن، ويجعل فواصل بين الموضوعات. ولهذا السبب كنت أقفز عنها في كثير من الأحيان دون أن أوليها اهتماماً جادّاً. أما الآن فقد شعرت أني لا أقدرها حق قدرها ولا أفهم مغزاها، فبدأت أدوّنها على عجل. يمكنني أن أتذكر منها ما يأتي: «الله الرحمن الرحيم الغفور الرؤوف السلام الودود المقسط الكريم المحسن العظيم العزيز الحفيظ الحق العليم الحكيم الحي.. إلخ».

أرى أمامي مباشرة تلك الرابطة التي كنت أبحث عنها، فهذه القائمة تتقاطع كثيراً مع القائمة التي جمعت فيها من مثل الفضائل التي يحتاجها الرجال والنساء لكي يتطوروا ويرتقوا وتكملها. وفيها التضمين واضح؛ بما أن الله هو كمال الفضائل التي ينبغي أن نكتسبها، فإننا كلما نمونا فيها ازدادت قدرتنا على معرفة الله والإحساس به. وكلما ازددنا نمواً في الرحمة تعاظمت مقدرتنا على معرفة رحمة الله غير المحدودة. وكلما ازددنا رأفة، ازددنا مقدرة على معرفة رأفة الله. وكلما تعلمنا الصفح والغفران أكثر، ازددنا مقدرة على معرفة غفران الله وعفوه غير المحدود. ويمكن أن نقول هذا أيضاً، في الحب والصدق، والحقيقة، والعدالة، واللطف، وما إلى ذلك. فكلما ازداد نمونا في هذه الأمور، ازدادت مقدرتنا على تلقي أسماء الله الحسنى الكاملة واستيعاب مضامينها.

ربما يفيدنا استخدام القياس التمثيلي؛ كنت أملك سمكة ذهبية، وكلباً رائعاً، ولدي الآن ثلاث بنات. أما السمكة، فلكونها محدودة الذكاء والنمو يمكنها معرفة حبي لها وتعاطفي معها، وتحس بهما على مستوى متدنٍّ نسبياً، بغض النظر عن مقدار اللطف الذي أوجهه لها. في حين أن الكلب، الحيوان الأكثر تعقيداً وذكاء من السمكة يستطيع الإحساس بالدفء والعطف نحو الآخرين على مستوى أعلى بكثير من مستوى السمكة، وبذلك يستطيع الإحساس بالحب والعطف الذي أُوليه له بدرجة أكبر. ومع ذلك، فإن لدى بناتي - حتى

قبل أن ينضجن - مقدرة على الإحساس بشدة حبي ورعايتي لهن على مستوى لا يمكن لكلبي أن يدركه. ذلك لأن لقدرتهن على الإدراك والحصول على المعرفة مباشرة، بفضل عواطفهن وعلاقاتهن ومشاعرهن الأعمق والأغنى من كلبي. فبالقياس، كلما كان مستوى الخير عندنا أعلى، كانت مقدرتنا على إدراك الخير اللامتناهي، الذي هو الله، والارتباط به أكبر.

ولكي نزداد قرباً من الآخرين، فإننا نتوجه إليهم بما نشاركهم فيه. فعندما نودُّ الاقتراب من الآخرين مادياً فإننا نقرب أجسادنا من أجسادهم أكثر. ولكي نصل الآخرين فكرياً فإننا نتوجه إليهم عن طريق العقل في أثناء محاولتنا الارتباط بهم عقلياً لتحقيق تفاهم متبادل. ولمزيد من الاقتراب العاطفي للآخرين فإننا نتوجه إليهم بمشاعرنا محاولين تحقيق تقارب بين عواطفنا. وبما أن الله هو النبع المتعالي للخير كله فإننا نتوجه إليه عن طريق الخير الذي يغرسه فينا. يخبرنا القرآن أنَّ الله ينفخ من روحه في النفس البشرية ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [السجدة: ٣٢/٩] الأمر الذي يدل على أن كل من يأتي إلى هذا العالم منا يحمل في ذاته بذرة من صفات الله. على أي حال، يعود الأمر إلينا، إلى خيارنا، في أن نفتح أنفسنا على رعاية هذه البذرة وتغذيتها بفضل تلقي إشعاع الله وإدراكه والعمل بموجبه.

أخذت قطع اللوحة كلها تتجمع، ففي حين أننا لا نستطيع الاقتراب من فهم الله فإننا نستطيع الإحساس بأسمائه الحسنى - بوجوده - إحساساً وفيراً بوصفنا متلقين لخير الآخرين، وحتى بصورة مباشرة أكثر بوصفنا فاعلي خير ومن الذين يعملون الصالحات. وفي كل مرَّة نبدي لطفاً أصيلاً إلى الآخرين، نحسُّ بشيء من اللطف غير المحدود المتأصل في الله الكريم. وفي كل مرَّة نصفح عن أخطاء الآخرين نشعر بشيء من العفو غير المحدود الصادر عن الله الغفور. وفي كل مرَّة نقف فيها مع حقوق المضطهدين، نحس بشيء من الرعاية غير المتناهية التي يقدمها لنا الله الحفيظ. وفي كل مرَّة نكون فيها أمناء صادقين نشعر بشيء من الحقيقة الصادرة عن الله الحق. بفضل هذه الطرق نغدو أدوات يدرك بفضلها الآخرون وجود الله. فرحمة الله ورأفته، ولطفه، وسلامه وغير ذلك

من صفات الله تنساب من خلالنا لتغمر الآخرين من حولنا، فنصبح بذلك مساهمين في هذا التوزيع الإلهي. وهكذا فلدينا إمكانية لمعرفة الله على مستوى أعمق مما نستطيع فهم أي من الرجال والنساء؛ لأن الله يصل إلى الآخرين من خلال كينونتنا، ونحس بشيء من خيره غير المتناهي وكأنه خيرنا. وهذا يجعلنا قادرين على الوصول إلى مستوى من المحبة الحميمية لله، لا تستطيع أي علاقة بشرية أن تصل إليها.

حتى إن كنا لا ندرك إحساسنا بالإله - ولو كنا نكفر بوجوده - فإننا، مع ذلك، نمارس أسماءه الحسنى، ولكننا نصم آذاننا، ونعقد ألسنتنا، ونعمي أبصارنا عن مصدر هذه الأسماء. هذه هي المأساة الكبرى - الخسارة القصوى - حسبما ورد في القرآن، لأننا نجرد أنفسنا من وسائل الاقتراب من الله. إننا نعرف شيئاً من الخير، في حين نحجب أنفسنا عن الرحمة غير المتناهية التي هي أصل الخير، الرحمة التي تذكرنا دائماً بأهمية الإيمان إضافة إلى أنها تردنا دائماً إلى الأعمال الصالحة.

ينبغي رعاية الإيمان وتغذيته باستمرار، ليس فقط بعمل الخير مع الآخرين، ولكن بالتدريب الروحي الذي يتضمن الشهادتين، والصلاة، والصوم والزكاة والحج، والتأمل والتفكير والدراسة، وعلينا تنمية روحانيتنا بحيث نغدو أكثر معرفة بوجود الله العميم في حياتنا. وعلينا أن نعمل لنصبح أكثر إدراكاً لآيات الله التي لا حصر لها وهي تحيط بنا، وتنتشر في الطبيعة، والأهم من ذلك الآيات الموجودة في أنفسنا وفي الآخرين لأن كل عمل لطيف، وكل عمل نبيل، وكل إظهار مخلص للفضيلة يكشف عن وجود الله. ربما لا نراه بأم أعيننا، ولكننا نعرفه وندركه بقلوبنا التي تُعدُّ موطن الفضيلة والروحانية داخلنا.

لذلك فإن الشعائر الدينية عنصر هام في برنامج القرآن للتنمية البشرية. وأستخدم كلمة (شعائر) بدلاً من (عبادة) لأن للعبادة في القرآن مفهوماً شاملاً يمتد إلى ما وراء الشعائر. فكلمة (عَبَد) العربية التي تترجم عادة إلى (to worship) بالإنكليزية تعني حرفياً (يخدم) أو (يتوفر على...) وتتضمن أي عمل صالح يؤديه

المرء انطلاقاً من الإيمان بالله. في حين أن الشعائر الدينية تشكل جزءاً يسيراً نسبياً من العبادة، إنها تخاطب بعض حاجات البشر الملحة والحاسمة. فكما أن الشعائر تساعدنا على تنقية روحانيتنا، كما أشرنا آنفاً، فإنها تزودنا كذلك بوسيلة مباشرة لإيصال حبنا إلى الله. ويقرر القرآن أن نعم الله التي أنعمها على البشر لا تحصى ولا تعد، وهكذا فإننا نقف في طرف التلقي في علاقتنا مع الله(١). ومع ذلك فإن على الطرفين أن يشتركا في شيء، في حالة العلاقة الصحية السليمة. فعندما نساعد زميلاً لنا من البشر فإننا نكشف عن حبنا لله، ولكنه حب يفتقر إلى الفورية والحميمية التي يتَّصف بها الاتصال المباشر. تزودنا الشعائر الدينية بوسيلة مباشرة لنشكر الله. وبفضل الحب، يزودنا الله بطريقة لإعطائه ما هو في الواقع له(٢). وهذا يشبه حال أولادي عندما يطلبون مني مالاً ليشتروا لي هدية. فأنا لست بحاجة إلى الهدية، عندما يقدمونها لي إنما يعطونني ما هو لي، ولكني أحب الفكرة الكامنة وراء هذا السلوك، وأعلم أنه سيقربنا من بعضنا بعضاً أكثر، والقرآن يوضح بجلاء أن الله غني عن العالمين، ولكنه يحب القصد الكامن وراء أدائنا للشعائر(٣)، ويعلم أنها تقربنا منه أكثر.

ولا بد من التأكيد على أن الشعائر لا تشكل طريقاً ذا اتجاه واحد من التواصل، لأنها يمكن أن تكون وسيلة من أكثر الوسائل قوة لتذوق دلالات أسماء الله الحسنى. يقول المؤمنون إنهم يشعرون بالحب الإلهي الحميم قوياً في أثناء انخراطهم بأداء الشعائر. وربما يكون ذلك نتيجة الحقيقة التي مفادها أن

---

(١) ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٤]؛ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٦/ ١٨].

(٢) ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝٧٨ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤/ ٧٨-٧٩]

(٣) مثالها الأضاحي التي تقدم في الحج، إذ يقول القرآن بوضوح: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٧].

المؤمنين خلال الشعائر، يركزون بوجه خاص على علاقتهم بالله. ومع ذلك، فإن بعض المؤمنين، خصوصاً أولئك الذين وصلوا إلى درجة عالية من التقوى والتواضع والسلام الداخلي الذاتي، يشعرون بهذا الحب ويستمتعون به بقوة أكبر، وفي مرات أكثر من سواهم. ويبدو - للمرَّة الثانية - أن النمو في الخير والعمل الصالح يزيد من قابلية تلقي المؤمنين لأسماء الله الحسنى، سواء على صعيد مقدرتهم على استيعابها في ذواتهم، أو على صعيد مقدرتهم على الإحساس بها في أثناء أدائهم للشعائر الدينية. ومع ذلك فإن الإحساس بالحب الإلهي في هذه الحياة لا يكاد يشير إلى الإحساس به في الحياة الآخرة عندما تنزع الأقنعة والمغويات الدنيوية.

قام في تراث أديان كثيرة، جدال واسع حول مسألة الأولوية: الإيمان، أم العمل؟ هذا السؤال خاطئ من وجهة نظر القرآن، لأنه يلح على الخيار، حيث ينبغي ألا يكون هناك خيار، لأن الاثنين ضروريان وجوهريان، يعزز كل منهما الآخر ويزيده. فالإيمان يدفع إلى الأعمال الصالحة التي تزيد بدورها مقدرة تلقي أسماء الله الحسنى والإحساس بمدلولاتها؛ وهذا الإحساس بدوره يزيد إيمان المرء، الذي يزيد من رغبته في القيام بالأعمال الصالحة، وهكذا، فإن كلّاً منهما يعد وظيفة للآخر، صعوداً إلى الأعلى بحركة حلزونية مستمرة نحو مصدر الخير والصلاح كله. فعندما نرتقي في الفضائل التي يعود مصدرها غير المحدود إلى الله، فإننا ننمي مقدرتنا على معرفة الله وننتمي إليه بفضل الحب.

تبدأ قصة آدم في القرآن بالإعلان عن أن الله سيجعل في الأرض خليفة يمثله ويتصرف نيابة عنه ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠]. عُرِض الإعلان كتفويض خاطف، كمهمة أُعلنت على الملائكة. إنه اصطفاء مشرف لما خلقنا من أجله. عندما قرأت هذا المقطع أول مرَّة صعقت بشدة كما صعق الملائكة؛ إذ كيف يمكن لهذا المخلوق الأكثر تمرداً وتدميراً أن يمثل الله في الأرض؟ لقد رأيت، كما رأى الملائكة، جانباً واحداً

من جوانب البشرية، ألا وهو النزعة إلى فعل الشر، و «نشر الفساد وإراقة الدماء». بالطبع هناك رجال ونساء كثر لا يمثلون الله خير تمثيل. ولكن مقدرتنا على فعل الشر والضلوع فيه جاءت مع مقدرتنا المتبادلة والمعاكسة لها على فعل الخير والاضطلاع فيه، ويبدو أن الخير أكثر من الشر في هذه الدنيا بوجه عام، وإلَّا كان جنسنا قد دَمَّر نفسه منذ زمن بعيد. ولا بد من وجود أشخاص يُعَدون مثلاً أعلى في الخير يتوفرون على مساعدة الآخرين في سبيل محبة الله. هذه هي الخلافة التي يدعونا إليها القرآن. فالخلافة تعني أكثر من مجرد تبليغ رسالة أو تنفيذ أمر، إنها تعني أن يحس الآخرون بأسماء الله الحسنى ويتذوقوا دلالاتها من خلال الإنسان. مثل هؤلاء الأشخاص يصبحون مَصافي (إذا جاز التعبير) ومرشِّحات للنور الإلهي لأن خير الله يصل إلى الآخرين من خلالهم. وكلما ازداد نموهم في الخير بفضل توفرهم على فعل الخير، والتضحية بالذات، والتعلُّم، تعاظمت مقدرتهم على تلقي أسماء الله الحسنى وإدراك دلالالتها، وتمثيلها؛ وما شعورهم بوجود الله وحضوره في هذه الحياة إلا إيذاناً صغيراً بما ينتظرهم في الحياة الآخرة.

تَراجُع

فتنني محمود قنديل. كان كريم الوفادة جداً، كان وسيماً، ذكياً، ساحراً، شهماً، محباً للمزاح، وعلى الرغم من أنه كان صغيراً، وليس ثرياً - وإن حاول أن يبدو كذلك - فقد نجح في أن يصبح جزءاً من الجمهور الداخلي في سان فرنسيسكو. وعندما كنا نتجول في المدينة، كنت أبدو كأني مع شخص مشهور شاب، دونالد ترمب (Donald Trump) شرق أوسطي. وحيثما ذهبنا كان الناس يتحلقون حوله، كان محمود يحب لفت الانتباه ويتمتع بالرفاه، لكنه لم يكن يخشى أياً منهما. إذ لم يكن ذلك الغريب الذي تجحظ عيناه دهشة لما يرى من نمط حياة الأغنياء والمشهورين؛ لم يكن يظهر عليه أي انطباع تجاهها وكأنها مألوفة جداً إليه. وعندما يكون في مجتمعات راقية يبدو عليه الاطمئنان ولا يقلق ولا يتوتر.

كان محمود قادراً على الوقوف إلى جانب الدين. كان يتحدث أحياناً عن الإسلام ويدافع عنه بحماس. وكان - بين حين وآخر - يعزل نفسه عن دائرته لينصرف للصلاة والصوم. وكان في بعض المرات يلمح إلى الإثم الذي يشعر به جرّاء أسلوب الحياة السريع الذي يعيشه. كان محسناً كبيراً وحساساً جداً تجاه معاناة الفقراء، يفرغ محفظة نقوده ليعطي ما فيها إلى سائل، وقد يشعر بالندم لأنه لم يعطه ما يكفي. كنت أجد سهولة في بحث الدين مع محمود لأنه كان صديقاً رائعاً ولا يهمه أن يعتنق الآخرون دينه، وكنت بحاجة للانفراد به، بعيداً عن الجمهور.

دعاني محمود ذات ليلة لتناول العشاء في شقته مع أسرته. وعندما وصلت أدخلتني أخته راجية، إذ كان محمود يغير ملابسه في غرفة النوم.

جلست في غرفة الاستقبال بانتظاره، كان محمود يحب الموسيقا، كل أنواع الموسيقا - روك - أند - رول، ريذم أند بلوز، كلاسيك - أما الليلة فقد سمعت صوتاً غريباً صادراً عن جهاز الاستيريو. كان بطيئاً، إيقاعياً، دقيقاً، ينشد على ما يبدو باللغة العربية لا ترافقه موسيقا، بل مجرد صوت فريد خفيض يؤكد على كل حرف صامت وكل مقطع. كان للترتيل إيقاع متكرر ذو لحن قوي، معقد منضبط، بدا وكأنه يكبح جماح حماس غامر. لم أسمع بحياتي شيئاً كهذا.

عندما دخل محمود توجه فوراً إلى جهاز الاستيريو وأطفأه. وعندما سألته عن الموسيقا التي كنت أصغي إليها قال: إنها ليست موسيقا، ولكنه شريط مسجل لشخص يقرأ القرآن. فسألته: «هل للقرآن كله مثل هذا البناء القوي وزناً وقافية؟ إنه يبدو كالغناء - فهل هو شعر؟».

قال: نعم إنه غناء، ولكنه ليس شعراً. وقال: إن للشعر العربي أسلوباً مميَّزاً جداً، وإن للقرآن أسلوباً مختلفاً عنه كلياً.

لم أعد أسأل (محمود) عن القرآن تلك الليلة، إذ كنت متأثراً بروعته وقوته في الترجمة، ولم أكن أتصور أبداً أن يكون للقرآن مثل هذه الجمالية الغنائية الأصيلة.

عندما بلغت الثامنة والعشرين من العمر كنت أقمت قلعة حصينة من النقاش ضد وجود الله، ولكن عندما أخذت أشق طريقي عبر القرآن، بدأت أرى هذه القلعة تنهار حجراً بعد حجر. وما إن أنجزت قراءة القرآن حتى بقي لدي اعتراض واحد هو أني لم أستطع أن أجد رابطة بين عمل الخير والاقتراب من الله. وعندما اكتشفت أخيراً هذه الرابطة الجوهرية بفضل التأمل والتفكير في أسماء الله الحسنى، تبين لي أن الأمر بسيط جداً بحيث عجبت كيف لم أستطع استنباطها وحدي. ومع ذلك، ساعدتني قراءة القرآن على إضاءة أفكاري وتنظيمها وترتيبها حسب الأولويات وتحليلها. لقد نفذ القرآن ما وعد به، إذ أرشدني من خلال أسئلتي - شريطة أن يكون لدي الرغبة في مواجهة الأجوبة - ولكني لم أعد متأكداً ما الذي تعنيه هذه التجربة، لأن نظرتي كانت تختلف عن نظرة القرآن فيما يتعلق بما نسعى إلى تحقيقه، كنت أسعى لأكسب النقاش، بيد أن القرآن يسعى لكسب النفس عن طريق تحذيراته المستمرة من العواقب الوخيمة التي تترتب على رفض آيات الله.

كنت أشعر خلال مواجهتي للقرآن أني كنت المعتدي دائماً، إذ أطرح قضيتي ضد الكتاب بجرأة. وكنت أشعر دوماً أني أحتفظ على الأقل بشيء واحد في موقع الدفاع، وكان يغرر بي كجورج كستر (George Custer) إلى مواجهة خلافات وفروق غامرة. لقد ظهرت معضلتي في تلك اللحظة من العواطف القوية الغامرة عندما تذكرت أسماء الله الحسنى، حيث شعرت أن التيار أصبح ضدي في تلك اللحظة. ومع ذلك فإني الآن في حالة تراجع، لست على وشك الاستسلام. كنت بحاجة إلى تجميع أفكاري ومراجعة موقفي ودراسة بعض الأسئلة والقضايا.

يبدو لي أن للقرآن رؤيةً شاملة للحياة. وأهم فكرة يطرحها القرآن فيما يتعلق بهذا الموضوع هي أن الحياة على الأرض ليست عقوبة على خطيئة أحد أو على أي إثم، بل هي مرحلة تنموية تطورية في خلقنا. لم تقع الكائنات البشرية في الخطيئة، إذ ربما كانوا في زمن ما من الماضي بدائيين لم يصلوا بعد إلى النضج الفكري الذي يؤهلهم للتفريق بين الصواب والخطأ والاختيار بينهما، ولكن

القرآن لم يطرح هذه الصورة كمرحلة مفضلة. إلا أنّ ما يميّز البشر من بقية المخلوقات هو عقلهم وذكاؤهم، الذي يجعلهم متعلمين متفوقين؛ وهذه السمة جعلتهم متفوقين على الكائنات المخلوقة الأخرى. يخبرنا القرآن منذ البداية في قضية آدم أن البشر سوف يقدرون على تمثيل الله في الأرض. وعليهم أولاً أن ينمُّوا مقدرتهم على التفريق بين الخير والشر - أي إنهم بحاجة لأن يكونوا عناصر أخلاقية - ولم يتم ذلك حتى اكتسب الرجال والنساء القدرة على الاختيار بين الخير والشر والصواب والخطأ، وأصبحوا جاهزين للاضطلاع بمسؤولية الخلافة.

إن تمثيل الله في الأرض تعد مهمة ثقيلة وخطيرة تتطلب مقدرات عالية من التواضع والتضحية الذاتية والصبر. ويعني هذا التمثيل بذل أقصى الجهد ليصبح المرء أداة لله توصل ما يوحي به من خير إلى الآخرين. وتتطلب النمو في الفضائل التي ترجع أصولها وكمالها إلى الله، ومشاركة كل من نستطيع في الخير الذي نملكه. ويؤكد القرآن أن هذه المهمة ليست سهلة - فهو يصفها ويشبهها بصعود الجبل (الكدح)، ولكنه يعد بأن تكون المكافأة كبيرة. وليس على التقي أن يصل إلى السلام الداخلي والصحة النفسية، فحسب، بل عليه أيضاً أن ينمي مقدرته ليشعر بحب الله غير المتناهي ويمارسه، لأنه كلما خبرنا جمال الله وأدركناه أكثر، ازدادت قدرتنا على الانتماء إليه، في هذه الحياة الدنيا، وفي الحياة الآخرة.

يتصف مفهوم الحياة وغايتها بتوجه عقلاني محدود، ولكن هل يفسر وجودنا الأرضي؟ ألا نستطيع خلق الخير، وبرمجة أنفسنا لنكون رحماء عطوفين، لطفاء، عاملين، صادقين من دون أن نعيش من خلال آلام الكفاح الدنيوي وصعوباته؟

ليس الزمن هو القضية هنا. فأنا لا أبحث مسألة طول مرحلة خلقنا هذه، لأن الزمان، كما ينبئنا القرآن، شيء وهمي، ولأن الله يتجاوزه ويتجاوز المكان ويسمو عليهما - أي البيئة الزمنية التي نعيش فيها، لأن الله دائماً واحد - لحظة فريدة خالدة خارج الزمن - وهكذا، سواء ثَمَّ خلقنا عبر قرون عديدة أو في جزء

من الثانية فتلك مسألة لا صلة لها بالموضوع ما دام الأمر عند الله ليس سوى أمر واحد: «كن فيكون»[١]. وعلى الرغم من أنني لا أعترض على الزمن، فإني تفحصت ضرورة وجود مظاهر معينة أخرى من مظاهر الخلق، وخصوصاً المعاناة البشرية.

من أهم الأفكار التي يطرحها القرآن هي أن الله يخلق باستمرار وعلى مراحل. فالأشياء لا تظهر في شكلها النهائي من لا شيء، بل تسير في مساق مستمر من النمو والتطور. ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: ١٠/ ٤]. ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [النمل: ٢٧/ ٦٤]. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٢-١٦]. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ١٩-٢٠]. ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦]. ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٧٥/ ٣٦-٣٨]. ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٤]. ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ١٤-٢٠].

بالإضافة إلى أن الله يخلق الكائنات، فإنه يوجه تطورها ويرعاه. وهكذا فإن

---

(١) انظر ص ١١٢ - ١١٤.

المخلوق يصبح كينونة متغيرة باستمرار. فالعالم المدرك بالحواس خاضع للجريان والتغير، الله وحده، فقط هو المطلق.

يبين القرآن، في معرض إشارته إلى آليات عمل الطبيعة، كيف أن الله يزود كل مخلوق حي بالبيئة والتكوين والقوانين الملائمة لوجوده ونموه. فالشجرة مزوَّدة بالتربة، والشمس، والمطر، والهواء، والقانون الوراثي، وكل ما يلزمها لتعيش وتنمو. وهذا نفسه ينطبق على أي مخلوق آخر بما في ذلك الإنسان. على أي حال، يذكرنا القرآن بأن نمونا الأولي والجوهري في هذه الحياة ليس نمواً مادياً، بل هو نمو روحي، فنحن هنا على الأرض لكي ننمو في الفضائل التي تعكس أسماء الله الحسنى وكماله، ومن ثم يصبح السؤال على النحو التالي: هل نحن مزودون بالبيئة والقانون الملائمين لنمونا الروحي؟ وإن كان الأمر كذلك، هل ستكون ملائمة كذلك لو أزيلت الآلام منها؟

إن مفتاح الوصول إلى الحقيقة هو إيجاد الأسئلة الصحيحة، الأسئلة التي تعزل القضايا الجوهرية. فعندما بدأنا تحقيقاتنا كانت أسئلتنا عامة وتحوي أسئلة فرعية في ذاتها، ولكن إن كنا مفلحين، فسوف نتمكن من تقسيم بحثنا إلى عدد من الأسئلة التي لا تتقلَّص ولا تُختزل، ومن ثم نجيب عنها واحداً تلو آخر. هذا ما ساعدني القرآن على عمله. لم يزودني دائماً بأجوبة واضحة، ولكنه كان يرشدني من خلال عملية التساؤل. وعندما وصلت إلى السؤال المذكور آنفاً قبل لم أتعب في البحث عن جوابه. فالأمر واضح بأننا مزودون ببيئة وقانون ملائمين لنمونا في الفضيلة. وهناك أمثلة كثيرة عنَّا، وعبر تاريخ الشعوب التي وصلت إلى أعلى مستوى من الخير والعمل الصالح. وهناك أمثلة عديدة لحالات درامية تتعلق بمجرمين انقلبوا في النهاية إلى صالحين يضرب بهم المثل في الفضيلة. ففي حياتي الخاصة واجهت فرصاً عديدة للاختيار بين الصواب والخطأ، عرفت بفضلها نتائج الشر المدمرة، ونتائج الخير المعمّرة. وعلمت بفضل ملاحظاتي وخبرتي أن السلوك الخاطئ والسلوك الصحيح يغدوان عادة تتأصل في شخصية المرء.

وأصبح الأمر واضحاً لي الآن بأن المعاناة ضرورية لنمونا في الفضيلة. وينطبق القول نفسه على العقل البشري والإرادة البشرية. إذ يؤكد القرآن على كل من المعاناة والعقل والاختيار، بصورة متكررة، ويؤكد أن لها جميعاً أدواراً في تطورنا الروحي. إن عملية تعلم كيفية النمو في الرأفة، مثلاً، لا يمكن أن تدرك من دون المعاناة. وتحتاج كذلك إلى ميزة الخيار - أي المقدرة على الوصول إلى من هو بحاجة أو أن تتجاهله. والعقل ضروري ليتمكن المرء من تقدير ما يجب توظيفه من طاقات المرء في إبداء الرحمة والرأفة إلى الذين يعانون. وبالمثل كون المرء صادقاً يتضمن اختيار الصدق، كما يتعزز الصدق عندما يؤدي إلى خسارة شخصية ومعاناة يمكن التنبؤ بهما باستخدام العقل. فالزواج الشهير الآن الذي يطلب من الزوجين أن يلتزم بعضهما ببعض في المرض والصحة، في الغنى والفقر حتى يفرق الله بينهما، يعترف بدور الخيار والمعاناة والعقل في الحب. لأن القسم يطلب من الزوجين البقاء معاً بغض النظر عن المعاناة التي ربما يواجهانها مدركين تماماً ما الذي يستدعيه ذلك. والعفو يعد خياراً للصفح عن خطيئة ارتكبها آخر حتى وإن أدركنا مدى الشر الذي أحدثه. وينطبق القول نفسه على الفضائل كلها مثل العقل، والإرادة، والمعاناة حيوية لنجرب هذه الفضائل وندركها.

على الرغم من أن الفضائل أمور مجردة وصعبة التحليل فإنه من المستحيل تخيلها مبرمجة، ومن المستحيل وجودها على مستويات عالية في مخلوق لا يملك القدرة على الاختيار، ولا العقل، وليس لديه معرفة بالمعاناة إلا قليلاً. فعمل الفضيلة أكثر من مجرد عمل، إذ له غاية، وفهم، ومحسن يرتبط به. يمكن برمجة الحاسب ليكون صحيحاً دائماً، ولكننا لا نستطيع وصفه بالصادق أو بالحكيم. وسماعة الطبيب تساعد المريض، ولكننا لا نستطيع وصفها بالجهاز الرحيم. والقرآن يبين أن الملائكة لا يملكون إرادة حرة، وأن الرجال والنساء قادرون على الارتفاع فوقهم.

إن ما يجعل العمل فاضلاً وصالحاً هو إرادة فعله، واستحسان الحاجة التي يتوجه إليها ذلك العمل. فإن ألقيت بقشرة موز في الطريق، وبعد بضع ساعات

زلقت بها قدم لص وهو في طريقه ليسرق شخصاً مسنّاً فمنعه انزلاقه هذا من ارتكاب جريمة السرقة، فإنه لا يمكن أن يعد إلقائي لقشرة الموز سلوكاً عادلاً أو رحيماً من جهتي. إذ إن منعي للجريمة كان غير مقصود أبداً، ويفتقر للإرادة والفهم. وإذا أرسلت خمسة دولارات من دون بيان المرسل إلى ملياردير، فإنه لا يكون إحساناً لأن هذا العمل وُجِّه إلى من ليس بحاجة إلى المال. ولا يعني هذا أن الإرادة والعقل والحاجة المدركة، هي المكوّنات الوحيدة للعمل الصالح - فهو أكثر تعقيداً وعمقاً من ذلك - إذ لابد من وجود هذه العناصر الثلاثة قبل القيام بأي عمل صالح.

علق مدرب الرياضة بجامعتنا إعلاناً في غرفة ملابس الرياضيين مفادها: «لا ألم، لا فوز» بمعنى أن تحسين الأداء الرياضي يتطلب منا الرغبة في المعاناة. واعتاد أستاذي أن يقول دائماً: إن التعلُّم يتطلب اجتهاداً وصبراً. وقال لنا مدرس الرياضيات ذات مرَّة: إن المسائل الصعبة هي التي نتعلم منها أكثر. لم أشك أبداً في أي من هذه البدهيات، لأنها واضحة وطبيعية. ويشير القرآن إلى أن القانون الطبيعي نفسه ينطبق على التنمية الروحية، فالكائنات البشرية مخلوقات متفوقة العقل الذي ينمو بالتعلُّم، ولكن التعلُّم يستلزم الاختبار، وهي نقطة يكررها القرآن دائماً. إن النمو الأخلاقي والروحي يتضمن تدريب إرادة المرء، واستخدام العقل وتنميته، ومعاناة المحن.

إن ممارسة الاختيار الأخلاقي يتطلب كذلك معرفة الصواب والخطأ في خياراتنا التي تبين إن كنا قد تعرضنا للإيحاءات الملائكية أو للوساوس الشيطانية. فكلاهما (الشياطين والملائكة) يمارسان نشاطهما علينا بآن واحد ليثبتوا ويعززوا أخلاقية كثيرٍ من قراراتنا، ويقدموا معاً دوافع ومحفزات للتنمية الروحية. وللوحي دور تكميلي لأنه يصف السلوك التقي والسلوك الشرير، ويضيء الطريق للنمو الروحي.

كنت قد بدأت أرى العناصر كلها التي قدمها القرآن في قصة آدم منسجمة مع

ما يقوله القرآن بشأن غاية الحياة. وكانت مناقشاتي ضد وجود الله آخذة في النفاد بسرعة. ذلك بحد ذاته لا يبرهن على شيء، ولكني ألفت التفكير بأن لدي سبباً وجيهاً يجعلني ألّا أومن. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠-٣٩].

الممارسة، الممارسة، الممارسة

نشأت في بيئة إجرامية نوعاً ما؛ فكل ما عرفته كان غير شرعي. فأنا لم أتعاطَ المخدرات ولا المشروبات الروحية، لأني رأيت الإدمان يدمر والدي، وإخوتي الأربعة وعمّي وكثيراً من أصدقائي. لم أتورط أبداً في اغتصاب جنسي ولا في ممارسة الجنس مع قاصر، رغم توافر الفرص. وكنت أتحاشى قدر الإمكان مشاحنات الغوغاء وعنف الجيران، لأنني لم أكن أخطط كي أقضي حياتي في بريدج بورت (Bridgeport) أو في كونيكتكت (Connecticut) أو في إصلاحية الولاية. لقد قضيت حياة مستقيمة إجمالاً، ولكني لم أكن محصناً ضد الرذيلة.

فقد اقترفت أول سرقة في عمري من سوبرماركت عندما كنت في الحادية عشرة من عمري. إذ أخذت علبتين من العلكة تزن كل منهما ثماني أونصات،

ثمن كل منهما خمسون سنتاً؛ كنت يومها عائداً إلى البيت من مدرسة القديس أندرو (St. Andrew). كنت متوتراً جداً بحيث استغرقت خمس عشرة دقيقة حتى نزعت المسروقات. كنت أود حمل العلبتين إلى المخرَجِ، ولكني خشيت أن يراقبني أحد، فحملتهما عائداً إلى قسم الحلويات. وبعد أن فعلت ذلك عدة مرات، قررت إخفاءهما قرب باب المدخل الآلي على الأرض داخل المخزن. كانت خطتي أن أترك المخزن خالي اليدين، ثم أعود وأطأ على المدخل المطاطي لأفتح الباب الآلي، وأتناول العلبتين المخبأتين وأعود خارجاً من المدخل قبل أن ينغلق خلفي. شعرت أن هذه الطريقة أسلم فيما لو خرجت من باب الخروج والعلبتان تحت قميصي، وقدرت أن موظفي أمن المخزن يراقبون أبواب الخروج ولا يراقبون أبواب الدخول. إضافة إلى أنني إذا لم أجِدِ العلبتين مكانهما عندما أعود إليهما، سأدركُ أنني كنت مراقباً.

إن خطتي - التي تبدو مضحكة عندما أفكر فيها الآن - قد مرَّت من دون عقبات، والتقيت أصدقائي في المتنزه خارج المخزن. كان قلبي يخفق بقوة وأنا أصف لهم مأثرتي. شعرت بالراحة لأنه لم يُقبض علي، وكان أصدقائي لا يقلون عني فرحة بنجاحي، وعاملوني كبطل فاز بالضربة الحاسمة في لعبة كرة قدم. ولكن نشوتي وحماسي تلاشيا لحظة دخولي البيت. فمجرد رؤية أمي جلبت لي الشعور بالذنب. كانت أنموذجاً للأمانة، وكانت تثق بي كثيراً. وأدركت كم أسيء إليها، وأسبب لها الأذى إن علمت بما فعلت.

وجدت صعوبة في النوم تلك الليلة. شعرت بقلق ثقيل مستبد. لم أستطع التوقف عن التفكير في جريمتي، ولم أستطع التوقف عن التفكير في الله. شعرت كأنه يحيط بي، ينظر إلي، ليس بغضب، بل يراقبني بصورة حيادية غير آبه بي، وشعرت بخجل مريع. تمنيت لو أستطيع تخليص نفسي من ذلك اليوم، ومحوه من حياتي أو غسله ومسحه كلياً. تمنيت لو أستطيع إعادة علبتي العلكة، ولكني تصرفت بهما كلتيهما. فكرت أن أشتري علبتين من السوبر ماركت وأعيدهما إلى الرّف، ولكني لم أفعل.

تابعت سرقة أشياء صغيرة طيلة عشر سنوات تالية تقريباً. أعتقد أني لم أسرق شيئاً ثمنه أكثر من عشرة دولارات، وكنت أفعل ذلك حوالي ست مرات في

السنة لا أكثر. وقد أصبحت في الوقت المناسب ماهراً في السرقة، لم يُقبَض عليّ أبداً.

عندما بلغت الحادية والعشرين من العمر دعوتُ صديقتي إلى وجبة بيتزا في مطعم إيطالي قرب الجامعة. وعندما انتهينا من الطعام، وضعت الشيك في جيب بنطالي وذهبت إلى أمين الصندوق، وطلبت منه علبة علكة ودفعت له ثمنها بفاتورة دولار، فأعاد إلي عدة كوينات (Coins) ثم خرجت والصبية دون أن ندفع ثمن العشاء.

تعجبت صديقتي كيف سرقتُ مطعم البيتزا بهدوء. وقد تأثرت خصوصاً بالتهور الذي أبديته في ذهابي إلى أمين الصندوق طالباً علبة علكة بدلاً من مغادرة المطعم بأسرع ما يمكن. فشرحت لها أن النادلات والخدم في المدن الجامعية يراقبون الطلبة المتسكعين والمتهربين من الدفع، ولكنهم عندما يرون المرء يصرف نقوداً عند أمين الصندوق يظنون أنه يدفع الفاتورة. سألتني صديقتي إن كنت أشعر بالقلق والاضطراب من الإثم، فأجبتها كنت كذلك في الماضي، أما الآن فلم أعد أشعر بشيء، فبالممارسة يسهل كل شيء.

كان ذلك في وقت قريب جداً من الوقت الذي سرقت فيه آخر مرَّة. ورغم أني أفكر في الماضي، فإني لا أعرف ما الذي جعلني أكف عن السرقة. ربما لأن وضعي المالي قد تحسَّن قليلاً. ربما كان لذلك علاقة بابتعادي عن بريدج بورت أربع سنين تقريباً. ربما بدأت أشعر أن الأمر لم يعد جديراً بمجازفة تؤدي إلى إلقاء القبض علي. كل ما أعرفه أن الأمر بدأ يقلقني ويزعجني.

إذا كانت غاية حياتنا أن ننمو في الفضائل التي منبعها وكمالها في الله، بحيث نمارس أسماءه الحسنى والحب الإلهي إلى درجات أكبر وأعلى، وإذا كانت الأعمال الصالحة تعزز هذا النمو، والأعمال الطالحة تحبطها، فإن الذي يربح أكثر من فعل الخير، أو يخسر أكثر من فعل الشر هو الفاعل، وبذلك يقول القـــرآن: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠

عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٤]. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٩٢]. ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦]. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤١].

إن الأذى الذي يصيب فاعلي الشر نتيجة لارتكابهم أفعال الشر باستمرار يُعد أذى حقيقياً جوهرياً. إذ إن الشرور تعيق النمو في الفضيلة وتسبب تآكلاً في الروحانية بحيث يصيب الذين يرفضون الصلاح والتقوى معاندين أذى عنيف، ويعانون من الاضمحلال الروحي، فبدلاً من اكتساب ما يلزم لمعرفة الهدوء والسكينة في الحياة الآخرة، فإنهم يكتسبون عكس ذلك تماماً؟ إنهم ينمُّون صفات مناقضة لتذوق الجمال الذي ينتظرهم في الآخرة لولا فعالهم الشريرة. كما يسيطر عليهم الشر الذي ألفوه بحيث يصبحون هم الشر بذاته، وذلك هو الخسران العظيم؛ لأن النفس وحدها فقط هي التي تذهب إلى الحياة الآخرة.

يصور القرآن هذه الرابطة بين أعمال المرء وحاله في الآخرة برمزية مثيرة ممتعة. ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٣]. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٣]. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٣٦/ ٨].

وسوف تشهد ألسنتنا وأيدينا وأرجلنا وجلودنا على حياتنا التي عشناها في الدنيا ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤/ ٢٤]، ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٣٦/ ٦٥]، وسوف نأكل ثمار أعمالنا ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ

ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٣٩-٦٨]. إن العمى الروحي في هذه الحياة سيكون عمى وضلالاً في الآخرة ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٢].

والذين يعيشون في نور الله في الحياة الدنيا سيجدون يوم البعث نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٦٦/ ٨].

وما من عمل أخلاقي أو معنوي صغيراً كان أم كبيراً إلا وتظهر نتائجه في الآخـــرة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٩٩/ ٧-٨].

توحي هذه الأوصاف بأننا عندما ندخل الحياة الآخرة تجسّد أشخاصنا حالتنا الروحية التي وصلنا إليها في آخر الحياة الدنيا. كما تبين حالة الوليد الفيزيائية عندما يأتي إلى هذا العالم تطوره ونموه الفيزيائي في رحم أمه، كذلك سوف يبين المرء عندما يدخل الحياة الآخرة مدى الخير والشر الذي اكتسبه في الحياة الدنيا. ومَثَلُ من يدخل الآخرة شريراً كمثل من يولد مشوهاً مجرداً مما يلزم للراحة الجسدية والمادية.

إذن ليس غريباً أن يكون الإثم مساوياً لتدمير الذات. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٥٧]، ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ

عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٠]. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٩]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ٦٥/ ١]. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٧]. ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٧٠]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٣٣]، ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٠]، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٩]. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١١/ ١٠١]. ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣].

لا يؤكد القرآن على الكمال قبل نيل السعادة العظيمة في الآخرة. إنه يعرض هذه الحياة كطور من أطوار تطورنا ونمونا، ذلك الطور الذي لابد أن نرتكب فيه أخطاء، وأن نتعلّم من هذه الأخطاء. ومن الرموز الإسكاتولوجية[١] التي تربط النمو الأخلاقي والنمو الروحي بحالتنا يوم البعث هو الميزان الذي يزن الأعمال

(١) أي الإيمان بالأخرويات كيوم القيامة وغيرها من عوالم الغيب (المترجم).

الصالحة يوم الحساب. فأما من ثقلت موازينه - الذي عمل الصالحات - فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه - الشرير- فأمه هاوية(١).

التجربة والخطأ يؤديان دوراً جوهرياً في تطورنا خلال تعلمنا من خياراتنا ونمونا فكرياً وروحياً. عندما يكون للخطأ الذي نرتكبه تداعيات أخلاقية فإنه يصبح إثماً، وتزداد خطورته وأذيته مع إدراكنا الخطيئة ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ٤/١٧-١٨]. ومع ذلك إذا ما أدركنا أخطاءنا وندمنا وعملنا الصالحات بعد ذلك تكون الدروس التي تعلمناها مفيدة بوجه خاص، وبهذه الطريقة يتحول الذنب الذي ارتكبناه ذات مرّة إلى مصلحتنا، ويسهم في نمونا في الفضيلة. ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٠].

إن الإحجام عن ارتكاب خطيئة لأننا حُذرنا من ارتكابها شيء، وعدم العودة إلى الخطيئة لأننا لمسنا ضررها شيء آخر. إذن في الحالة الثانية تصبح الحكمة الكامنة وراء التحذير مطبوعة في القلب والعقل، لا نقترب من الشر لأنه محرم، بل لأن الذات تتراجع عنه غريزياً عند مشهد العودة إلى الاضطراب الداخلي الذي عانت النفس منه ذات مرّة.

تماماً كما أن التجربة والخطأ ضرورتان حيويتان لتطورنا الفكري، كذلك هما ضرورتان حيويتان لتطورنا الروحي. إذ من دون احتمال الوقوع في الخطيئة

---

(١) ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٨-٩]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ٤٢/١٧]، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ [القارعة: ١٠١/٦-١٠].

وإدراك الوقوع فيها ومن دون إصلاح الخطأ فإن روحانيتنا ستصاب بالجمود المخزي، وهكذا لا يمكن التقليل من أهمية التوبة التي يدعونا إليها القرآن باستمرار. فالتوبة تجمع بين قبول الخطيئة مع الرغبة في التعبير، ولكن التحول الشخصي يمكن أن يكون بالغ الصعوبة. يبين القرآن أن الله لا يترك التائب يكافح وحيداً، بل يصله بالعفو. يتضمن هذا العفو أكثر من غفران، لأن الله يستجيب لتوبتنا ويساعدنا بإحاطته لنا بحبه ورحمته ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣١]. إن الله يرشد التائب إلى العودة الروحية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٨]. يذكر القرآن باستمرار أن الله يتوب على المذنب التائب المنسحق الفؤاد بسبب الشعور بالإثم، محيطاً إياه بالرحمة والعفو واللطف مذكراً إيانا بالطريقة التي يعود بها الوالدان على أطفالهما المصابين بأذى، وكلما ورد الاسم الإلهي (التوّاب) في القرآن فإنه يقترن بعفو الله وغفرانه، الأمر الذي يعزز الانطباع بأن عفو الله هو رحمته التي يحيط بها أولئك الذين يخطئون ويسعون إلى الخلاص[1].

---

(١) ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٧]، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٢/ ٥٤]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٠]، ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٦٤]، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٤]، ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٨]، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/ ١٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا =

ليس لكل الخطايا التي نرتكبها وزن واحد، إذ يسبب لنا بعضها أذى وضرراً أكثر من بعضها الآخر. إضافة إلى أن الأعمال الصالحة تعوض النتائج السيئة للأعمال الطالحة، وأن المكافآت الإيجابية للخير تفوق كثيراً نتائج ارتكاب الأخطاء. ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٣١]. ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٦-٣٧]. ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٣/ ٣٢]. ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١/ ١١٤]. ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٤].

تؤكد هذه الآيات مرَّة أخرى أن الإحجام عن ارتكاب الخطيئة إطلاقاً ليس مطلوباً لدخول الجنة في الآخرة، لأنه لا يخلو أي منا من عيب، فالإنسان ليس كاملاً، لذلك نرى أن الآية (٣٢) من سورة النجم تقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ إنه لا ينبغي لأحد أن يدعي النقاء والصفاء. وبدلاً من ذلك يحثنا القرآن على الكفاح وبذل الجهد، كي ننمو في الفضيلة؛ لأن رحمة الله ورأفته هما اللذان يُطهراننا في النهاية.

ومع ذلك هناك ناسٌ يخفقون في تخليص أنفسهم من الرذائل الخطيرة (الكبائر) التي ارتكبوها، بالرغم من أنهم يحبون الله ويتعذبون بالندم. ويوحي القرآن أنه حتى مثل هذه الخطايا الخطيرة لا تقود دائماً إلى المعاناة في الآخرة. ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣].

= فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٢]، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١١٠/ ٣].

ومع ذلك فهناك إثم خطير يقود حتماً إلى الهلاك، ذلك هو الرفض الإرادي في التخلي عن الآلهة المزيفة، لأننا إذا ما وضعنا الثروة والقوة والشهوات والكبرياء والناس ومنجزاتنا أو إبداعاتنا فوق الله فإننا نضع أنفسنا في معارضة مباشرة وكاملة للغاية من خلقنا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٤٨][١].

من أكبر المخاطر التي يتعرض لها الآثم غير التائب أنه يجلب الأذى لمركزه الروحي والأخلاقي، أو إلى ما يشير إليه القرآن بـ(القلب). ليست عيونهم هي التي تصاب بالعمى، كما يقول القرآن، بل قلوبهم التي في صدورهم ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٦]. إذ يؤكد القرآن أن قلوب هؤلاء تغدو مظلمة، محجوبة، صدئة، قاسية، لا يصل إليها الهدى، في حين تغدو قلوب الصالحين لينة، حساسة، تستقبل نور الله الهادي[٢]، وكلما زاد إصرارنا على ارتكاب الخطيئة، تعاظم تحجر عاطفتنا وعدم إحساسنا بالشرِّ الذي ينجم عن الخطيئة. وعلى الرغم من أن الله يعزو تغليف قلوب المذنبين المتمردين إلى الله، فلا ينبغي أن نستخلص أن الإثم لا أثر له في ذلك. لأن القرآن دائماً يعزو إلى الله ما يحصل وفق قوانين الطبيعة المتمثلة بـ(العلّة والمعلول) التي أخضع الله الخلق كله لها. إن الله يفلق حبة القمح ونواة الرطب، ويفلق الصباح، ويسوق الغمام وينزل المطر، ويغرس الجبال في الأرض، ويمسك الطير في السماء، ويعلِّم القلم كيف يكتب، ويعلم الجنين في الرحم[٣]. وفي الوقت نفسه

---

(١) انظر كذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٤/ ١١٦].

(٢) الآيتان: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٧٤]، ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ٨٣/ ١٤].

(٣) الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ =

تتبع هذه الظواهر قوانين ثابتة يشير إليها القرآن بـ(سنن الله)[(١)]، وينطبق القول

= وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٢]، ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٩٦-١٠٠]، ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٢]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ١٠]، ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ١٥]، ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٢٧]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢١]، ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ١٢]، ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٥٠/ ٧-٩].

(١) الآيات: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ١٣/ ٨]، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢١]، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢]، ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٦/
=

نفسه على تغليف قلوب الكفار ما دام القرآن يبين باستمرار أن ذلك يحدث بسبب إنكارهم العنيد للحقيقة. إنه هذا الشر الذي يكتسبه الكفار هو الذي يغلف قلوبهم كالصدأ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ٨٣/ ١٤]. ذلك لأن الكافرين يتبعون شهواتهم وقلوبهم غُلف ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٤-١٦]. إن الله لا يجبر الناس على الكفر بآياته، بل إن قلوبهم تزداد قساوة بفضل نزعتهم الشريرة ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٧٤]. وكما اعتادت أمي أن تقول: «إذا كذبت مدة طويلة من الزمن فإنك تصدِّق كذبتك». هذا هو الجانب السيئ مما لاحظناه من قاعدة مفادها أنه كلما ازداد نمونا في الخير، ازدادت قابليتنا لتلقي أسماء الله الحسنى، وبصورة خاصة، لتلقي الحقيقة.

لا إنكار له

كنت، ومازلت، أكره التردد. لم أكن أهتم بوجود هذه الصفة عند الآخرين، ولكن لم أكن أتحمل مثلها عندي. ومع أني لم أفعل شيئاً بشأن تجربتي مع القرآن مدة أسابيع بدت لي وكأنها سنوات عديدة. فذلك لا يعني أنني لم أفكر بمواجهتي مع الكتاب - بل بالعكس، كان دائماً يشغل بالي - ولكن لم يكن

= ٣٨-٣٩]، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٩]، ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: ٨٠/ ١٨-١٩]، ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١-٣].

لدي خيار أتخذه، إذ لم تُطرح أمامي خيارات عملية. ما الذي ينبغي فعله، وإلى أين يجب أن أذهب الآن؟ لو فرضنا جدلاً أن القرآن هداني - بالرغم من أني ملحد - إلى ما يعد في نظري على الأقل عقيدة منسجمة منطقية، فقد كانت لدي الرغبة في الاعتراف بأن الوحي قد أثَّر فيَّ بطرق لم أتوقعها من قبل، إذ بدا وكأنه أيقظ فيّ روحانية كنت أنكر وجودها في نفسي وسيطر عليها. وصحيح كذلك أني لم أكن أستوعب أن كتاباً بهذه القوة وهذا الجمال وهذه العبقرية يمكن أن ينشأ من أرض بدائية يباب في العالم القديم. بيد أن أياً من هذه الأمور لم يبرهن لي على وجود الله حقاً وأنه هو الذي أنزل القرآن.

لم يكن هنا أحد يأخذ بيدي إلى الخطوة التالية. انتهى القرآن بالنسبة لي فجأة، وربما يكون عوناً لو شرح كيف أنتقل من كوني منفتحاً على احتمال وجود الله إلى الإقناع بوجوده. ولكن بدلاً من ذلك تركني في برزخ، في حالة انتقالية، ليس لدي ما أجادل فيه ضد وجود الله، ولا ما أجادل فيه لصالحه، وبدلاً من أن ينتهي القرآن بتوجهات منطقية تركني مع ثلاث نصائح، هي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١١٢/١-٤]. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١١٣/١-٥]. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١١٤/١-٦].

تساءلت في نفسي: هل ذلك سهل؟ مجرد أن تقول ما أمرت به هذه السور؟ مجرد أن يذعن المرء؟ مجرد أن تناشد؟ وماذا بعد؟ هل سيفتح الله قلبي فأرى؟ هل يوحي لي القرآن أن خوفي من شر الآخرين هو الذي يحول دوني واتخاذ الخطوة التالية؟ هل يقول لي القرآن: إن تحفيز النفس الأمارة بالسوء وحثها لي هو الذي يغويني؟

حتى لو كان الله موجوداً، ما الذي يفترض أن أفعله؟ كنت وحيداً في مواجهة كل هذه التساؤلات. كنت أعلم أنه ما من أحد خاض مثل هذه التجربة غيري.

فأصدقائي المسلمون قاربوا القرآن من منظور عقلي مختلف. إذ بدا لي أن طريقة قراءتهم للقرآن وفهمهم له ورد الفعل عليه كان معداً ومتفقاً عليه منذ زمن طويل، ومازال يُعلَّم ويحفظ عن ظهر قلب. وكانوا قلقين بشأن الردود غير الرسمية وغير المؤهلة على كتابهم. كان يبدو أنهم يقبلون فقط قراءات الأقدمين المخوّلة رغم أن القرآن يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٧][1].

ليس في خلفيتي من ينتمي إلى ما أنا بصدده، كنت لا أعرف أمريكياً واحداً قد قرأ القرآن. إذ لم يكن ذلك جزءاً من حركة، ينبغي معها على شعبي مواجهتها كما كان الحال في الجزيرة العربية أيام النبي. لم يكن لي خيار بين جانبين متنازعين، فقد عثرت على هذا الفكر مصادفةً كمن يجد زجاجة فيها رسالة على شاطئ معزول، ربما لا أكون أنا المقصود بها. ماذا لو اقتنعت بوجود الله، فهل من المفروض عندئذ أن أعتنق الإسلام، وأتشابه مع ثقافة ووجهة نظر عالمية أجنبية؟

لقد خرج ذلك كله من يدي. لقد سبحت بعيداً عن الشاطئ وجُررت إلى مسافة بعيدة بغض النظر عن صعوبة مقاومتي. لقد حدث ذلك كله ببراعة، بدأت دراستي للقرآن كتحقيق منطقي عقلي بسيط، ولكنها بدأت تأخذ بالتدريج أبعاداً روحية. واكتشفت، في أثناء قراءتي للقرآن، أن مناقشاتي الفلسفية ضد وجود الله - وكنت أعتقد أنها قوية منيعة - أضعف بكثير مما كنت أظن. وجدت أنها كانت مبنية على مجموعة مقولات لم يقبلها القرآن. ومن جهة أخرى عرض القرآن تفسيراً للوجود البشري - قائماً على افتراضات لم أفكر بها من قبل أبداً ومع ذلك بدت لي طبيعية - إذ اكتشفت تماسكاً ملفتاً للنظر. وعندما تبددت معارضاتي لوجود الله بدأت تنتابني الشكوك - الحقيقة أولاً - بشأن الإلحاد. وأعتقد أنه منذ ذلك الحين بدأت الخوض في اللحظات الروحية التي كانت غامضة في أولها ولكنها أخذت تزداد قوة وشدة كلما ازداد انفتاحي على احتمال

---

(١) كذلك في سورة الكهف الآية ١٠٩ تقول: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

وجود الله، شعرت أن التحول بدأ بصورة منطقية؛ تحولاً في تفكير كنت أتبناه إلى يقظة روحية تدريجية.

هل يمكن أن يكون هناك إله حقاً؟ يشير القرآن إلى أن لدينا معرفةً بالله متأصلة فينا - إحساساً غريزياً بكينونته - يخمد ويهب بسبب المتابعة الأحادية التفكير، أو بفضل الأهداف الدنيوية، أو بسبب النزعة الإثمية أو الغطرسة والكبرياء، ويقول القرآن: إن كثيراً من الكفار يظهرون معرفة أولية بالله في أوقات الخطر عندما يدركون أن الموت محيط بهم فيلجؤون إلى الله بصورة طبيعية وبإخلاص في أثناء هذه المحن، حيث يبدو أن الدعاء هو طبيعة أخرى لديهم. ويبين القرآن كذلك أنهم يرتدّون إلى إنكار وجوده لدى زوال الخطر عنهم. ويقول القرآن: إن هذه الأحداث العرضية تعد (آيات) ينبّه بها الله الكفار عساهم يتفكرون[١].

تذكرت يوم كنت ماشياً على بعد بضعة أميال من البيت، عائداً لدى تخرجي من بوردو (Purdue) عندما هبت عاصفة، لم يكن هناك مأوى ألجأ إليه حتى تنتهي العاصفة. كانت الريح عاتية والمطر غزيراً، والبرد شديداً، والبرق خاطفاً حتى إني هرعت في الطريق مذعوراً. وتذكرت أني في لحظة ما توسلت إلى الله قائلاً: «إن كنت موجوداً حقاً فلا تدعني أموت هنا». وبعد عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة هدأت العاصفة، ومشيت بقية الطريق إلى البيت. نسيت كل شيء يتعلق بدافعي الديني، ورأيت أن الأمر لا يعدو كونه هلعاً غير منطقي. فعلت الأمر نفسه في مناسبة أخرى على الأقل، كنت ملتزماً بالإلحاد؛ إذ لم أسمح لنفسي أن تفكر فيما جعلني ألجأ إلى الله بصورة طبيعية وآلية بالرغم أني متأكد بأنه غير موجود.

---

(١) ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٥]، ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٣]، ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٢].

كان من الصعب علي توضيح اللحظات الروحية التي كانت تنتابني في أثناء قراءة القرآن. لم أكن أعرف شيئاً كهذا. ولم أشعر بالحضور الملموس لما لا أستطيع وصفه إلا برحمة مهيمنة. لم أبحث عن هذه اللحظات ولم أسع إليها ولم أطلبها، بل - على العكس - كنت أقاومها وأبعدها عني فترة من الزمن، والذي صدمني هو أنني لم أتوقعها مسبقاً ولم أرغب فيها، ولكنها حدثت عفواً.

ربما يكون الفراغ الذي كنت أعيشه هو أكثر ما أزعجني. ما الذي دفعني إلى مشاعر العزلة هذه التي تنتابني باستمرار، بالرغم من أن حياتي الاجتماعية كانت كاملة ومليئة؟

سألت نفسي: ما الذي أريده أكثر من ذلك؟ كم من الآيات أو المناقشات أو النصوص التي وصلت إلى قلبي وألهمتني؟ كم كان يلزمني من الوقت للنظر في مرآة نفسي قبل أن أعرف نفسي؟ ألم أكن ذلك الظمآن، الضائع، المتجول بلا مرشد في صحراء المطالب الدنيوية أكافح للوصول إلى سراب خال بعد سراب؟[١].

لم كنت أنكره؟ لِمَ لَمْ أقبل ما حدث لي وأنا أقرأ القرآن؟ لم لا أسلِّم بأني فوَّتُّ فرصة تجربتي مع القرآن، ولم أغتنم فرصة الصوت الذي خاطبني بصورة شخصية، وبأني اشتقت إلى الخوف، والإثارة، والكفاح، والراحة، والألم، والكرب، وبأني أتوق إلى أن يثار ذلك الحديث في نفسي، لم أعترف بأني افتقدت الحميمية والحب اللذين شعرت بهما ثم نبذتهما؟ ما الهدف من الاستمرار في إنكار ذلك؟ لم لا أعترف بأن هذا الذي كنت أتوق له توقاً موجعاً، وأن هذا الذي كنت أفتقده وأسعى إليه، ليس سوى الله؟

لأن ذلك لم يحدث لي، أخذت أفكر. إن هذا لا يحدث لشخص يرفض الدين، وينكر الروحانية ويسخر من الإيمان، إذن لماذا أكتئب؟ لماذا لا أتخلى عنه ولماذا لا يتخلى عني؟

---

(١) انظر الآية: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٣٤].

في الثامن من تشرين الثاني / نوفمبر من عام **١٩٨٢** نحو الساعة الثالثة بعد الظهر ذهبت إلى المسجد الذي كان في قبو كنيسة القديس إغناطيوس (.Sh Ignatiuns) في جامعة سان فرانسيسكو. قلت لنفسي: إنما أنا ذاهب لأطرح بعض الأسئلة، لأن اعتناقي للإسلام كان مستحيلاً، وبعد نصف ساعة خرجت من المسجد مسلماً[١].

أسئلة

- **السؤال الخامس: (موجه من ابنتي الكبرى في نزهة أخرى من نزهاتنا)**

كان مساء بارداً منعشاً من أمسيات الخريف، وأظنني كنت أحدث ابنتي جميلة عن القرآن عندما قاطعتني قائلة: بابا، أفهم أنك عندما كنت ملحداً كان لديك أسئلة معينة حول الله لم تستطع الوصول إلى أجوبة عنها، وأنك وقعت لها على إجابات في القرآن، ولكن لم أستطع معرفة ما الذي جعلك تعتنق الإسلام؟.

فسألتها لدى تباطؤ خطواتنا: ماذا تعنين؟

فأجابت: أعني أن افتقادك لحجة في إنكار وجود الله فقط، لا يثبت وجود الله.

فقلت لها مبتسماً ابتسامة إعجاب: تلك بصيرة رهيبة!! إذ لم أتوقع مثل هذا السؤال من شخص في عمرك!!.

كانت التعليلات التي قدمتها لها عن كيفية اعتناقي للإسلام متمشية مع الخطوط التي ذكرتها في المقطع السابق. فشرحت لها أنني عندما أصبحت منفتحاً على احتمال وجود الله، بدأت أمارس تجربة روحية مكثفة في أثناء قراءتي للقرآن، فسألتني: ما الذي جعلك تظن أنها من عند الله؟ فقلت لها: لم

---

(١) تحدثت عما جرى في المسجد ذلك اليوم في كتابي: (الصراع من أجل الإيمان)، منشورات أمانا، بلتسفيل، MD، ١٩٩٤، . ودار الفكر ١٩٩٨.

أعتقد في البداية أنها من عند الله، ثم بدأت أشك أنها من عند الله، ثم ظننت أنها ربما تكون من عند الله، ثم أدركت أنها من عند الله. وبعد فترة عرفت من أين جاءت. لقد بدا لي أني كنت أعرف الله دائماً، ولكني كنت منصرفاً عنه أو كنت أعاني من صدمة روحية، فنسيته. بدا لي الأمر وكأني خارج من فقدان الذاكرة، وأعتقد أن لدينا جميعاً الإحساس الروحي الطبيعي الأساسي هذا بالله، ولكننا نتجاهله، أو ننكره، أو لا نثق به. فهل كان تعليلي مفهوماً؟

فنظرت إلي بعينيها الواسعتين العسليتين الجميلتين، وقالت: «بابا، هذا أوهى ما سمعته». فسألتها، وقد شعرت بالإحباط: «لم تقولين هذا؟». فقالت: «لأنني أعلم أني لا أعرف الله أبداً، ليس لدي إدراك لله».

تابعنا المسير. فكرت كم كنت غبياً إذ طرحت مثل هذا التوضيح، فأنا لا أفهم تماماً تحولي من الرفض إلى الشك، ثم إلى الإيمان، فكيف أستطيع أن أفهم ذلك إلى من هي في الحادية عشرة؟ فهي لم تقض من عمرها ولم تخض من التجربة ما يكفي لفهم ما كنت أقوله. حتى وإن كانت أكبر من ذلك، أنى لها أن ترتبط به ما دامت أنها لم تخض تجربة مماثلة لتجربتي؟ فهل كنت أعرف الله عندما كنت في سنها، هل كان لدي إدراك طبيعي بوجود الله؟ كل ما أذكره في حداثة سني أنني كنت أتوسل إلى الله أن يأخذ أبي.

ثم فكرت في أمر ما، فقلت لها: «جميلة، أتذكرين يوم نقلوني بسيارة الإسعاف إلى المشفى في تموز / يوليو الماضي؟» فأجابتني، وبدا عليها الارتباك: «نعم». فتابعت سؤالي: هل تذكرين كيف علّقوا بي تلك الأسلاك والأنابيب كلها، ثم وضعوني على المحفة ليخرجوني إلى سيارة الإسعاف، ولم أستطع حينها أن أتحرك وكنت أرتجف وأتنفس بصعوبة؟ فقالت حزينة: نعم. تابعت تساؤلاتي: وهل تذكرين كيف وقفتِ إلى جانبي وسألتني بصوت مرتجف إن كنت سأموت؟ فأجابت والدمع يترقرق في مقلتيها: «نعم». استأنفت الكلام قائلاً: «عندما أخذوني إلى المشفى، هل صليت إلى الله في وقت ما ذلك اليوم كي لا يميت أباكِ، ويبقيه حياً؟ هل طلبت من الله عوناً؟».

فقالت ساخطة، ربما متسائلة في نفسها لماذا أضايقها باستمرار: «نعم». فقلت لها: «وهل صليت في اليوم التالي؟» فأجابت وكأنها شاهدة كارهة في قفص محكمة: «نعم». فسألتها: «وفي الأيام التي تلت؟» فأجابت: «نعم» بصوت كأنه يقول لي كفى. فسألتها: «من علمك حينها كيف تصلين إلى الله بتلك الطريقة؟ من علمك كيف تكلمين الله؟». صمتت لحظة، إذ ربما كانت تبحث عن جواب، ثم قالت وكأنها غير واثقة من نفسها: «أنت الذي علمتني كيفيَّة الصلاة». فقلت لها: «أنا لا أتحدث عن أداء الصلاة الشعائرية الرسمية بالعربية. إنما أعني من علمك كيف تكلمين الله، كيف تتواصلين معه شخصياً؟ هل قلت لك أو قال لك أحد آخر: إن عليك أن تتصوري نفسك تكلمين الله، وإنك تفكرين بالكلمات التي تقولينها في ذهنك، وإن الله يتلقى منك هذه الكلمات ويسمعها؟». فأجابت: «لا». فسألتها: «هل بينت لك أو بيَّن لك شخص آخر كيف تكلمين الله؟» فأجابت: «لا»، فسألتها: «هل أنت متأكدة؟» فقالت: «نعم». فقلت لها: «هل علمتك أمك أو إحدى جدتيك، أو أحد أعمامك أو عماتك؟» فقالت: «لا». فسألتها: «إذن، من علمك؟ كيف عرفت ما تفعلين بصورة آلية هكذا؟» فأجابت مصرة: «لم يعلمني أحد، إنما أنا أعرف، فحسب».

إن مظهر عدم الرغبة في الاستمرار التي بدت على محياها جعلني أتمنى لو لم أفتح الموضوع ذلك اليوم، لأنه ما من أحد في العالم أحب ألا أسبب له أدنى أذى مثلها.

لكني قلت لها: «حسناً، إذن، ربما يكون لديك إدراك طبيعي لله، ربما هكذا عرفت. على أي حال، كان ذلك ما جرى لي. وبعد فترة أدركت أن الله هو الذي كان يصلني من خلال آيات القرآن والأحداث الروحية، استغرقت وقتاً حتى أدركت ذلك - ربما لأنني لم أكن واعياً من الناحية الروحية خلال مدة طويلة - ولكني بعد فترة أدركت».

- **السؤال السادس: (من لا أَدَريه من الجيل الثاني في العشرينات باحثة طبية، لديها أسئلة مماثلة عديدة من شباب من أبوين هنديين وباكستانيين).**

لماذا يُعدُّ عبادة الأوثان خطأ؟ إذ لا أحد يعتقد أن الأصنام آلهة، فما هي إلا تمثيل لمساعدتك. وعبدة الأوثان يجدون الله في كل شيء حي وغير حي. فكيف يكون إيمانهم أقل؟ فالجدال ليس بين خالق لا شكل له، وخالق له شكل، إنهم يحاولون فقط إضفاء الصفة الزمنية والمادية على (الواحد الذي لا شكل له)، فأنا لا أرى في ذلك ما يعد خطأ.

يبدو أن السائلة تسأل عن البوذية لأن رسالتها تشير إلى خلق «ممثل يساعدك»، وإيجاد «إله في كل شيء حي وغير حي» و«خالق لا شكل له»، و«الواحد الذي لا شكل له». فالهندوسية دين واسع ذو نظام متعدد الوجوه وكي ننصف السؤال يتطلب معرفة أكثر مما أعرف، وأكثر بكثير من بضع صحائف[1]. ولكن في حين جرّدت نفسي من أهلية تقويم الهندوسية، أشعر أن لابد من قول بضع كلمات، على الأقل، بشأن نقد القرآن لعبادة الأصنام، ما دام ذلك يعد من مواضيعه الكبرى.

القول بأن القرآن يدين عبادة الأصنام يعدُّ قولاً مبسطاً للغاية، وينتقص من أهمية الفكرة. إن ما يعرضه القرآن هو الشرك (الذي يترجم عادة إلى الإنكليزية بـ idol worship) الذي هو أوسع وأعم من عبادة الأصنام. فكلمة (شرك) مقترنة بالفعل العربي (شَرَكَ) الذي يعني المشاركة و«أن تجعل شخصاً زميلاً لشخص

---

(١) لابد من الإشارة إلى أن غالبية الهندوس العارفين في الدين يعترضون على مساواة عبادة الصورة التي تحدث في الهندوسية بعبادة الأصنام (أي عبادة أشياء مادية كإله). وهكذا جاء في كتاب (الهندوسية) للكاتب ك. م. سين (K. M. Sen) منشورات بنغوين، ١٩٩٩، ص٣٥، ما يلي: «ليس في الفلسفة الهندوسية أي تناقض بين الإيمان بالله الكلي الوجود، المهيمن، المحيط، وعبادة آلهة وآلهات متنوعة من الآلهة الهندية، إذ يمكن أن تساعد الصورة في الطقوس الدينية، على تركيز العبادة، ونظرياً لا تمثل سوى صور خيالية للمظاهر غير المحدود لله الواحد المهيمن».

آخر»، و«أن تقرن شيئاً أو شخصاً بآخر». و«أن تجعل شيئاً أو شخصاً قريناً لآخر». يدل المصطلح في القرآن على تعيين حصة من ألوهية الله وسموه إلى آخرين. إن أقسى وأبشع دلالات (الشرك) هي تأليه الموضوعات الملموسة كالأصنام المنحوتة أو الأجرام السماوية. وربما يتضمن كذلك عبادة آلهة من ابتكارنا. وفيما يخص الآلهة التي يبتكرها الإنسان يقول القرآن للمشركين العرب: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [النجم: ٥٣/ ٢٣][1]. ربما تمثل الأصنام أحياناً صفات بشرية. وهكذا، عبد المشركون، في أيام النبي وُدّاً وسواعاً ويغوثَ ويعوق ونسْراً، وهي تمثل على التوالي الذكورة والجمال، والقوة الوحشية والسرعة (الرياضة) وحدة البصر (البصيرة) ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٧١/ ٢٣][2] وربما تمثل الأصنام كيانات روحية، أو أنبياء أو قديسين متوفين، يسعى المشركون إلى شفاعتها. فالوثنيون العرب، مثلاً، كانوا يتصورون الملائكة آلهة - إناثاً يصلون لها طالبين شفاعتها، وكثير من المسيحيين يصلون للمسيح، ومريم، وقديسين آخرين، معتقدين أنهم القديسين يستطيعون التوسط بين الداعي وبين الله. القرآن يرفض هذه التصورات لأن الأموات، -كما ورد فيه- لا يدركون ما يجري على الأرض ولا يقدرون على الاستجابة لدعاء أهل الأرض[3]، ولأن

---

(١) النص الكامل للآية هو: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾. انظر كذلك: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٤٠].

(٢) إن نقد القرآن العرب في الجاهلية يمكن أن يوجه كذلك إلى النزعة البشرية لتأليه هذه الصفات في الرجال والنساء.

(٣) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ٥/ ١٠٩]، ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ٥/ ١١٦-١١٧]، ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٢١].

الملائكة أدوات روحية لا تفعل إلا ما يأمرها الله به. فضلاً عن أن القرآن يؤكد أنه ما دام الله عادلاً ورحيماً بلا حدود أكثر من أي مخلوق خلقه فإن شفاعة المخلوقات لا لزوم لها(١)، كما يبين أن الشرك يمكن أن يأخذ شكل عبادة الأحياء من الناس، كما كان حال المصريين والفراعنة. ويضرب أمثلة لأشخاص جعلوا من النجاح في الدنيا غاية عبادتهم، ويقول في من يؤلهون رغباتهم: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٤٣]، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢٣].

بغض النظر عن كل مظاهر الشرك، فإن فيه عنصراً مشتركاً هو عبادة غير الله، وبما أن العبادة في القرآن تتضمن وقف النفس لآخر، فإن الشرك يتضمن، بشكل أو بآخر، استسلام النفس إلى شيء أو شخص آخر غير الله أو تخويله سلطة مطلقة، سواء أكان موجوداً في الواقع أم مُتوهَّماً من نسج الخيال. لذلك فإن السياسيين عندما يولون المصالح الوطنية والمالية والسياسية والعسكرية أسبقية وأولوية على الاهتمامات الأخلاقية فإنهم يمارسون شكلاً من الشرك. ويصح القول نفسه في أولئك الذين يرفضون مراجعة موقعهم الديني خشية أن تقلب

---

(١) يقول القرآن مثلاً في مسألة نبوة المسيح لله: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٤/ ١٧١] وكلمة وكيل تعني حرفياً (الممثل الشرعي) أو «الذي يدافع عن حقوق الآخرين ومصالحهم». وفي اللغة العربية الحديثة مستشار الدفاع، أو محامي الدفاع يسمى (وكيلاً). وتضمين الكلام يعني أن الله ليس بحاجة إلى ابن ليتوسط بينه وبين البشر، وليس بحاجة لخلق مخلص للبشر. انظر كذلك: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٨٧-٩٣]، ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٦].

تقاليدهم أو موقفهم الاجتماعي ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٧٠][١].

إن الشرك، كما يبين القرآن، لا يتضمن إنكاراً لوجود الله بوصفه الكائن الأعلى، بل يضع شركاء له وأنداداً يُعتقد أنهم يتصرفون على أنهم مصادر سلطة إضافية من مصادر الإرشاد الإلهي. وكثيراً ما يُمنح الزعماء الدينيون والعلماء مثل هذا الدور. ومن ثم يبين القرآن أن اليهود والنصارى قد ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/ ٣١].

من أكثر أشكال الشرك سوءاً وانتشاراً ترويج الخطيئة على أسس دينية، فقد استخدم بعض الصهاينة الكتاب المقدس للدفاع عن طردهم الفلسطينيين من فلسطين، ومفهوم المهمة الإلهية استخدمه المستوطنون الأوربيون لإضفاء الشرعية على طرد سكان أمريكة الأصليين الذين وصفوهم بأنهم (قوى شيطانية). وشنت اليابان حرباً وحشية على الصين باسم هيروهيتو (Hirohito) الإمبراطور المؤله[٢]. كذلك شجَّع بعض المسلمين العسكريين في العصر الحديث على قتل المدنيين باسم الله. وعذّبت الكنيسة (الهراطقة) وأعدمتهم في أثناء محاكم التفتيش. وكان الناس في شبه الجزيرة العربية خلال القرن السابع الميلادي يضحون بالأطفال أحياناً لإرضاء الآلهة. مثل هذه الأمثلة كثير، وأعتقد أنني لا أجازف إن قلت: إنه ما من دين محصن من نمط ما من أنماط الشرك.

---

(١) انظر كذلك: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٧٨]، ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ [هود: ١١/ ٦٢]، ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ١١/ ٨٧]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢١]، ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٢-٢٣].

(٢) يبدو أن هيروهيتو كان ضد شن حرب على الصين، ولكنه لأسباب سياسية لم يعترض، وأعلن على الملأ عام ١٩٤٦ أنه يدين وصفه بالإله.

وبما أن الشرك يردع عن التسليم لله، فإن القرآن يحذر من البدع الدينية التي يمكن أن تؤدي إلى الشرك ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٣] حتى البدع غير الضارة في الدين يمكن أن تصبح عقبة أمام التوحيد.. ويضرب القرآن هذا المثل الواضح: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٠].

في التراث اليهودي يستخدم مصطلح (ابن الله) الذي يظهر كثيراً في العهد القديم، مجازاً يدل على العلاقة الوثيقة بالله[١]. وعند المسيحيين، عندما يطبق مصطلح (ابن الله) على عيسى المسيح فإنه يدل على وضعيته الفريدة كإله ابن، كشخص ثان من الإله الثالوثي. وهذا يبين أن عبارة ما استخدمت أساساً لتعبر عن مفهوم سليم تغدو في النهاية جوهر عقيدة، يقول القرآن إنها توحيدية[٢]. من المهم الإشارة إلى أن القرآن لا يبين ما يقصده اليهود والنصارى بهذه العبارة، لأنه ربما تكون لها تفسيرات مختلفة. بل يذكر فقط ما يقولونه ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٠] لأن تعبير (ابن الله) يقترب اقتراباً خطيراً من أقوال الكفار في العصور القديمة. وبذلك يمكن أن يؤدي إلى عبادة خاطئة، ويرفض القرآن كذلك، على هذا الأساس نفسه، استخدام كلمة (ثلاثة) عند التحدث عن طبيعة الله. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ

---

(١) قاموس اليهودية في فترة الكتاب المقدس، سيمون وشوستر (Simon and Sehuster)، نيويورك ١٩٩٤، ص٥٩٦-٥٩٧.

(٢) يستنكر القرآن عبارة (أبناء الله) لأنها ربما توحي بأن هؤلاء هم أحب إلى الله من سواهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ٥/ ١٨].

وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٤/ ١٧١]. ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥/ ٧٣]. ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٥/ ٧٧].

تدل هذه النصائح والتحذيرات على أن البدع في الدين التي تتشابه مع الشرك، غالباً ما تنتهي إلى الانحراف عن عبادة الله، بغض النظر عن القصد الأساسي منها، ويمكن استخلاص الدرس نفسه من قصة العجل الذهبي حسبما يرويها القرآن، إذ طلب إلى بني إسرائيل أن يحطموا الصورة التي اختلقوها، وإن قصدوا من اختلاقها أن تكون تمثيلاً للإله الواحد (إله موسى) ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٢٠/ ٨٥-٩٨].

فالشرك، كما ذكرنا آنفاً، يمكن أن يتخذ أشكالاً عديدة، ولكن من وجهة نظر القرآن لا يمكن أن يكون حميداً أبداً، لأنه يحقن الدين بالأكاذيب، ومن ثمَّ يظهر الباطل(١). وعندما يأتي الباطل تشيع الشكوك بين المؤمنين، ويفقد الدين جاذبيته المنطقية والعقلية، ويفقد معها سلطته الأخلاقية وفعاليته الروحية، وأبرز مثل يضربه القرآن على هذا النمط من تآكل الدين واهترائه هو قريش الوثنية، وقرابة النبي ومعارضه الأساسي. ويذكر القرآن القرشيين بأن أجدادهم الأوائل: إبراهيم وإسماعيل وغيرهما كانوا مؤمنين بإله واحد وأقاموا الكعبة في مكة لعبادة الله الواحد الأحد، وعلى مر قرون غطيت عقيدة التوحيد بشرك تام وشديد، فقد القرشيون أنفسهم ثقتهم به، وأتاح للفساد والفسق الانتشار. يمثل إشراك قريش في القرآن أهم الأمثلة على إضعاف الشرك للدين. ولكن القرآن يبين -من خلال بحثه للمجتمعات المتدينة في الماضي والحاضر- أن هذه المشكلة عامة وعالمية وأن تحذيرات القرآن ضد الشرك ليست موجهة في الأساس إلى غير المسلمين فحسب، بل إلى المسلمين الذين يجب أن يكونوا يقظين وحذرين من أن يلصقوا بالله ما ليس منه في شيء. وكما يبين القرآن بإسهاب أن كثيراً مما ادُّعي عبر التاريخ باسم الله لم يكن من الله في شيء، بل إنما هو ابتداع بشري، ويجب أن يحذر المسلمون، فلا يضفوا سلطة إلهية على التقاليد الثقافية، والبدع الدينية، وآراء علماء الدين التي ليس لها دعم قطعي في القرآن، مثل هذه الأمور تظهر بالتأكيد في كل دين، فالمجتمعات الدينية تطوِّر دائماً تقاليدها، وترد بصورة إبداعية على المشكلات التي تبرز أمامها، وسوف يبين علماء الدين رأيهم فيها، ويضفون عليها الصبغة الدينية، ولكن هذه كلها محاولات للتفسير، وينبغي ألا ينظر إليها على أنها مثالية وأنها تستثنى من النقد والتمحيص. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ١٠/٥٩]. ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١٦/١١٦].

---

(١) ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨١].

- **السؤال السابع: (من طالب جامعي أمريكي مسلم، مثل هذه الأسئلة حول القضاء والقدر شائعة)**

قال الإمام في خطبة الجمعة الماضية: إن الله يقرر سلفاً أعمالنا كلها، بما في ذلك ما نختاره، وإن من لا يقبل ذلك فغير مسلم. ولكن إذا كان الله يقرر سلفاً أعمالنا وخياراتنا كلها، فلماذا يعاقبنا عليها؟ لا يبدو ذلك عدلاً في نظري، وأخشى أن أصبح ملحداً.

العقيدة التي تحدث عنها الإمام في خطبة الجمعة تعود إلى الإيمان بالقدر الذي يشار إليه في الإنكليزية بعبارة (divine decree) أو (Predestination) كان هذا المبدأ موضوع جدال كبير ومناظرات واسعة جرت في مطلع التاريخ الإسلامي، وكان مفتوحاً على مفاهيم مختلفة، إن ما قاله الإمام بشأن هذه العقيدة يمثل أشد وأقسى صياغة لهذه الفكرة. لم تقبل المذاهب الفكرية كلها في العصور القديمة مفهوم التقرير المسبق لأعمال الناس وخياراتهم، ومن أبرز هؤلاء علماء العقيدة المعروفون بـ(علماء الكلام) الذين برزوا في القرون الأولى للهجرة[١]. ومن منافسيهم الرئيسيين (أصحاب الحديث) الذين قبلوا عموماً فكرة التقرير المسبق بشكل أو بآخر، بالرغم من أن الصيغة التي يعتنقها الإمام تعد وجهة نظر متطرفة.

يبدو أن مطابقة (القدر) مع التقرير المسبق جاءت نتيجة تطور تدريجي في الفكر الإسلامي، إذ لم تكن معروفة عن عرب الجاهلية، فعلى رأي المعجمي الكبير الراغب الأصفهاني تعني كلمة (قدر) ومرادفتها كلمة (تقدير) إظهار مقدار الشيء، أو ببساطة (مقدار). ويقول: «إن الله يبين التقدير بطريقتين: منح القدرة، أو جعل الأمور بمقدار معين وبأسلوب معين، حسبما تتطلب حكمته»[٢].

(١) الهجرة؛ هي هجرة الرسول (إلى مدينة يثرب التي سميت فيما بعد بمدينة النبي أو (المدينة) اختصاراً، وكانت الهجرة في عام ٦٢٢م، واتخذت مبدأ للتأريخ الهجري.

(٢) هذا الاقتباس في ترجمة عبد الحميد صدّيقي لـ(صاحب مسلم)، مطبعة أشرف، لاهور، ١٩٩٢، ص١، ملاحظة ٣.

ويتوافق تفسيره هذا مع القرآن حيث يقرن القدر والتقدير بالتصميم والتنظيم للطبيعة. ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٦/٣٨-٣٩]. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٥٤/٤٩]. ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ٨٠/ ١٨-١٩]. ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١-٣][١].

فالرسائل اللاهوتية وتقارير الأوائل تبين أن الجدل بشأن الإرادة الحرة، والقدرية قد نشأ في زمن ليس قبل الثلث الأخير من القرن الأول للهجرة[٢]، فرسالة (في القدر) للحسن البصري، مثلاً، كتبت، كما قيل، بطلب من الخليفة عبد الملك (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٤-٧٠٥م) تقول: إن الجدل بشأن القدر أمر جديد. ومن المهم معرفة أن الرسالة هذه لم توفَّق في الاستشهاد بأي حديث يخصّ هذا الموضوع بالرغم من طلب عبد الملك الواضح بتعزيز الرسالة برواية من أي صحابي من صحابة الرسول[٣].

---

(١) انظر كذلك: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ١٣/ ٨]، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢١]، ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢].

(٢) جوزيف ڤان إس: (عمر الثاني ورسالته ضد القدرية)، عبر النهرين (١)، (١٩٧١-١٩٧٢)، ف. ف، ميشيل كوك، (العقيدة الإسلامية الأولى) (كمبردج ١٩٨١)، ١٠٧-١٥٨، جون فانسبرو، (دراسات قرآنية) (أكسفورد ١٩٧٧)، دانيال براون (إعادة النظر في الحديث في الفكر الإسلامي الحديث) (كمبردج ١٩٩٦)، ص١١-١٢.

(٣) على الرغم من عدم اشتمال الرسالة أي حديث يتعلق بالإرادة الحرة والقدرية، هناك أحاديث صحيحة عديدة تتبنى أشكالاً متنوعة من القدرية وردت في المجموعات التشريعية. فإن كانت الرسالة صحيحة النسبة للحسن، فإن ذلك مدعاة للحيرة، خصوصاً وأن الحسن البصري كان علماً هاماً في مطلع تاريخ علم الحديث، إذ ظهر اسمه في كثير من سلاسل الرسائل. وإن كانت الرسالة تاريخية، فهناك احتمالات عديدة تطرح، منها أن الأحاديث المتعلقة بالقضاء والقدر لم يجر تداولها حتى الثلث =

بالرغم من أن مطابقة القدر مع التقرير المسبق كانت بعد وفاة الرسول، فإن الجدال الذي دار حول الإرادة الحرة والقدرية كان متوقعاً، فالقرآن وضح، من جهة، أن الله منح الإنسان رجالاً ونساء قدرة الاختيار الأخلاقية وغيرها، وأن ينفذ خياراته إلى نهاياتها المتوقعة، ويمكن أن يتدخل الله في هذا الخيار أو يؤثر فيه عندما يشاء، ولكنه أراد للأمور أن تسير وفق مسار العلة والمعلول الطبيعي[١].

ويؤكد القرآن، من جهة ثانية، علم الله الشامل، إذ إن الله يحيط بكل شيء علماً وبكل ما يحدث بغض النظر عن زمان حدوثه أو مكانه. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طـــه: ٢٠/ ١١٠]. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الـحـج: ٢٢/ ٧٦]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤].

ومع ذلك، إذا كان الله يعلم كل شيء، فإن المستقبل بما فيه خياراتنا التي نتخذها لابد أن تكون مقررة سلفاً. إذ ربما يبدو من غير المفهوم أن نختار ما يتعارض مع معرفة الله لهذه الخيارات، وبالمثل إذا كان الله يعلم حالنا في الآخرة فإن ذلك يعني أنه قد قرر لنا سلفاً دخول الجنة أو دخول النار.

مثل هذه الادعاءات مربكة إذ تتطلب القبول في آن واحد برأيين متناقضين جداً، الرأي الإلهي والرأي البشري. من المشاكل ذات العلاقة بهذه المسألة هي أن البيانين ليسا مكتملين تماماً، لأنهما لا يحددان بدقة من الذي قرر المستقبل

= الأخير من القرن الإسلامي الأول، أو حتى بعد ذلك، بعد أن أصبح الجدل بشأن الإرادة الحرة والقدرية سارياً، وهناك احتمال بديل، هو أن الحسن البصري لم يأبه بالأحاديث التي تدعم القضاء والقدر، لأنها تتعارض مع آرائه، أو ربما لم يكن الحسن على علم بكثير من الأحاديث التي تدافع عن القضاء والقدر، ولكن هذا الاحتمال ضعيف وغير ممكن.

(١) ربما توصف مقدرة الإنسان على الاختيار وتنفيذ ما يختار بأنها إرادة حرة محدودة، فهي محدودة لأنها كبقية الكائنات المخلوقة، تعتمد على الله بوجودها والحفاظ عليها.

ومتى اتخذ القرار المسبق وأنجز؟ وبما أننا نناقش هذه الادعاءات من منظور مسلم، فإنها تفترض بوضوح أن الله لابد قد قرر كل شيء سلفاً، أما قضية متى يحدث القرار الإلهي فهو أقل وضوحاً، ولكن يعتقد عادة أن القرار الإلهي قد اتخذ قبل الخلق.

إن الاقتراح المذكور يفيد أن علم الله يتضمن إقراره سلفاً للأمور كلها يمكن بيانه على النحو الآتي: الله يعلم كل شيء، وهذا يتضمن أن الله يعلم المستقبل، وهذا بدوره يتضمن أن المستقبل ثابت، أي إن الله قرر المستقبل سلفاً، والرسم الآتي يمثل تضمينات هذا النقاش:

١- الله يعلم كل شيء

٢- الله يعلم المستقبل

٣- المستقبل ثابت

٤- قرر الله المستقبل سلفاً

من المناسب أن نحلل هذا البرهان على صعيد عملي، أي حادثة واحدة في زمن معين، ليكن (أ) يمثل حادثة ربما تحصل غداً. ربما تمثل (أ) الحادثة، مثلاً، وجيف يختار أن يأكل مقالي فرنسية مع العشاء، ثم يصبح النقاش المذكور آنفاً على النحو الآتي:

١- الله يعلم كل شيء

٢- الله يعلم أن الحادثة (أ) سوف تحدث غداً

٣- الحادثة (أ) ستحدث بالتحديد غداً

٤- الله قرر الحادثة (أ) سلفاً.

إن أضعف حلقة في هذه التداعيات هي التضمين الأخير: **(٣)** يتضمن **(٤)**. المنطق لا يستدعي أن يجبر الله جيف على اختياره لمجرد أن جيف يختار أن يأكل مقالي فرنسية مع العشاء. الواقع أن حدثاً معيناً سوف يقع بالتحديد في المستقبل، لا يستلزم أن يفرض الله الحدث بالقوة.

يمكننا عملياً أن نلغي خطوة من خطوات هذا النقاش مادام علم الله المسبق يتضمن تعادلاً مع المعلومتين (٢) و(٣) المذكورتين. وهكذا تتقلص المناقشة متوالية التضمينات التالية:

١- الله يعلم كل شيء

٢- الله يعلم أن الحادثة (أ) سوف تقع في المستقبل

٣- الله قرر الحادثة (أ) سلفاً.

وهنا أيضاً، لا يعد شمول التضمين (٢) للتضمين (٣) مقنعاً، ما لم نقبل أن العلم بالحدث يؤدي إلى وقوعه، ولكن ليس هناك سبب يلزمنا بقبول ذلك، خصوصاً، لأن الأمر يسير بعكس الخبرة والتجربة، ربما نقبل التضمين العكسي - أي إن وقوع الحدث يسفر عن العلم به شريطة أن يكون هناك شاهد عليه - ولكن ليس هناك ما يسوّغ الاعتقاد بأن العلم بالحدث يستتبع وقوعه. ربما يكون لدي حدس مسبق حقيقي بأن جاري سوف يختار الركوب بالحافلة العامة إلى عمله غداً، ولكن ذلك لا يتضمن أن علمي بذلك سيجعله يحدث. حتى في حالة المعرفة الإلهية ليس هناك سبب منطقي لرسم حلقة سببية بين علم الله بالحدث، وبين حدوثه، لنطرح الأمر ببساطة، إن علم الله لا علاقة له بالادعاء بأن الله يقرر خياراتنا وحالنا في الآخرة سلفاً، إن المناقشة على النحو الآتي: إذا كان الله يعلم كل شيء، إذن سوف يقرر سلفاً كل شيء، مشابهة للمناقشة: إذا كانت عينا جيف زرقاوين، إذن تقوم حياة على المريخ. لأن المقدمة لا علاقة لها بالنتيجة.

في حين أن علم الله لا يتضمن أن يقرر المستقبل سلفاً، فإنه لا يناقض ذلك أيضاً على أي حال، في القرآن تأكيدات تخالف التقرير المسبق للأحداث[1].

---

(١) لابد من ملاحظة أن القرآن يلمح إلى مفهوم القضاء والقدر، ولكنه يطرحه كتصور خاطئ لخصوم النبي. ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨/٦]. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟

=

إن أوضح حقيقة هي أن الله هو العادل، فمن غير المعقول ولا من العدل أن يقرر مصير امرئ إلى جهنم بسبب أعمال أجبره هو على القيام بها[١].

إن إقامة عدل الله ضد عقيدة القضاء والقدر بكل مالها من جاذبية لأحاسيس البشر، كانت محور النقاش والمجادلة التي أجراها علماء الكلام.

قاد هذا بعض المدافعين عن القضاء والقدر إلى صياغة نظرية الخير والشر المستقلة عن العقل البشري والمفهومات الإنسانية، إذ ادعوا أن الخير هو ما أمر به الله، وأن الشر هو ما يحرمه، الإرادة الإلهية وإملاءاتها تحدد ما هو خير وما هو شر، ما هو عدل وما هو ظلم[٢]. وهكذا إذا ما أدخل الله التقيّ النار وأدخل الشقي الجنة فإن ذلك يعد بالتعريف خيراً وعملاً صالحاً مع أنه من وجهة نظر الإنسان مرفوضٌ أخلاقياً وعقلياً. وعلى الرغم من أن هذا التصور يحمي عقيدة القضاء والقدر، فإنه يجعل إلى حد بعيد، حثّ القرآن للناس على عمل الصالحات وإقامة العدل، لا معنى له.

قام أبو الحسن الأشعري (٨٧٤-٩٣٥) بمحاولة ذكية حقيقية للتوفيق بين القضاء والقدر والإرادة الحرة. إن نظرية الكسب التي غدت عنده موقفاً تقليدياً لا تحل المعضلة بقدر ما تحيطها بالغموض. مفاد هذا المفهوم أن الله هو الخالق الوحيد لأعمال البشر، ولكن الناس يكتسبون أعمالهم، ولذلك فهم مسؤولون عنها، لا تفيد الصيغ المبهمة في إيضاح المتناقضات، ولكنها تتميز بأنها مفتوحة على تفسيرات مختلفة، فمثلاً، إذا ما فرّقنا بين الفكرة والعمل فإن الصيغة ربما تعني أن الله يسمح لنا بالتأثير في خياراتنا، ولكن إذا ما اعتبرت الأفكار أعمالاً، تصبح الصيغة عندئذ من أقسى أشكال القضاء

= لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ١٦/ ٣٥]. ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٠].

(١) إن مفهوم القضاء والقدر يبدو كذلك أنه يناقض أسماء الله الحسنى: الرحمة والرأفة.

(٢) إغناز غولدزيهر (Ignaz Goldziher) مدخل إلى اللاهوت الإسلامي والشريعة، ترجمة أندراس وروث هاموري (Andras and Ruth Hamari)، برنستون، ١٩٨١، ص٨٥-٩١.

والقدر، الأمر الذي يجعل من الصعب علينا فهم كيفية اكتسابنا لأعمالنا، وسبب مسؤوليتنا عنها.

من صفات الله التي تبدو مناقضة لمفهوم القضاء والقدر (التعالي / السمو). يعلمنا القرآن أن الخلق الزماني - المكاني الذي نعيش فيه ليس واقعاً موضوعياً خالداً. إنه بيئة مؤقتة لإتمام مرحلة من مراحل تطورنا ونمونا. فالمكان والزمان وهميان، والله غير محدود أو مقيد بأي منهما. فكينونته خارج نطاق الزمان والمكان اللذين خلقهما، ولهذا السبب فليس من الملائم الافتراض بأن الله موجود ضمن مكان محدد أو فترة زمنية محددة، تماماً كما ينبغي ألا أقول: إن الله محصور ضمن جدران مكتبي الأربعة، وينبغي ألا نقول: إنه موجود ضمن هذا اليوم ويتطلع إلى المستقبل. لأن المفهوم الأخير يفترض أن الله موجود في زمن بالطريقة التي يدركها البشر. كما أنه من غير الملائم التحدث عن إله له ماض أو مستقبل. و(التقرير المسبق) يعني التقرير مسبقاً، ويتضمن أن الله في لحظة معينة من الزمن قرر أحداثاً مستقبلية، ولكي يحدث هذا فلابد من الافتراض أن الله كان موجوداً في لحظة ما ضمن زمن، وأمر سلفاً بما كان سيأتي. إن وضع الله في زمن يعد مغالطة جوهرية تطرقها مفاهيم القضاء والقدر كلها، إن سمو الله وتعاليه يتضمن أفضلية فريدة، وعلم الله وإدراكه ليس لهما حدود زمنية أو مكانية لأن الله العليم هو وحده يحيط بكل شيء بغض النظر عن مكان الأشياء في الزمان والمكان، يؤكد القرآن ما يأتي: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٣]. ﴿رَبَّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾ [الأعراف: ٧/ ٨٩]. ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٣].

وبما أننا نعيش ضمن حدود الخلق فإننا لن نقدر على فهم التعالي الإلهي[1]. إن السمو على المكان ربما يكون أيسر فهماً من السمو على الزمان. إذ يمكن أن يتصور السمو على المكان وجوداً فوق الأرض حيث يمكن مراقبة الأحداث بآن

(١) يقول القرآن: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ٢٠/ ١١٠].

واحد. وتصور السمو على الزمان لسوء الحظ أصعب فهماً وإدراكاً، لأننا نفهم أنفسنا مثبتين في الزمن، ولكن النموذج المكاني يمكن أن يكون مفيداً، وبغض النظر عن حقيقة الصفة الوهمية للزمن فإننا نستطيع إدراك الزمن بوصفه بعداً مكانياً رابعاً، وعندئذ نستطيع تصور السمو أو التعالي على أنه بعيد خارج الخلق، حيث يمكن أن يراقب أحداثاً سحيقة البعد في الزمن والمكان.

يمكن أن يقال: إن القرآن نفسه يحوي تعابير تضع الله في حيز الزمان والمكان، القرآن يتحدث عن عرش الله، ويده، ووجهه، يتحدث عن إله يرسل أموراً إلى البشر وعن أشياء تصعد إلى الله، ويستخدم صيغاً زمنية مختلفة (الحاضر والماضي والمستقبل، إلخ) عندما يشير إلى أفعال الله. على أي حالة، من المستحيل تجنب مثل هذه الصياغات عندما تتخاطب وتتواصل مع البشر بسبب محدودية لغتهم وتجربتهم، إذن والمستحيل أن تشير إلى فعل من أفعال الله بالعربية، مثلاً دون استخدام صيغة زمنية ما[١]. وعلى الرغم من أن العلماء المسلمين كلهم تقريباً يرون أن السمو الإلهي يستلزم ألا تؤخذ الإشارات المكانية إلى الله في القرآن حرفياً، فإنهم لا يصلون إلى النتيجة ذاتها فيما يتعلق بالتعابير الزمنية، ربما لأن الزمان بالنسبة إلينا يبدو مطلقاً أكثر من المكان، ويبدو أن على المرء ألا يصر على وجوب أخذ الإشارات الزمنية إلى أفعال الله في القرآن حرفياً، ولا أن تفهم على أنها تتضمن خضوع الله للقيود الزمنية.

لقد خضع معنى (القدر) إلى تطور واع وحاسم في فكر المسلمين، فهو في القرآن يعني «النظام والتصميم» اللذين وضعهما الله للخلق بما في ذلك الإنسان،

---

(١) ليس في العربية ولا في أية لغة أخرى، ضمن حدود معرفتي، صيغة زمنية متعالية، ولكن القرآن يلتف على هذه القضية بطريقة واحدة هي استخدام صيغ زمنية مختلفة عند بحث أحداث خارج هذا الكون المحدود بزمان ومكان، فالقرآن يتحدث عن وقائع اليوم الآخر، مثلاً، بصيغة الماضي أحياناً، وبصيغة المستقبل أحياناً أخرى، وبصيغة الحاضر في بعض الأحيان، والأمر نفسه ينطبق على الأحداث التي تقع في عالم الغيب.

والمعرفة البشرية، وقدرة الإنسان وإرادته كلها خاضعة لقيود فرضت على البشر بتقدير من الله، ولكن الإنسان ضمن هذه الحدود مزود بقدرة من الله يستطيع بها أن يختار ما يريد ويمارس ما يختار. وقد جاء وقت بعد زمن الرسول تطابق فيه مفهوم «القدر» مع مفهوم (القضاء والقدر) وأشعر أن ذلك كان خطأ دينياً حرجاً. فالقول: إن علم الله يتضمن القضاء والقدر قول غير مقبول ولا يدافع عنه. فضلاً عن أن هناك أسباباً مقنعة لدعم العقيدة، لأن مفهوم القضاء والقدر يتنافى مع تأكيدات القرآن المتعلقة بعدل الله ورحمته ورأفته وتعاليه وسموه، وتنشأ الصراعات العقلية حتماً عندما نحاول وصف العلاقة بين الله والزمان بدقة، وهي محاولة بحثية.

■ السؤال الثامن: (من طالبة من الجيل الثاني)

> *لا أظن الله عادلاً، لأنه لا يعطينا الفرص نفسها في الجنة، لي ابنة عم مسلمة توفي والدها وهي طفلة ورُبيت في بيت عمها، بدأ عمها يتحرش بها جنسياً عندما أصبحت صبية، وتابع التحرش بها واغتصابها حتى غادرت البيت في أواخر العشرينات من عمرها، وهي اليوم عاهرة، تجامع أي شاب يتعرض لها، فكيف لفتاة نشأت في بيئة فاسدة فاسقة وأسيء إليها منذ نعومة أظفارها أن تُحمَّل مسؤولية واحدة كمثلي، إذ نشأت في أسرة سليمة؟ لا يستقيم الأمر.*

إن نشأتنا في الخير والصلاح في هذه الدنيا كما أشرت سابقاً مرتبط أساساً بحالنا في الآخرة[1]، فالسؤال إذن يثير النقطة الحيوية، وهي أن بعضنا يأتي من خلفيات ذات امتيازات أكثر من خلفيات بعضنا الآخر. بعضنا يولد في أسر نموذجية من ناحية عملية، حيث نحاط بالسلام والحب والسعادة، وقسمٌ يوجَّه إلى الأخلاقيات والروحانيات منذ الطفولة، وآخرون أنعم عليهم بطباع هادئة، وعقول مستنيرة، ومظهر حسن، ونمَوْا صوراً ذاتية إيجابية، وناسٌ، كالسيدة الشابة، المذكورة في رسالتك ولدوا في كابوس حي، فمن غير العدل، على

(١) انظر ص ١٣٧ - ١٦٢.

ما يبدو، أن تقاس نشأتنا في بيئة صلاح بنشأتنا في بيئة فاسدة بالمقياس نفسه، بغض النظر عن خلفياتنا.

فأنا وأسرتي كنا نتنزه مشياً ذات مساء، وإذا بابنتي الصغرى التي كانت تلحق بنا على دراجتها اجتازتنا مسرعة، وتوقفت أمامنا فجأة منتصبة على دواسات دراجتها وشعرها الأشقر الطويل المتموج يطير وراءها، وقالت بصوت عال مبتهجة: «أنا فاتن لانغ، وأنا أحب أن أكون كذلك!» انفجرتُ وزوجتي ضاحكين ثم التفتُّ إلى راجية وقلت: «لابد أننا نعمل عملاً صالحاً».

من المحير نموُّ الصورة الذاتية في وقت مبكر كهذا. فغالباً ما تشعرني بناتي بإحساسهن بجمالهنّ؛ كأن تقول إحداهن مثلاً وكلها ثقة بنفسها: «ألست جميلة، يا بابا؟!». وغالباً ما تقول زوجتي مثلهنّ عن نفسها، في حين أنها تعترف في الوقت نفسه أنه لابد من إنقاص وزنها عشرين رطلاً. إذ تقول: «أعلم أن وزني زائد، ولكني أعرف أني جميلة».

النساء في حياتي جميلات حقاً، والجمال يتألق من داخلهن، ولكن عندما يتحدثن عن أنفسهن بهذه الطريقة، إنما يتحدثن عن شيء أكثر من صورهن في المرآة، إنهن يتحدثن عن الطريقة التي يرين بموجبها أنفسهن في عقولهن وقلوبهن، وأنا أيضاً قيل لي كثيراً: إنك وسيم، ولكني لم أصدق ذلك أبداً، كنت أشعر أنني أُخدع باستمرار، وأن الآخرين كانوا يسخرون مني، لأنني لم أر هذه الوسامة طوال حياتي، إذ كنت عندما أنظر إلى داخلي لا أرى شيئاً جميلاً أو وسيماً، بل أرى شخصاً مجروحاً مشوهاً، وأعرف أن ذلك الشعور سيصاحبني مدى الحياة، ولكني أعلم أيضاً، أن الصورة تبهت بالتدريج.

كانت المدينة التي نشأت فيها تُعرف في الولايات كلها بأنها (إبط كونيكتيكت Connecticut)، كانت مدينة فاسدة عنيفة، وعندما كنت في العقد الثاني من عمري كانت المدينة تمور بالعنف العرقي الهائج والشغب وصراع العصابات والجريمة. وكانت قوة شرطتنا تعرض في برنامج الأخبار ستين دقيقة بوصفها أكثر قوة شرطة انحرافاً في البلاد. وانتهى بعض أصدقائي إلى السجن.

وتبين أن بعضهم مدان بجرائم عنف كبيرة، بعضهم صاروا لصوصاً وآخرون بائعين متجولين، وتحول معظمهم تقريباً إلى إدمان المخدرات بطريقة ما.

وحياتنا البيتية كانت أسوأ من الفوضى الخارجية، فوجود أحدنا في البيت كوجوده في صندوق أو كأنه مدفون في الحياة، كان والدي مدمن الخمر، عنيفاً، ومدمناً كذلك على إهانة والدتي والإساءة إليها، وإخوتي تبعوه في نفق المخدرات المظلم، وأدمن أخي الأكبر على الكحول، وهو في العشرينات من عمره، وكذلك أخي الذي يليه في العمر، أما أخي الذي يكبرني بسنة واحدة فقد غدا مدمناً على الهيروئين في المدرسة الثانوية، وبدأ أخي الأصغر الذي كنت ألصق به ممن سواه يدمن على المخدرات في الثالثة عشرة من عمره.

بعد دخول الجامعة بوقت قصير، لم أكن أعلم أن الإدمان على المخدرات مُعدٍ، بل كنت أعتقد أن اليأس يولده. ومع ذلك، كان رد فعلي الأول دائماً هو الدهشة عندما يستغرب زملائي كيف (نجوت) بطفولتي، وأصبحت أحيا حياة طبيعية سعيدة كما يرون. لا يعني مجرد تعرضي إلى رذيلة أكثر منهم أنه ينبغي أن أتجرد من الأخلاق أو التطلعات السليمة. ربما يبالغون بتأثير البيئة على نمو الشخصية، فالواقع أن غالبية الذين نشأت معهم يحيون اليوم حياة صالحة محتشمة. لم أكن قديساً، ولست كذلك الآن، ولكن كان لدي إحساس قوي بالخطأ والصواب، بالحقيقة والصلاح، بالرغم من أني كنت أحياناً أقاومه وأتيح لهذا الإحساس أن يتبلَّد. وأنا لا أومن بأن جيناتنا وبيئتنا هي التي تحدد شخصيتنا ومصيرنا، بل أعتقد أن البشر يتمتعون بإدراك أخلاقي وروحي يزداد أو يتناقص بسبب الخيارات التي يتخذونها، فأنا لا أقول: إن الجينات والبيئة لا تؤثر فينا - فذلك غير صحيح - ولكنني أشعر أن الإرادة وحرية الاختيار يؤديان دوراً محورياً في حياتنا.

لقد قيل: لا ننكر أن الحياة ليست ملعباً مستوياً، إذ يولد بعضنا في ظروف تقود أكثر إلى اكتساب الفضيلة، ربما لهذا السبب يسير القرآن إلى أن أجر العمل الصالح يختلف، في حين أن عقوبة ارتكاب الخطأ ثابتة تقريباً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٤٠].

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٠]. ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٣][١].

فعلى الرغم من أن صاحب الشر يجني ثماراً سيئة مثله، فإن جزاء العمل الصالح يختلف اختلافاً كبيراً، ربما لأن خير العمل الصالح ومنافعه الإيجابية تزداد بازدياد المقاومة التي تواجهه. ومن ثم كان جزاء الالتحاق بالرسول في بداية بعثته -عندما كان أتباعه قلة ومعارضته قاسية- أكبر من الالتزام بقضيته عندما أصبح النصر في متناول اليد[٢].

إن عملاً صالحاً صغيراً قام به من له مزايا عديدة يُحسب عملاً صالحاً صغيراً، أما العمل نفسه يقوم به من واجه معوقات هائلة فيمكن أن يعدَّ إنجازاً روحياً وأخلاقياً هائلاً، وانسجاماً مع هذا التوجه، يؤكد القرآن أننا سوف نمتحن في الحياة حسبما أُعطينا من قدرات وخصائص - بما في ذلك المعرفة، والشخصية، والثروة، والبيئة، والمكانة الاجتماعية - ولا تكلف نفس إلا وسعها. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٥]. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦]. ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٦٢].

---

(١) انظر كذلك الآيات: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٧]، ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٦/ ٨٩]، ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٤]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٣].

(٢) ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٠].

إن نجدة غريب في محنة تعد عملاً يستحق التقدير إذا كان في الضواحي الآمنة نسبياً، أما نجدة غريب في محنة في قلب المدينة حيث النجاة بالنفس هي القاعدة، وحيث من المألوف ألا يعار بؤس الإنسان وشقاؤه أي اهتمام، فإنها تعد أكثر نبلاً وشهامة، وبالمثل فإن صدقة بقيمة دولار واحد من فقير تزن أكثر من صدقة مماثلة من غني. إن مفهوم خير العمل الصالح هذا، له ما يدعمه في الحديث النبوي الشريف الذي يؤكد ألَّا حدود لرحمة الله. فالمرأة التي اعتادت أن تقدم اللبن الخاثر إلى المحتاجين، ولم تؤذ أحداً بلسانها أبداً تفوز بالجنة، بالرغم من إهمالها صلاتها وصومها(١). ووجبت الجنة لرجل في كلب كاد يموت عطشاً، فنزل إلى بئر فحمل له ماء وسقاه(٢). وقاتل في عنقه مئة نفس يسافر إلى مدينة بعيدة ليلتقي رجلاً صالحاً ليهديه إلى التوبة، وفي نصف الطريق توافيه المنية، ومع ذلك أدخله الله الجنة بسبب محاولته المخلصة ليصلح نفسه(٣). وبالمثل يتوقع ذلك لمن يمنح فرصة، أكثر من غيره، وهكذا لو لم يبلِّغ النبي الرسالة بصدق وأمانة لكان عقابه مضاعفاً، وكذلك زوجاته إن ارتكبن ذنباً ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٠].

لذلك، يبدو أن جزاءنا في المستقبل لا يقوم فقط على مستوى الخير والصلاح الذي نصل إليه عند نهاية الحياة، بل بقدر تحدي التقدم الذي نحرزه في نهاية الحياة والتقدم الذي نحرزه يتناسب مع ما منحنا الله من قدرات ونعم، ويترجم ذلك إلى حالتنا في اليوم الآخر، ومن ثم، في حين أني ربما أندد بسلوك آخر على أُسس دينية، فإني أرفض تقويم موقفه من الله على الأسس نفسها، حتى وإن بدا امرؤ ما أكثر استقامة من سواه، فإن الأعمال الصالحة التي يقوم بها شخص آخر ربما تكون ذات قيمة عند الله أكثر من أعمال الأول، لأن رحمة الله ورأفته وعفوه تعم نظام الخلق كله.

(١) مشكاة، رقم ٤٩٩٢، عن أبي هريرة، من مسند أحمد، والبيهقي.
(٢) البخاري، المجلد ١، رقم ١٧٤، عن أبي هريرة.
(٣) البخاري، المجلد ٤ رقم ٦٧٦، عن أبي سعيد الخدري.

ولابد من الاعتراف بأن القرآن والحديث يدعمان هذا التصور للخير النسبي، فإنه لا يعد موضوعاً أساسياً في أي منهما، وخصوصاً في القرآن. فلو كان الأمر جلياً تماماً، فإن غالبية المؤمنين سوف يعتمدون على ذلك، فيرتكبون الخطايا والرذائل ويعزون سببها إلى إعاقات متخيلة خارجة عن سيطرتهم. من خصائص القرآن وميزاته أنه لا يفصل في حالات حدودية، بل يسلك مسلكاً بعيداً عن المخاطر بفضل الحث على ما هو أنفع، والتحذير مما هو مؤذ وضار.

وأخيراً، فمن الإهمال ألا نذكر أن الإسلام لا يلوم المذنب إن كان ذنبه مقترناً باضطرابات نفسية أو عقلية. الزنا في الإسلام إثم، ولكن الاتصال الجنسي الناجم عن صدمة يتجاوز مشكلة الإثم، إذ غالباً ما تكون اللاأخلاقية الجنسية عرضاً من أعراض الاضطرابات النفسية - أو نتيجة توتر شديد ناجم عن صدمة قوية، أو نتيجة لجنون الاضطهاد، أو الاختلال العقلي الذي ينجم عن عنف يُمارَس على الضحية، وبالإضافة إلى الجروح العاطفية التي يتعرض لها الطفل فإن الإساءة إليه تعيق نمو العقل. فالرعاية السليمة تتيح لعقل الطفل أن ينمو بأسلوب يسهم في الاستقرار العاطفي وبناء الشخصية السليم الذي يستجيب إلى المجتمع بطرق إيجابية إبداعية. أما التوتر والضغط فينحت الدماغ ويجعله قابلاً للتكيف الشاذ مع عالم الرعب، ومثل هذا الخلل العصبي غير القابل للتعديل يلقي بالضحية في معركة تدوم مدى الحياة مع سلوكيات اجتماعية مثل التهور، وفرط النشاط، وإحداث أضرار بالأشياء، والعدوان.

فبدلاً من الحكم على هؤلاء، فإن علينا فهمهم وتشجيعهم للحصول على المساعدة التي هم بأمس الحاجة إليها، يمكن أن يساعد العلاج النفسي طبيعة الضحية المصابة بصدمة والطفل المكلوم ضمن حدود الأذى العاطفي وتجاوزه، وبفضل الرعاية النفسية العقلية بما في ذلك الأدوية، فإنه يمكن معالجة النتائج العصبية الحيوية الدائمة والسيطرة عليها إلى حد ما.

مثل هذه العناية مكلفة، ولا يستطيع معظم الضحايا تحمل تكاليف العلاج الباهظة لسنوات، وفي الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من مليون حالة مؤكدة من حالات الإساءة للأطفال سنوياً، يعد ذلك عاراً قومياً وجزءاً من مشكلة عالمية، على أي حال لابد للمجتمع المتحضر من إيجاد طريقة لتحويل حاجات هؤلاء الضحايا الأبرياء. ولابد في النهاية، من أن نبذل مزيداً من الجهد لإلغاء سوء معاملة الأطفال، فلن يكون لدينا مجتمع سليم مادام المسيئون للأطفال يتابعون حقن المجتمع بتيار ثابت من الذين تتصف حالتهم العقلية والنفسية بالعدوانية والقلق والسخط.

- **السؤال التاسع: (من طالبة جامعية غير مسلمة أجريت معها أحاديث عديدة عبر البريد الإلكتروني، كما أن العديد من الشبان الأمريكيين المسلمين طرحوا علي أسئلة تتعلق بالدافع من وراء الخلق)**

إذا لم يكن الله بحاجة إلى شيء، فلماذا خلقنا، إذن؟

أنا لا أسأل عن غاية الإنسان في الحياة، بل أسأل عن غاية الله من خلق الإنسان، فإن كان الله غنياً عن العالمين فلم إذن يخلقهم، والإنسان على الأخص؟ اعذرني إذ أقول ذلك، ولكن ما الذي في هذا الخلق من نفع لله؟

السؤال مفعم بالصعوبة، إذ من الأسهل التحدث عن المعنى الذي تحمله الحياة للبشر من الحديث عما يحمله الخلق من نفع لله، عندما نبحث المسألة الأولى نكون على أرض أكثر صلابة، لأننا في هذه الحالة نتكلم بدقة أكثر من تجربتنا وعقلنا، ولكن عندما نبحث المنظور الإلهي فإننا نعمل تحت قيود قاسية، فخبرتنا التي تقوم عليها لغتنا قاصرة بلا حدود عن إدراك الله، فأي مصطلح يستخدم ليشرح كينونة الله ومعرفته وأقداره، أو مظاهر حكمته لا يمكن إلا أن يكون تقريبياً، وفيما يتعلق بمثل هذه البيانات في القرآن، فإن المذاهب الإسلامية كلها -حتى المذهب الحنبلي المحافظ-

تعترف بهذه المعضلة مع مبدئهم، بلا كيف. يقول الحنابلة: إن أوصاف الله وأفعاله في القرآن تعبر عن حقائق، ولكننا لا نستطيع أن نبين بدقة كيف تحققت هذه الحقائق، استخدم المفسرون التأويل عند شرح مثل هذه النصوص(١).

ولابد من الاعتراف بأن السؤال فاجأني، إذ يُطرح علي أول مرَّة، لأنه لا يشبه الاعتراضات التي كنت أثيرها عندما كنت ملحداً، كانت أسئلتي من المستوى الأرضي، كنت أتخذ الحالة البشرية لمناقشتي ضد وجود الله. أما السؤال المذكور فيبدأ النقاش من السماء إلى الأرض، إنه يتساءل عن دوافع الله في الخلق، ما الذي في الخلق ينفع الله؟ أعتقد أن السؤال غريب عن تفكيري لأن صفتي الله الغني والمتعالي في جو الإيمان الذي نشأت فيه قد تعلمتهما دون التأكيد عليهما. كما أن بنوة عيسى المسيح لله حظيت بدور أكبر في هذا الإيمان، بما أن عيسى في المسيحية إلهٌ وبشر بآن واحد، فإن بشريته الواضحة في الإنجيل تتيح للمرء أن يفكر في أن لله حاجات شبيهة بحاجاتنا، وأعتقد أن هذا هو سبب عدم كون استقلالية الله المطلقة مشكلة عندي.

من المفهوم أن تكون مسألة غنى الله عن العالمين قضية للمسلمين الأمريكيين الشباب الذين كتبوا لي حول هذه المسألة، إن قضية كون الله مهيمناً غنياً عن العالمين تتكرر في القرآن. ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٣]. ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٧]. ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ٤/ ١٣١]. ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠/ ٦٨]. ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٠]. ﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ

(١) إغناز غولدزيهر، مدخل إلى علم الدين الإسلامي والشريعة، ترجمة أندراس و روث هاموري، بريستون، ١٩٨١، ص٩٢-١٠٩.

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ٣٥/١٥]. ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ﴾ [الزمر: ٣٩/٧][1].

إن أسماء الله الحسنى: الرحيم، الرؤوف، اللطيف، الكريم، الودود تتكرر في القرآن أكثر بكثير من صفاته المطلقة التي يستقل بها، ولكن من الواضح أن هذه الصفات تختلف جوهرياً عن الصفات البشرية المطابقة لها. فليس في القرآن أي إشارة أو تلميح إلى أن صفات الحاجة والأمل، وعدم اليقين، والحالات الطارئة والمستعجلة، وعدم الكمال، والألم، أو الرثاء، هذه كلها لا يمكن أن تقترن بالله، في حين أنها جوهرية للإنسان وضرورية لخبرته ونموه فيها. الله مهيمن تماماً على الخلق، فما من شيء يحدث إلا بإذنه وعلمه، وكل ما يظهر وينكشف إنما هو من إرادته. فالله يعلم أن كثيرين من بني البشر سوف يقعون في الغواية، ويرفضون الإيمان، ويعلم كذلك أن آخرين لن يقبلوا التردي فيها[2]. إن الله -كما ثبت بالوحي- لا يترك عباده ومصيرهم، ومع

---

(١) انظر كذلك: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٦]، ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٣]، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٨]، ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٤]، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٠]، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٢]، ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٦]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٦]، ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٤]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٦]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦٤/ ٦].

(٢) انظر السور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ

ذلك فهو ليس بحاجة إلى إيمانهم، إن إضفاء الله لصفاته على الخلق، بمن فيهم البشر، تعد غيريّة مطلقة، بمعنى أن هذا الإضفاء ليس مقترناً بحاجة شخصية. ولهذا فالآية المذكورة آنفاً تستحق الانتباه، لأنها تفرق بين الحاجة والرضا عن أمر ما، ورضا الله في هذه الحالة عن شكر الإنسان لله. وفي القرآن إشارات عديدة إلى رضا الله عن المؤمنين(١). ومن بينها إشارات عديدة

= عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤]، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٣٦-٤٣]، ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٥].

(١) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٧]، ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٥]، ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥]، ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٢]، ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٤]، ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١١٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٥/ ٢]، ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ٥/ ١٦]، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/ ٢١]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً

=

إلى أنَّ التمتع بهذا الرضا الإلهي سيكون واحدة من المكافآت السامية التي تنتظر المؤمن يوم القيامة. ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ٥/ ١١٩]. ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

= فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٩/ ٧٢]، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٠]، ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٩]، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٨]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٨]، ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٨]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٩]، ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٠]، ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٧]، ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ١]، ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٧٢/ ٢٧].

خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٠]. ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٩/ ٧٢]. ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٩٨/ ٨].

ربما يقال: بالرغم من تأكيد القرآن على أن الله لا حاجة له بشيء، فإن القرآن يذكر باستمرار أن الله يشاء ويريد أموراً مختلفة. فأكثر من مئة مرة يرد مثل هذا التعبير في القرآن، ومع ذلك فإن المشيئة والإرادة لا تعنيان الحاجة أو الاشتياق أو الأمل، بل تعنيان (يقصد) أو (يقرر) أو (ينفذ خطة أو غاية).

الآيات الآتية تمثل هذا المعنى:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٣]؛ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٣/ ٤٠]، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١١/ ١٠٧]، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٧]، ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾

يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤-١٨]، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ٨٥/ ١٦]. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥]. ﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٣/ ٤٧]، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٥/ ١٧]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٢٤/ ٤٥]، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٦٨]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٤]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١]، ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٩]، ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨٢/ ٨]. ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٦]. ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٦]. ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن

فَيَكُونُ﴾ [النحل: ١٦/ ٤٠]. ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٦].

ومن الأقوال الواردة في القرآن مما يمكن فهمها على أنها حاجة إلهية قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ولكن السياق يدل على أن العبادة هذه حيوية للإنسان، وليس لله، وأن العيش لغاية أخرى يؤدي إلى المعاناة في الحياة الآخرة. ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٥-٦٠].

لا تلقي مجموعات الحديث ضوءاً إضافياً على الدافع الإلهي من وراء الخلق، إذ لا يُخاطب هذا الشأن من الحديث إلا قليلاً، وأكثر الأحاديث التي تتجاوز ما ينبئنا به القرآن لا يصنفها علم الحديث مع الأحاديث الصحيحة، هناك عدد محدود جداً من الأقوال التي يتبين أن الله يحبُّ الإنسان[1]، ولكن هناك أقوال أخرى، أيضاً، تبين عدم الاكتراث بمصير الإنسان[2]، ومن ثم فإن هذه الأقوال يوازي بعضها بعضاً.

لذا نعود إلى مسألة الدافع الإلهي من وراء الخلق بأقل من جواب كامل. إن مقدمة المسألة وهي أن الله لا حاجة له بشيء منسجمة مع القرآن، إن المؤشرات الوحيدة التي وجدناها على الحافز الشخصي من وراء خلق البشر

(١) من أكثر الأحاديث تأثيراً ما رواه عمر بن الخطاب: إنه أحضر بعض الأسرى إلى النبي، ومن بينهم امرأة كانت تركض بجنون في المكان، وعندما وجدت رضيعاً، يبدو أنه ابنها، رفعته وقربته وحضنته. فالتفت النبي إلى أصحابه وقال: «هل تتصورون أن تلقي هذه المرأة برضيعها في النار؟» وعندما أجابوا بقولهم: «لا»، قال: إن الله يحب عباده أكثر مما تحب هذه المرأة طفلها (صحيح البخاري).

(٢) عن رسول الله ﷺ أنه قال: خلق الله آدم، ثم مسح يمينه وسحب عرقاً أبيض وكأنهم بذور، ومسح يساره وسحب عرقاً أسود كأنهم فحم. ثم قال لمن هم على يمينه: «إلى الجنة ولا أبالي» وقال لمن هم على يساره: «إلى جهنم ولا أبالي».

هي الأقوال العديدة الواردة في القرآن بشأن رضا الله عن المؤمنين. ليس في ذلك تناقض، بالطبع، إذ إننا غالباً ما نبتكر شيئاً لسنا بحاجة إليه. هذا لا يرضي ولا يشبع فضول بعض الناس، ولكن - كما أشرنا من قبل - لا يمكن التوصل إلى فهم كامل لهذه المسألة. إذ كيف نفهم الحب فهماً كاملاً من دون الحاجة العاطفية، والرأفة من دون تعاطف، والعطاء من دون تضحية ذاتية، والعفو من دون أذى شخصي، وباختصار لا يمكن فهم الفضيلة فهماً وافياً من دون التعرض للتجريح؟ إن ما ينبغي أن نرفعه إلى الأعلى هو ضعفنا الذي يجعل نمونا في هذه الصفات ممكناً ووجودها مفهوماً لدينا، ولكن كيف نمسك بكمالها المطلق النَّقي في الله؟.

إن أفضل وسيلة، خارج نطاق تجربة الوحي والتجربة الروحية لفهم الصفات الإلهية هي من خلال انعكاسها الأدنى وغير المحدود فينا. وهذا ما سوف أسعى إلى فعله، سأحاول استخدام خبرتنا بأسماء الله الحسنى بفضل روحها الموجودة فينا، لنتمكن من إلقاء نظرة سريعة على إرادة الله في الخلق، وإنني سأجازف فيما يأتي، فأنا لا أدعي أن ما أقوله هو تفسير، بل مجرد قياس.

بالرغم من أن الله هو الخالق، فإن الكائنات البشرية هي أيضاً خالقة بفضل روح الله التي نفخها الله فيهم ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ١٥/٢٩]. وهذه الإبداعية الخلاقة المتأصلة في الإنسان هي سمة أخرى تميزه من بقية المخلوقات. غالباً ما نخترع بسبب الحاجة، كما يبني النجار بيوتاً ليكسب قوته، ولكننا غالباً ما نبتكر من دون الاستجابة إلى حاجة ملموسة، بل بدافع داخلي قوي، فأنا لا أشعر أن الإبداعات كلها أو معظمها هي بنت الحاجة. بل أعتقد أنها جزء لا يتجزأ من الطبيعة البشرية، سمة جوهرية من سمات البشر، كالفعل والوجود.

عندما كنت في المدرسة الابتدائية، كانت الرياضيات بالنسبة إلي مخرجاً إبداعياً كبيراً، إذ كنت أخترع مسائل، وأنتج أحجيات ونظريات وبراهين قبل أن أتعلمها فيما بعد في المدرسة الثانوية، كنت أدرس النصوص الرياضية لدروس

أخي الأكبر، وأحل تمارينها، لم تستطع الأسرة فهم ما كانوا يرونه هوساً في الرياضيات، وأخفيت هذا التعلق بالرياضيات عن كثير من أصدقائي، وعدت أعمل في الرياضيات ليس لأي غرض سوى المتعة.

تتخذ إبداعيتنا عبر حياتنا أشكالاً مختلفة، وتنضج أحياناً كما ننضج نحن. ظلت الرياضيات فعل الإبداع الأساسي عندي، بيد أن التعليم والكتابة كانا متنفسين هامين لي. كل هذه الأمور أصبحت بالطبع مرتبطة بحياتي العملية، ولكني أشعر أن حبي لها يتجاوز الاهتمامات العملية.

عندما بلغت الثلاثين من عمري بدأت أشعر برغبة قوية للمساهمة في إبداع شيء يستحوذ علي كلياً. ربما كانت هذه الرغبة تنمو في نفسي منذ زمن. أردت أن آتي إلى هذه الحياة بشخص يكون صورة عني ويجرب كل ما أعطي ويمارسه، امرأة تكون جزءاً مني وأكون جزءاً منها، تولدت الرغبة ذاتها عند راجية زوجتي. وهكذا، بفضل الله ونعمته ولدت ابنتنا الأولى وأحببتها من كل قلبي منذ اللحظة التي وقعت عيناي عليها، تماماً كما أحببت أختيها اللتين ولدتا بعدها. وهكذا، من خلال حبي وأبوتي لبناتي الثلاث: جميلة وسارة وفاتن، انخرطت في أكبر مغامرة خلق وإبداع، خلافاً لكل ما عرفته من قبل. وعلى الرغم من أنني أقدم دوراً جوهرياً في نموهم - كما يقدمن، دون قصد، دوراً جوهرياً في تنميتي - خلافاً لكل إبداعاتي الأخرى، فأنا لا أقرر ما سيكن عليه، الأمر الذي جعلهن في نظري أكثر جمالاً، ولأكن مع ذلك، دقيقاً في التعبير، لم أكن بحاجة إلى أطفال - إذ لم يكن يعتمد وجودي على حاجتي للأطفال - ولكن بمجيئهن كنت أستجيب لإرادة داخلية لا تُكبت.

- **السؤال العاشر: (من مهندس مسلم مهاجر ما زال يعيش في أمريكة منذ سنين، عبَّر لي، من بين العديد من المهاجرين المسلمين، عن شكوكهم المتعلقة بالإسلام، إذ تعاظمت الهجمات على شخصية محمد في أخلاقه منذ هجوم ١١/ ٢٠٠١/٩، وتتضمن هذه الهجمات عادة إحياء لنقد استشراقي قديم، ربما كان سبباً في تلقي أسئلة عديدة مؤخراً حول زيجات النبي)**

ولدت في سورية وهاجرت إلى الولايات المتحدة في سن الحادية والعشرين، كنت شاباً مسلماً متعصباً، أما الآن وأنا في الثامنة والخمسين فقد أصبحت مؤمناً باللاأدرية، فهناك بعض النصوص في القرآن يستحيل علي القبول بأنها وحي إلهي. ومن بين أبرز هذه النصوص مطلع سورة التحريم التي تحسم جدالاً تافهاً بين النبي وزوجاته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التحريم: ٦٦/١-٧]، وآيات سورة الأحزاب التي تسمح للنبي أن يتزوج امرأة متبناه ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٧]، اعذرني لقولي هذا، ولكن لماذا يبحث الله في مثل هذه الأمور التافهة في آخر تنزيل، ثم ألا يبدو أكثر ملاءمة أن يساعد الله محمداً في مثل هذه الشجارات البيتية الصغيرة؟

يعد هذان النصّان من بين أكثر النصوص القرآنية عرضة للنقد الاستشراقي الكلاسيكي حيث تكون ردود الفعل كالتي رأيناها من قبل شائعة. لقد ردّ كثير من علماء المسلمين المعاصرين على هذا النقد. وبالإضافة إلى مراجعة هذا الرد باختصار سوف أشارك بقليل من انطباعاتي، الجزء الأول من السؤال يقتبس الآيات السبع الأولى من سورة التحريم:

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

٢- ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

٣- ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

٤- ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

٥- ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾(١).

٦- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾.

٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

وكما يلاحظ محمد أسد، «هناك عدة روايات متضاربة - لذلك فهي غير موثوقة إجمالاً - بشأن السبب أو الأسباب الدقيقة التي جعلت الرسول في

---

(١) إحدى زوجات النبي، وهي عائشة كانت عذراء عندما تزوجا، وإحداهن وهي زينب بنت جحش كانت مطلقة، والأخريات كن أرامل، يبين المفسرون المسلمون أن الصيغة الافتراضية الخالصة لهذا البيان، ولواقعه أن النبي لم يطلق أياً من زوجاته، تدل على أنهن كن جميعاً يتمتعن بهذه الفضائل بالرغم من أنهن لم يكن محصنات ضد عيوب عرضيّة.

وقت ما، خلال الفترة المدنية يُقسم أنه لن يقرب أياً من زوجاته مدة شهر»[١]. يشعر العديد من المفسرين أن الآية الأولى والآية الثالثة تشيران إلى أحداث منفصلة، ولكن ليس هناك ما يوحي بذلك من داخل السورة، بل على العكس، ربما تؤدي تلاوة طبيعية غير متحيزة يقرؤها مفسرون تقليديون إلى الاعتقاد بأن الآيات الثلاث الأولى مع الآيتين الرابعة والخامسة تتكلم عن الحدث نفسه، ومن هذا المنظور يمكن أن نرسم الخطوط العريضة التالية:

أسرَّ الرسول إلى إحدى زوجاته - ويحددها الحديث بأنها حفصة بنت عمر - أمراً، فأشركت فيه بدورها زوجة أخرى - ويحددها الحديث بأنها عائشة بنت أبي بكر- ولا تتوافر رواية ثابتة تبين ما المعلومة السرية التي أُفشيت، ولا كيف استخدمت الزوجتان هذه المعلومة، ولكن النص يبين أن كلتيهما خانتا ثقة الرسول، وبعد ذلك بوقت قصير أقسم الرسول ألا يأتي زوجاته مدة شهر كامل.

وضع المؤرخون لسيرة النبي تفسيرات عديدة لانفصاله عن زوجاته كلهن، في حين أن القرآن يتحدث عن اثنتين. ويُروى أن النزاع الداخلي بين زوجات النبي وصل ذروته في ذلك الوقت، الأمر الذي حفز الرسول على الابتعاد عن مشاحناتهن، ربما تكون صيغة الآية الأولى منسجمة مع هذا التفسير، لأنها تبين أن النبي فرض هذا الانفصال ليصالح بين زوجاته.

إن اتجاه النص وردَّ الرسول يوحيان بأنه ربما كانت هذه النتائج خطيرة لأنها خانت ثقة الرسول، ولكن كما يقول محمد أسد:

«إن غاية التلميح القرآني المذكور آنفاً إلى هذه الحادثة ليس متعلقاً بالسيرة، بل المقصود به إعطاء درس أخلاقي قابل للتطبيق على الأحوال البشرية كلها: أي عدم قبول أي شيء محرم حلالاً، حتى إن كان مثل هذا الموقف قد اتخذ بدافع إرضاء أشخاص آخرين، وفضلاً عن ذلك، فإن هذه الحادثة توضح حقيقة - يؤكد عليها القرآن باستمرار - وهي أن النبي بشر كغيره، ومن ثم فهو عرضة لأن يرتكب خطأً عرضياً»[٢].

---

(١) محمد أسد، رسالة القرآن، دار الأندلس، جبل طارق، ١٩٨٠، ص٨٧٥، الحاشية ١.
(٢) المصدر السابق، ص٨٧٥، الحاشية ١.

وتستخدم السورة هذه الحادثة لتقدم لموضوعها المركزي: أن كُلًّا منّا مسؤول مسؤولية جماعية وفردية عن النتائج في الآخرة، وأنه حتى أوثق العلاقات الحميمية مع شخص تقي حقاً - بل مع النبي - لن تنفعنا في شيء إذا ما دمرنا أنفسنا. ومن ثم تختتم السورة بأمثلة عن زوجات أنبياء سابقين (زوجة نوح وزوجة لوط) اللتين لم تنقذهما علاقاتهما مع زوجيهما، وبالمقابل تضرب مثلاً آسية (زوجة فرعون) التي تعد أنموذجاً للإيمان بالله بالرغم من أن زوجها كان مثالاً للشر. والمثل الأخير هو مثل مريم أم عيسى التي صورتها السورة بأنها أكثر عباد الله تكريماً وبأنها أم عذراء.

تبين المسألة المذكورة آنفاً أن سوء الفهم الذي حصل من النبي وزوجاته، وأخطاء الحكم التي ارتكبت، شائعة ويمكن غفرانها، ولكن هذا بالضبط ما يجعل المثال ذا علاقة بالموضوع. يستخدم القرآن صوراً صارخة للكافرين الذين يحرمون ما أحلّ الله ويدَّعون الخلاص بفضل الاقتران بالصالحين، ولكن هذه السورة تبين أن أكثر الناس تقى يجب أن يحذروا من ارتكاب الأخطاء، وأن نحذر دائماً من تحريم الحلال باسم الله، أو الادعاء بقداسة أنفسنا بسبب انتمائنا لمجموعة ما.

ربما يبدو من الوهلة الأولى أن توقيت هذا التنزيل مناسب تماماً لدعم التصور القائل: إن محمداً كتب القرآن ليخدم حاجاته النفسية، ولكن التفكير فيه بصورة أعمق يظهر العكس تماماً. فأولاً، يبدأ النص بتوجيه نقد للنبي إذا ما سولت له نفسه أن يخترع تنزيلات تخدمه، وإلا لماذا تبدأ السورة بعتاب إلهي للرسول[1]، فلو حذف الآية الأولى وبدأ السورة بالآية الثانية فإن ذلك كفيل بحل مشاكله العائلية. والأمر الثاني هو أن غالبية الناس - وخصوصاً العرب - يكرهون إظهار نزاعاتهم العائلية البيتية. فعلى الرغم من أن نشر الغسيل القذر أصبح مقبولاً في الولايات المتحدة الأمريكية، والفضل في ذلك يعود إلى البرامج التلفزيونية التي يتحدث فيها أشخاص مشهورون عن أنفسهم، وهي

---

(١) لابد من ملاحظة أن قسماً كبيراً من الآيات التي تخاطب النبي خاصة، إما أنها تقومه أو تكشف له مواطن الخطر.

ظاهرة حديثة، فإن مثل هذه البرامج لم يظهر في العالم العربي أو الإسلامي، فمن المستحيل أن تكون سمة نشر الغسيل من سمات زعيم عربي - اشتهر بالتحفظ والاحتشام مثل النبي - فينشر متاعبه الشخصية على الملأ. والواقع أن مؤرخي السيرة النبوية ذكروا أن النبي لم يبحث هذا الأمر حتى مع أقرب صحابته إليه كأبي بكر وعمر والدي الزوجتين المذكورتين آنفاً.

وأخيراً لابد من ملاحظة أن تنزيل هذه السورة لا يمكن أن يوصف بأنه ذريعة، لأن المصادر التاريخية تتفق على أن السورة لم تنزل إلا بعد انقضاء شهر الانعزال عن زوجاته. فلو كان النبي يريد اختراع وحي من عنده لحل المشكلة قبل ذلك بكثير، بذرائع ملائمة تسمح له باستئناف إتيان زوجاته كلهن أو بعضهن.

إن السؤال المطروح آنفاً يذكر الآية ٣٧ من سورة الأحزاب التي كان تفسيرها موضع خلاف واسع بين المستشرقين والعلماء المسلمين منذ مطلع القرن العشرين. يتفق المفسرون كلهم أن الآية تشير إلى زواج زيد (الذي أعتقه الرسول وتبناه) من زينب (ابنة عمة الرسول وإحدى نساء قريش الشريفات)، ذلك الزواج الذي كان مفعماً بالمتاعب، ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٧].

يرى معظم المستشرقين في هذا النص برهاناً على أن النبي يلجأ إلى أي وسيلة لإشباع رغباته الجنسية، ويوردون ما جاء في طبقات ابن سعد دعماً لوجهة نظرهم، قال: «جاء رسول الله بيت زيد يطلبه فلم يجده، وتقوم إليه زينب زوجته فُضُلاً (بثياب خفيفة) فأعرض عنها، فقالت: ليس هو هاهنا، فولى وهو يقول: سبحان الله العظيم، سبحان مصرف القلوب، فجاء زيد فأخبرته امرأته أن رسول الله أتى منزله، وأنه قال ما قال، فجاء زيد حتى أتى رسول الله، فقال له: لعلّ زينب أعجبتك فأفارقها، فيقول له: أمسك عليك زوجك». ومع ذلك لم يعد زيد يقرب زينب، بل عاشا منفصلين فترة من الزمن، وفي النهاية طلق زيدٌ زينب بالرغم من نصيحة النبي له بالاحتفاظ بها، وبعد طلاقها بوقت قصير تزوجها الرسول.

استخلص المستشرقون من هذا النص ومن الآية المذكورة أن افتتان النبي المفاجئ بزينب لم يترك لمتبناه أي خيار سوى طلاق زوجته، لتكون في متناول يد النبي الذي أنتج بعد ذلك هذه الآية ليخرس الاحتجاجات المحتملة.

وغني عن القول: أن رد فعل المسلمين على ذلك يقدم صيغة مختلفة للأحداث، ففي المقام الأول هناك شك في رواية أن النبي رأى زينب عارية بالمصادفة؛ لأن هذه الرواية لم تظهر في أي مصدر موثوق، فقد اشتهر مؤرخو السيرة النبوية القدماء بقبول روايات عديدة لا تتفق مع المعايير الضابطة التي يتبعها علماء الحديث الأكثر نقداً. فضلاً عن أن هذا الوصف يتناقض مع غالبية المعطيات التاريخية التي تتعلق بطلاق زيد وزينب. إذ يؤكد الكتَّاب المسلمون أن النبي رتب هذا الزواج من أجل أن يحطم الحواجز الاجتماعية العربية ضد زواج العبيد أو حتى من كانوا عبيداً من امرأة حرة[1]. جاء في الأثر أن زينب وأخاها كانا ضد الزواج بادئ الأمر، لأن زينب كانت ترغب في الزواج من محمد، ولكن نزولاً عند رغبة النبي وامتثالاً لأمره، قبلت زينب وأخوها زواجها من زيد على مضض. كذلك لم يكن زيد ميالاً إلى هذا الزواج لأنه كان قد اقترن بزواج سعيد من أمة محررة أخرى هي أم أيمن. وبقدر ما أراد النبي أن يستخدم هذا الزواج لتحطيم الحواجز الطبقية فإن هذه الحواجز تقيد الخطيبين. إذ كان زواج زيد مصدر إرباك له وإذلال، ولم تخف زينب عدم رغبتها في زيد. وكان الزوجان على وشك الطلاق في مناسبات عديدة، ولكن الرسول كان في كل مرة يقنعهما بالاحتفاظ بعضهما ببعض، لأنه كان يخشى من القول: إن الزواج الذي رتبه النبي قد انقلب زواجاً يائساً[2].

وأخيراً، وبعد نزاع بين الزوجين دام سنين عديدة طلق زيد زينب، فتزوجها النبي بعد أمد يسير، وفي حين أن القرآن يبين أن الغاية الإلهية من تزويج زينب

---

(١) لقد وجدت أن وصمة العار مازالت تلصق بالزواج من عبد أو من سلالة عبيد، في الخليج العربي اليوم حيث كان الرق سائداً قبل أربعين سنة فقط.

(٢) م. م. بيكتهول (M. M. Pickthall)، معنى القرآن الكريم، منشورات أمانا، ص٣٩٦-٣٩٧، ولهذا جاء في الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

إلى النبي هي بيان أن علاقة التبني - خلافاً لما كان يعتقد الوثنيون العرب - لا تتضمن قيوداً كتلك المفروضة على العلاقات الزوجية الناجمة عن علاقات أبوية - نبويَّة بيولوجية فعلية[(١)]، فإنه سمح للنبي أن يصلح حال زينب ويعوضها عن النكد الذي عاشته من قبل[(٢)].

يعتمد تفسير المستشرقين، ورد المسلمين عليهم على اختيار كل من الطرفين للمعطيات التي يريدها، وعلى قدر معين من القراءة بين السطور، فالمستشرقون يتعلقون برواية أحادية من أدب السيرة تبدو غير متزامنة ولا متوافقة مع كثير من الروايات من المصدر نفسه. ومن ناحية أخرى لم يستطع الكتَّاب المسلمون إهمال الدراسات المتعلقة بالسيرة، لأنهم يستخدمون المادة نفسها لبناء دفاعهم، حتى إن كانت الرواية القائلة: إن النبي قد عثر على زينب مصادفة، فمن الصعب أن تثبت صحة ما ذهب إليه المستشرقون بأن النبي لم يترك لزيد خياراً سوى تطليقها، بل بالعكس، فقد اتفق الفريقان على أن النبي حث زيداً على التمسك بها. أما العبارة التي يزعم بعض الرواة أن النبي قد تمتم بها لنفسه فهي في أحسن الأحوال غامضة، ولا تتضمن أي اقتراح ولا توحي بشيء يدل على رغبة الرسول في الزواج منها. أما فيما يتعلق بادعاء المسلمين أن غاية النبي من رعاية زواج زينب بزيد هي إزالة الحواجز الطبقية، فإني لم أجد في المصادر القديمة ما يفيد ذلك.

من الواضح تماماً أن القراءتين المختلفتين للآية ٣٧ من سورة الأحزاب متأثرتان جزئياً بالتزامات كل فريق وانحيازاته. وعلى الرغم من أنني لا أستطيع

---

(١) محمد أسد، رسالة القرآن، دار الأندلس، جبل طارق، ١٩٨٠، ص٦٤٦، الحاشية ٤٧.

(٢) من الجدير بالذكر أن رصيد زواج زينب هبط بصورة درامية بعد زواجها الفاشل. فقبل زواجها من زيد كانت زينب عذراء في العشرينات من عمرها متحدرة من أنبل القبائل في شبه الجزيرة العربية ويقال: إنها كانت تتمتع بجمال لا يضاهى، وعندما أخفق الزواج كانت في منتصف الثلاثينات من عمرها - وهو سن يعد متأخراً في تلك الأيام - وأصبحت مطلقة عبد سابق ولم تعد عذراء، لكن بزواجها من النبي، تكون قد حظيت بزواج من كانت ترغب في الزواج منه أساساً، وتكون قد استعادت مكانتها الاجتماعية.

الادعاء بأني مراقب محايد، أشعر أن تفسير المسلمين أكثر تماسكاً. فالفكرة القائلة إن نظرة سريعة غير مقصودة يمكن أن تشعل فجأة حب النبي وتجعله يتعلق بها لا تستقيم مع المعطيات الأخرى التي يقبلها المستشرقون؛ فمن المعروف أن زينب كانت ابنة عمة الرسول، ومن ثم فإن قرابته لها وثيقة، وإنه يعرفها منذ كانت طفلة، وأن له صلة بها وبأسرتها عندما كانت شابة قبل أن يحدد القرآن اللباس المحتشم للمرأة[1]. وكانت أمامه فرصة للزواج بها وهي بكر؛ وأنها كانت مشهورة بجمالها الباهر، لذلك فادعاء أن لمحة سريعة آنية جعلت النبي فجأة متيماً بزينب وعمرها خمسة وثلاثون عاماً مع أنه كان على صلة وثيقة بها معظم حياتها إنما هي فكرة مناقضة للطبيعة البشرية.

أنا لا أقول: إن النبي لم ير جاذبية في زينب، فالموروث يشير إلى أن كل من كان حوله كان يخشى جمالها، بل أؤكد أنه من غير المعقول أن محمداً لم يدرك جمالها إلا يوم كان يبحث عن زيد ولم يجده. ومع ذلك فإن قضية المستشرقين تعتمد تماماً على هذه النقطة. فإذا لم يؤثر جمالها في النبي من قبل أبداً، فإن قضيتهم تنهار كلياً، ولكن إذا كان النبي، من جهة أخرى، معجباً بجمالها، فإن محاولتهم بتصويره شهوانياً تنهار كذلك، مادام قد فوّت فرصة زواجه هو من زينب، ورتب بدلاً من ذلك زواجها من زيد.

إن اعتقاد المسلمين بأن النبي زوَّج زيداً من زينب ليحطم الحواجز الطبقية ليس بعيداً عن الصحة، ولو لم يرد في أدب السيرة ما يؤكد هذه الحقيقة. كان النبي عالماً بالوعي الطبقي العربي المتطرف الذي مازال قائماً حتى اليوم. فكان تأثيره قوياً جداً حيث جعل غالبية الفقهاء المسلمين

---

(١) كان زي المرأة العربية العشائرية المألوف في الجاهلية يتألف من غطاء رأس تزييني يتدلى على ظهر المرأة كاشفاً شعرها من الأمام، ورداء فضفاض مفتوح من الأمام بحيث يكشف الصدر، ومئزر تربطه على الخصر، إضافة إلى المجوهرات، كالخواتم والأقراط والأساور والخلاخيل.

لا يحبذون زواج المرأة المسلمة من رجل من طبقة أدنى من طبقتها، بالرغم من أن القرآن والحديث يصران ويؤكدان على المساواة بين المؤمنين[١]. ويذكر المؤرخون أن نقطة التفجر في العلاقة بين زينب وزيد كانت بسبب أنهما من طبقتين مختلفتين، فإن مخالفة الزواج للتقاليد المتجذرة في المجتمع مخالفة راديكالية لابد وأن تزعج العرب، -وربما تنبأ كثيرون منهم وخصوصاً من ينتقدون النبي - أن ذلك الزواج لن يدوم. ولا يمكن أن يكون النبي غافلاً عن الاحتمال الرمزي لهذا الزواج أي عن كونه علامة عظيمة على نظام المساواة الذي كان يأمر به. ولهذا كان يسعى إلى إنجاح هذا الزواج، وإخفائه عندما قال لزيد: «أمسك عليك زوجك واتق الله...». ولكن مهما كانت غايات المرء نبيلة، فينبغي ألا يحال بين الأفراد وممارستهم لحقوقهم التي منحها الله لهم، وقد حصل زيد وزينب من هذه النقطة على ما يكفي من هذه الحقوق. ومن ثم جاءت عبارة ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾..

تشترك هذه الآية مع نص الآية الأولى بمعالم عديدة، إذ تستخدم كل منهما الأحداث اليومية في حياة النبي الشخصية لشرح عدد من المبادئ؛ وتبينان كلتاهما إنسانية النبي وبشريته وتنصحانه وتقومانه. وقد ذُكر بالإشارة إلى الآية الثامنة أن عائشة قالت: «لو كان رسول الله كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾»[٢].

وأخيراً لابد من ملاحظة أن هذا التنزيل كالآيات (١-٧) من سورة التحريم قد جاء بعد أن حُلَّت مشكلة المبدأ الذي يشير إليه هذا التنزيل (إذ كان زيد قد طلق زينب). ومن ثم لا يمكن وصف هذه الآية بأنها جاءت لمساعدة محمد.

(١) محمد علي، دين الإسلام، لاهور (١٩٩٠)، ص٤٧٠-٤٧١.

(٢) ورد هذا في صحيحي البخاري ومسلم.

■ السؤال الحادي عشر: (من امرأة مسلمة مهاجرة، في أواخر العشرينيات من عمرها)

لم أعلم أن القبلة الأولى للمؤمنين كانت القدس، ثم تحولت إلى مكة إلا فيما بعد، فلما درست القرآن قليلاً وبحثت المسألة مع إمامنا تبينت أن ذلك حصل فعلاً. فأزعجني ذلك، لماذا يختار الله قبلة في البداية ثم يحولها إلى مكان آخر؟

من التعليلات التي سمعتها هي أن النبي أراد أن يشعر اليهود بأنهم ليسوا غرباء، وأنه إذا ما تضمن هذا الدين الجديد جزءاً من دينهم فسيكون اعتناقه أسهل عليهم، ولهذا جعلت القدس قبلة للمسلمين، وعندما لم يبد اليهود أي اهتمام باتباع النبي، حُولت القبلة إلى مكة.

فأثار هذا التفسير سؤالاً آخر، لماذا يجعل الله أو النبي القدس قبلة لإرضاء اليهود، ومن ثم بسبب غضبه عليهم (هكذا أوحى لي التفسير الذي سمعته) حولها إلى مكة؟ وفي كتابك (الصراع من أجل الإيمان) أن تحويل الكعبة إلى مكة كان لتمييز الدين الجديد من الأديان الأخرى. ولكن لماذا لم تجعل الكعبة في مكة قبلة منذ البداية؟

يعلن القرآن تغيير القبلة في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٢-١٥٠]، ولكن صياغة الآيات غامضة وتلميحية، ولم توضح بجلاء أن القبلة الأصلية للمسلمين في المدينة، التي يحددها الحديث بالقدس، قد أوحي بها، وأكثر الآيات صلة بالموضوع تقول:

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٢-١٤٤].

ولما كان الحال كذلك، فقد قام خلاف كبير بين المفسرين والمؤولين حول هذا النص. ومن بين ما اختلفوا فيه، هو في أي زمن بعد وصول النبي إلى المدينة حُوِّلت القبلة، وما سبب توجه النبي إلى القدس في المقام الأول[1]، وهل أُوحي بالقدس قبلة أم لا، وما سبب تفضيل النبي للكعبة لتكون قبلة، وما المسألة التي قال عنها القرآن ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾.

فيما يتعلق بسبب توجه النبي إلى القدس قبل تحويل الاتجاه، وفيما يتعلق بالسؤال عما إذا كان ذلك بأمر إلهي، يقول الطبري يروي عن عكرمة والحسن

---

(١) إن بعض المصادر قدمت التواريخ التالية: تسعة أشهر أو عشرة أو ثلاثة عشر أو ستة عشر أو سبعة عشر على أنها المدة التي صلى خلالها المسلمون نحو القدس، محمود م. أيوب: (القرآن ومفسروه)، مطبعة سوني (Suny Press) ١٩٨٤، ص١٦٧-١٦٨.

البصري: إن النبي قد اختار القدس على أمل أن يكسب يهود المدينة[١] ويستشهد بربيع بن أنس أن النبي قد خير في البداية للتوجه حيث يشاء فاختار القدس ليوفق بين أهل الكتاب[٢]. ومن ناحية أخرى يستشهد الطبري برأي ابن عباس القائل: إن الله أمر محمداً بالتوجه إلى القدس، وإن يهود المدينة فرحوا بذلك[٣]. وفيما بعد طرح المفسرون شروحات أكثر[٤].

واختلف المفسرون كذلك بشأن تفضيل النبي للكعبة، إذ قال بعضهم استناداً إلى الطبري: إنه ما أحبّ قبلة القدس، لأن اليهود اعتادوا أن يقولوا: إنه يتبع قبلتنا، ومع ذلك يعارضنا في ديننا[٥]. وقال آخرون: «اختار الكعبة لأنها كانت قبلة أبيه إبراهيم»[٦]. ويروي القرطبي عن ابن عباس أن رسول الله قال: «البيت قبلة الناس (المحيطين) بمكان العبادة (المسجد)؛ والمسجد قبلة أهل الحرم والحرم هو قبلة أهل الأرض من شرقها وغربها»[٧].

الافتراض القائل: إن النبي قد غير اتجاه الصلاة إلى الكعبة عندما لم يبد اليهود اهتماماً باتباعه لا وجود له بين آراء المفسرين المسلمين، وإنما ذكره المستشرقون في أثناء فترة الاستعمار.

أما لماذا لم يختر الله وقتاً قبل ذلك ليقرر الكعبة قبلة؟ فهو سؤال يستحيل الإجابة عنه. يمكننا أن نتأمل ونفكر، ولكن لا يمكننا إثبات فرضياتنا، فبالنسبة إلي، على أي حال، فإن أهم شيء بشأن التغيير أنه لم يكن متأخراً ولا متقدماً، فالقرآن وطد مكة حرماً روحياً لدين التوحيد عندما كانت مركز عبادة الأصنام، وعندما كان أتباع النبي لا يزيدون عن مئة، وعندما كانت قريش مع حلفائها

(١) المرجع السابق، ص ١٦٨.
(٢) المرجع السابق، ص ١٦٨، ١٧٥.
(٣) المرجع السابق، ص ١٦٨-١٦٩.
(٤) المرجع السابق، ص ١٦٩-١٧٠، وكذلك جون برتون، مصادر التشريع الإسلامي إلينبيرغ، ١٩٩٠، الفصل ٨.
(٥) المرجع السابق، ص ١٧٣.
(٦) المرجع السابق، ص ١٧٣.
(٧) المرجع السابق، ص ١٧٤.

أعظم قوة سياسية في الجزيرة العربية، والعقل يقول والمنطق يفرض أنه لم يكن أمل للحفنة الصغيرة من المسلمين أن يعودوا إليها، ومع ذلك يتحدث القرآن في هذا الوقت عن مسلمين بعيدين يتوجهون إلى المسجد المقدس في صلاتهم ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢/١٤٩-١٥٠]، أما اليوم فإن كون الكعبة هي الوجهة التي يصلي إليها المسلمون يعد معقولاً ومفهوماً، ولكن ماذا لو بقيت الكعبة بيد الكفار، فأيهما في نظر المراقب الخارجي يبدو أكثر تأكيداً؟ بالنسبة إلي، أرى أن توقيت إقرار الكعبة قبلة دليلٌ لمصلحة الأصول الإلهية للقرآن.

جاء في القرآن ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ

إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٤-١٤١] إن الإسلام إحياء وتتويج لعقيدة إبراهيم الذي أعاد بناء الكعبة مع ابنه إسماعيل مخصصاً إياها لعبادة الله الواحد الأحد. وهكذا فإن الاستمرار في التوجه إلى المسجد الأقصى كقبلة للإسلام بعكس جذوره في عقيدة إبراهيم، سوف يدفع الأعداء الوثنيين إلى القول: إذا كان الإسلام استمراراً لعقيدة إبراهيم، فلماذا لا يتوجه المسلمون إلى البيت الذي كان يتعبد فيه إبراهيم؟ ويبدو أن هذا هو القصد من قول القرآن: إنه بتحويل المؤمنين إلى مكة، قد سحب البساط من تحت أقدام أعداء النبي وأسقط حجتهم ضده في هذه المسألة ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٠].

الفصل الثاني

أين ذهب الأبناء كلهم ؟!

أتيحت لي ولسهيل فرصٌ عديدة للتحدث معاً خلال اليومين اللذين قضيتهما في المدينة. تحدثنا عن المسافة الطويلة في السيارة من المطار إلى الفندق، وعن المرتين اللتين تناولنا فيهما الإفطار معاً. والمرات العديدة التي أوصلني فيها بسيارته إلى محاضراتي واجتماعاتي مع زعماء الجالية المسلمة. تحدثنا عن أمور كثيرة، عن الجو، عن حياتنا العملية، عن الجاليات الإسلامية التي نعيش فيها، عن لعبة كرة السلة في الكلية، عن الاقتصاد، والسياسة، وعن أسرنا.

كانت مناقشاتنا مبهجة، ليست شخصية تماماً، ولا هي حوارٌ جاد من النوع الذي يجري بين اثنين يتعرف حديثاً أحدهما على الآخر. ولكن عندما انطلقنا إلى المطار مساء اليوم الذي غادرت فيه، كان سهيل ساهماً غارقاً في التفكير، لم ينبس ببنت شفة. كانت محاضرتي صباح ذلك اليوم بعنوان (تحرير الشباب الأمريكيين المسلمين من الوهم) ودارت حول عجز الكثيرين من الجيل الثاني عن الانتماء إلى عقيدة آبائهم. وعندما سألت سهيلاً عن حالته وإن كان بخير، أجاب الجواب التقليدي المألوف (الحمد لله) ثم عاد إلى تأملاته.

وبعد بضع دقائق من الصمت، حاولت خلالها أن أستكشف ما إذا كنت قد أسأت إليه بشيء، نظر إلي سهيل وقال: «ألِفت أن أكون قريباً جداً من أولادي» ثم شرع بشرح طويل. ذكر كيف كانوا دائماً أطفالاً مسلمين نموذجيين، وكيف كانوا على نشاط في مسجدهم. وكانوا جزءاً من كل عمل تقوم به الجالية، يحضرون بانتظام مدرسة الأحد الإسلامية، ويساعدون بالعمل في (كافيتريا) المسجد قبل وجبة الأحد «البرنش (brunch)»[1] ويذهبون إلى مؤتمرات الشباب المسلم. تحدث عن حبه لهم. وقال : إنه عندما كان يُحضر ابنه من المدرسة كان يُهرع إليه فاتحاً ذراعيه فيعانقه، ويتعلق به، ويقبّل رأسه. وكان زملاؤه في السنة التاسعة يسخرون منه ومن هذا العرض العاطفي اليومي، ولكن ابنه كان يتجاهلهم. لم يستطع سهيل أن ينظر إلي وهو يتحدث عن ابنته، وتوقف ليستجمع نفسه. قال كم كانت رائعة الجمال نقية، وتبدو كملاك في حجابها، حتى إن آباء زميلاتها وأمهاتهن كانوا يتعجبون من جمالها، وإن العديد من الأصدقاء كانوا يأملون أن يقترن أولادهم بها. قال: إنه يرى أن الشمس أشرقت وغربت عليها، وإن أجمل لحظات حياته كانت عندما تجلس في حجره وقد طوقت عنقه بذراعيها.

وكما يتوقع القارئ، أخذت الأمور تتغير. وعندما صار الابن في الثانوية وجد أبوه، ذات يوم، في جيبه علبة سجائر. فواجهه بذلك، فادعى أن العلبة لأحد طلبة المدرسة. وبعد ذلك بوقت قصير اكتشف أنه كان يكذب. فشعر بطعنة عميقة. فقال في نفسه مستغرباً: «كيف يكذب ابني علي؟».

ولكن سرعان ما تبين له أن الآتي أعظم. ففرض قيوداً قاسية، وتوترت علاقتهما، أما علاقته مع ابنته فظلت قوية.

ثم ذهبت إلى الكلية. وأخذت تبتعد عنه رويداً رويداً، وشرعت تتساءل عن الإسلام أكثر وأكثر، وكثيراً ما كانت لا ترد عليه إذا اتصل بها على الهاتف في الليل. قالت : إنها لا تستطيع المجيء إلى البيت في عطلة الربيع، لذلك ذهب سهيل بسيارته إلى الجامعة ليبحث في المشكلة. تبين أنها وقعت في حب فتى غير

---

(١) برنش (brunch) هي وجبة الإفطار والغداء وتقوم مقامها. (المترجم).

مسلم التقته في الصف وسكنت معه. شعر سهيل أن الدمار حل به. قال: إنه وصمها بكل اسم بائس في الكتاب، بكلمات ما يمكن أن يقولها لأرذل متسكع في الشوارع. صرخ قائلاً: «كيف تفعلين ذلك بي؟»، ولم يعد يكلمها منذ ذلك الحين، بالرغم من محاولاتها الكثيرة للاتصال به.

أما ابنه فقد تخرج في المدرسة الثانوية منذ بضع سنين. وكان يتلقى سهيل من حين إلى حين مكالمات من الشرطة تستدعيه ليتسلم ابنه، بعد أن وجدوه ثملاً متسكعاً في المدينة. وفي إحدى الليالي اكتشف ابنه في الرواق الخلفي للبيت وبيده سكين. وعندما سأله عما سيفعل بالسكين أجابه إنه كان يفكر في الانتحار. دخل سهيل المطبخ وعاد وبيده سكين أحدُّ وأمضى، وقال له: «إن كنت تنوي أن تفعل ذلك، فافعله بطريقة صحيحة على الأقل» ثم عاد إلى البيت. قال سهيل وكأنه يتوسل: «كيف يخونني أبنائي. أنا لا أستطيع حتى التحدث إليهم، بل لا أستطيع البحث معهم، ماذا سأفعل؟».

ما أكبر مجموعة إسلامية في أمريكة؟

إذا ما حضرتَ صلاة جمعة أو ذهبت إلى أحد المؤتمرات الإسلامية التي تعقد خلال السنة، سوف تستنتج أن الغالبية العظمى من مسلمي أمريكة مهاجرون ومن متوسطي الأعمار أو من الشيوخ، ولكن هذا ليس دقيقاً. لقد قُدِّر عدد المسلمين المقيمين في الولايات المتحدة ما بين ثلاثة ملايين وثمانية، ولتبسيط الأمور نأخذ المتوسط التقريبي، وهو خمسة ملايين. كما تختلف التقديرات في أعداد الأمريكيين الذين اعتنقوا الإسلام اختلافاً كبيراً؛ بيد أن الرقم الأكثر تداولاً هو مليون شخص، ويمكن أن يكون هذا الرقم منخفضاً؛ لأن غالبية أمة الإسلام التي بلغ عدد أعضائها ذروته في ستينات القرن العشرين، وهو مليون عضو، قد انخرطت في البناء الإسلامي الشائع، وجرى تحول بطيء إلى الإسلام - ولكنه ثابت من قطاعات المجتمع كلها - خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين. وغالبية أطفال المسلمين في أمريكة ولدوا فيها، إضافة إلى أن الأسر الإسلامية تميل إلى التوالد أكثر من غيرها، ومعدل ولاداتها أعلى من المعدل القومي. لذلك فإذا قدرنا ثلاثة أطفال لكل أسرة يكون تقديرنا معقولاً.

ومن ثم فنحو ٦٠٪ من المسلمين الأمريكيين، وهم نحو ثلاثة ملايين تقريباً ولدوا في الولايات المتحدة لأبوين مسلمين. وإذا ما أضفنا هذا العدد من المسلمين - ما عدا الجيل الأول - إلى عدد الذين اعتنقوا الإسلام من الأمريكيين، فإننا نحصل على نحو أربعة ملايين من أصل خمسة، أي نحو ٨٠٪ من المسلمين قد ولدوا في هذا البلد. ومن ثم فإذا كان أربعة أخماس المسلمين في أمريكة مواطنين بالولادة، فلابد لنا أن نسأل: أين هم؟ لأنهم بوضوح غائبون عن مساجد الأمة، وعن التجمعات الإسلامية.

ولدى العودة إلى عام ١٩٨٢ الذي اعتنقتُ فيه الإسلام، وجدت أن اللقاءات الإسلامية التي كنت أحضرها في أي مكان تكونت في معظمها من المهاجرين، وممن هم في مثل عمري تقريباً، ومن الطلبة الأجانب الزائرين. انقضى أكثر من عشرين عاماً، وما زالت الأمور على ما كانت عليه. فالذين يحضرون اللقاءات الإسلامية ما زالوا في معظمهم من المهاجرين، وممن هم في مثل سني تقريباً، وربما أكبر، ومن طلاب أجانب زائرين، وأحياناً من نثارات متفرقة من الذين اعتنقوا الإسلام.

وبالرغم من أن أمريكة شهدت في النصف الأخير من القرن هجرة كبيرة ومعززة من المسلمين، وسجلت أكثر من ألف مسجد ومركز إسلامي فقد أنشأت عشرات من مدارس K12، وأسست تنظيمات سياسية قومية ولوبيات كثيرة، فإن أكبر مجموعة مسلمين في أمريكة ممثلة تمثيلاً ضعيفاً في التجمعات والمؤسسات المجتمعية. وكثيرون من الطلبة المسلمين الذين تدفقوا على الجامعات الأمريكية منذ الخمسينات أصبحوا مواطنين أمريكيين ومقيمين في أمريكة، وأصبح لديهم حالياً أولاد في العقود الثانية والثالثة والرابعة من أعمارهم، ولكن ذرية الجيل الأول هذا وأكثر من مليون ممن اعتنقوا الإسلام لديهم مراكز إسلامية ومنظمات إسلامية أخرى، بالإضافة إلى المساجد. ومن هذا المؤشر الحاسم على تقدم الإسلام في الولايات المتحدة لا يمكننا التيقن أبداً من أن الدين قد تجذَّر في أمريكة الآن، أو أنه سيضرب جذوره في النهاية.

يبدو أن كثيراً من المؤسسات الإسلامية في الولايات المتحدة من غير دعم

وتعزيز خارجيين سوف تغلق أبوابها في النهاية، وأن أبناء المهاجرين المسلمين والذين اعتنقوا الإسلام ليس لهم - علمياً - أي علاقة أو ارتباط بالمجتمع الإسلامي، ومن ثم فسوف ينكرون دين أجدادهم وأسلافهم ويتنصلون منه. كان يبدو حتى وقت قريب أن تقلصاً كبيراً في هجرة المسلمين التي كانت ثابتة ومستمرة إلى أمريكة، يعد احتمالاً بعيداً، ولكن حادث هجوم ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ ربما يكون قد غير ذلك. إذ تشير التقارير الواردة من المساجد في الجامعات في مختلف أنحاء البلاد إلى أن عدد الطلبة المسلمين الأجانب آخذ في التناقص وإلى أن فرض حظر على الهجرة من البلدان الإسلامية قد اتخذ حديثاً في أمريكة. إن وقوع هجوم إرهابي كبير آخر أو هجومين على الولايات المتحدة - وهناك أسباب لتوقع ذلك - سيؤدي إلى تجفيف مصادر هجرة المسلمين، وقدوم الطلبة المسلمين الأجانب إلى الولايات المتحدة.

لذلك كان علينا أن نتساءل: لماذا يتجنّب المسلمون غير المهاجرين - الذين يحتاج المجتمع إلى مساهمتهم العاجلة - مساجد أمريكة والمراكز الإسلامية ويبتعدون عنها؟ التفسير المعتاد: هو أن المجتمع من حولهم يغريهم في الابتعاد عن الدين. إذ تتضافر ضغوط الأقران، وتشويه الإعلام للإسلام، وإظهاره بأنه دين شيطاني، وجذب الثقافة الشعبية، والاستهلاكية الضارة، والتحامل المتأصل على الإسلام، واستغلال الجنس وترويجه، تتضافر كلها لإبعاد الكثيرين من الشباب عن الإسلام، بل وتحويلهم عنه. وفي حين تشكو الأديان كلها تقريباً من مؤثرات الثقافة الغربية الحديثة الضارة، فإن غالبية المسلمين ربما يؤكدون أن الإسلام يقف بحزم ضد هذه المؤثرات، ومن ثم لن يكون غريباً أن ترتفع نسبة الانفصال عن المجتمع الإسلامي بين هذه المجموعة الأكثر عرضة لإغراءات المجتمع المحيط بها وضغوطه. والواقع أنه حتى البوذيون والهندوس الذين يسهل عليهم التلاؤم مع المشهد الأمريكي، فإن قطاعاً كبيراً من جيلهم الثاني قد انحرف عن دين الآباء والأجداد.

ربما تجعل الثقافة المحيطة بالمرء من الصعب عليه أن يكون مسلماً، ولكن جذور تحاشي غير المهاجرين للمجتمع الإسلامي تمتد بالتأكيد إلى ما وراء

الضغوط الخارجية. يستمر الإسلام باجتذاب الناس إليه في أمريكة أكثر من أي دين آخر، بالرغم من الإعلام السلبي والتحايل عليه وغير ذلك من المؤثرات المجتمعية المذكورة فيما تقدم، وما زال عدد كبير من الأمريكيين المدركين لهذه العوامل كلها يعتنقون الإسلام. لكن من غير المفهوم أنه بعد تغلُّبهم على هذه الحواجز والصعوبات ليعتنق أحدهم الإسلام تراهم يستسلمون لهذه الصعوبات بسهولة وبأعداد كبيرة. من المفهوم أن الشباب في مجتمع تسوده وجهات نظر متنوعة وأساليب حياتية مختلفة أن يشكُّوا في دينهم، وربما يتركونه جانباً لمجرد التلاؤم، ومع ذلك فمن الغريب أن ديناً يجتذب الحماس المتوقد لكثير من الشباب في العالم الإسلامي التقليدي والذين يصبحون في الغالب من النشطاء مخاطرين بأنفسهم، لا يجمع سوى عدد لا يكاد يذكر من أطفال المهاجرين المسلمين.

على زعماء المسلمين ومفكريهم أن يتأملوا أنفسهم ومجتمعهم من الداخل ليتبينوا إن كان بإمكان هذا المجتمع أن يفعل شيئاً ما أكثر لكي يصل إلى هذا الجسر المحتمل الذي يربطهم بالمستقبل، بدلاً من أن ينسبوا ذلك إلى قوى ثقافية لا يمكن تجاوزها. ومع ذلك، فإن المشاكل التي نبحثها هي مشاكل القلب والعقل، وليس لنا أمل في تشخيصها بصورة فعالة من دون تعاون المريض. فإذا كان المريض المصاب يرفض الشكوى، أو إذا رفضنا الإصغاء إليه فإنه من غير المحتمل اكتشاف العلاج.

هذه هي العقبة الكبرى حالياً في وجه معالجة سبب ضياع الـ ٨٠٪ لأن أسئلتهم واعتراضاتهم كانت تُقمع منذ زمن طويل بالسخرية والتخويف والصياح والعبوس والدوغماتية. عندما يشاركني الشباب شكوكهم في بعض جوانب التراث الإسلامي، أسألهم لماذا لا يبحثون مشاكلهم مع آبائهم وأمهاتهم، ويكون الجواب الذي أتلقاه باستمرار: هو أنهم ينفجرون غضباً إذا ما طرحوا عليهم مثل هذه التساؤلات. يشكو الذين اعتنقوا الإسلام والشباب المسلمون من أن مساجدهم ومراكزهم الإسلامية لا تساعدهم.

فإذا ما طرح شك أو تحفظ حول آراء تقليدية فإن الجواب يكون دائماً : «هذا هو الإسلام». أو «ولكن ليس هذا هو الإسلام» أو «إذا لم تقبل ذلك فأنت

لست بمسلم». «والكتب والخطب المتعلقة بقضايا خلافية مفعمة باتهام المعارضين بالكفر أو بالتنديد والذهاب إلى جهنم». كما يحرم المسلمون الذين يطرحون مسائل جادة تتعلق بشرعية تفسيرات علمية أو شائعة ويطردون من الدين بتهمة أنهم حداثيون أو مستغربون، أو عقلانيون، أو خطرون[١].

تعد غالبية الخطب في اللقاءات الإسلامية والمؤتمرات مواعظ أساساً. ومن النادر أن ينتقد خطيب وجهة نظر تقليدية. ولابد من القبول بأن هذا لا يتوقع حدوثه في اجتماعات شبيهة باجتماعات التنقيح والتعديل في المسيحية الإنجيلية البروتستانتية التي هدفها الأساس هو إيقاظ الحمية الدينية وغرس التراث، ولكن أين يذهب بعد ذلك الشباب ومعتنقو المسيحية الإنجيلية سعياً وراء بحث علمي هادئ متفق للقضايا التي يفكرون فيها؟

الجامعة هي خير ملاذ لمثل هذه الجماعات المثقفة ثقافة جامعية بوجه عام، لكي يقوموا بعد الوعظ الديني بالتحليل النقدي العميق، والبحث المستفيض، فيما يفكرون فيه ويعانون منه، وسوف يجدون هناك الكثير فيما يتعلق بالقضايا التي تزعجهم، ولكنه بأكمله تقريباً عمل غير مسلم، ومتحيّز بصورة موروثة ومتأصلة. على أي حال إذا كانت الجالية الإسلامية تريد الرد على عموم الغائبين الذين يشكلون ٨٠٪ منهم، فإن أول نسق عملي هو تيسير عملية التواصل، ولكن بسبب سمعة الجالية بأنها تقليدية متطرفة فإن هذا النسق سيكون بعيداً جداً.

دعيت قبل بضع سنين إلى مخيم للشباب المسلمين يبعد عن لورنس، كنساس نحو ساعتين ونصف الساعة. شاركت بجلستين، ألقيت في الأولى كلمة، وفي الثانية كنت أتوقع أن أتحاور مع عناصر المخيم الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والسادسة عشرة. كان الحضور هذا أصغر سناً مما كان في

(١) من المهم أن نلاحظ وجود ليبراليين مسلمين كثيرين هم كذلك دوغماتيون لا يتحملون الآراء المغايرة، ولكن عددهم قليل، ويظلون عموماً بعيدين عن المؤسسات الإسلامية الأمريكية، ومن الصعب على معتنقي الإسلام وسلالة المهاجرين الوصول إليهم.

ذهني، وكانوا من أسر متدينة، حثت أبناءها على الحضور. ومع ذلك كنت حريصاً على معرفة ما إذا كان هؤلاء الأولاد والبنات يتصارعون مع شكوك وهواجس تتعلق بعقيدتهم وإيمانهم. لذلك وجهت لهؤلاء الأطفال في جلسة الحوار سؤالاً عما إذا كانت قد وجهت إليهم أسئلة بشأن دينهم. فلم يجب أحد، ثم حاولت إعطاء بعض الأمثلة. وسألت: هل يُفْصَلُ بين الجنسين في مجتمعاتهم المحلية، وإذا كان مثل هذا الفصل قائماً، فهل تساءلتم لماذا، سواء كان التساؤل موجهاً لأنفسكم أو للآخرين؟ لا جواب.

وسألتهم: إن كانوا قد تساءلوا يوماً: لماذا يحق للرجل المسلم أن يتزوج أربع نساء، ولا يحق للمرأة سوى زوج واحد؟ لا جواب.

وسألتهم إن كانوا قد تساءلوا: لماذا لا يستطيعون أخذ مواعيد غرامية مع أصدقائهم غير المسلمين ؟ صمت مطبق.

وسألتهم : هل تساءلتم يوماً: لماذا لا تحتفلون بعيد الميلاد؟ لم أتلق جواباً.

ولماذا على النساء المسلمات أن يرتدين لباساً تقليدياً، في حين ليس ذلك لزاماً على الرجال المسلمين؟ لا جواب.

وبعد عدة أسئلة لم أتلق على أي منها جواباً. عكست الأدوار وسألتهم: كيف يمكن أن تجيبوا على كل هذه الأسئلة لو طرحت عليكم؟

وبمروري على القائمة، كان يجيب عن كل سؤال متطوع أو اثنان، جوابهما لا يخرج عن الخط التقليدي كما توقعت، ولا يختلف عن جواب إمام في مسجد. وبعد كل جواب سألت الحضور: إن كانوا مقتنعين بالإجابات وراضين عنها. لا مشكلة.

فغادرت المخيم ذاك المساء مستغرباً، ولكني كنت مسروراً لأن هذه المجموعة الخاصة من الأطفال المسلمين ما زالوا آمنين في دينهم. ولكن ما إن وصلت البيت بعد ساعتين تقريباً، وما كدت أدخل من الباب حتى رن

جرس الهاتف، وكان اتصالاً من أمينة أسيلمي واحدة من مستشارات المخيم، وهي أمريكية اعتنقت الإسلام، تطلب مني أن أعود إلى المخيم تلك الليلة بناء على طلب الأطفال للبحث مع أمينة وحدها بعض الأسئلة التي كانت تقلقهم. فقلت لأمينة، لا أستطيع العودة الليلة وهي آخر ليلة في المخيم - ولكني سألتها: لماذا ظلوا صامتين عندما توسلت إليهم أن يجيبوا، ولماذا بدا عليهم الرضا والقناعة بالأجوبة المعيارية الرسمية ؟ فقالت : كان الأطفال خائفين من الإجابة أمام العديد من زعماء الجالية الذين كانوا حاضرين.

لم يكن أي جهد من جهودي للوصول إلى هذه الأكثرية الغائبة أنجح من جهدي تلك الليلة. لأنني منذ سنين عديدة بعد اعتناقي الإسلام، وأنا أحتك بعدد قليل من المسلمين الجدد، وأما الجيل الثاني من المسلمين فلم ألتق بأحد منهم طوال هذه المدة إلا بأولادي. ولكن تغير الأمر مع نشر كتابي الأول (الصراع من أجل الإيمان) عام ١٩٩٤؛ إذ بدأت أتلقى رسائل وهواتف وبريداً ممن اعتنقوا الإسلام في العالم كله. ثم بعد أن نشر كتابي (حتى الملائكة تسأل) عام ١٩٩٧، بدأت أتلقى بريداً من شباب أمريكيين مسلمين. كما بدأت أتلقى بريداً وهواتف من آباء وأمهات يبحثون عن نصيحة حول كيفية التعامل مع أطفالهم الضالين، ومع غير مسلمين يحققون في الإسلام. فأوحت لي هذه المحادثات أن أصدر هذا الكتاب إضافة إلى بعض الأسئلة والتعليقات التي وزعتها عبر النص.

لا أدعي أن المراهقين الشباب ومعتنقي الإسلام الذين بذلوا جهداً للاتصال بي يعدون عينة تمثّل المجتمع أو الجالية. إن المسلمين المولودين في أمريكة والمتحررين من الوهم ما زالوا مرتبطين بالإسلام، ويقلقون عليه، في حين أن زعماء المسلمين - وخصوصاً زعماء الشباب المسلمين في طول البلاد وعرضها- يقولون: إن غالبية الأكثرية الضائعة شديدة اللامبالاة. لابد من التأكيد على أن الوالدين اللذين لا صلة لهما بالمسجد يعدّان أكبر سبب في إهمال الجيل الثاني للإسلام. كثير من البالغين الراشدين في بلدان العالم الإسلامي

يتجنبون المسجد، ومع ذلك يتشرب أطفالهم الإسلام من الثقافة. أما في أمريكة فإن لم يكن الآباء مرتبطين بالمسجد فمن الصعب أن يكون لأبنائهم أيُّ ارتباط بالدين. ومع ذلك، فإن المسلمين المولودين في أمريكة، من الذين يناضلون من أجل التمسك بدينهم. حتى وإن كانوا لا يمثلون نسبة ٨٠٪ الضائعة فمن المعقول أن غالبية الفئة الأخيرة ستعاني إشكالات مماثلة، إذا ما اتسع نطاق احتكاكها بالجالية الإسلامية.

إذن ما مشكلتك ؟

يجب ألا يعزو زعماء المسلمين بصورة عمياء ندرة المساهمة لدى غير المهاجرين في المجتمع إلى ضغوط مجتمعية فقط، علماً بأن هذه الضغوط تشكل عاملاً هاماً بلا شك. فبالنسبة إلى المسلمين غير المهاجرين تعد أمريكة وطنهم الوحيد، ومن المفروض أساساً أن يتبنوا كثيراً من قيم وطنهم وعاداته السَّائدة. يسعى بعض الآباء المسلمين إلى عزل أبنائهم عن المجتمع الأوسع؛ فلا يسمحون لهم بمصادقة غير المسلمين، ويمنعونهم من مشاهدة التلفاز أو من استخدام الإنترنت غير المراقب، ويمنعونهم من الإصغاء إلى الراديو أو شراء أقراص مدمجة (CD)، ويرسلونهم إلى مدارس إسلامية، أو يختارون التعليم المنزلي، ولكن القادرين على ذلك قلة قليلة نسبياً. وليس لدى كل الجاليات مدارس إسلامية كاملة الدوام، وإبقاء الطفل معزولاً في الثقافة يحتاج إلى التزام زمني وجهد كبيرين. فضلاً عن أن غالبية الآباء والأمهات المسلمين يشعرون بضرورة الاندماج في المجتمع الأكبر لمصلحة أطفالهم العامة، ويشعرون أنه بفضل تربية حصيفة للأطفال يستطيعون توجيههم بفاعلية، وإبعادهم عن العادات غير المرغوب فيها في أمريكة، دون الحاجة إلى التطرف أو التشدد. ومن ثم أصبح لدى غالبية المسلمين المولودين في أمريكة نظرة أمريكية مفهومة بفضل حجب الاستثناءات القليلة التي عُزلت عن الثقافة المحيطة بطريقة ناجحة. لذلك ليس صحيحاً قولهم: إن أفراد الثمانين بالمئة المفقودة قد جرى إغواؤهم عن دينهم وانجرافهم بالتيار الأمريكي العام، لأن المشهد المجتمعي لأمتهم قد

استوعبهم، وأنهم ما زالوا يوازنون بين الثقافة الأوسع والثقافة الفرعية الإسلامية. وهذا يوضح المناشدة التي نسمعها باستمرار من المسلمين المولودين في أمريكة لفصل الدين عن الثقافة ؛ وبما أنهم لم يتأسسوا في المجتمع الإسلامي التقليدي، فهم، بالطبع، يريدون اعتناق المعتقدات والممارسات الدينية الجوهرية في الإسلام، ولهذا فليس غريباً أن تكون غالبية أسئلتهم الدينية مشتقة من صدام الثقافات.

لذلك سأدرس في بحثي التالي بعض الهموم والشكوك التي شاركني بها المسلمون في الولايات المتحدة الأمريكية، أربعة منظورات كبرى متقاطعة، هي: منظورات النساء المسلمات غير المهاجرات، ومنظورات الإفريقيين الأمريكيين الذين اعتنقوا الإسلام، ومنظورات سلالة المهاجرين، وأخيراً منظورات الذين اعتنقوا الإسلام عموماً.

مكان المرأة

تأتي معاملة الجالية الإسلامية للمرأة، وخصوصاً العزل الجنسي في قمة قائمة الشكاوى والتظلمات ضد الجالية الإسلامية. ويعد الفصل الجنسي (بين الإناث والذكور) من أكبر العقبات أمام قبول الإسلام في الغرب، ومن أهم الأسباب لنفور المسلمين غير المهاجرين، ومن الاحتجاجات الشائعة؛ عدم تشجيع النساء على صلاة الجماعة، وعزلهن في غرف منفصلة عن قاعة الصلاة الرئيسية، وعزلهن في لقاءات الجالية عن الرجال. تعد فكرة العزل الجنسي في الولايات المتحدة - حيث المرأة ناضلت طويلاً ضد التمييز بين الرجل والمرأة - أمراً بغيضاً، والأكثر من ذلك أن العزل الاجتماعي بأي شكل من أشكاله يثير ذكريات الأمريكيين لتاريخهم التعصبي المظلم، ويغدو هذا العزل في نظرهم مرادفاً للتحامل والتحيز والظلم والاضطهاد. وكما قالت أمريكية إفريقية مسلمة: «إن شعبي الذي اكتسب حديثاً حق تناول الطعام في المطاعم مع الآخرين من البيض، وحق الركوب في المقدمة من حافلات النقل، يقال لنسائه الآن: إن عليكن أن تبقين في الغرفة الخلفية من المسجد!!».

ومن التعليلات الشائعة لعزل النساء هو أن العزل يردع الاختلاط والممارسات الجنسية غير الشرعية، وهو جانب من جوانب الثقافة الأمريكية يراه المسلمون انحرافاً منفلتاً لا سيطرة عليه. والخوف يكمن في السماح للتفاعل والاختلاط في المساجد وفي الوقائع المجتمعية، فإن الفسق بكل ما يترتب عليه من نتائج مدمرة للأسرة وللمجتمع سوف يعم ويسود. إذ تقول القاعدة الشرعية القديمة : «كل ما يؤدي إلى محرَّم فهو حرام». وغالباً ما تذكر هذه القاعدة لإثبات ضرورة عزل الإناث عن الذكور. إذ ربما تؤدي هذه القاعدة الشرعية لكونها مفتوحة إلى أشد التشريعات صرامة وتقييداً. فإذا كان الاختلاط العام للجنسين حرام لأنه ربما يؤدي إلى الاتصال الجنسي غير الشرعي، أفلا يعني ذلك أنه ينبغي منع المرأة الخروج من البيت إلا لضرورات قاهرة، لأن خروجها ربما يؤدي إلى اختلاط غير مقصود؟

يرى علماء المسلمين المحافظون هذا الرأي. والقاعدة نفسها استخدمت لدعم القرار بمنع المرأة من قيادة سيارة أو منحها رخصة قيادة سيارة، لأنه لو تعطلت سيارتها وكانت وحدها فإن من يصل إليها ليساعدها من الرجال ربما يرفض مساعدتها إلا إذا استجابت له جنسياً. إن قوة الحجة في مثل هذه الآراء تعتمد على مدى رغبة المسلمين في تقييد الحرية الشخصية لتقليص احتمال حدوث الانتهاكات، وعلى مدى رغبتهم في تجاوز الآثار الجانبية السلبية المحتملة. فلو منعت الولايات المتحدة النساء فجأة من قيادة السيارات، فسيترتب عليها كي تتلافى كارثة اجتماعية ومالية أن تستورد سائقاً لكل بيت، من أجل أن ينقل النساء والأطفال، حين ينشغل السائقون الذكور في الأسرة. وينبغي أن تكون أجور السائقين منخفضة - أكثر من الحد الأدنى الحالي للأجور - لكي تستطيع الأسرة أن تستأجر سائقاً. وبالطبع؛ إن تدفق نحو خمسين مليون عامل فقير سوف يُولد مشاكل ومخاطرات كبرى.

علماً بأن القرآن يصر على إدانة البدع الدينية وتقديس التقاليد المألوفة، فإن قضية المسلمين الأساسية المتعلقة بفرض عاداتهم وتقاليدهم على المشهد الإسلامي الأمريكي ليست هي النتائج الاجتماعية المحتملة لمثل ذلك العمل،

بل هي فرض هذه التقاليد والعادات؟ هذه مسألة حاسمة في الكتاب المقدس؛ لأن جعل أي فكرة أو أفضلية معينة أو عادة ما أمراً مثالياً لا يجوز المس به سوف يعيق البحث عن الحقيقة إعاقة خطيرة. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٥٩]. ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١٦/١١٦].

إذن لابد للمسلمين في أمريكة أن يعيدوا تقويم عاداتهم وتقاليدهم باستمرار ليميّزوا ما هو جوهري وأساسي للدين منها وما هو غير ذلك. وتلك التي تعدُّ ضرورية بل ضارة بتقدم الإسلام في أمريكة يتم التخلص منها، أو على الأقل يجب إجراء تعديلات لأولئك الذين يختارون عدم اتباعها، ولكن الأهم من ذلك يجب ألا تكون إجبارية، لأنها ربما تغدو مصادر شك لا ضرورة لها عند الذين نشؤوا في الوطن، وتصبح رادعاً لغير المسلمين عن محاولة استكشاف الإسلام بوصفه خياراً دينياً. على أي حال، ليست غربلة المعتقدات والعادات غير الضرورية عملية مقطوعة وجافة دائماً. إن معظم التقاليد الإسلامية «دينية» بمعنى أنها انبثقت بدافع التقوى، ويمكن تعزيزها بمنطق ديني يربطها بالقرآن وبأقوال النبي بفضل سلسلة من الافتراضات والتضمينات والنتائج. ويعد خطر قيادة السيارات على النساء مثالاً أولياً: الزنا حرام بنص قرآني وبأحاديث نبوية؛ وهناك احتمال - ولو كان طفيفاً - أن توضع السائقة في موقف يمكن أن تتعرض فيه لفضيحة جنسية، ومن ثم يجب منع المرأة من قيادة السيارة، ولكن التعليل الديني لممارسة ما، لا يكفي لإثبات ضرورتها للدين؛ لأن الدليل، والمقومات والاستنتاجات التي تبنى عليها بحاجة إلى فحص نقدي، ولابد من دراسة أدلة مقابلة، ومناقشات مضادة، وآراء مخالفة وموازنتها. ويمكن أن يساعد الحوار بشأن عزل الأنثى على توضيح هذه النقطة.

إنني لا أعرف نصاً مباشراً يدعم عزل المرأة (أي آية قرآنية أو حديثاً صحيحاً يحرم بصراحة تفاعل الرجل والمرأة)، والدليل غير المباشر ليس شاملاً. ونقتبس

من سورة الأحزاب عادة ما يدل على أن العزل بين الذكور والإناث ملزم للمسلمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٣].

توجّه هذه الآية صحابة النبي، الذكور منهم والإناث، ألا يقحموا أنفسهم إلى حجرات زوجات النبي دون إعلام، ودون إذن، كما كانت عادة بعضهم أو بعضهن؛ يذكر المفسرون القدامى لحظات إرباك كانت سبب نزول هذه الآية. إنها إذن تقول للصحابة: إذا كانت لديكم حاجة ماسة حقيقية للتحدث مع زوجة من زوجات النبي، فعليكم بالبقاء خارج الحجرة ومخاطبتها من وراء ستارة تحجب المدخل. ودعاة عزل الرجال عن النساء والمدافعون عنه يستشهدون بأحاديث تبين أن زوجات النبي كن يتحدثن مع صحابة مختلفين بالأسلوب الموصوف في الآية.

ليس الرأي القائل إن الآية المذكورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ تشكل السلوك العام لعزل النساء عن الرجال، بمنأى عن الهجوم.

فأولاً، ليس بواضح أن هذه الآية تفرض نمط العزل الصارم الذي يمارس اليوم في كثير من المساجد، حتى فيما يتعلق بزوجات النبي. إذ ربما تكون الآية لصيانة آل النبي من المواقف المحرجة بتوفير مستوى من

الخصوصية لهن. في هذه المرحلة من بعثة النبي كان فناء بيته؛ خارج أجنحة أزواجه التي يقمن بها، تضم حشوداً من الناس الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً ومن البدو الأفظاظ.

وثانياً، لا توحي نغمة القرآن بأن هذا المفهوم عام. ففي السورة ذاتها تنظيمات عديدة تطبق حصراً وبصورة نوعية على النبي وأزواجه اللاتي قال لهن القرآن: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٢].

وثالثاً، هناك أدلة كثيرة في مجموعات الحديث على أن فصل الرجال عن النساء، لم يكن يمارس بصورة عامة في مطلع التاريخ الإسلامي. فيروى عن النبي وصحابته أنهم كانوا يزورون نساء من غير المحارم ليخرجوا القمل من رؤوسهم في أثناء حجة الوداع[١]، وعن نساء من غير آل النبي يأكلن من قصعة النبي نفسه[٢]، وعن زوجة صحابي تخدم ضيوفه الذكور[٣]، وعن النبي يجلس مع زوجين متحدثاً مع المرأة عن حلم استيقظ منه لتوّه[٤]، وعن صحابيين يزوران صحابية فيبكون موت النبي الذي أحزنهم[٥]. وهناك أمثلة عديدة عن نساء مسلمات شاركن في المعارك يقاتلن، ويقدمن الأقواس والسهام، ويحملن الطعام والماء إلى الجنود، ويعالجن المصابين[٦]. وروايات شهيرة عن امرأة

---

(١) صحيح البخاري، «كتاب الحج» (٢٦)، الحديث رقم ٧٨٢، و «كتاب الجهاد» (٥٢)، الحديث رقم ٤٧.

(٢) المصدر السابق، ٦٥ : ١٠، خالد بن الوليد وزوجة النبي ميمونة (عمة خالد) كانا حاضرين . وكلاهما اعتنق الإسلام بعد نزول الآية ٥٣ من سورة الأحزاب المذكورة آنفاً الأمر الذي يعارض التصور القائل بأن الآية تفرض عزلاً عاماً للنساء عن الرجال. ويقال: إن الحديث قد وقع في حجرة ميمونة.

(٣) المصدر نفسه، ٦٢ : ٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ٧٤ : ١١.

(٥) مقتبس من صحيح مسلم من قبل الإمام النووي «رياض الصالحين» . ترجمة محمد ذو الفقار خان.

(٦) زكريا كاندهلوي (Zakarya Kandahlawi)، «تعاليم الإسلام»، إدارة عشَّت - ي - دنييات (Idara Ishaat - Diniyat)، نيودلهي، ص ١٦١-١٨٠.

ناقشت عمر بن الخطاب في المسجد في أثناء خلافته بشأن تحديده لمهور النساء[(١)]. يقول الإمام مالك في (الموطأ) الذي صنفه في نهاية القرن الثاني للهجرة: إنه لا يجد مشكلة في جلوس المرأة مع جماعة مختلطة إذا كان برفقتها أحد محارمها[(٢)]. ويبني الإمام مالك رأيه على سُنَّة المدينة التي كانت معروفة راسخة في أيام النبي[(٣)].

كل الأدلة تبين أن عزل النساء عن الرجال لم يكن حكماً مفروضاً في زمن النبي؛ أما وأنّ الحالة هذه، فليس هناك مسوّغ لفرضه في تجمعات المسلمين الأمريكيين. لأن فرضه لا يضع عبئاً غير ضروري على المجتمع فحسب، بل يشكل عقبة كأداء أمام الساعين بإخلاص إلى الإيمان. أنا لا أقول: إن على المسلمين أن يختلطوا الاختلاط غير الشرعي، ويضربوا المواعيد الغرامية الشائعة في الغرب - فالذين نشؤوا هنا يعلمون أن مثل هذه الممارسات تؤدي إلى ممارسة الجنس خارج نطاق الزوجية - ولكن الانخراط العام في محاولات المجتمع يعد حاسماً بالنسبة إلى صحة الجالية الإسلامية الأمريكية ونموها.

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) مالك بن أنس، «الموطأ».

(٣) من الجدير بالذكر أنه في أواخر سورة النور التي تعالج في جزء كبيرة منها العلاقات المتبادلة بين الجنسين وأحكاماً أخلاقية لابد من مراعاتها في سياق هذه العلاقة، يضيف القرآن هذا الرفض للحظر الذي اصطنعه الرجل فيما يتعلق بتناول الطعام في جماعة مختلطة ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٢٤/ ٦١].

في يدي امرأة

إن عزل النساء يعد غريباً في تاريخ أمريكة، أمّا عزلهن عن مراكز السلطة فليس غريباً، مثلها في ذلك كمثل الثقافات الأخرى. وقد بدأ هذا يتغير منذ أواسط القرن المنصرم (العشرين)، على الرغم من أنه لم يكن في مواقع القيادة نساء، عندما كنت شاباً، أو قبل ذلك بقليل «كان من النادر مشاهدة سياسيات وأستاذات جامعيات وطبيبات وقاضيات ورئيسات بنوك، وعضوات في لجان تنفيذية، وضابطات في الشرطة، وما إلى ذلك» أما اليوم فهناك المزيد من النساء في مواقع السلطة، وإن ظلت نسبتهن ضئيلة، ولكن أمريكة أصبحت أكثر ارتياحاً بهذا المفهوم. وهذا صحيح خاصة لدى المسلمين الأمريكيين الذين يميلون إلى الليبرالية (على الأقل قبل اعتناق الإسلام)، وكذلك لدى الجيل الثاني من المسلمين الذين تعلموا في المدارس منذ اليوم الأول، وليس هناك مجال عمل لا تستطيع المرأة النجاح فيه. وهذا يؤدي إلى مصدر آخر من مصادر التحرر من الوهم بين المسلمين المولودين في أمريكة، لأن القيادة الدينية في المراكز الإسلامية تعارض احتلال المرأة لمواقع سلطوية. وفي مثل هذه المجتمعات تحرم المرأة من أن تكون عضواً في مجلس المديرين، أو في اللجان التنفيذية. وتحرم في كثير من المساجد من الإدلاء بصوتها في الانتخابات أو الاستفتاءات المجتمعية[١].

ومرَّة أخرى، يعد الدليل الدائم لموقف المحافظين ضئيلاً ونادراً. إذ يتركز الجدال حول حديث آحاد، ولو كان ذا اعتبار عال، من صحيح البخاري: حدثنا عثمان بن الهيثم، حدثنا عوف عن الحسن، عن أبي بكرة قال: لقد نفعني الله

---

(١) لم يوافق العلماء في القرون الأولى على احتلال المرأة موقعاً قيادياً، وحَرَّم بعض العلماء على المرأة أن تشغل منصباً عاماً. رأى أبو حنيفة أن بإمكان المرأة شغل مناصب عامة وخصوصاً منصب القضاء شريطة أن تكون شهادتها مقبولة. يستشهد ابن حزم بحديث لأبي بكرة مفاده أن المرأة تستطيع أن تشغل أي منصب عام ما عدا رئاسة الدولة. أما ابن جرير الطبري فسمح للمرأة أن تكون رئيسة دولة. ويقال: إن الإمام مالك تبنى الموقف نفسه.

أيام الفتنة بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم، قال: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملَّكوا عليهم بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولَّوْا أمرهم امرأة»[١].

أبو بَكْرَة هو المصدر الوحيد لهذا القول؛ وكان عبداً أعتقه النبي؛ وكان قد اعتنق الإسلام بناء على وعدٍ بإعتاقه في حصار الطائف السنة الثامنة للهجرة الموافقة لعام ٦٢٩ميلادي. وجرت موقعة الجمل في عام ٣٦هـ = ٦٥٦م. بين جماعة قادتها عائشة، أصغر نساء النبي، وجماعة بقيادة علي بن أبي طالب ابن عم النبي وزوج ابنته. وكان أبو بكرة يقاتل مع عائشة، فاستخلص عزاءً ومُواساةً من تذكره لهذا القول، لأنه تبين على ما يبدو أن عائشة سوف تهزم.

لقد أُطيح بكسرى إمبراطور فارس، وأعدم في السنة السادسة للهجرة، بعد أن أباد البيزنطيون جيوشه. وفي فوضى السنوات الثلاث التالية لسقوطه تولى الحكم عشرة أشخاص على الأقل. ونصّبت ابنته على العرش حوالي سنة (٨هـ)، وهي المرة الأولى التي تحكم فيها امرأة بلاد فارس. وانهار سلطانها بعد سنة.

يقبل علماء المسلمين كلهم تقريباً هذا الحديث بالرغم من مصداقيته. إن التوافق المحكم للتفاصيل التاريخية للرواية، مع واقعة أن الراوي ليس صحابياً بارزاً يؤيد الافتراض بأن الحديث مبني على حادثة أصيلة (اعتنق أبو بكرة الإسلام في السنة الثامنة للهجرة، تسلمت ابنة كسرى العرش في السنة ذاتها، وتنبأ النبي بسقوط فارس الأمر الذي جعل الصحابة يسألونه عن هذا التطور). ومع ذلك يبدو أن خطأ ما قد وقع في مرحلة ما من مراحل تعميم هذه الرواية.

إن التأكيد بأن «الأمة تضع شؤونها بيدي امرأة لن تفلح» يعد طبيعة شاملة وعالمية؛ أي إنه تأكيد لحقيقة غير مشروطة بزمان أو مكان. فهي لا تقول «من الآن فصاعداً، عبر التاريخ أن كل أمة...» أو «أن هذه الأمة التي...»؛ بل تؤكد أن كل أمة في أي زمان أو أي مكان تضع أمورها بيدي امرأة لن تنجح.

(١) صحيح البخاري ٤١٦٣.

والسبب الذي يجعلني أشكك بدقة نقل هذا الحديث هو أن القرآن نفسه يضرب مثلاً مناقضاً تماماً. فهو يصور ملكة سبأ بأنها حكيمة، عادلة قوية يحقق شعبها نجاحاً عظيماً تحت حكمها، وساروا نحو نبذ عبادة الأصنام، واعتناق عقيدة سليمان التوحيدية. ولم يشر القرآن أبداً إلى أن الملكة تنازلت عن عرشها إلى سليمان أو إلى أي شخص آخر، أو أن الإسرائيليين تحت حكم سليمان قد سيطروا على سبأ. وهكذا يكون شعبها قد حقق نجاحاً بقيادتها بكل المقاييس الدنيوية والروحية.

ربما يعترض شخص بقوله : إن القرآن يتجاوز ما يوحى به سابقاً، بيد أننا هنا لا نتكلم عن قوانين. فقول النبي العالمي الشامل المزعوم المتعلق بقيادة الأنثى للأمة، وصورة القرآن التي عرضها لملكة سبأ يطرحان وقائع حقيقية. يمكن للقانون أن ينسخ قانوناً آخر، ولكن الواقعة الحقيقية لا يمكن أن تزيل واقعة أخرى أو تلغيها. فإذا ما ناقضت واقعتان إحداهما الأخرى فلابد أن تكون إحداهما غير صحيحة. ولهذا، مع القول بأن القرآن غير مخطئ في تصويره لملكة سبأ وأن النبي لم يكن مخطئاً بشأن رئاسة الأنثى للدولة، فلابد أن نستنتج وقوع خطأ في نقل الرواية.

كان عدم الدقة في نقل الأحاديث يعد ظاهرة معروفة جيداً لدى علماء الحديث الأقدمين. فهم يعترفون في المراحل الأولى من مراحل نقل الحديث بأن الرواة يروون ما فهموه من الحديث بدلاً من رواية الحديث بنصه الحرفي. وهذا يعلل الاختلافات التي نواجهها في الأحاديث التي تتعلق بموضوع واحد أو بالحادثة ذاتها. حتى الصحابة فكان بعضهم يصحح لبعضٍ فيما يعتقدون أنهم سمعوه عن النبي. أنا لا أقول: إن مجرد احتمال وجود عدم دقة في رواية الحديث يعد أساساً لنبذ الحديث، ولكن إذا ما تناقض حديث مع القرآن، أو مع واقعة مثبتة، فإننا نعزو الأخطاء إلى النقل، خصوصاً إذا ما آمنا بأن الحديث يعود إلى حادثة واقعية. ومن ثم، فيما يتعلق بالحديث الذي رواه أبو بكرة لابد أنه حصل خطأ ما في مرحلة ما. إذ ربما يكون الحدث قد جرى على النحو الآتي: جاء الصحابة ليخبروا النبي بأن الفرس قد وسدوا أمرهم إلى امرأة،

فكان ردّ النبي: «لن يفلحوا» فربما أدى خلل طفيف - في إحدى مراحل نقل الحديث وروايته - إلى الصيغة التي رواها أبو بكرة. بالطبع، هذا مجرد رأي وليس أمراً أساسياً لهذا البحث. وأعم نتيجة يجب استخلاصها هي أن الحديث الذي لا يؤيد قيادة المرأة لابد أن يكون مثلوماً ومعاباً. ومن ثم ينبغي عدم استخدامه دليلاً ضد قيادة المرأة.

من الصعب أحياناً أن تكون امرأة

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/ ٧١].

روي أنَّ النبي قال: «المؤمنون كالجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء»[(١)].

كنت متأكداً أن الخيار الذي اتخذته يوم صرت مسلماً، سوف يعرض علاقاتي الإنسانية كلها ذات المعنى إلى الخطر، لأن اعتناق الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية بعد وقت قصير من أزمة الرهائن الإيرانية، وقبيل ضرب المارينز في لبنان، يعد بمثابة خيانة ثقافية. وعندما صدمت أسرتي وأصدقائي ولم يستحسنوا هذه الخطوات تيقنت أن أياماً موحشة تنتظرني. لذلك بحثت عن القوة في الصلاة، وبدأت أحضر الصلوات في المسجد، لأتعلم كيف أؤديها وفق معتقدي الجديد. وهناك اكتشفت أني دخلت أخوة عالمية ترتبط بحب ورعاية متبادلين، لم أشهد لهما مثيلاً إلا في الأسر المترابطة فيما بينها ارتباطاً وثيقاً جداً.

يدعو المسلمون بعضهم بعضاً بـ «الأخ» و «الأخت»، وكثير ممن قابلت يبذلون كل ما بوسعهم لتكريم هذا الاستخدام للكلمات. وعندما يمرض أحدهم، أو يعاني من فقدان مُحب، أو يواجه أوقاتاً عصيبة، تقوم مجموعات من

---

(١) من صحيحي البخاري ومسلم.

المؤمنين بزيارته وتقديم العزاء والعون له. كذلك عندما يرزق أحدهم بطفل أو عندما يتخرج طالب أو يتزوج شاب في الجالية الإسلامية، فالجميع يحتفلون به، وغالباً يقيمون له مأدبة عشاء في المسجد.

تصل روابط الأخوة هذه إلى مختلف أنحاء العالم، لأن التقسيمات القومية لا تعني كثيراً في نظر المسلمين كما تعني في نظر غيرهم. وعندما يعاني المسلمون في أي مكان من العالم ظلماً، أو اضطهاداً، أو يتعرضون إلى هجوم يشعر المؤمنون في أنحاء العالم بالألم والكرب. وبأنهم جميعاً ضحية ذلك؛ وعندما ينجح أحدهم، بغض النظر عن أصله، يحتفل المسلمون به في العالم بذلك الإنجاز.

لم أتوقع، حتى باعتناقي الإسلام، أن أُقبَل على الفور في الأخوة الإسلامية، لأنني كنت أجهل تقاليد المسلمين، ولأني جئت من شعب كان على عداء دائم معهم. ظننت أنهم سيستقبلونني بقدر من التحفظ، أو حتى بشيء من الشك والريبة. ولكنهم رحّبوا بي في مجتمعهم ترحيباً لطيفاً دافئاً متدفقاً بصورة مدهشة، لدرجة أنه غطى على القلة القليلة ممن تحفظوا تجاهي. وغمرني مسلمو سان فرانسيسكو بكرم وفادتهم ومحبتهم. وكنت أدعى إلى العشاء كل ليلة تقريباً خلال السنتين اللتين سبقتا زواجي. كان الإخوة يقدمون لي القروض، والهدايا، وقاموا كتلة واحدة لمساعدتي على التحرك، وعرفوني إلى فتيات من أقربائهم عساني أتزوج إحداهن وأصاهر أسرهن، وعرضوا علي الحج على حسابهم، أو زيارة عائلاتهم في الوطن الأصلي؛ شعرت وكأن قبيلة كبيرة جداً قد تبنتني. وعندما كنت ألتقي كثيرين من المسلمين أول مرة كانوا يأخذونني بالأحضان، كما لو كنت أخاً طال غيابه.

لم يكن هذا النوع من الاستقبال الذي شهدته غريباً ولا استثنائياً؛ إذ روى لي أمريكيون كثر ممن اعتنقوا الإسلام حكايات مماثلة. فقد ذكروا لي كيف أصبحوا مشهورين في مساجدهم، ووصفوا لي كيف أبدوا لهم عطفاً وسخاء وسماحة لا تصدق. وتحدثوا عن الصداقة الحميمة التي كانوا يتمتعون بها مع زملائهم المؤمنين، والمدى الذي بلغه إخوتهم المؤمنون في مساعدتهم على

تعلم الدين. وذكروا: كيف أصبح المسجد بيتاً لهم، ومكان قبول، وملاذاً آمناً من مؤثرات الحياة، وهذا ما كان لي أنا المسلم في الغرب.

ومع ذلك فليس المسلمون الأمريكيون كلهم قد حظوا بمثل هذا القبول والدفء الذي وصفت. فعلى الرغم من أن المسجد في نظر الكثيرين من المسلمين يعد مكان راحة وزمالة، فإن هناك مسلمات أمريكيات، خصوصاً غير المهاجرات، يرين فيه خلاف ذلك(١). من أكبر الشكاوى التي سمعتها من نساء مسلمات مولودات في أمريكة أن ثقافة المسجد في الولايات المتحدة مناهضة للمرأة ولا أمل في تعديلها. ويلاحظ أن عزل المرأة واستبعادها من مواقع النفوذ يعد دليلاً على ذلك، وكثيراً ما يشهد المرء معاملة سيئة للمرأة. فلقد تلقيت حكايات لا حصر لها عن سلوك وقح، يحط من قدر المرأة يقوم به رجال دين مسلمون. قيل لي: إن امرأة تعرضت للإهانة حين صرخ عليها رجال مجهولون، لأنها لم تكن ترتدي لباساً محتشماً، أو لأنها تصلي في القاعة الرئيسية من المسجد، أو لأنها لم تدخل من حيث يدخل النساء، أو لم تخرج من حيث يخرجن، أو لأمور عديدة كثيرة يفترض أنها مخالفات. وسمعت روايات عديدة عن نساء غير مسلمات جازفن بدخول المسجد ليتعلمن شيئاً عن الإسلام، ولكنهن ووجهن بصدّ جلف، الأمر الذي أبعدهن عن الدين. وتعترض نسوة كثيرات بقولهن: إن المسجد منطقة ذكورية، وإن مساهمة المرأة في وظائف المسجد إما لا ينظر إليها كما يجب، وإما - وهو الأسوأ - تُحَرَّم عليها.

وفي معظم الجامعات يعد رمضان شهر تذكير بأن المسجد منطقة ذكورية. كذلك المراكز الإسلامية التي تقدم عادة وجبات إفطار خلال شهر الصوم، حيث يحاط الطلبة علماً بأن حضورهم لهذه الموائد أمر محبب ومرحب به، في حين لا يصل إلى آذان الطالبات أي كلام من هذا النوع.

يحظى معتنقو الإسلام بقدر عال من الاحترام في مجتمعاتهم، بيد أن معتنقات الإسلام غالباً ما يجدن أنفسهن أقل تقديراً. وعلى الرغم من أنهن أكثر

---

(١) كثير من المسلمين الأمريكيين الأفارقة وجدوا مساجد المهاجرين أقل ترحيباً.

عدداً من الرجال وأكثر تمسكاً بدينهن كما رأيت بنفسي، ويبذلن جهوداً أكبر للمساهمة في الأنشطة الإسلامية، إلا أن كثيراً منهن يندبن مصيرهن الذي يؤول إلى التهميش والإهمال، أو حتى الازدراء في مجتمعاتهن. ومن الاحتجاجات التي يطرحنها تشكيك الآخرين في دوافع اعتناقهن للإسلام. ربما يكون هذا صحيحاً فيما يتعلق بمعتنقي الإسلام الجدد عموماً، ولكن قال لي مسلمون مراراً: إن المرأة الأمريكية تدخل الإسلام أساساً كي تجد زوجاً مسلماً.

أصبح الإسلام والثقافة متشابهين في المجتمعات الإسلامية التقليدية، بحيث يشعر معتنقو الإسلام بقدر كبير من الضغط للتواؤم مع عادات الشرق الأوسط وتقاليده، ولكن هذا يتطلب تعديلاً من المرأة أكثر من الرجل، ذلك لأن الثقافة النسائية في المجتمعات الإسلامية التقليدية ونظيرتها في المجتمعات الغربية متباعدتان أكثر بكثير من تباعد ثقافة الرجال في البيئتين. فضلاً عن أن المهاجرين كلهم تقريباً أو الزائرين المسلمين المقيمين في الولايات المتحدة وكندا متعلمون ومثقفون ثقافة غربية، ومن ثم فهم يألفون المجتمع المحيط بهم، ويرتاحون إليه أكثر من الإناث، وكلما طال طريق الأمريكيات المعتنقات للإسلام في اندماجهن بثقافة المسجد كان إحساسهن بالانزعاج أو الرفض أكبر.

يبذل مجتمع الشرق الأوسط جهوداً للحفاظ على عفاف المرأة أكثر من جهوده للحفاظ على تعفف الرجل، فمغازلات الشاب ينظر إليها بعبوس، ولكن يُتسامح فيها غالباً، وأدنى اهتمام رومانسي تبديه الفتاة يمكن أن يجلب العار عليها وعلى أسرتها.

وبالمقابل، أصبحت الأخلاقية الجنسية في أمريكة منذ ستينات القرن العشرين أكثر تراخياً، فالرجال والنساء اليوم يشعرون بالتحلل من أي قيد بصورة متساوية. والفضل بذلك في جزء كبير منه لوسائل الإعلام؛ والمسلمون في أنحاء العالم كله مدركون لذلك تماماً، كما أن الفسق الواضح، واللباس النسائي الفاضح، والتمايل والتباهي بالجاذبية الجنسية بلا خجل، يخترق صورة المرأة المسلمة الأمريكية. فقد قال لي شباب مسلمون في مناسبات عديدة، ممن يودون الزواج: إنهم لا يحبون الزواج من أمريكية اعتنقت

الإسلام، لأنهم لا يصدقون أن أياً منهن عذراء. ناهيك عن أن هؤلاء الشباب يعتقدون أن هؤلاء المهتديات ينزعن إلى اللاأخلاقية بعد اعتناق الإسلام، ولكن الواقع يشير إلى عكس ذلك. على أي حال، يفترض أن تكون صحيفة معتنقي الإسلام نظيفة من لحظة اعتناق الدين، بغض النظر عن أخطاء الماضي، والمسلمون عموماً يحترمون هذا المبدأ، ومع ذلك سمعت ولاحظت في مناسبات قليلة أن مثل هذه التحاملات تظهر على السطح. أذكر حادثة واحدة، خصوصاً عندما كنت أعيش في سان فرانسيسكو. شكت نساء عديدات ممن اعتنقن الإسلام وكن يأخذن دروساً بالعربية من إمام المسجد المحلي، شكت إلى مجلس المديرين بأن زعيمهم الروحي ألح عليهن أكثر من مرة في رغبته الجنسية فيهن. لم يسمح لأي امرأة، حتى الشاكيات، بحضور جلسة لمناقشة الاتهام، ولكن الكثيرين من أنصار الإمام دافعوا عنه على أساس أن اللواتي اتهمنه لم يكنَّ في الأساس سوى «عاهرات» و «بائعات هوى» رغم أن هذا النوع من الفضائح يعد من الكبائر العشر في الإسلام. ورغم أني شهدت قلة من نموذج المرأة الأمريكية الداعرة قد شمل معتنقات للإسلام، فإن منهن من ذكرن لي حادثات كان سبب عهرهن نساءٌ مسلمات أجنبيات أو مهاجرات. كما قالت بعض السيدات الشابات من الجيل الثاني: إن النساء المسلمات القادمات من وراء البحار يشككن أحياناً بفضيلتهن عن طريق أسئلة مثل: «هل لك صديق (Boyfriend)؟»[1] أو «هل لك مواعيد مع شاب؟» حتى وإن كانت مثل هذه الأسئلة في الثقافات الإسلامية مهينة جداً. والآن، لست أدري مدى انتشار مثل هذه المواقف تجاه المسلمات المولودات في الوطن الأم، ولا مدى فهم النساء المسلمات الأمريكيات لهذا الموقف المتحيز، سواء كان خطأً أم صواباً، ولكن حيث يكون مثل هذا أو حيث يشعر المرء به فإنه يجعل المرء (الذكر والأنثى) غير مرغوب به في ثقافة المسجد.

---

(١) (boyfriend) لا تعني الصداقة التي نفهمها عندنا في الشرق، بل هي صداقة جنسية، إذ يصطحب الشاب صديقته (Girlfriend) أو الصبية صديقها إلى أي مكان وينامان معاً في غرفة واحدة وسرير واحد ويمارسان الجنس ولكن دون زواج. (المترجم)

إن احتمال التحيُّز والتقسيم قائم في أي مجتمع مختلط الثقافة والعروق، ونادراً ما يكون ذلك من جانب واحد ؛ وكلا الأمرين يطفو على السطح في مجتمع المسلمين الذكور، ولكن من الشائع أن مجتمع النساء أكثر انقساماً من الناحية الاجتماعية، ويعود جزء من سبب ذلك إلى أن مجتمع المسجد الذكوري يتعرض أكثر إلى الثقافة والتربية الغربيتين من مجتمع النساء، مع افتراض أن الرجال، أكثر خبرة، ولديهم قاعدة مشتركة لتغذية التفاعل والتعاون مع المجتمع الغربي وثقافته. وبالمقابل، فإن لدى النساء في المساجد حيث يُفصل بين الرجال والنساء احتكاكاً قليلاً بالمجتمع المحيط بهن؛ الأمر الذي يجعلهن أقل قدرة على تجاوز معايير ثقافتهن الوطنية عند تعاملهن بعضهن مع بعض. وهكذا فإن لغة التعليم والتواصل العام في لقاءات الرجال في المساجد التي أحضرها هي اللغة الإنكليزية، أما في تجمعات النساء فاللغة المستخدمة هي العربية. وإذا كانت البرامج النسائية باللغة الإنكليزية فإن غالبية النساء الحاضرات لا يفقهن ما يقال.

تمثّل العوائق الجنسية المذكورة آنفاً أمام المساهمة الوطنية في المجتمع الإسلامي الأمريكي أزمة العقيدة والثقافة الأكبر، وهي التي تواجه الشباب ومعتنقي الإسلام من الأمريكيين. ويعتمد مدى وجود هذه الأزمة في أي مجتمع إسلامي محلي، بالطبع، على مدى تنافر ثقافة مسجد تلك المحلة مع الثقافة المحيطة. من المؤكد أن هناك معتقدات إسلامية وممارسات لا تتفق مع العادات والقيم الأمريكية، ولا يمكن الاستغناء عنها من دون تعريض الإسلام للشبهة. ومع ذلك حتى لو كان من المستحيل التوفيق بين الإسلام والثقافة الأمريكية المعاصرة، فإن على المسلمين ألا يخلقوا حواجز ثقافية، حيث لا لزوم لإقامتها، وهذه من أهم تضمينات تحريم القرآن ربطُ ما ينشئه الإنسان بالله، لأن ذلك سوف يجعل الحقيقة غامضة. والفكر الديني والممارسة الدينية مقيدين دونما ضرورة لذلك. وكما أنه من الخطأ أن ينبذ المسلمون ما تتطلبه عقيدتهم بوضوح، كذلك ينبغي ألا يطلبوا باسم الله ما ليس فيه إباحة واضحة لا لبس فيها. سنعود إلى هذا الموضوع قريباً.

نشوء عفوي

كنت طوال الأسبوع المنصرم محجماً عن الكلام تماماً ومسحوراً بالكرم والكياسة اللتين أبداهما لي من حولي على اختلاف ألوانهم. ربما تصدمك هذه الكلمات الصادرة عني، ولكن هذا الحج وما رأيت فيه وخبرته اضطرني إلى إعادة ترتيب كثير من أفكاري التي كنت أحملها من قبل، ونبذ بعض من استنتاجاتي السابقة... ربما لو قبل الأمريكيون بوحدانية الله لقبلوا، من ثم، بوحدانية البشر، ولكفّوا عن تقييم الآخرين وإعاقتهم وإيذائهم بسبب اختلاف ألوانهم. وكل ساعة قضيتها في الأرض المقدسة (الجزيرة العربية) أمكنتني من التزوّد ببصيرة روحية أكبر مما يحدث في أمريكة بين السود والبيض. «مالكولم ×»[1]. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٠]. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣].

كتبت في كتابي (حتى الملائكة تسأل) عن المرَّة الأولى التي تحدثت فيها أمام الناس حول اعتناقي للإسلام. كان ذلك في لقاء ليلي يوم الجمعة في جمعية الطلبة المسلمين في جامعة كاليفورنيا ديفيز (California Davis). وبما أنني لم أكن أتوقع أن أدعى إلى الميكرفون في ذلك المساء، فلم أكن مستعداً أبداً. لا أتذكر الكثير مما قلت، ولكني أتذكر أني ربطت بإيجاز ما اعتقدت أنه مراحل جوهرية عديدة مررت فيها بحياتي على طريق اكتشاف الإسلام. واختتمت حديثي بإعادة ما دار من حديث بيني وبين إمام المسجد في سان فرانسيسكو قُبيل دخولي الإسلام[2]. انتهى البرنامج بعد انتهائي بوقت قصير، وما إن وقفت لأغادر حتى تجمهر حولي الموجودون كلهم، وعددهم يقارب الثلاث مئة، حيوني بالعناق

---

(١) اقتبس النص تشاريس وادي (Cherris Waddy)، «عقل المسلم» (لندن ؛ لونغمانز، n.d.)، ص ١١٣-١١٦ .

(٢) كنت حينذاك أستاذاً مساعداً في جامعة فرانسيسكو (USF)، انظر جيفري لانغ (الصراع من أجل الإيمان) منشورات أمانا، ١٩٩٤، ودار الفكر ١٩٩٨.

والمصافحة والقبلات على وجنتي ورأسي. وترقرقت عيون الكثيرين منهم بالدموع. وكانت الأيدي في كل مكان تمتد نحوي، كثير منهم كان يود لو يلمسني لحظة أو يربّت على ظهري، وقيل لي مرات ومرات: كم كنت عظيماً، وأني الآن بلا خطيئة، وكم سيحبني الله، وكم أنا أفضل من كثير ممن ولدوا مسلمين. ورغم أني كنت على عجلة من أمري كي أعود إلى البيت إلا أنني استغرقت أكثر من ساعة حتى وصلت إلى باب القاعة الذي كان يبعد نحو أربعين قدماً عن الميكرفون. وعندما وصلت أخيراً إلى موقف السيارات كانت جيوبي محشوة بقصاصات ورق كتبت عليها أسماء وأرقام هواتف للذين كانوا في المسجد فبدا مظهري كفزاعة في ويزارد أوف أوز (Wizard of Oz).

عرض علي عدد من الطلبة الذين لا أعرفهم إيصالي بسياراتهم إلى بيتي في سان فرانسيسكو، وتحدثوا معي في الطريق بانفعال عن حديثي، وتحدثوا بحماس عن تحول أمريكة إلى الإسلام. وقال أحدهم عند نقطة معينة: «أود لو آخذك معي إلى الكويت لتظهر على التلفاز. ليت الناس هناك يرون هذا الشاب الأمريكي الأبيض، الأشقر الشعر، الأزرق العينين الذي صار مسلماً!! رؤيتك هناك ستكون في نظر الناس كأنهم يشاهدون ملائكة تهبط عليهم من السحاب!!».

لقد رويت أكثر هذا الكلام في كتابي (حتى الملائكة تسأل) ولكني أخفقت أن أذكر أن حديثي تلك الليلة جاء بعد حديث آخر، حديث شاب أمريكي أفريقي، طالب في جامعة يوسي بيركلي (UC Berkely) تكلم أيضاً عن اعتناقه للإسلام. وفي حين أن كثيراً من الحضور حيَّوْه وصافحوه عند انتهاء البرنامج، لكنه لم يلق الحفاوة التي لقيتها أبداً، ولم يستغرق زمناً حتى وصل إلى الباب.

لقد استحسنت في حينه شهرتي الفورية، ولكن رد الفعل الأقل حماساً على الإفريقي الذي اعتنق الإسلام، مع ما سمعت من حديث عن عيني الزرقاوين ولون بشرتي وشعري جعلني أتساءل عما إذا كان المجتمع الذي دخلته مصاباً بتعصب عرقي، رغم أنه مكون من ألوان شتى. ما زلت أفكر في ذلك عشرين سنة، لأنني رغم مشاهدتي لنماذج سلوكية تفسر بأنها عرقية، تلقيت تفسيرات

جيدة لذلك، وشهدت ما يخالف ويناقض هذا الافتراض. وللاختصار، سأدرس هذه القضية فقط بما لها من صلة بالمسلمين الأمريكيين الأفارقة.

يبدو أن المسلمين يستوحون من اعتناق الأمريكيين البيض للإسلام أكثر مما يستوحونه من اعتناق السود له، ولكن قيل لي : إن ذلك ناجم عن قلة عدد الذين يعتنقون الإسلام من البيض الأوربيين، وعن كون الأوربيين أعداء عرقيين دائمين للإسلام. ولقد اعترف لي عدد قليل من المهاجرين والمسلمين الأجانب أنهم حذرون من المسلمين الأمريكيين الأفارقة ليس بسبب عرقهم أو لونهم، بل لاحتمال كونهم أعضاء في أمة الإسلام (Nation of Islam) الهرطقية الابتداعية، التي تمثل شريحة صغيرة من جالية المسلمين الأمريكيين السود. ورداً عن سؤال مهم مثل: «ما رأيك في أن يتزوج ابنك، أو تتزوج ابنتك من المسلمين الأمريكيين السود ؟» جاءت الإجابات منقسمة بالتساوي. وعندما استبدلت عبارة «أمريكي قوقازي» بعبارة «أمريكي إفريقي» جاءت الإجابات ثلاثة إلى واحد لمصلحة الزواج. وعبرت أسر عديدة عن خيبة أملهم في أولادهم إن هم تزوجوا من خارج العرق الذي ينتمون إليه بغض النظر عن لون الزوجين. وفي جاليتي في لورينس، في كنساس وجدت أن الجميع يعرفون بالاسم الثلاثة القوقازيين الذين يحضرون صلاة الجمعة بانتظام، في حين أن واحداً لا يعرف أسماء الأمريكيين الأفارقة الثلاثة الذين يحضرون الصلاة كذلك بانتظام.

أمَّا الجانب الإيجابي الذي شهدته منذ أن اعتنقت الإسلام، فهو أني لم أسمع تعرضاً عرقياً واحداً، أو نكتة عرقية واحدة ضد أي شخص مسلم كان أم غير مسلم، من أصل إفريقي. ولم أر أحداً ثُبِّط بأي طريقة عن المساهمة في نشاط للجالية على أساس العرق أو القومية. ولابد من ملاحظة أن عدداً لا بأس به من الأمريكيين الأفارقة قد تسنَّموا مواقع قيادية في مؤسسات إسلامية يهيمن عليها المهاجرون، وأن بعضهم أصبحوا زعماء وطنيين.

انطلاقاً من هذه الاعتبارات، أرى أن الأمريكيين البيض مفضلون في المعاملة على الأمريكيين السود، بغض النظر عن الأسباب القائمة في المجتمع الإسلامي الأمريكي، رغم أن السود، لسخرية الأيام، هم أكثر التصاقاً وقرباً من

نموذج الجالية من حيث لون البشرة. ومن جهة أخرى، لم أر أبداً أي إشارة واضحة تدل على كراهية الإخوة الأمريكيين الأفارقة في الدين أو الخوف منهم أو عدم الثقة فيهم. ومن ثم، فإن كان هناك أي تحيز تجاه الأمريكيين السود في الجالية الإسلامية فإنه لا ينطلق من التعصب العرقي الموجود في الولايات المتحدة. ومع ذلك فإن التقدير الأعلى الذي ينصبُّ على المسلمين الأمريكيين البيض ليس محموداً؛ لأن ذلك يسيء إلى نضال الأمريكيين الأفارقة من أجل المساواة والعدل، وإهانة الإسهامات العظيمة الباسلة التي بذلها المسلمون الأمريكيون السود في توطيد الإسلام في أمريكة ونموه.

اعتنق مئات الآلاف من الأمريكيين الأفارقة الإسلام في أثناء فترة الحقوق المدنية ممن كانوا يُحتقرون بسبب لونهم، وبدخولهم الإسلام أصبحوا مكروهين كرهاً مضاعفاً، لارتباطهم بشعب أجنبي ودين محتقرين. وعلى الرغم من أن معظم هؤلاء الإخوة والأخوات قد اعتنقوا تعاليم إليجا محمد غير القويمة، فإن الغالبية العظمى منهم قد عادوا إلى الإسلام الأساسي لدى اكتشافه. لقد نشأت الحركة الإسلامية الصادقة هذه في أمريكة من دون أي عون من مسلمي الخارج، وقبل أن يبدأ القوقازيون دخول الإسلام بأعداد كبيرة.

قيل لي مراراً: إني أحمّل المعاملة غير المتساوية في جالية الأمريكيين الأفارقة والقوقاز أكثر مما تستحق، وإني بإثارتي لهذه القضية أغذي الانقسام العرقي الذي أحاول منعه، أُقر بأن هذا التفاوت ليس له أساس عرقي، ولكن الأذى الذي يحدثه لا يقاس بمفهومات الذين يظهرون التحيُّز، بل يقاس بعواطف أولئك الذين يشعرون بأنهم يواجهون بهذه لتفرقة، وأن السماح لهذا الشعور بالنمو دون كبح سوف يسفر عن مزيد من الاحتقار والاشمئزاز. وإنني أسمع باستمرار من الإخوة والأخوات الأمريكيين السود أن المهاجرين المسلمين متعصبون ليس بسبب المحاباة التي يبدونها تجاه البيض فقط، بل بسبب عدم رغبتهم العمل معاً ضمن مجموعات المسلمين الأمريكيين الأفارقة.

ومرَّة أخرى أشعر أن هذا العزوف من جهة المهاجرين يعود إلى الثقافة وليس إلى التحيّز العرقي. فالمؤسسات الإسلامية الأمريكية الإفريقية قد نمت

وتطورت من دون تأثير أجنبي تقريباً. ومن ثم لم تكتسب بعض الملامح الموجودة في الثقافة الإسلامية التقليدية، وهي معالم غير ضرورية دينياً في نظر المسلمين الأمريكيين الأفارقة. وهذه المؤسسات ذاتها تمتلك، كما هو متوقع، نسيجاً أمريكياً إفريقياً معيناً. إذ إن كثيراً من المهاجرين يعدون عدم مراعاة التجمعات الإسلامية الأمريكية الإفريقية السود لبعض التقاليد الثقافية والشعور اللامألوف للبيئة الاجتماعية في تلك اللقاءات عيوباً في تمسكهم بالإسلام. إن هذا التردد بشأن شرعية إسلام الأمريكيين الأفارقة يجعل الكثيرين من المهاجرين بعيدين قليلاً عن الجالية المسلمة من الأمريكيين الأفارقة.

بين عالمين

من السهل أن ينشئ النشطاء المسلمون رؤية نفعية تتعلق بتقدم المسلمين ومشكلاتهم في أمريكة. كنت أتحدث، مؤخراً، إلى أحد زعماء الجمعية الإسلامية في مدينة كنساس الكبرى - وهو صديق حميم لي - حول النجاح الذي حققته هذه الجمعية في جذب الجيل الثاني إلى المسجد. لقد تأثرت في البداية، بالنتائج : فهناك الآن نحو عشرين امرأة وعشرة شباب يؤدون صلاة الجماعة بانتظام ويشاركون في أنشطة الجمعية. ثم سألته كم عدد الذين يحضرون صلاة الجمعة. فأجاب مقدار ٣٥٠ رجلاً و ٢٥٠ امرأة يمثلون ٤٠٠ أسرة. وبما أن معدل ما لدى الأسرة المسلمة من أولاد هو ثلاثة، استنتجنا أنه لابد من وجود ١٢٠٠ شاب وشابة من الجيل الثاني مع أحد الوالدين على الأقل في مسجد الجمعية الإسلامية لمدينة كنساس الكبرى (ISGKC)، بصورة منتظمة في أثناء الصلاة. وبعبارة أخرى تبلغ نسبة الأسر المرتبطة بالمسجد حوالي ٢,٥٪ فقط من أطفالها الذين يترددون على المسجد. وما ظهر في بادئ الأمر علامة خير ومؤشر أمل في انخراط الجيل الثاني في هذه الجمعية، تبين لدى مزيد من التدقيق أنه علامة قوية على عدم مبالاة الشباب. ومع ذلك يبدو الوضع أكثر تجريداً وكشفاً إذا ما دققنا في الأسر المسلمة في المنطقة ممن لا يرتبطون بالمسجد. وبناء على تقديرات عدد السكان المسلمين في منطقة مدينة كنساس، وعلى الذين يحضرون صلاة العيد، استنتجت وزميلي أن نحو (٢٠٪) من الأسر

المسلمة المقيمة في محلة جمعية (ISGKC) يؤدي منها واحد صلاة الجمعة بانتظام. وهذا يعني أن نصف الواحد بالمئة (أي واحد بالمئتين) من الجيل الثاني المقيمين في المنطقة المجاورة يؤمون المسجد بانتظام.

ليس الشباب المسلمون الذين يتصلون بي فاترين تجاه الإسلام. فمعظمهم آت من أسر متدينة مرتبطة بالمسجد، ويعد الإسلام في نظرهم محور حياتهم وبؤرتها، ولكن ما إن يصلوا إلى سنّ معينة حتى يتآكل لديهم الإيمان الذي عرفوه أطفالاً، والأمان والطمأنينة اللذان كان يزودهم بهما. ويعترف الكثيرون منهم بخشيتهم من فقدان دينهم وإيمانهم. ويبحث معظمهم عن الخلاص من أسئلة وشكوك تؤرقهم. وغالباً ما أشعر بأني لست أهلاً لهذه المهمة فأحيلهم على من أشعر أنهم أكثر كفاءة مني. وأحياناً أترك رسائلهم مخزنة في علبة البريد الإلكتروني عدة أسابيع، وأنا أفكر في أفضل طريقة أجيب بموجبها عن أسئلتهم.

وفي كثير من الأحيان أشعر أن هؤلاء الشباب ليسوا بحاجة إلى إجابات كثيرة بقدر ما هم بحاجة إلى من يصغي إليهم ويطمئنهم بأن وجود الشكوك أمر طبيعي، وأن كل شيء على ما يرام. وأحياناً أفكر في أن جواباً بسيطاً «لا أعرف» يصدر عمن يعد ملاذاً أميناً في العقيدة يريح أكثر من جواب تقليدي رسمي، ربما لا يخاطب الهموم الكامنة كلها وراء السؤال.

بالإضافة إلى إبعاد هؤلاء الشباب بسبب ممارسات يعتقد أنها جوهرية ثقافياً، فإنهم غالباً ما يقعون في انقسام فكري بين المسجد والثقافات السائدة. ففي حين تؤكد ثقافة المسجد على الأهمية البالغة لاتباع التقاليد، فإن المجتمع المحيط يعجب بالإبداع والابتكار. كذلك تضغط ثقافة المسجد باتجاه الالتزام بقواعد المجتمع، في حين أن المجتمع المحيط يرحب بالفردية ويهلل لها. ثقافة المسجد تثمِّن ما هو خالد وثابت، أما الثقافة الخارجية فتعلّم النسبية، وتحثُّ على التكيُّف. تعظ ثقافة المسجد بضرورة الالتزام بأحكام المرجعيات القديمة، في حين أن التيار الثقافي السائد يتوقع السّبر والنقد الموضوعي للعلوم السابقة والحالية. ثقافة المسجد تقيّد أساساً حرية الكلام والفكر، بينما تبالغ الثقافة المحيطة بضرورة ضمان حرية الكلام والفكر.

لا يتوقع الأمريكيون أن يكون للدين معايير الخطاب المجتمعي ذاتها بوجه عام، الأمر الذي دعا إلى فصل الدين عن الدولة، ولكن فيما يتعلق بالكثيرين من الشباب الأمريكيين المسلمين فالمسألة واحدة ومن المستوى ذاته. إن الانقسام الظاهر بين التفكير المسجدي والتفكير العام السائد هو الذي جعل الكثيرين من الشباب الأمريكي المسلم غير آبهين بالخطاب المجتمعي الإسلامي وغير مستجيبين له. ومن الصعب أيضاً أن تتسامح مؤسسة المساجد مع مقاربات الشباب المسلم ومنظوراتهم، إذ يطرحون المعتقدات والممارسات الراسخة للتساؤل. وعندما يتحدى الجيل الثاني التقاليد، فإنما يفعلون ذلك بطريقة أمريكية معترف بها، تعد في نظر مؤسسة المساجد غير إسلامية وخارجة عن نطاق الفكر الإسلامي المقبول. والذي ننتهي إليه، على ما يبدو، هو جيل لا يمكن إقامة جسر بينه وبين ما قبله، وفجوة ثقافية حيث ينبذ كل فريق فكر الآخر وآراءه ويراها خارجة عن المألوف، كما قال الوصي في فيلم كول هاندلوك (Cool Hand Luke) : «إن ما لدينا هنا هو إخفاق في التواصل (خطير)».

إن انشراخ التواصل يترك الجيل الثاني تائهاً لا يعرف إلى أين يلجأ ضمن المجتمع الإسلامي لمواجهة شكوكه وهواجسه المتعلقة بالتراث المثبط الذي يتوقعون وراثته وتوريثه لمن بعدهم. فإذا تُركوا يتصارعون مع تحفظاتهم المتعلقة بالمعتقد الإسلامي الكلاسي، أو بصحة أدب الحديث وموثوقيته، أو بصلة الشريعة والممارسات الإسلامية التقليدية، بممارساتهم الحالية. فسيبحثون عن إجابات خارج مجتمعهم الإسلامي. فهناك الكثير الكثير من المواقع المناهضة للإسلام في الإنترنت يمكن الوصول إليها بسهولة. وعلى الرغم من أنه يمكن إدراك أن هذه المواقع أدوات دعائية، فإنها مع ذلك تساعد على تعميق الشكوك الموجودة. ثم هناك، دائماً، الجامعة، ذلك المكان الواضح الذي يلتفت إلى جيل أكد الآباء والأمهات فيه على ضرورة الحصول على ثقافة جامعية. هناك يتعلمون أكثر المقاربات حداثة لدراسة التراث الديني. ويمكنهم كذلك أن يتعلموا النقد التاريخي ونقد النصوص، ويلاحظوا تطبيقاتها في ميادين الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية. ليس في أساليب البحث الحديثة أي شر متأصل فيها، بل يمكنها إلقاء ضوء ساطع على تطور الفكر الإسلامي، ولكن

المحاضرين غير المسلمين يدرسون أكثر المقررات عن الإسلام، وعلى الرغم من محاولتهم أن يكونوا منصفين وموضوعيين، فهم، بالتعريف، نزاعون للشك في الإسلام. وهذا لا يعني أنه في أثناء البحث عن الحقيقة والموضوعية لا يكون لوجهة نظر اللامنتمي أي قيمة، ومع ذلك لا يمكن إهمال منظور المؤمن، ولحسن الحظ تقوم جامعات كثيرة الآن بتجنيد أعضاء هيئة تدريسية مسلمين لتدريس المقررات الإسلامية. ومع ذلك، وحتى إذا ما ساعدت، بعض الجامعات طلابها على تعزيز ثقتهم بإيمانهم، تظل فرص يشعرون فيها بعدم الارتياح في المسجد، لأن عليهم أن يحلُّوا قضاياهم بفضل تبني النظرة الأكاديمية الحديثة.

ما زالت في الواقع نسبة مئوية ضئيلة من الشباب المسلمين المتحررين من الوهم سيستثمرون الوقت للبحث الجاد في الإسلام. وسوف يتخلى أغلبيتهم عن البحث ببساطة لدى إدراكهم القوي بأن شيئاً ما في ثقافة المسجد ليس صحيحاً. وهذا لا يعني أنهم سوف يرتدون عن الإسلام بالضرورة؛ بل سوف يستمرون بإيمانهم بوجود الله ويعرفون أنفسهم بأنهم مسلمون، ولكن لن يكون لهم أي علاقة أخرى بالدين، ولن يكون للدين أثر في سلوكهم أو تفكيرهم الذي يميزهم في إسلامهم.

ربما يظن المرء أن خروج الجيل الثاني من المجتمع الإسلامي سيكون الهم الرئيسي للمؤسسة الإسلامية الأمريكية، ولكن الواقع ليس كذلك، على ما يبدو. إذ لم يبحث زعماء المسلمين ولا علماؤهم هذه القضية علناً، أبداً. والآباء والأمهات المسلمون الأتقياء الذين يلاحظون عدم الرضا عن الإسلام لدى أبنائهم وبناتهم يفضلون عدم التحدث عن ذلك خشية الإرباك. كما أن غالبية المجتمعات في الجاليات الإسلامية لم تبتكر أي استراتيجية أو أي برامج للوصول إلى هؤلاء الشباب والشابات المُغَرَّبين. وباختصار، المجتمع الإسلامي غارق في تجاهل مطبق.

المشكلة معقدة، ولا أدعي أن لدي حلاً. والواقع أني أشك في وجود علاج صريح شافٍ، أو أن هناك سلسلة من الخطوات الملموسة التي لو اتخذت لرأيت

شباب الجيل الثاني يتجمهرون على الفور في المساجد. والصعوبة الجوهرية هي مجرد الوصول إلى الذين نفروا من الإسلام من الجيل الثاني. والمسألة ليست أن هذا الجيل يحوم حول المسجد باذلاً جهده كي يجد له مكاناً في المجتمع الإسلامي. بل كل أفراده تقريباً قد تخلوا عن المسجد ونبذوه بوصفه مستودعاً لمتاع الآباء الثقافي، لا صلة له بهم، وكلما كبرت هذه السلالة من الجيل الثاني ازدادت صعوبة الوصول إليهم. وما إن يفرغ أحدهم من دراسته ويتزوج - وغالباً ما تكون الزوجة غير مسلمة - وينشغل بأعماله وبتربية أطفاله حتى تتمثله الحياة الأمريكية ويبتعد عن ثقافة المسجد.

من الأسهل بكثير إقامة صلات مع شباب أمريكيين مسلمين في الجامعة، خصوصاً مع بقاء فروق لجمعية الطلبة المسلمين في كل جامعة تقريباً في طول البلاد وعرضها، حيث يلتقي أعضاؤها بالطلبة الأمريكيين من سلالة مسلمة. إن المشكلة هنا، على أية حال، هي أن عضوية جمعيات الطلبة المسلمين تجتذب الطلبة الأجانب، والفروق الثقافية القائمة بين المجتمع المحيط ومساجد المهاجرين تزداد تعاظماً حتى مع الذين يديرون المساجد من الجمعيات.

ولدى سؤالي لطلبة من الجيل الثاني عن سبب إحجامهم عن الالتحاق بجمعية الطلبة المسلمين أو عن سبب عدم حضورهم إلى مسجد الجامعة يقولون: إن الطلبة هناك «متطرفون جداً». حتى الطلبة من الجيل الثاني الذين ما زالوا منخرطين في مؤسسات أخرى تروِّج للقضية الإسلامية في أنحاء العالم ينفرون من المساجد بوصفها (محافظة جداً) أو (تقليدية). لقد بادر طلبة مبدعون في عدد من الجامعات إلى مخاطبة هذا الوضع عن طريق تشكيل منظمات ومجموعات بحث خصوصاً لأبناء المهاجرين ومعتنقي الإسلام من الأمريكيين، ولم يلتحقوا بعد بجمعية الطلبة المسلمين أو بالمسجد المحلي. وفكرة مجموعات البحث هذه هي تهيئة بيئة غير تخويفية لهؤلاء الطلبة، حيث يتعلمون المزيد عن الإسلام، ويستكشفون أي قضايا وإشكالات لديهم بحرية. وفلسفة هذا النشاط الهامة هي أنه إذا كان هؤلاء الشباب لا يرغبون في ارتياد المسجد فلابد، على الأقل من تزويدهم ببيئة يتمكنون بفضلها من التواصل مع دينهم ومع

بعض الزملاء المؤمنين. وكلنا أمل في أن يكتسب هؤلاء الثقة بالدين، وتتولد لديهم الرغبة في الإسهام بجهودهم ورؤاهم في تنمية المجتمع الإسلامي الأمريكي.

ومع ذلك، فإن انتظار الجالية المسلمة الجيل الثاني حتى ينهي دراسته قبل محاولة جذبه إلى المسجد؛ يعني بالتأكيد نجاحاً ضئيلاً. فإذا ما أريد لأبناء المسلمين في أمريكة أن ينموا مشاعر الانتماء إلى المسجد والارتباط به، فلابد أن يكونوا مساهمين بانتظام في أنشطة الجالية في أثناء طفولتهم وشبابهم، لأنهم هنا - خلافاً للأطفال المسلمين وراء البحار - لا يجدون فرصة امتصاصهم من قبل الثقافة المحيطة بهم.

ومع هذا إن كان وقتهم في المسجد كريهاً، فإن ذلك يجعل الشاب مناهضاً للاندماج به، وجاهزاً للتخلي عن الجالية في أول فرصة متاحة. لذلك لابد من جعل المسجد بيئة أسرية ودية حيث يشترك الآباء والأبناء والأمهات في مهام الجالية معاً كأسرة واحدة. أما الآن فليس هذا هو الحال في معظم المساجد في أمريكة.

كنت أصحب بناتي وابنة الجيران الصغيرة إلى المدرسة قبل بضع سنين عندما بدأت صديقتهن تتحدث عن تجربتها في الكنيسة الأحد الماضي. تحدثت عن السعادة العظيمة التي شعرت بها وهي تجلس وأمها وأباها معاً في الكنيسة، يصغون إلى العِظةِ ويغنون الأناشيد الدينية ويصلون معاً. وقالت: إنها تتطلع للذهاب إلى الكنيسة أسبوعياً مع أسرتها. وعند نقطة معينة من حديثها سألت بناتي ببراءة إلى أي كنيسة تذهبن؟ فأجابت ابنتي الكبرى جميلة، التي كانت في السابعة أو الثامنة من عمرها حينذاك بتجهم: «والدي يذهب إلى المسجد» تبع جوابها فترة من الصمت. وبعد ذلك سألت صديقتهن : «هل لأمك وأبيك دين مختلف؟».

كنت آخذ بناتي إلى المسجد كل ليلة تقريباً حتى ذلك الحين، ورغم كونهن الوحيدات من الإناث بين الحضور، فكنت أفترض تولد شعور لديهن بأن المسجد مكان عبادة لهن ولي أيضاً. ومع ذلك حصل لديهن انطباع بأن المسجد للرجال أساساً. وعندما سألتهن كيف خطر ببالكن ذلك، أجبن بأن هذا ما شهدناه. وعندما ضغطت عليهن لإعطاء تعليل قلن: إن السيدات المسلمات

لا يذهبن إلى المسجد تقريباً، وإن ذهبن فإنهن لا يصلين في القاعة الرئيسة المخصصة للصلاة.

وكن كلما كبرن تضاءلت رغبتهن في الذهاب إلى المسجد. إذ بدأن يشعرن بأن كثيرين من الرجال لا يريدون وجودهن هناك، وأنهن لا يرتحن بالصلاة وحدهن في قسم النساء في الطابق العلوي. وما إن دخلن المدرسة الثانوية حتى توقفن عن مرافقتي إلى الصلاة. وهن يعتبرن ثقافة المسجد اليوم «مهزلة»، و«بدائية» و«غريبة».

وعندما سألت ابنتيَّ الكبيرتين إن كانتا تعتزمان الانخراط أكثر في المسجد عندما تكبران أو عندما يصبح لديهما أطفال يوماً من الأيام؛ أجابتا ليس قبل أن يتغير جو المسجد بصورة درامية ويصبح بيئة أسروية. وقال لي آباء مسلمون وأمهات مسلمات كثر: إن أولادهن يتخذون المواقف نفسها. وذكر آخرون أن أولادهم وبناتهم قالوا: إنهم «يكرهون المسجد» وليس لديهم أي اهتمام بدخوله.

هذه مسألة خطيرة جداً بقدر ما يتعلق الأمر بمستقبل الإسلام في أمريكة. فإذا ما ظل المسجد ذكورياً في الأساس بدلاً من كونه مؤسسة أسروية ودّية، فإن على الجالية المسلمة أن تتوقع ابتعاد أعداد كبيرة من الجيل الثاني عن المسجد وما يتلوه من الأجيال. مع افتراض وجود جاذبية للوضع، على المسلمين المرتبطين بالمسجد أن يفحصوا بعناية ما إذا كان الإسلام يتطلب أن يبقى هكذا. فإن كان يتطلب البقاء كما هو، فلابد من الحفاظ على الوضع الراهن في المساجد بغض النظر عن أعداد المسلمين الأمريكيين الذين ينفرون منه ويخرجون. وإذا كان هناك مجال في الدين يجعل المسجد أكثر أسروية وودّية، وهذا يجري تجنبه، إذن على مؤسسة المسجد أن تتحمل مسؤولية تضليل الملايين من المسلمين المحتملين وصرفهم عن الدين[1].

---

(١) من الممتع أن أذكر أني زرت في أواخر ثمانينات القرن العشرين وأوائل تسعيناته مسجد النبي والمسجد الحرام في مكة عدة مرات، وكانت الأسر هناك تجلس معاً وبصورة مختلطة إلى أن ينادى للصلاة فتنفصل النساء عن الرجال لأداء الصلاة في قسمهن. هذه هي العادة الموطدة في أقدس مكانين للعبادة في الإسلام منذ فجره.

إن تحول المسجد إلى محور فكري للجالية - كما كان في مطلع التاريخ الإسلامي - سيؤدي خدمة كبيرة لمسلمي أمريكة، حيث يشجع المؤمنون، وخصوصاً الشباب منهم على استكشاف قضايا إسلامية وبحثها ومناقشتها دون خوف من لوم أو عقوبة. يجب أن يدعم المسجد تشكيل جماعات البحث للشباب ويوفر لهم فرصاً كبيرة ليعبروا عن همومهم في منتديات الجالية.

ومن المهم أيضاً أن يضموا ممثلين عن الجيل الثاني إلى مجالس الإدارة. فهذه الخطوات تساعد على تحسين الفهم المتبادل والتواصل بين جيل المهاجرين والجيل الثاني. كما يجب تكييف الجيل الثاني مع الانخراط في الجالية. وكل ذلك، بالطبع، يتطلب احتراماً كبيراً لحرية التعبير واختلاف الرأي أكثر مما هو موجود الآن في معظم الجاليات.

وهناك حاجة متنامية في الجالية المسلمة الأمريكية إلى علماء في الإسلام ممن نشؤوا في الوطن مدربين أكاديمياً ومرتبطين بالمسجد. فمعظم القادة الفكريين، الموجودين حالياً، لم يحصلوا على ثقافة عليا في الإسلام، أو في الدراسات الشرق أوسطية، أو في حقول ذات صلة بذلك، رغم أنهم مثقفون جيداً. فضلاً عن أنه إذا ما أريد الإسهام بمنظور إسلامي ضروري جداً في ميادين البحث التي يهيمن عليها غير المسلمين منذ زمن طويل، فلابد من وضع هؤلاء الأكاديميين في مواقع جيدة تمكنهم من مساعدة الجيل الثاني على حل إشكالاتهم وإزالة شكوكهم. فغالبية الجيل الثاني مثقفون جامعياً، ومهيؤون للبحث في العلوم الاجتماعية والدينية ؛ إضافة إلى أنهم ألفوا أساليبهم الفكرية، وطرقهم في التعبير، ومنهجياتهم الخاصة بهم. وما لم يتمكن العلماء المسلمون من التواصل مع الجيل الثاني بطريقة تخاطب خلفيتهم الثقافية فسيجدون صعوبة في الوصول إلى الذين نفروا من المسجد ومن الدين.

كانت أكثر الأسئلة التي تلقيتها من شباب أمريكيين مسلمين تتعلق بفصل الدين عن الثقافة، ويسعون بفضل ذلك إلى التمييز بين الممارسات والأفكار الإسلامية الجوهرية في الإسلام، والتطبيقات أو التفسيرات المقيدة بالزمان والمكان. ويمكن أن يكون العلماء المسلمون الأمريكيون المدربون في التاريخ،

وعلم الإنسان، والدراسات الدينية الذين يطبقون خبرتهم على دراسة العلوم الإسلامية الكلاسية، ذوي عون كبير في هذا المجال بصورة خاصة. وبالمثل، يمكن أن يكون علماء القانون، والاقتصاد والعلوم السياسية وعلم النفس عوناً للشباب المسلمين في اكتشاف الإجابات الدينية الفعَّالة على القضايا المعاصرة، وفي تطوير رؤية للاتجاهات المستقبلية تتبعها الأجيال القادمة.

معظم المختصين المسلمين في الدراسات الإسلامية في أمريكة اليوم يظلون بعيدين عن مساجدهم المحلية، والعكس بالعكس. إن هذا الرفض المتبادل (بين المساجد المحلية، والعلماء المختصين) هو من سوء حظ المسلمين وعلامة أخرى من علائم العلل التي تسود الجالية المسلمة. ومرَّة أخرى، لابد من تركيز الآمال على الجيل التالي لإيجاد مجتمع أكثر انفتاحاً وتسامحاً يحتوي مواهب المؤمنين ومنظوراتهم المختلفة. وهذا يترك المجتمع على أي حال، في وضع يستحيل معه إنجاز شيء؛ ولكي نجذب الجيل الثاني إلى المجتمع وندمجه بالجالية لابد من إحداث تغييرات محددة، أما الآن فلا مجال لإحداثها، على ما يبدو، حتى يتمكن الجيل الثاني من استلام زمام الجالية والمجتمع.

لا هنا ولا هناك

عن أنس... قال: قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره»[(١)].

التقيت بكثير ممن اعتنقوا الإسلام، ألفوا ثقافة المسجد ومتمسكين بمواقفه، وعاداته وسلوكه الاجتماعي، ويدافعون عنها بحماس بوصفها تجسيداً للإسلام الحقيقي، ولكنهم ليسوا أكثرية. ويرتد عن الإسلام نصف الذين يعتنقونه من الأمريكيين على الأقل، والنصف الثاني يظل بعيداً عن الجالية الإسلامية. من بين فئات المسلمين المواطنين الأربع التي بحثناها في هذا الفصل، تركت

(١) البخاري ومسلم.

البحث في الذين اعتنقوا الإسلام إلى آخر المطاف، لأن الذين يشعرون أنهم بعيدون عن المسجد هم من رفع صوته أكثر للتعبير عن الهموم التي أوردناها من قبلُ، ومن ثم فلا حاجة لتكرار ذكرهم مطولاً هنا. ويكفي القول: إن سلطة ثقافة المسلمين، على ما يبدو، وعدم المساواة بين الذين يعتنقون الإسلام من القوقاز وأولئك الذين يعتنقونه من الأمريكيين الأفارقة، والانقسام الفكري والاجتماعي بين المسجد والمجتمع المحيط به تعد قضايا إشكالية عند الكثيرين من الأمريكيين الذين يعتنقون الإسلام. لذلك سوف أنجز هذا الفصل بإدراج بعض الإحباطات القليلة الأخرى التي تذكر كثيراً، وهي أقل خطورة. يجب أن نتذكر دائماً أن لدينا قدراً كبيراً من التراث الإسلامي الذي يحترمه معتنقو الإسلام ويعجبون به، بيد أن التركيز هنا في هذا المقطع على معالم ثقافة المسجد المحبطة لهؤلاء والمنفرة لهم عن المساهمة في الجالية.

كثير من معتنقي الإسلام يعبرون عن هلعهم من التعصب العرقي والتحزب القومي الذي يشعرون أنه يوهن المجتمع الإسلامي ويضعفه. وكما أشرنا سابقاً نرى أن تفضيل الذين يدخلون الإسلام من الأمريكيين البيض في المعاملة على الأمريكيين السود - رغم أنها مرفوضة، وتعد سلوكاً انقسامياً - يُعزى إلى ظاهرة الاستعمار الأوربي، وهيمنة الحضارة الغربية حالياً، والافتراضات الخاطئة التي تلصق «بأمة الإسلام (الأمريكية)»، وليس إلى التمييز العنصري أو الكراهية العرقية؛ ومع ذلك فهناك تيارات أخرى من التحامل العرقي والقومي تعصف بالمسلمين في أمريكة وتفتتهم. ويرى معتنقو الإسلام أن الاحتكاكات العرقية والقومية التي تطفو على السطح في جاليتهم، والإهانات العرقية التي يسمعونها، ووجود مساجد عرقية في المدن الكبرى، والافتقار إلى التعاون والنزاعات المتكررة بينها، كدليل على أن أخوة المؤمنين المعلنة، ليست سوى مظهر سطحي لا يتجاوز الجلد إلى القلب.

ومع ذلك، فليس من الطبيعي ألا تكون هناك مثل هذه التوترات في شعب متنوع الثقافات، ولكن بما أن الدين مؤسس مباشرة وبصورة كاملة على مفهوم الأخوة، فإن أي تعصب ملحوظ يبدو نشازاً كبيراً. في حين أن هذا ربما يكون

محرراً لبعض معتنقي الإسلام من الوهم، ممن لديهم توقعات مثالية أن المسلمين يلتزمون تماماً بدعوة الحب الأخوي، هنالك علامات واعدة بالأمل في المستقبل. وكلما طالت إقامة المهاجرين هنا، ازداد احترامهم للمؤمنين من خلفيات أخرى، وتوثقت علاقاتهم المتبادلة بهم، ومن ثمَّ لابد وأن تتقلص التحاملات العرقية بين الجيل الثاني الذي نشأ في مجتمع ينادي بالتسامح وقبول التنوع وأن تزول لديهم أشكال التحيز والتمييز.

مشكلة أخرى تحل من تقاء ذاتها، خصوصاً إذا ما نمت مساهمة السكان الأصليين في المجتمع، هي أزمة الهوية التي تتردد على ألسنة الكثيرين ممن اعتنقوا الإسلام. يعتمد المهتدون عادة على المؤمنين ذوي الخبرة كي يعلموهم الدين الجديد، الأمر الذي يعني أنهم يتلقون هذا التعليم حالياً على يد المهاجرين المسلمين الذين ربما تؤدي نزعتهم القوية لمساواة الدين بصيغه الثقافية في الوطن الأم إلى جعل هؤلاء الداخلين الجدد في الدين يتبنّون وجهات نظر ليست ضرورية دينياً وغريبة عن طبعهم ومزاجهم. وبسبب رغبة الكثيرين من معتنقي الإسلام في أن يقبلوا في ثقافة المسجد يحاولون إعادة تكوين أنفسهم بما يتلاءم مع أعراف المجامع والجالية، لدرجة أنهم يكبتون ضمائرهم وعقولهم، الأمر الذي يجعل الكثيرين منهم يصفون حالتهم بأنها انفصام ثقافي وعقلي، إذ يتحلون بالأخلاق والمواقف السياسية والاجتماعية وغيرها التي تتخذها شعوب الشرق الأوسط عندما يكونون بين المسلمين، ثم يعودون إلى شخصيتهم الأمريكية في مواضع أخرى[١]. ولحسن الحظ ينجو معظم معتنقي الإسلام من هذه المرحلة ويتجاوزونها من دون أي ضرر يذكر، وكثيرون من الداخلين الجدد إلى أديان أخرى يمرون بأزمات الهوية هذه بشكل أو بآخر - وهكذا جاء المثل القائل : «ليس هناك دين كالدين الجديد» يبدو أن نسبة الذين يعانون من أزمة الهوية من المعتنقين الجدد للإسلام، تتناقص، وربما كان الفضل في ذلك لمشورة الذين سبقوهم إلى اعتناق الإسلام.

---

(١) للاطلاع على المزيد من هذا المجال، انظر كتاب «حتى الملائكة تسأل» للمؤلف نفسه، منشورات أمانا، ١٩٩٧، ودار الفكر ٢٠٠٠.

من الشكاوى التي يطرحها باستمرار معتنقو الإسلام ضد المجتمع الإسلامي هي الافتقار إلى التأمل الداخلي الذاتي وعدم إدراك معاييره المزدوجة. فهم بوصفهم من اللامنتمين سابقاً لأمريكة يكونون أكثر حساسية تجاه هذه المسألة. إذ يقولون: إن المسلمين يتوقعون، تماماً أن يحصلوا على جميع الحقوق والامتيازات التي تترتب على الحصول على الجنسية (المواطنة) الأمريكية الكاملة، ولكن كثيرين من زعماء الجالية الإسلامية يراوغون عندما يطرح عليهم سؤال يقول: هل تدافعون عن المواطنة الكاملة لغير المسلمين إذا كان المسلمون هم المهيمنين سياسياً؟ ومن الملاحظات النقدية المتكررة أن الجالية الإسلامية تسارع إلى التنديد بالظلم الذي يمارسه غير المسلمين، ولكنها لا تميل إلى الاعتراف بالأخطاء الفاضحة التي يرتكبها أبناء دينهم، ولا يدينونها. فمنذ زمن ليس بالبعيد، صرح المفتي العام في المملكة العربية السعودية قائلاً: «إن اليهود حثالة الأرض، وجرذان البشرية، وسلالة القرود والخنازير». فنشر هذا التعميم العرقي الصادر عن سلطة دينية إسلامية عليا على نطاق واسع في أمريكة، ولم تصدر أي إدانة عن الجالية الإسلامية. فكتب لي أحد معتنقي الإسلام يقول: «أين سلالة آدم شابير[١]، وستانلي كوهين[٢]، وراشيل كورييه[٣] في مجتمعنا؟ أين المسلمون الذين يدافعون عن حقوق غير المسلمين ويشجبون أخطاء شعبنا؟» ليس من الصعب أن نجد في القرآن ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ١٣٥]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا

---

(١) ناشط سلام يهودي أمريكي يعمل مع الفلسطينيين في نضالهم ضد الاحتلال. ونتيجة لهذه الفتوى تلقت أسرته تهديدات بالقتل.

(٢) محام يهودي أمريكي أقام دعوى ضد حكومة إسرائيل باسم الأمريكيين الفلسطينيين متهماً إياها بجرائم الحرب.

(٣) متطوعة مع حركة التضامن العالمية التي يقودها الفلسطينيون. قتلت وهي تحاول منع القوات الإسرائيلية من تدمير بيوت الفلسطينيين المدنية.

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٥/٨].

يروي بعض معتنقي الإسلام أن شعوراً بالوحدة ينتابهم بعد اعتناق الدين، فقد قالت امرأة ممن كن يحضرن جلسة سؤال وجواب بعد المحاضرة: إنها تشعر منذ اعتناقها الإسلام كأنها شخص بلا مجتمع. وشرحت ذلك بقولها: إنها شعرت بالانفصال عن المجتمع الذي نشأت فيه من جهة، وشعرت بأنها معزولة ضمن المجتمع الإسلامي من جهة أخرى. وأضافت: إنها كانت تشعر بأنها غير مرغوب فيها في مسجدها عندما تطرح أسئلة تتعلق ببعض الممارسات. ثم سألتني كم يستغرق الداخل الجديد في الدين من الزمن حتى يشعر لدى وجوده في المجتمع الإسلامي أنه بين أهله؟ وهل من الأفضل أن تكف عن طرح أسئلة تبدو غير مناسبة لها؟

كتب لي العديد من معتنقي الإسلام يصفون لي الشعور بالغربة عن الثقافة المحيطة، وعن ثقافة المسجد. ويبينون أن علاقاتهم مع الأسرة والأصدقاء وزملائهم في العمل لم تعد كما كانت، وأن الإسلام أحدث تغييرات في أسلوب حياتهم، وفي مواقفهم أخرجتهم عن المسار العام. في حين أن غالبية معتنقي الإسلام يفهمون أن هذا هو الثمن الذي لابد لهم من دفعه ويقبلونه، كما أنهم يعزفون بصورة طبيعية عن الاستسلام لأحكام ومعتقدات لها صلة غامضة بالإسلام. إن التلاؤم مع أي ثقافة جديدة لا يخلو من المصاعب والمتاعب، أما فيما يتعلق بالمسجد فيمكن تيسير هذه المشكلة إذا ما بذلت الجالية - كما أكدنا مراراً - جهوداً لتخليص نفسها من عادات ليست ضرورية للدين. إذ ما دام المسجد متوفراً بحزم على تقاليده الأكثر عرضة للتساؤل، وما دام معتنقو الإسلام يشكون في جوهرية هذه التقاليد وضرورتها للإسلام، فإن هؤلاء سيظلون يشعرون بأنهم خارج السياق في ثقافة المسجد.

كم هو جميل أن يشعر المرء بأنه وزملاءه المؤمنين شخص واحد، وأن يكون لأولئك الذين يشعرون بالانفصال عن كل ما هو مألوف ملاذ من الدعم

في جاليتهم الدينية، ولكن الدين يجب أن يوضع تحت الاختبار، كما أنّ الإحساس بالوحدة الذي يعاني منه الكثيرون من معتنقي الإسلام يمكن أن يساعدهم على تنمية اعتماد فردي على الله. ويقدم لهم كذلك فرصة لممارسة جانب أساسي من جوانب الأخوة الأصيلة: أي الالتصاق بإخوتك وأخواتك حتى عندما تكون هذه العلاقة ليست سهلة. على أي حال، يجب ألّا يتوقف معتنقو الإسلام عن تحديث ما يشكون أنه ممارسات وعقائد قابلة للنقاش، أو ليست مهمة. إذ ينبغي ألا يُنحَّى السبر النقدي الذي جعلهم يدققون في أديانهم السابقة، ثم قادهم إلى الإسلام، مجرد دخولهم في المجتمع الإسلامي؛ وإلّا فإنهم ينتهون إلى مقايضة مجموعة من الأكاذيب بمجموعة أخرى. فضلاً عن أن مهمة معتنقي الإسلام المثالية يجب أن تكون تحرير الدين من عبء قرون من الزمن، ومن الإضافات الموهنة للدين - وهذا مشروع ذو أهمية حيوية في نظر المفكرين المسلمين - لأنهم بفضل هذه المهمة يجمعون في ذاتهم منظور اللامنتمين للدين. ومع ذلك لا يمكنهم القيام بهذه المهمة إن أحجموا عن المواجهة الفكرية. هناك في كل مسجد من يفضل لهؤلاء أن يذعنوا للعرف والتقاليد، وأن يكونوا إمّعات تابعين للتراث الإسلامي؛ ويمكن أن تكون الضغوط في هذا الاتجاه كبيرة جداً، ولكن على معتنقي الإسلام أن يتذكروا أنهم يسلّمون أنفسهم لله، وليس للجالية.

إننا ننقسم

- عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه»[١].
- عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ السلام»[٢].

---

(١) البخاري ومسلم.
(٢) البخاري ومسلم، وأبو داود.

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣/١٠٣-١٠٥].

الحاجة إلى وحدة أكبر بين المسلمين موضوع يتكرر في المؤتمرات الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث المراد عادة هو أن يترفع المسلمون المهاجرون عن المشايعة العرقية، ويتلاقوا في أخوة وتعاون متبادل. لا أعني التقليل من شأن التمركز العرقي في الجالية، ولكن يبدو أنه ما من شيء خبيث سامٍّ شهدته مثل التحامل العرقي في بريدج بورت، وكونيكتيكت. والأهم من ذلك مهما بلغ التباعد بين مجموعات المهاجرين المختلفة فإن خطورته تتضاءل بالمقارنة مع مشكلة إبعاد المسلمين المولدين في أمريكة عن ثقافة المسجد. فأي برنامج لتوحيد المسلمين لا يخاطب مشكلة إقصاء غير المهاجرين وإبعادهم لن يكون له صلة بمستقبل المسلمين في الولايات المتحدة. وقبل تقديم أي اقتراحات بشأن ما ينبغي عمله لتغذية وحدة فعالة ذات معنى وتعزيزها، فإنه من المفيد مراجعة بعض الهموم الرئيسية للمولودين في أمريكة من الذين ما زالوا بعيدين عن المسجد.

إن أكبر مشكلة يعاني منها المسلمون الذين نشؤوا في أمريكة، بصرف النظر عن مشكلة الجنس، هي معاملة النساء في ثقافة المسجد التي يراها الكثيرون بأنها مهينة. إن ممارسة عزل النساء تعد مزعجة بوجه خاص. ومن الشكاوى العامة أن النساء لا يشجعن على صلاة الجماعة، وأنه ليس لهن صوت مستقل في الجالية، ويُحرمن من المناصب القيادية، ويُحرمن من عضوية مجالس الإدارة واللجان التنفيذية، ويُحطُّ من قدر الإناث جميعاً، ويهمّشن ويُذللْن في مجتمعاتهن الإيمانية. وكثير منهن يحتججن بأنهن يعاملن كمواطنات أقل من الدرجة الثانية في المسجد حتى ولو كن في بلدهن.

ويعد التباين بين ثقافة المسجد والفكر العام السائد قضية جوهرية لدى قطاع كبير من الجيل الثاني. يرى كثيرون أن الجالية المسلمة تشدد على التقليدية

المتطرفة، والالتزام والفاشية وتقييد الفكر والكلام. أما المجتمع الأوسع فيرى الكثيرون أنه يثمن العقلانية والفردية والإبداع والبحث النقدي ويدافع بحماسة عن حرية الكلام. وكثير من هموم الجيل الثاني يحظر بحثها في المسجد. فهناك الكثيرون من هؤلاء الشباب يرتابون في فعالية نقد الحديث الكلاسي. كما يشعر كثيرون أن اللاهوت الإسلامي التقليدي، كما هو مطروح في المسجد على الأقل، يخفق في مخاطبة التباينات اللاهوتية التي تعد قضايا مركزية في الفكر الغربي والتي تجري مواجهتها دائماً مع غير المسلمين، مواجهة مقنعة. ويفتقر الكثيرون إلى الثقة في كثير من الشريعة الإسلامية التقليدية ويخفقون في إيجاد صلة بها. وينادى الآن بإحياء الأنظمة الإسلامية الكلاسية عن طريق إدخال أساليب البحث الحديثة، بدعوى أنه ما من علم يستطيع الاعتماد على مكتشفات الأجيال السابقة من دون تدقيق وتحقيق. أما المؤسسات المسجدية فتعارض بوجه عام أي اقتراحات في هذا الاتجاه. إن ما يشكل هذا الفشل الخطير في إحداث التواصل هو أن إنكار ثقافة المسجد الواضح لخروج الجيل الثاني بأعداد كبيرة من المجتمع الإسلامي يعدُّ مسألة هامة.

من المحزن أن تهمل الجالية الإسلامية الأمريكية قطاعاً ممن نشطوا في الوصول إلى الشباب المسلم المغرّب عن المسجد، وإلى الذين اعتنقوا الإسلام، وحققوا على ما يبدو تقدماً في هذا الاتجاه. وعلى الرغم من أن تحاشي المهاجرين لإخوتهم وأخواتهم السود - وتفضيلهم للبيض على السود - ناجم عن عوامل ثقافية أكثر مما هو بسبب العوامل العرقية، فإنه إن ترك الوضع على هذه الحال، فربما يتطور الأمر إلى صراع، وتوترات عرقية حقيقية داخل الجالية. وبما أن المساجد التي يهيمن عليها السود سلفاً هي مؤسسات وطنية أصلية، يجد المرء في معظمها تركيزاً قوياً على قبول المعتقدات والممارسات الإسلامية التقليدية، التي كلّف بها الدين. وهنا أيضاً، تكون الجالية الأمريكية الإفريقية قد سلكت السبيل ساعية لفصل الدين عن الثقافة، ومن ثم فليس غريباً أن تجد معتنقي الإسلام من غير السود، وأطفالاً كثيرين من أبناء المهاجرين يرتاحون في مساجد الأمريكيين الأفارقة أكثر مما سواها.

لا تخص الهموم التي أوردناها فيما تقدم فئةً من المسلمين المواطنين حصراً، رغم أنها أشد حدة عندهم مما هي عند الآخرين، ورغم أن الكثيرين من المهاجرين يشاركون في هذه الهموم، خصوصاً أولئك الذين مضى على إقامتهم في أمريكة بعض الوقت. على أي حال، هناك تجربتان مزعجتان أحاطني بهما علماً معتنقو الإسلام فقط.

الأولى هي ما وصفها لي أحدهم على الهاتف بـ (فتى / فتاة الملصقات) (Poster boy/girl) حيث يشعر المهتدون، انطلاقاً من الرغبة في تأمين قبولهم في مجتمع المسلمين بضرورة تشكيل أنفسهم وفق توقعات المجتمع أو الجالية، فيتبنون مواقفَ وسلوكات ثقافية غريبة عن تربيتهم وشخصيتهم السابقة، ويرتبطون ارتباطاً ضعيفاً غامضاً بالإسلام. إن تحقيق (ضياع النفس) هذا[1] غالباً ما يكون الخطوة الأولى نحو الارتداد عن الدين نهائياً.

أما التجربة، أو الصعوبة الثانية التي يعاني منها معتنقو الإسلام، هي الإحساس بعدم الانتماء إلى أي مجتمع، إذ هم يشعرون بانفصالهم عن التيار المجتمعي العام الذي نشؤوا فيه، ومع ذلك لم يقبلوا تماماً في مجتمع المسلمين، لأنهم على الأغلب، لا يقبلون أن تكون بعض تقاليد المسلمين وأعرافهم المتأصلة فيهم على أنها (إسلامية) حقاً. من الواضح أن هاتين الحالتين وجهان لعملة واحدة. الأولى نجمت عن الاستسلام الأعمى لمعتقدات وعادات لدى المسلمين مشكوك فيها، والثانية نجمت عن رفض ذلك. فلابد من تجنب الحالة الأولى وتعديل الحالة الثانية، إذ يذكر معتنقو الإسلام دائماً أن الإسلام يطلب منهم الاستسلام (التسليم) لله فقط، حتى وإن أدى ذلك إلى تناقض مع المؤسسة الإسلامية المحلية.

قلت في كتابي (حتى الملائكة تسأل) إن حجب التدخل الإلهي يؤدي إلى جعل مستقبل الجالية الإسلامية الأمريكية القريب مكشوفاً كئيباً. شعرت أنه من أجل الحيلولة دون الخروج الجماعي للجيل الثاني وما تلاه من المجتمع

---

(١) أوصي لمزيد من الاطلاع على هذا الموضوع بكتاب (أن نؤمن كما نحن) للكاتب ج. لين جونز (J. Lynn Jones) منشورات أمانا، بلتسفيل، ٢٠٠٢ م.

الإسلامي، ومن أجل تلافي الانقسام الطائفي بين من ظلوا في إطار الجالية الإسلامية، أنه لابد من إحداث تغييرات عديدة في ثقافة المسجد. أنا لا أتوقع عندئذ، ولا الآن، أن تحدث التحولات الموصى بها في حينها لتحبط مثل هذه النتائج الوخيمة. ومع ذلك، إن لم أبين الحالة لهم، أكون قد تخليت عن مسؤوليتي.

نبدأ بما أعتقد أنه اقتراح يدل على نفسه: كلما زادت المعتقدات والممارسات التي تدعي أنها ضرورية للإسلام، تناقص عدد الذين يعدّون الإسلام خياراً لهم.

فمثلاً، يوافق المسلمون كافة على أن الإيمان بإله واحد ضروري وجوهري للإسلام، وأنه ليس كل أمريكي على القبول بذلك. وهكذا يمكننا تمثيل المجموعة الفرعية من الأمريكيين الذين يقبلون بوحدانية الله بالرسم البياني التالي:

المجموعة الفرعية الأولى
الذين سيقبلون وحدانية الله

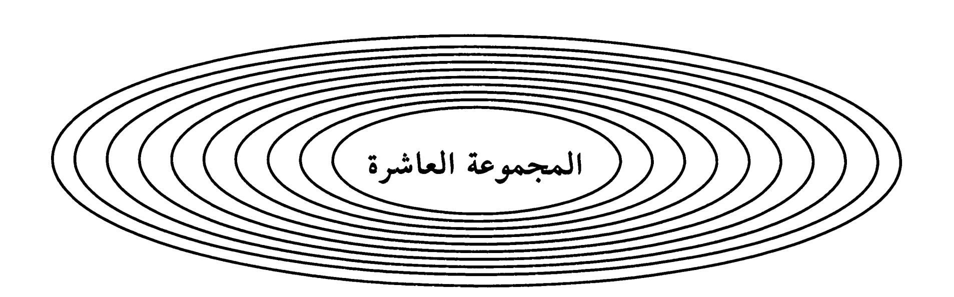
والمسلمون كلهم يوافقون على أن الإيمان بنبوة محمد ضروري وجوهري للإسلام. فالقطاع من الأمريكيين الذين سيقبلون ذلك من الذين آمنوا بوحدانية الله يشكلون بوضوح مجموعة فرعية للمجموعة الأولى المتقدِّمة. ونمثل ذلك بشكل بيضاوي داخل الشكل البيضاوي الذي يمثل المجموعة الفرعية الأولى.

المجموعة الفرعية الثانية
الذين سيقبلون وحدانية الله ونبوة محمد

من الممارسات الإسلامية الجوهرية الصلوات الخمس. فالذين يقبلون بذلك إضافة إلى الإيمان بوحدانية الله ونبوة محمد، يشكلون المجموعة الفرعية الثالثة - المنبثقة عن المجموعة الثانية المتقدِّمة، ومن ثم يمكننا بيان هؤلاء بشكل بيضوي (في المجموعة ٣) داخل الشكل البيضوي الذي يمثل المجموعة الثانية.



ثم إذا أضفنا صيام رمضان(مج ٤)، ثم دفع الزكاة (مج٥) ثم الحج (مج ٦) ثم تحريم الخمر (مج ٧) وتحريم القمار (مج ٨) وتحريم لحم الخنزير (مج ٩) وتحريم الزنا (مج ١٠) فإن الذين يقبلون هذه المعتقدات والممارسات كلها يتقلصون. ويمثل التقلص مع ازدياد المعتقدات والممارسات بالشكل الآتي:



إن هذه القائمة التي تعد ضرورية وجوهرية للإسلام عند المسلمين كافة ليست كاملة تقريباً، وكلما ازداد عدد البنود التي تضاف إليها، فإن المجموعات الفرعية من الأمريكيين - بمن فيهم الذين اعتنقوا الإسلام، والذين يحتمل أن يعتنقوه، والجيل الثاني من المسلمين - التي ستقبلها كلها يزداد تضاؤلها بازدياد عدد البنود المضافة. هذا أمر لا مفر منه، وينبغي ألا يحذف المسلمون أياً من قائمة المعتقدات والممارسات الجوهرية

للإسلام، بصرف النظر عن عدد الذين يبتعدون عن اعتبار الإسلام خياراً دينياً لهم. فإذا كان هناك معتقد أو سلوك يطلبه الدين بالتحديد وبصراحة فلا ينبغي أن يعدل أو يساوم عليه. ومن ناحية أخرى على المسلمين أن يكونوا حذرين من الإصرار على ما ليس ضرورياً ولا جوهرياً للإسلام، لأن مثل هذا الإصرار يضع عقبات وحوائل بين الأفراد والإسلام، إضافة إلى أن الحقيقة تصبح لديهم غامضة دونما حاجة إلى ذلك. وبقدر ما يترتب على المسلمين من عدم إهمال ما هو جوهري دينياً، عليهم بالقدر نفسه ألا ينفّروا الناس من الدين بإدخالهم أموراً غير مطلوبة على أنها من الإسلام، ويجب اتباعها بحذافيرها. هذا أمر وأهمية حاسمة في القرآن، لأنه إذا أدخلنا في الدين ما ليس فيه من دون دليل واضح، نكون في واقع الأمر قد أشركنا مع الله ما ليس منه، ونكون قد افترينا الكذب عليه حسب تعبير القرآن: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ١٠/٥٩]. ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١٦/١١٦].

وفي سورة التوبة الآية (٣١) يلوم القرآن اليهود والمسيحيين ويؤنبهم، لأنهم اتخذوا من أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وهناك حديث مشهور ورد في صحيح الترمذي يقول: إنهم فعلوا ذلك بسبب اتباعهم ما أعلنه رجال دينهم حراماً وحلالاً بصورة عمياء[1]. وتوجه سورة يونس هذا التحذير المخيف إلى

(١) نص هذا الحديث من صحيح الترمذي (ترجمة ٤ : ٩)، «حدثنا الحسين بن يزيد... عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ، وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/ ٣١]. قال: إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه...» الحديث (٣٠٥٩)

الذين يفعلون مثلهم: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ١٠/٥٩-٦٠].

يقول محمد أسد في تعليقه على هذه الآية: «وفقاً للمبدأ القائل: إن كل ما لا يحرّمه القرآن ولا سنة النبي صراحة يعد مشروعاً وحلالاً بحكم الواقع، وهذه الآية تتخذ موقفاً حاسماً واضحاً ضد التحريم العشوائي المصطنع أو الذي يبتدعه الناس استنتاجاً من القرآن أو من سنة النبي»(١).

إن تقديس التراث، كما يبين القرآن، يعد أكثر الوسائل شيوعاً وبفضلها تقترن السياسات البشرية - التي ربما تكون مناسبة أو لا تكون في فترة معينة من التاريخ - بالدين وتعمّم؛ وعندما تواجه بواقعة أن الوحي لا يدعم هذه الممارسة، فإن الملومين في ابتداع تلك الممارسات يفضلون التراث على الوحي معاندين. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٦٨-١٧٠].

عندما اعتنقت الإسلام منذ أكثر من إحدى وعشرين سنة، بدا لي أنه ما من مسلم التقيته إلا وكان تواقاً ليتحدّث إليّ حول خصوصيات ذات حساسية يعدّها جزءاً لا يتجزأ من العقيدة والدين. كنت أرتاب في كثير مما يقال لي، ولكني حينذاك لم أكن أمتلك الوسيلة التي أتأكد بموجبها من صحة ما يقال.

قيل لي في مناسبات عديدة : إن علي أن أرتدي ملابس شرق أوسطية، وألّا أسمع موسيقا، وأن أردد الدعاء والابتهالات كلها بالعربية، وألّا أصفّر، وأن آكل بيدي ولا أستخدم أدوات الطعام، وألّا يكون عندي تلفاز، وألا أرتدي ربطة عنق، وأن أعمل على إسقاط الحكومة الأمريكية عندما تتاح الفرصة، وأن

---

(١) محمد أسد (رسالة القرآن)، دار الأندلس، جبل طارق (١٩٨٠).

المرأة لا تستطيع مغادرة بيتها إلا بإذن زوجها، ولا تصوّت في الانتخابات، ولا يجوز لها العمل خارج البيت، وأنها لا ينبغي أن تحصل على إجازة قيادة سيارة، وأن الديمقراطية حرام، وأن عليّ تغيير اسمي إلى اسم عربي، وأن استهداف المدنيين مسموح به في الجهاد، وأن ارتكاب المرأة للزنى هو أسوأ من ارتكاب الرجل له. وكثير مما يجب أن أفعله وما يجب ألا أفعله تدعمه ببراهين واهية غير مقنعة. ولو لم أكن أخذت ديني عن القرآن، ولو اعتبرت مثل هذه الادعاءات تعبر عن الإسلام حقيقة، لكنت قد تركت الدين بالتأكيد. وعلى الرغم من أنه ليس صعباً على المسلمين المثقفين مناقشة هذه الادعاءات وكشف ضعفها، فإن كثيراً من الداخلين الجدد إلى الإسلام أو الذين يحتمل أن يعتنقوا الإسلام لن يقضي وقته، ويستنفد جهده، ويغرق في الدراسات المطلوبة للتحقق من كل ما سمعوه باسم الإسلام ؛ بل سيحدث عند غالبيتهم انطباع سلبي - وربما أكثر من سلبي - عن الإسلام ويرونه مضحكاً بجلاء. والواقع لا يستغرق إحياء الشكوك في الإسلام وتأكيدها وقتاً طويلاً ولا جهداً كثيراً، خصوصاً وأن التحيز ضد الإسلام والتحامل عليه منتشر وعميق الجذور في أمريكة.

لحسن الحظ أن الذين يروجون لمثل هذه المواقف من المسلمين في أمريكة ليسوا كثيرين، لأن معظمهم مواطنون ومقيمون دائمون ابتعدوا منذ زمن طويل عن الثقافات التي تولد مثل هذه الأفكار، ومن ثم فهم أقل قدرة على الانتماء إلى الدوافع الكامنة وراء هذه الأفكار. ومع ذلك، رغم وجود تسرب طبيعي من الدين بفضل ادعاءات لا مبرر لها باسم الإسلام فإن غالبية المؤسسات الإسلامية في أمريكة ما زالت تقيّد الصيام بممارسات مثيرة جداً للتساؤل، بحيث تنفر المسلمين المواطنين وغير المسلمين الساعين إلى الإيمان زرافات ووحداناً، وبالرغم من أنها بفرضها تنفرّ من الدين أولئك الذين يُحتمل أن يعتنقوا الإسلام، فإنها تظل خطيئة كبرى من وجهة نظر القرآن، ولكن الحقيقة هي أنها تشكل ابتعاداً جماعياً عن الجالية.

ولنأخذ مثلاً آخر، هو ممارسة عزل النساء التي ما زالت تفرض في كثير من مجتمعات المسلمين في البلاد كلها، ليس في القرآن أو الحديث أي إعلان عام

يأمر المجتمع بتطبيق هذا العزل، وفي الوقت نفسه هناك دليل كبير على أن هذا العزل لم يكن يمارس في أي مرحلة من مراحل البعثة النبوية، أو في عهد الصحابة. وعلى الرغم من وجود تعليلات منطقية وعقلية لهذا الفصل بين الجنسين فإن الواقع يشير إلى عدم وجود أي دليل صريح على أن النبي فرض هذه الممارسة على الصحابة، بل هناك أدلة ملموسة كثيرة على عكس ذلك. ولغياب مثل هذا الدليل أو البرهان فالصحيح أنه لا يمكن اعتبار عادة فصل الجنسين جوهرية في الإسلام وضرورة له. فإذا ما كان هذا هو الصحيح يكون هذا الحاجز الأكبر أمام مشاركة الناشئين في الوطن بأعمال الجالية الإسلامية، وهذا الرادع الأساسي للساعين إلى الإسلام عن دخوله، قد فرض من غير ضرورة لفرضه. وفي غضون ذلك تفقد الجالية مئات الآلاف، ويخسر الدين أعداداً كبيرة من الناس.

إن فرض تقاليد غير ضرورية على ثقافة المسجد في أمريكة يثبّط أعداداً كبيرة من المسلمين المواطنين عن الانخراط في الجالية، ويقود الكثيرين منهم إلى فقدان الثقة بالدين، كما يؤدي إلى الانقسام بين المرتبطين بالمسجد، إذ كلما تنازعوا حول ما هو جوهري للإسلام ازدادوا اقتراباً من الطائفية والتنازع الطائفي. ففي بعض المدن ترفض المساجد المجاورة التعامل فيما بينها بسبب الاختلاف على قضايا سطحية. إذ يمكن أن تسفر الاختلافات المشروعة في الرأي أو التفسير حرماناً وملاعنة فيما بينهم. أعرف كثيرين من المسلمين الأمريكيين الذين أسقطوا جمعية (ISNA) من حسابهم بسبب الأسلوب الذي يتبعه أعضاء الجمعية لتوطيد حلول شهر رمضان. وعندما كنت مقيماً في كاليفورنيا سمعت بمسجد في وسط الغرب (Midwest) يُلقَّب «بمسجد الكافر». فما الخروقات التي ارتكبها هذا المسجد، والتي استدعت هذا الشجب القوي؟ وقفت النسوة في أثناء صلاة الجماعة في الجانب الأيسر، والرجال في الجانب الأيمن من قاعة الصلاة الرئيسة، تفصل بينهما ستارة في ارتفاع ثلاثة أقدام تتدلى من منتصف الغرفة؛ وبعض المعلمات في مدرسة الأحد الإسلامية لا يرتدين غطاء على رؤوسهن، وكانت الأسر تجلس معاً ذكوراً مع إناث في لقاءات

الجالية ؛ وشغلت النسوة مواقع في مجلس المركز، وكنَّ من بين هيئة العاملين مع الإمام. وكانت الاختلافات بشأن منظورات تافهة أو شرعية تقود عبر التاريخ إلى الانقسام والحرب الأهلية، سببها في غالب الأحيان تشدد أحد الفريقين أو كلا الفريقين كل بموقفه وجعله هو الموقف المثالي. وإني أرى الانقسام الطائفي على وشك الحدوث بين المسلمين في أمريكة لأسباب مماثلة.

لا يمكن المبالغة في الحاجة إلى إعادة تقويم ما هو جوهري للإسلام تقويماً نقدياً. فإن قسوة تحذيرات القرآن في هذا الشأن، ووجود أحاديث نبوية عديدة تحرم ذلك[1] وانفكاك المسلمين المولودين في أمريكة بصورة جماعية عن الجالية بسبب الالتباس الحاصل بين الدين والثقافة، والانقسام الموروث المتأصل في نسبة المرجعية الإلهية إلى أحكام وتفسيرات ليس لها دعم واضح في مصادر النصوص؛ كل هذا يجب أن يجعل من إعادة تقويم تقاليد الجالية وعاداتها في قمة أولويات المسلمين الأمريكيين الساعين إلى تحقيق وحدة فعالة ذات قاعدة عريضة. وغني عن القول أن إعادة التقويم هذه تتطلب علماء أكاديميين نشؤوا في أمريكة وتدربوا على هذا النمط من البحث. كما يحتاج بيئة فكرية تشجع الحوار وتعزز حرية الكلام، ولا تأنف من الجدال الذي يغني الوحدة بحدّ ذاته، لأن الناس يميلون إلى البقاء جزءاً من جمعية تستمع إلى آرائهم، تماماً كما ينزعون إلى تجنب المنظمة التي تحجر على آرائهم. ومرَّة أخرى لا يلتقي التباين والإجماع عادة.

إذ إن الاحتوائية الأوسع نطاقاً تتضمن تبايناً أكثر في الآراء، ربما يولد مزيداً من الاختلافات التي ربما تزيد التشرذم. ولهذا السبب ينبغي أن تشجع المساجد في أمريكة ممارسة الديمقراطية. ففي النظام الديمقراطي يوافق المشاركون على اتخاذ القرارات بالأكثرية لقاء تمكنهم من المشاركة بحرية وعلى قدم المساواة في عملية صنع القرار. أي إن المشاركين يقبلون بالأكثرية لأنّهم منحوا حقوقاً كاملة لعرض رؤيتهم.

---

(١) وفي ذهني الآن الحديث الذي يشجب البدع في الإسلام . انظر، رياض الصالحين للإمام النووي، الأحاديث (١٥٨، ١٧٠، ١٧١).

على أي حال، ليس بالضرورة أن يطرح كل خلاف في الرأي على التصويت لأن طغيان الأكثرية يمكن أن يؤدي إلى الانقسام كذلك. فإذا ما وجدت الأقلية أن عليها الاستسلام لسياسات لا توافق عليها بسبب موافقة الأكثرية، فإنها تصاب بالإحباط، ومن ثم ينفصلون وحدهم. ولهذا السبب ينبغي أن يكون الدافع الأول للمجتمع في أمور يكون خلاف الرأي فيها شديداً هو التوجه إلى التوافق والتسامح، والتفاهم، والتكيُّف. وبالعودة ثانية إلى مسألة فصل النساء عن الرجال، فإذا كان البعض في المسجد لا يرغبون بالجلوس مع الجنس الآخر، وكان هناك من يرغبون في الجلوس في تجمع يضم العائلة، فإنه يمكن توفير الرغبات كلها، بحيث يخصص مكان للرجال فقط وآخر للنساء فقط، ويخصص مكان للأسر مجتمعة.

من المهم أيضاً لأولئك الذين خاب أملهم في المسجد أن يحافظوا على حضورهم وآرائهم، لأننا لا نتوقع أن تقبل الآراء البديلة إذا لم يشجعها أحد. أجرت جاليتنا في لورنس مؤخراً استفتاءً على دستورها الجديد، بعد بحث كل مادة ومن ثم التصويت عليها. التقيت فيما بعدُ عدداً من الأشخاص الذين لم يشاركوا في التصويت، وشكوا من أحكام معينة في الدستور، معللين إحجامهم عن المسجد بالعقلية التي انعكست في مواد الدستور. فقلت لهم: إن المواد المزعجة التي ذكروها نوقشت بحرارة، وأقرت في حالتين بأكثرية صوت واحد، وفي بقية الحالات بأكثرية أقل من أربعة أصوات. ومما شهدته، كان سبب هيمنة رؤى الأقلية عموماً على المسجد هو عدم اكتراث البقية بالأمر. لقد تبين أن قوة المجتمع في تنوعه، كما أظهرت التجربة الأمريكية مراراً وتكراراً، ومع ذلك فقد كافح الكثيرون من أجل الاحتواء في النظام.

وأخيراً، يجب ألا ننسى أن الأخوة هي أساس النظام الاجتماعي في الإسلام، فعندما يقول القرآن ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٣]

توحي الصورة بأن هذا الاعتصام يحتاج إلى عزيمة قوية وجهد كبير. فعلاقة الأخوة بالعواطف المتبادلة أقل من صلتها برفض التبرؤ من الذين نختلف معهم. وقد جاء في الحديث المشهور: عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ السلام»[١].

فميل المسلم للابتعاد عن أخيه بسبب خلاف في الرأي في قضايا ليست بذات أهمية، أو بسبب هفوات في مراعاة الشعائر يخالف مبدأ الحديث هذا، ويساعد على إضعاف المجتمع الذي يعاني من توتر شديد. لا مفر من ظهور مثل هذا التباين والاختلاف في شعب كثير التنوع، وهو يناضل للتكيُّف مع بيئة غير مألوفة، ولكن ينبغي ألا يسمح لهذا التباين بإعاقة التعاون المتبادل والدعم المشترك في قضايا كثيرة تعد جوهرية وحاسمة للمسلمين كلهم في أمريكة.

الإيمان، والعقل، والمستقبل

لم تكن نغمة هذا الفصل ولا نغمة غالبية هذا الكتاب متفائلة، لأن خسارة الجالية المسلمة لأعداد كبيرة من المسلمين المولودين في أمريكة لا يمكن أن تكون سبباً للاحتفال. إنني لا أتحدث هنا عن أزمة وشيكة، بل عن أزمة موجودة وتزداد؛ إذ أصبح عدد كبير من مسلمي أمريكة متقاعدين، وأبناؤهم الذين هم اليوم في متوسط أعمارهم، نادراً ما يشاهَدون في مساجد الأمة أو في المواقع الإسلامية الأخرى. والأمر نفسه ينطبق على الذين اعتنقوا الإسلام في النصف الأخير من القرن العشرين الذين لا يمثلون إلا قليلاً في مناسبات الجالية ووقائعها، كما أن الحضور الضئيل للأعضاء الأصغر سناً من هاتين المجموعتين يدل على أن الجهود التي بذلت حتى الآن لمخاطبة المشكلة إما كانت غير فعالة أو ضيقة المجال جداً. في المجتمعات ذات الأكثرية السائدة من المسلمين، نادراً ما يؤدي تجنب المؤسسات الدينية إلى ترك الإسلام بأكمله، ما دام

(١) البخاري، ومسلم، وأبو داود.

بالإمكان تشرب الإيمان من الثقافة المحيطة، أما في أمريكة، فذلك يؤدي إلى ترك الإسلام كلياً، حتى وإن ظل بعضهم من المنقطعين عن الجالية مسلمين اسمياً، فإن فرصة تعرف أبنائهم على الدين والتطابق معه ضئيلة جداً. إنني أدرك، بالطبع، أن الله يرفع الشعب المسلم عندما يشاء، ومن دون دعم المؤمنين الآخرين كما أظهرت تجربة المسلمين الأمريكيين الأفارقة ؛ ولكن هذا لا يعفي المؤمنين من الالتزام بعمل ما، يستطيعون به الوصول إلى المسلمين المواطنين المنفصلين عن الرسالة التي أعطاهم إياها الله، فقد أمرنا الله أن نقي أنفسنا وأهلينا ناراً وقودها الناس والحجارة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦٦/٦][١].

التقاليد والدين ممزوجان بصورة متداخلة في بلاد المسلمين حيث التقاليد والأعراف متجذرة راسخة، شاملة للجميع، مقدسة، مروّعة، بحيث لا يستطيع أحد إهمالها علناً إلا من هم أكثر استهتاراً بها، لأن إهمالها يجلب العار على المرء وأسرته. حتى أولئك الذين يشكون بإيمانهم جدياً يقبلون التقاليد أمام الخاصة الموثوقين من أقرانهم، ويدعون القناعة بها أمام غيرهم. بيد أن أمريكة مجتمع غير تقليدي ؛ إنها بوتقة كبيرة تنصهر فيها التقاليد والأعراف الأجنبية إلى شراب مسكر اسمه (الحرية). إذ يمكن هنا أن تنبذ الأعراف والتقاليد سعياً إلى الحرية الفردية مع دعم من المجتمع، وبقدر ما يتعلق الأمر بالإسلام، فإن مجرد ذكره يثير الخوف والارتباك بين المواطنين. فالحرية في أمريكة تتضمن بوجه خاص الحرية الفكرية، والحق غير القابل للتغيير في الشك؛ والإسلام يدقق علناً، ويُدعى للتساؤل الآن في أمريكة كل يوم بطرق لا حصر لها. حتى ولو بفعل عملية التناصح والتبادل فإن المسلمين الذين ينشؤون هنا يكتسبون موقف التساؤل تجاه دينهم. ومن المؤكد أن التراث والتقاليد والأعراف لن تبقي الكثيرين من المسلمين غير المهاجرين ضمن جماعة المسلمين. ربما يكون حب

---

(١) تمثل الحجارة الأصنام التي كان يعبدها المشركون في الجزيرة العربية في ذلك الزمن، وبالمعنى الأوسع يمكن أن تعني المعبودات المزيفة كلها.

الأسرة رابطة قوية كافية لدى البعض، ولكن في ثقافة شباب أمريكة يرغب الجميع أن يضعوا هذه المسألة تحت الاختبار في صراعهم من أجل الاستقلال الذاتي.

الإيمان هو إيمان القلب والعقل، ولكن العقل هو الباب الذي يخرج منه الإيمان. فإذا كان المسلمون الذين نشؤوا في أمريكة يتسربون من الدين، فإن ذلك يعزى إلى المشكلة الفكرية، إلى الصراع بين العقل والإيمان. فلو كان الأمر يتعلق بدين آخر أو بلد آخر لظننت أن التوجهات القوية إلى التقاليد أو الروحانية أو العواطف ربما توازن الشكوك وتعوضها بفعالية. ويبدو أن هذا هو أسلوب الحركة الإنجيلية البروتستانتية المسيحية الناجحة، ويبدو كذلك أن بعض المسلمين الشباب في أمريكة يلتفتون إلى الصوفية بحثاً عن الدعم الباطني. هناك أسباب عديدة يتذرع بها المسلمون المولودون في أمريكة، منها أسباب دنيوية، وروحية، وعقلية، وأخلاقية، كي يطرحوا الدين للتساؤل، ثقوب كثيرة في الجدار، أمور إسلامية كثيرة لا تبدو صحيحة، وكي يدرسوا - ولو عن بعد - مثل هذه المقاربة، حتى وإن جازفوا، فإن المجازفين قلائل. والواقع البائس هو أن غالبية المتحررين من الوهم من الجيل الثاني ومعتنقي الإسلام قد تخلوا عن المسجد مكاناً يلجؤون إليه بحثاً عن إجابات في مشاكلهم الدينية أو غير الدينية، إذ لم يعد المسجد مصدراً لهم. وليست العروض غير الإسلامية هي التي تسمم مواقف بعضهم تجاه المسجد، بل هم عاجزون عن الانتماء لثقافة المسجد التي تبدو في نظرهم غريبة، وخارجة عن زمانها، وغير معقولة. فإذا كان أمل لدى ثقافة المسجد الأمريكية في أن تصل إلى الأبناء ومعتنقي الإسلام المغرَّبين، أو على الأقل، إن كان هناك أمل في إعاقة هروب أقرانهم الأصغر، فلابد من إعادة تقويم وفحص نقديين متقنين للفكر والممارسات الإسلامية التقليدية، ليس فقط من أجل تمييز ما هو جوهري حقاً في الدين فحسب، بل أيضاً لتحسين فهم الأحكام والتفاسير وآراء العلماء الأقدمين وإيصالها إلى الناس والتي ربما لا تكون جوهرية فقط بل شرعية أيضاً وملائمة لعصرنا. فالغاية ليست تصفية ما هو جوهري تماماً، ونبذ الباقي كلياً، بل البناء على الجهود الماضية. وكلما كان فهم المسلمين لعملية التفكير التي كان يتبعها العلماء والقدماء، وللمؤتمرات التي

أحدثوها، وللدوافع الكامنة وراء أعمالهم كانت مقدرتهم على معرفة الحجم الموجود الذي يتسع للتفسير والتكييف.

من ذا الذي سيقوم، في واقع الأمر، بنقد الفكر الإسلامي التقليدي نقداً معمقاً، وهل هناك أي فرصة لتأخذ المؤسسة الدينية هذه المسألة بعين الاعتبار؟ سأبدأ بالهم الثاني الذي يتطلب استطراداً في الآراء الإسلامية السائدة بشأن استخدام العقل في الإسلام.

كثير من الفلاسفة المسلمين القدماء كانوا يعتقدون أن الإيمان يأتي عن طريق العقل وحده. على الرغم من أن العقل لعب دوراً جوهرياً في اعتناقي الإسلام، لكنني لا أنتمي إلى هذا الرأي. إن ترتيب الله الترتيب الهائل لتطوراتنا الروحية أعقد من أن نتمكن من تشريح العناصر المكوّنة، بحيث نستطيع أن نميّز أي العناصر هي التي كانت تعمل في لحظة معينة: الحدس أم الإيحاء الإلهي، أم العقل، أم العاطفة، أم الضمير، ومع ذلك، لا شك في أن العقل كان أساساً لتقدمي نحو الإسلام. وعلى الرغم من أنني كنت لا أدري إلى أين كنت متجهاً، فإنني أعتقد أني كنت أعتمد باستمرار على العقل كمُشعرٍ يوجهني بعيداً عن الأزقة المسدودة والحفر المغطاة. كان تحولي عن ديني الأصلي إلى الوثنية أمراً جوهرياً. إذ توصلت، بدافع من الرعب والوحشية اللذين شهدتهما حولي، إلى أسئلة، هي نفسها قادت كثيرين غيري إلى الكفر : لماذا يخلق الله الكامل عالماً غير كامل ؟ ولماذا يخلق مخلوقاً مجرماً وعنيفاً كالإنسان ؟ لماذا لم يجعلنا ملائكة في السماء ؟ ولماذا يخضعنا للإغراء والامتحان ؟ ولماذا خلقنا كي نعاني ؟

وكان العقل أيضاً في طليعة السنوات العشر التالية من استقصاء الأديان الأخرى. كما أن الذي جعلني أفتح القرآن أول مرة هو الفضول الفكري، وعندما قرأت في أوائل القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠]. وقعت في الصنارة عقلياً وعاطفياً. فالسؤال الذي كنت أطرحه طوال حياتي أراه أمامي، ولا مفر لي منه. وتحولت

قراءتي للقرآن إلى أكثر من مجرد قراءة أكاديمية، بل كان العقل أساساً في تجربتي هذه. بينما كان القرآن يفكك عناصر مناقشتي ضد وجود القرآن ويلتقطها بالتدريج، كانت الحواجز الكبرى التي أقمتها بيني وبين الله قد أخذت بالانهيار بحيث أصبحت مكشوفاً أكثر ومنفتحاً على احتمال وجود الله. وكلما طرحت وثنيتي للتساؤل أكثر ازددتُ خبرة بوجود رحمة مهيمنة تخترق ما تبقى لدي من مقاومة وتغمرها، وتعيد إحياء نفسٍ ظننت أني نبذتها منذ سنين خلت. وأخيراً صرخت، وأمسكت بالعقيدة اللامحدودة بإحكام، وتركت الحب ينساب في نفسي أول مرّة منذ زمن لا أكاد أذكره.

وهكذا، صحيح أن الذي قادني إلى التسليم ليس العقل وحده، ولكنه كان في صميم العملية. وبهذه الطريقة أرى العلاقة بين الإيمان والعقل. أرى أن العقل منسجم مع الإيمان وفي خدمته. العقل مقوِّم يساعد في البحث عن الحقيقة؛ وإن ما يساعدنا على تجنب الأخطاء وتصحيحها هو الموهبة التي منحنا الله إياها. أعلم أن هذا الرأي ليس هو الرأي السائد في الغرب، ولكني كنت متأكداً أنه يسود بين المسلمين.

افترضت، بفضل قراءتي للقرآن، أن المجتمع الذي سأدخله سوف يؤكد كثيراً على التحقيق في قضايا الإيمان عقلياً. لم يكن المسلمون الذين التقيتهم حتى ذلك الحين من النيّرين لدى بحث الإسلام، إذ إنهم ما زالوا صغاراً ومحدودي التعليم الديني. وكنت متأكداً أنني عندما ألتقي بمسلمين أكثر تعلماً وثقافة سوف يؤثرون فيَّ بمنطقهم وموضوعيتهم وأسلوبهم الفلسفي.

ربما ينظر معتنقو أي دين جديد إلى المجتمعات الجديدة التي يدخلونها نظرة مثالية، ولكن لم يمض وقت طويل حتى تبين لي أني كنت مخطئاً تماماً. ما من مسلم تحدثتُ معه منذ اعتناقي للإسلام في المسائل الدينية بصورة جادة - بغض النظر عن مستوى خبرته - إلا وأبدى خوفاً عميقاً من تحليل المفهومات الإيمانية عقلانياً[1].

---

(١) لا بد لي أن أذكر أني لم ألاحظ هذا التخوف بين المسلمين الشيعة الذين يشكلون ١٥٪ من مسلمي العالم . وعلى الرغم من أنني أنا شخصياً أجد العقيدة السنية أكثر =

ليس المسلمون فقط هم الذين يقاومون طرح الآراء الدينية الموطدة للتساؤل - وهذا دافع ديني عام، رغم أني ظننت بسذاجة غير ذلك - بل يبدون عدم ارتياح محدد مع امتعاض من التأملات العقلية في المقترحات الدينية ذات الصلة. فمجرد ذكر كلمات معينة لها صلة بالنظام العقلي مثل (فلسفة)، أو (عقيدة)، أو (منطق)، أو حتى (عقل) في أثناء مناقشة دينية، يمكن أن تثير قلقاً. وسمعت في كثير من المناسبات أن آراء بعض المفكرين المسلمين المختلفين منبوذة بدعوى أن أصحابها (فلاسفة) أو (مفكرون) وكأن هذه الكلمات ازدرائية ومهينة. وحذرني أحد المسلمين الأتقياء، مؤخراً، فقال: «يا أخي، إنك تقرأ كتب فلسفة، أليس كذلك ؛ عليك أن تبتعد عنها حقاً».

منذ دخولي الأول إلى المجتمع وجدت أقراني في الدين حذرين جداً من الديالكتيك (الجدل) حتى وإن كان دفاعاً عن الدين. أتذكر المرة الأولى التي حاولت فيها أن أقدم حديثاً من ثلاثة أجزاء في المسجد حول الاعتراضات التي كنت أطرحها عن مفهوم الله والإجابات التي اكتشفتها بفضل قراءتي للقرآن، فقام عدد كبير من الحضور برفع أيديهم بعد أن طرحت اعتراضاتي على وجود الله، وطالبوا بعدم السماح لي بالاستمرار، لأن مجرد التفكير في مثل هذه الأمور حرام في نظرهم. وكثير من المسلمين الشباب الذين كتبوا لي حول شكوكهم اعتذروا عن هذه الشكوك وقالوا : إن وضعها في المقام الأول هو الحرام.

أجريت نقاشاً طويلاً بعد بضع سنين من اعتناقي الإسلام مع أحد الزعماء المحليين حول معاملة النساء في جاليتنا. وعندما بدا له أني أفضل منه في الحوار صاح فيَّ قائلاً : «ليس هناك تعليل منطقي عقلي في الإسلام ! علينا البحث عن ذلك في التفسير». وكأن ذلك التفسير الذي انتهى دون دعم قضية كان الكلمة النهائية في الموضوع.

إن الإصرار على طرح قواعد المجتمع للتساؤل يثير الذعر باستمرار. ولقد

= عقلانية من العقيدة الشيعية (في معظم الأمور التي يختلفون فيها)، فإن المسلمين الشيعة الذين التقيتهم لا يبدون عدم ثقة بالعقل كالمسلمين السنة. ربما تعود هذه المواقف المختلفة إلى الانشقاق الفكري الذي حل بالإسلام السني وهذا سنبحثه فيما بعد.

عبر على شكل بليغ أحد الجراحين من الشرق الأوسط عما يشعر به آخرون كثر، قائلاً : «يا أخي، حسن أن قادك العقل إلى الإسلام، أما وقد صرت مسلماً فعليك اتباع ما يقوله العلماء». فأجبته لو كنت سأفعل ذلك لكنت استبدلت شكلاً من أشكال الجهل بشكل آخر، ناهيك عن أني لو تبينت هذا الموقف من قبل لبقيت مسيحياً من الروم الكاثوليك.

هاتان الحادثتان تمثلان الموقف السائد من استخدام العقل لدى الاقتراب من قضايا الإيمان. يجري المسلمون نقاشات عقلية لمواقف موطدة والواقع أنهم يتفوقون في ذلك. فهم يقتبسون شواهد من القرآن وأدب الحديث وآراء العلماء ومقالات البحث المعاصرة في مختلف العلوم والأنظمة المعرفية، والإحصاء، وأي دليل آخر يشعرون أنه يدعم موقفهم، ويجادلون مستخدمين أساليب الاستقراء والاستنتاج والقياس، والقياس المنطقي وغير ذلك ليبرهنوا على وجهة نظرهم. ولا يغدو أسلوب المناقشة العقلاني غير شرعي إلا إذا ألقى ظلالاً من الشك على فكرة موطدة. فإذا ما بدا أن دليلك وحوارك سيضعف ما هو مألوف عندئذ تكون قد غاليت في استخدام العقل، فضلاً عن أن طرفي النقاش يستخدمان أساليب الحوار نفسها لكنهما يتنكران لها باستمرار : إذ إن الذين يدافعون عن المعتقدات السائدة يصرون غالباً على أنهم متمسكون بالقرآن والسنة وأن معارضتهم تعد إثماً من آثام المنطقية العقلانية.

كثيراً ما ألقيت محاضرات عن الأهمية التي يوليها القرآن لاستخدام العقل في السعي إلى الإيمان دون أن أخفق أبداً، ومع ذلك كان الحاضرون من المسلمين يطرحون سؤالاً حول أن يمكن أن نرسم خطاً في استخدامنا العقل. في الأيام الأولى لم أكن أعرف أي خط يتحدثون عنه، لذلك أجبت بأنه ليس هناك خط سوى الخط الفاصل بين التعليل العقلي السليم والتعليل العقلي السقيم. ويأتي الجواب النموذجي عادة على النحو التالي: «حسناً!! ماذا لو لم نفهم شيئاً في القرآن مثل، لماذا يجب أن نصلي أو نصوم أو نتجنب الخمر ولحم الخنزير؟» فيكون جوابي المعتاد هو أنه يمكن أن نجد حكمة في ذلك كله، ولكن لا يعني عدم فهم المرء لشيء ما أن هذا الشيء غير صحيح. فكثير من

الناس لا يفهمون حساب التكامل والتفاضل، ولكن ذلك لا يضعف هذا الميدان من الرياضيات. فإذا كان المرء سيكفر بشيء ما لمجرد أنه لا يفهمه فهذا يعني أنه يحاكم الأمور خطأ وبطريقة سيئة. ومن جهة أخرى إذا قام دليل قوي ضد ممارسة إسلامية تقليدية أو معتقد إسلامي مألوف، عندئذ يكون طرحها للتساؤل ممارسة جيدة للعقل. ومع ذلك، فهنا يرسم الكثيرون من المسلمين (خطأ) بين العقل والإيمان : العقل مقبول ما دام أنه لا يتحدى عُرفاً.

فمن أين جاء الشك بالفكر المنطقي العقلاني الذي ساد في مجتمع إيمانيّ يشدد كتابه على استخدام العقل ؟ إن المكان المحتمل للبحث فيه عن جذور مثل هذا القلق الجماعي، الذي لا أساس له في القرآن، هو الصراعات السياسية الدينية التي نشأت في الفترة التوليدية للفكر الإسلامي[(١)]. من بين الفرق العديدة التي وجدت في القرون الهجرية الأولى فئتان قويتان، تتبنيان مواقف متباينة، هما : «أهل الحديث» الذين عرفوا فيما بعد بـ «أهل الحديث والسنة» أو «أهل السنة والإجماع»[(٢)]. أما الفئة الأخرى فهي «أهل الكلام» وهم طلائع المعتزلة. إن كلمة (كلام) بالعربية تعني في الأصل (الحديث) ولكنها هنا تحمل دلالة اصطلاحية مثل (الإيمان العقلاني أو الفلسفي أو التأملي). وهكذا فإن تصنيف هؤلاء بأنهم (أهل الكلام) يعني أولئك المنخرطين في هذه الدراسات.

كان الكثير من التأملات العقائدية للمتكلمين الأوائل يعود إلى السياسات

---

(١) دبليو مونتغمري واط : «الفترة التوليدية للفكر الإسلامي»، منشورات ونورلد (One world)، روكبورت، ١٩٩٨، ص ٢٧٩-٣١٨ ؛ مونتغمري، «الفلسفة واللاهوت الإسلاميان» مطبعة جامعة أدنبره، ١٩٦٢ ؛ ج. هـ. أ. جينبول، «دراسات حول المجتمع الإسلامي في القرن الأول»، مطبعة جامعة إلينوى الجنوبية، إدوار رزفيل، ١٩٨٢ ؛ أ. وولفس (Wolfson)، «فلسفة الكلام»، مطبعة هارفارد، كمبردج / ١٩٧٦؛ أ. ج. أربري «الوحي والعقل في الإسلام» جورج ألين وأونوين المحدودة، لندن، ١٩٥٧؛ أ. س. تريثون، «اللاهوت الإسلامي»، مطبعة هابريون، ويست بورت، ١٩٨١؛ فضل الرحمن «الإسلام»، مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٦٦.

(٢) يشار إليهم عادة بالمسلمين السنة، إن مصطلح (المجتمع) يعبر عن ذاته، ويمثل المسلمين الذين تعتبرهم هذه المجموعة أنهم لم ينحرفوا عن القرآن وتعاليم النبي.

العملية. فقد برزت في المقدمة أسئلة تتعلق بالإرادة الحرة والقضاء والقدر ردّاً على حجة الأمويين بأن حكمهم كان قضاء وقدراً إلهياً، مما نشأ عنه أسئلة إضافية أخرى مثل: «هل القرآن كلام الله، مخلوق، أم غير مخلوق؟» لقد أثار الخوارج الذين كانوا يؤكدون أنهم المسلمون الحقيقيون، أسئلة حول العقيدة الصحيحة، والعلاقة بين الإيمان والعمل، وحول إيمان المسلمين الذين يرتكبون الكبائر.

كما أثرت المناظرات الجدلية بين العقائد في الدين الإسلامي. إذ أخضعت الفتوحات الكبرى التي بدأت بعد وفاة النبي بوقت قصير مناطق شاسعة للحكم الإسلامي فكانت وطناً لمجتمعات إسلامية مختلفة ذات تقاليد علمية ومراكز تعليم. لم يكن لدى العرب ميل نحو إجبار الشعوب التي فتحت بلدانها على دخول الإسلام، فانتشر الإسلام ببطء، الأمر الذي أبقى المسلمين أقلية في المناطق المفتوحة. أدى احتكاك المسلمين بغيرهم إلى مناظرات جدلية حرضت على ظهور انعكاسات عقائدية مختلفة. وكانت هذه الحوارات بين الأديان تجري علناً في غالب الأحيان برئاسة مسؤولين كبار في الدولة بمن فيهم الخليفة نفسه.

اندمج أهل الكلام في القرن الثاني الهجري بمذهب آخر عرف باسم «المعتزلة» الذي أسسه واصل بن عطاء أحد تلامذة التابعي الشهير الحسن البصري[١]. كانت غايتهم الأساسية تقديم تعليل عقلاني منطقي للعقيدة الإسلامية عن طريق إيجاد تركيب بين النقطتين : الإيمان والعقل. كان العقل، على أي حال، يشمل العلوم المقبولة في ذلك الزمان.

وأشهرها علوم الإغريق التي ترجمت حينذاك إلى العربية بحثٍّ من الحكومة. فقاد ذلك المعتزلة إلى إدخال مفهومات غير قرآنية إلى عقيدتهم أخذ معظمها من العلوم والفلسفة الإغريقية[٢].

---

(١) دبليو، مونتغمري واط، «الفترة التوليدية للفكر الإسلامي» منشورات ونورلد، روكبورت، ١٩٩٨، ص ٢٠٩-٢١٧، يتحدى هذه النسبة المقبولة على نطاق واسع.

(٢) للمزيد من الاطلاع على تأثير الفلسفة اليونانية في المعتزلة والدين الإسلامي عموماً، انظر هـ. أ. وولفستون، «فلسفة الكلام»، مطبعة جامعة هارفادر، كمبردج، ١٩٧٦، ص ٦٤-٦٦، ٣٧٣-٣٧٦، ٤١٠-٤٣٣، ٤٦٦-٥١٧.

من الصعب معرفة مدى تأثر علم الكلام «بالسياسات الداخلية في فجر الإسلام، أو بالحوار بين الأديان، أو بالفكر الهيليني، أو بالمبادئ الفردية». إن قول أهل الكلام بأن الله، العادل، لا يمكن أن يحاسب البشر على أعمال لا سيطرة لهم عليها، الأمر الذي يستبعد القضاء والقدر، ويمكن استخدامه كذلك ضد المفهوم المسيحي المتعلق بالخطيئة الأصلية في الحوارات بين الأديان. وبالمثل، فإن إصرارهم على أن القرآن مخلوق، ليس ناشئاً فقط عن موقفهم من إرادة البشر الحرة، بل برز بوصفه ذا شأن وأهمية في الحوار مع المسيحيين حول المسيح بوصفه كلمة الله. فإذا كان القرآن هو كلمة الله الخالدة أُنزلت بهيئة كتاب، يمكن أن يقول المسيحيون إذن: لماذا لا يكون عيسى كلمة الله الخالدة التي أنزلت بهيئة إنسان حقيقي؟

ولتعزيز وحدة الله نفى المعتزلة أن تكون أسماء الله الحسنى كيانات مستقلة، بل جعلوها مساوية لجوهر الله. إذ شعروا أن وجود صفات إلهية خالدة متمايزة يعني قبول التعددية في الألوهية. فعندما نقول: «الله الحي، العليم، القوي، الخالد» إنما نؤكد، من وجهة نظر المعتزلة، جوهر الله. ومن ثم فإن موقفهم من الأسماء الحسنى يتمثل في تقليص هذه الصفات إلى مجرد بدائل أو مرادفات للجوهر الإلهي. وهنا، مرَّة أخرى، يخشى أن تؤدي هذه العقيدة إلى الاختلاط مع عقيدة التثليث المسيحية أو ربما يؤدي القبول بأسماء الله الحسنى إلى قبول صفة الكلام، وفي النهاية القبول بأن القرآن ليس مخلوقاً[١].

تعد مواقف المعتزلة التي لخصناها أعلاه هرطقة في نظر أهل السنة والجماعة، ومع هذا افقد جاء زمن كان الفكر المعتزلي هو المذهب الرسمي للدولة الإسلامية. هنالك نقص في تعليل ظهور المعتزلة وسقوطها في الكتابات التاريخية، ولكنها توحي لنا ببعض الاحتمالات.

---

(١) دبليو، مونتغمري واط «الفترة التوليدية للفكر الإسلامي» منشورات ونورلد، روكبورت، ١٩٩٨، ص ٢٤٦.

كان أهل الكلام إبّان العهد الأموي من جماعات الحركات الفكرية المعارضة[(١)]، وكان رفضهم وتفنيدهم للقضاء والقدر سبباً في نسف ادعاء النظام الرئيسي بالشرعية، وفي تمهيد الطريق دينياً للثورة العباسية. وربما يكون انتماؤهم للعباسيين في أثناء الحكم الأموي، أو شكر العباسيين لهم على ما حققوه لمصلحتهم هو الذي أدى إلى صعودهم في العهد العباسي[(٢)]. لقد كان العباسيون في الحد الأدنى، متعاطفين مع عقيدتهم. وربما يكون الإعجاب بتفوقهم وبمهارتهم الجدلية التي كانوا يبدونها أمام البلاط في المناظرات الدينية، عاملاً من عوامل ارتقائهم. على أي حال بلغ المعتزلة ذروة نفوذهم السياسي عندما أعلن الخليفة المأمون عام ٨٢٧م = ٢١٣هـ، أن عقيدتهم هي دين الدولة، وأصدر عام ٨٣٣م = ٢١٩هـ، وهو العام الذي توفي فيه، أمراً، أنشأ بموجبه نوعاً من محاكم التفتيش عرفت بـ (المحنة)، واستمرت في عهد المعتصم والواثق حتى السنة الثانية من عهد المتوكل ٨٤٧م = ٢٣٣هـ. إذ طلب خلال هذه المحنة من الفقهاء والبارزين أن يعلنوا على الملأ موافقتهم على مقولة المعتزلة في «خلق القرآن» فسارع البعض إلى الموافقة، واستسلم آخرون تحت ضغط التهديد والتعذيب وبالموت؛ ورفض جماعة وهم قلة، من بينهم الإمام أحمد بن حنبل، فتعرضوا للسجن وعوملوا بقسوة.

يقول نصر حامد أبو زيد: إن المحنة ربما تكون مثالاً آخر من أمثلة وضع الدين في خدمة السياسة.

«هل كان الخليفة العباسي، المأمون، في تصميمه على فرض عقيدة خلق القرآن يصدر عن قناعة فكرية ؟ أم كان يسعى لتعزيز حكمه بإيجاد ذريعة يعاقب بموجبها الحنابلة الذين تمردوا على قادته العسكريين في بغداد من قبل؟ أصبحت

---

(١) دراسات حول المجتمع الإسلامي في القرن الأول، تحرير ج. هـ. أ. جينبول، مطبعة جامعة إيلينوا الجنوبية، ١٩٨٢، ص ١٢٣.

(٢) ومع ذلك لم يكن صعودهم السياسي منتظماً . إذ كان بعض المعتزلة ضد العباسيين، ووضع الخليفة هارون الرشيد علماء المعتزلة في السجن، ربما لأن هذا المذهب يصعد بسرعة فائقة . انظر تريتون «اللاهوت الإسلامي» مطبعة هابيريون، ويستبورت، ١٩٨١، ص ٦١.

بغداد في ذلك الوقت تحت سيطرة مجموعة من القادة العسكريين الفاسدين الذين يجمعون المال من الأغنياء خصوصاً، بحجة حمايتهم. وتبين سجلات المحاكم الشبيهة بمحاكم التفتيش، التي أقامها المأمون لفرض عقيدة المعتزلة على الناس أن المدَّعى عليهم كانوا هم أنفسهم العلماء الذين تمردوا على القادة العسكريين في بغداد»[١].

ولدى دراسة مدى المحنة وزمن بقائها يتبين للمأمون وخليفتيه المباشرين، أهداف أكبر من فرض عقيدة المعتزلة، إنهم كانوا يسعون إلى الحد من انتشار حركة أهل الحديث التي كانت تتعاظم عدداً ونفوذاً بين الناس.

ويمكن لسؤال الأستاذ أبو زيد المتعلق بفرض المأمون للمحنة أن يطرح كذلك بشأن إلغاء المتوكل لها: فهل كانت أسبابه دينية أكثر أو سياسية؟ إن واقعة استغراق المتوكل سنتين إلى أن ألغى المحنة توحي بأنه لم يكن منزعجاً من اضطهاد أهل الحديث وإعدامهم، ولا من عقيدة خلق القرآن. من الصعب كذلك أن تعزى خطوته هذه إلى دوافع تقوى، لما عرف عنه طوال حكمه بأنه «مدمن على الخمر، شَبِق، قاسي القلب لا يرحم، أي لا يمكن له أن يكون خليفة الله على الأرض»[٢].

هذا فضلاً عن أن وضع الخلافة لم يكن مستقراً بما فيه الكفاية فعندما أتى إلى السلطة قام بذلك ليتمكن من قلب السياسة رأساً على عقب بصورة درامية. كان الحكم يتصف بالبيروقراطية المتضخمة، والنفقات الحكومية المسرفة، ونقص العائدات. الأمر الذي أسفر عن اقتصاد مشوّه معطّل، كما نشبت ثورات كبرى في مركز الدولة وفي أطرافها في عهدي الواثق والمتوكل. وفي عهد الأخير قامت الحروب على أطراف الدولة في مصر العليا ومصر السفلى وأذربيجان وأرمينية وآسية الصغرى وخرجت عن السيطرة. وفي تلك الأثناء كان على الخلافة أن تواجه تهديداً داخلياً من العسكرية التركية.

---

(١) الأهرام الأسبوعي، ص ١٢-١٨، ٢٠٠٢م، العدد رقم ٦٠٣.

(٢) محمد بن جرير الطبري «تاريخ الرسل والملوك».

أنشأ المعتصم، والد المتوكل، مدينة سامراء وجعلها عاصمته الجديدة ليتجنب «الصدامات الدائمة والاحتكاكات بين الجنود الأتراك وأهل بغداد»[١]. لقد ساعدت استراتيجية عزل الجنود الأتراك في سامراء على تعزيز تضامنهم المتزايد وسلطتهم المتعاظمة التي حاول المتوكل بعد تسلمه السلطة أن يكسرها عن طريق عزل المسؤولين، ومصادرة الأملاك، وإعدام الوجهاء والأقوياء. وربما يكون هذا هو الدافع وراء محاولته غير الناجحة لإعادة إقامة عاصمته في دمشق. وأخيراً، أثبت الأتراك قوتهم وذبحوا المتوكل في فناء قصره بالتواطؤ مع ابنه.

هذا ويجب الأخذ بعين الاعتبار عدم الاستقرار والقلاقل في عهد المتوكل مع كل ما كان عليه أن يقارعه من مصادر عديدة، فإن من الحكمة البالغة أن يقوم المتوكل بحركة سياسية غير مكلفة، وهي قلب سياسة الحكومة رأساً على عقب، إذ أصبحت الحكومة وسياستها غير مرغوبة شعبياً، وعليها أن تصطف مع حركة لها جاذبية جماهيرية، وليس امتعاضها من العسكرية التركية بقليل[٢]. وإن كنا لا نستطيع التأكد من أن إقدام المتوكل على تغيير السياسة بحيث جعل مذهب أهل السنة عملياً هو دين الدولة، كان بدافع التقوى أو نتيجة حسابات سياسية، فإننا نعذر أنفسنا لو نزعنا إلى تبني الاحتمال الأخير. هناك أمر واحدٌ مؤكد، هو : أن إلغاء المتوكل للمحنة لم يكن نزوة، بل كان خطوة أولى من برنامج متعدد الوجوه مدروس بعناية؛ إذ شرع لدى إلغائها بإصدار سياسات مؤيدة للسنة، وأخذ يتابعها بروح عدائية لغيرهم. فبالإضافة إلى استبدال المعتزلة في المناصب وإحلال غيرهم محلهم، وحظر البحث في عقيدتهم، وسجن وتعذيب بعض زعمائهم، ومصادرة أملاكهم، فقد شن حملة عنيفة ضد الشيعة[٣]

(١) المصدر السابق.

(٢) لقد بلغ الاستياء من المحنة ذروته قبيل اعتلاء المتوكل العرش، عندما جعل خليفته وأخوه، الواثق، الاعتراف بالعقيدة المعتزلية شرطاً لفدية الأسرى المسلمين في أيدي البيزنطيين . المصدر نفسه.

(٣) من بين هذه الإجراءات هدم ضريح الحسين بن علي مع المساكن والقصور المحيطة به.
=

وأعاد فرض قوانين عنصرية ضد غير المسلمين، كان الدهر قد أكل عليها وشرب[(١)].

ومع أن حياة المتوكل انتهت بانقلاب فإن وقوف الخلافة مع أهل الحديث كان، على ما يبدو، حركة سليمة من الناحية السياسة. إذ اتبع الخلفاء اللاحقون السياسة ذاتها ولو بعدوانية أقل، وعلى الرغم من أن السنوات الواقعة بين مقتل المتوكل عام **٢٤٨هـ**. وتسلم المعتمد سدة الحكم في العام **٢٥٧هـ**. تعد تجديداً للصراع بين المعتزلة وأهل الحديث، فإن عهد المعتمد شهد استعادة ناجحة

= وأمر بحرث مكان القبر، وبذره بالحبوب وسقايته، وهدد بسجن كل من يزور المكان. ووفقاً لليعقوبي أمر المتوكل بجلب علي بن محمد بن علي رضا بن موسى بن جعفر الإمام الشيعي العاشر، من المدينة إلى بغداد ومن ثم إلى سامراء حيث أخضعه لإقامة جبرية في بيته. وكان سبب استدعائه، كما قال اليعقوبي، هو الدعم الشعبي الذي لقيه الإمام في المدينة لقضيته. المصدر نفسه.

(١) جاء في الطبري: أمر المُتوكِّل بأخذ النَصارى وأهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسليّة والزّنانير وركوب السروج بركب الخشب وبتصيير كُرتين على مؤخر السروج، وبتصيير زِرّين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون، وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالف لونهما لون الثوب الظاهر الذي عليه، وأنْ تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره، والأخرى منهما خلف ظهره، وتكون كل واحدة من الرَّقعتين قدر أربع أصابع، ولونهما عسلياً، ومَنْ لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لون العسلي، ومَنْ خرج من نسائهم فبرزت فلا تبرز إلّا في إزار عسلي، وأمر بأخذ مماليكهم بلبس الزّنانير وبمنعهم لبس المناطق، وأمر بهدم بيعهم المحدثة، وبأخذ العشر من منازلهم، وإنْ كان الموضع واسعاً صُيِّر مسجداً، وإنْ كان لا يصلح أنْ يكون مسجداً صُيِّر فضاء، وأمر أنْ يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة تفريقاً بين منازلهم وبين منازل المسلمين، ونهى أنْ يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي يجري أحكامهم فيها على المسلمين، ونهى أنْ يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين، ولا يعلِّمهم مسلم، ونهى أنْ يظهروا في شعانينهم صليباً، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض، لئلا تشبه قبور المسلمين.
وبعد أربع سنوات من فرض هذه الممنوعات، أمر ببعض المحظورات، كأن يركّبوا خرقاً صفراء بثيابهم الخارجية، وألا يمتطوا سوى البغال والحمير.

لسلطة الخلافة استمرت طوال عهد خليفتيه[١]. بعد ذلك أخذت الخلافة بالتدهور، ومع توطد مذهب السنة الآن ديناً للدولة، فإن بقية عناصر السكان قبلت بواقعة أن الدولة والمجتمع سنيّان جوهرياً[٢]. إن صعود أهل الحديث كان يعني حرمان المعتزلة وممارسة التمييز ضدهم حتى اختفوا تدريجياً[٣]. مما لا شك فيه أن الأمرين اللذين أصدرهما المأمون في جعل الاعتزال دين الدولة وإنشاء محاكم التفتيش (المحنة) قد سرَّعا في انهيار المعتزلة. إن الجماهير تنظر عادة إلى الحزب الدّيني الذي ينتمي إلى النظام على أنه فاسد، واضطهادي، ومنزلق في اضطهاد الحركة الشعبية المقاومة، ويجرد نفسه من المصداقية، ويؤكد موته وزواله بزوال المد السياسي للنظام.

معظم المسلمين في العصر الحديث لا يعرفون إلا القليل عن المعتزلة، لا يعرفون سوى أنهم كانوا هراطقة واختفوا منذ زمن بعيد؛ ولكن أصداء ذلك الصراع المرير من أجل الهيمنة الدينية ما زالت تتردد في المجتمع اليوم في كراهية التقصّي العقلي؛ كراهة واسعة الانتشار، خصوصاً عندما تتحدّى الفكر التقليدي أو الممارسات التقليدية. لقد طوى النسيان معظم النقاط التي جرى الجدال حولها، أو فقدت صلتها بالدين، لكن الشك بالعقل ما زال قائماً. ومع ذلك ألا يمكن القول: إن مَثلَ المعتزلة يشهد على المخاطر التي يشكلها العقل على الإيمان؟ ألم يجعلهم العقل ينكرون حقيقة أسماء الله الحسنى، أو يؤكدون أن علم الله محدود بالعموميات؟

---

(١) دبليو . مونتغمري واط «الفترة التوليدية للفكر الإسلامي» منشورات ونورلد، روكبورت، ١٩٩٨، ص ٢٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ٢٥٤.

(٣) كلام Kalaam، بصيغ دافعت عن الأصولية، استمرت في الإسلام السني . دبليو، مونتغمري واط «الفترة التوليدية للفكر الإسلامي»، منشورات، ونورلد، ١٩٩٨، ص ٢٧٩-٣١٨ . إريك، ل. أورمسبي «علم الحكمة الإلهية من وجود الشر في الإسلام» مطبعة جامعة برينستون، ١٩٨٤، ص ١٦٦-٢٠٤؛ «ابن تيمية يشرح الإسلام» جمع وترجمة محمد عبد الحق الأنصاري، جامعة الإمام محمد بن سعود، ٢٠٠٠.

بغض النظر عن كيفية رؤية العقائد المعتزلية، فإن القول بأن العقل هو الذي أنتجها ليس دقيقاً، لأن العقل إذا ما طبق بصورة صحيحة، يعد محدود المدى. يعتمد إنتاج العقل حقيقة أو زيفاً على المقدمات المفترضة وعلى صحة منطق المرء. فإن كانت فرضياتنا صحيحة، يمكن للمحاكمة العقلية أن تتيح حقائق أخرى. فمهما كانت أخطاء الفكر المعتزلي، فهي إما نتيجة لفرضيات زائفة أو مناقشات خاطئة، ناقشها النقاد السنيّون مثل الأشعري، والغزالي وابن تيمية وغيرهم. إن مقدرة هؤلاء العلماء على نقد عقيدة المعتزلة نقداً فعالاً يبين أن العقل ليس خطراً، بل الخطر يكمن في إخفاق استخدامه لإعادة تقويم علومنا وأنظمتنا الفكرية ؛ فلو قبلت الأمة المذهب المعتزلي كحقيقة وحرّمت نقده، لكان إيمان المسلمين اليوم مبنياً على زيف، في انتظار الكشف عنه. وبعبارة أخرى، ربما كانت المشكلة هي أن رُسِمَ (خط) بين الإيمان والعقل، وأن حُرّم نقد العُرف على أساس أن النقد ربما يكون مبالغاً فيه.

إن الحكم النهائي للقرآن بشأن ما إذا كان العقل مضراً بالإيمان أم لا ، وكما رأينا في الفصل الأول لم يبد القرآن أي تحفظ على استخدام العقل. والواقع أنه يذكرّ مراراً وتكراراً بأن الدين يفسد والناس يضلون بسبب عجزهم عن استخدام عقولهم، أو لأنهم استخدموا عقولهم بطريقة غير صحيحة - أي لأن منطقهم كان مغلوطاً ومناقشاتهم كانت معابة متصدعة[(١)] . . . .

---

(١) انظر الآيات ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٤]، ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٧٣]، ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٧٦]، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٢]؛ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٥]؛ ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٨]؛ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٢]، ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟

=

. . . .

= أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥١]؛ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٩]؛ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٢]؛ ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ١٦]؛ ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ١١/ ٥١]؛ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٢]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٩]؛ ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٦٧]؛ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٨٠]؛ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٢٤/ ٦١]؛ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٦٠]؛ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٣]؛ ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٣٦/ ٦٢]، ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٣٦/ ٦٨]؛ ﴿وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٣٨]؛ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٣]؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٧]؛ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣]؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ٤]؛ ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٧]؛ ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ

=

المحاكمة العقلية في القرآن تكشف الزيف وتضيء الحقيقة، في حين يرفض الناس الإيمان لأنهم يفضلون اتباع الظن على استخدام العقل والتفكير(١)، واتباع الهوى والرغبات(٢) ....

= جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ٥٩/ ١٤].

(١) انظر الآيات ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ٤/ ١٥٧]؛ ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١١٦]، ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٨]؛ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٣٦]، ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٦٦]؛ ﴿وَقَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٠]؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٣٢]؛ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٣/ ٢٣]، ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٥٣/ ٢٨].

(٢) انظر الآيات ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١١١]، ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٥]؛ ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٤/ ١١٩]؛ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٥/ ٧٧]؛ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١١٩]؛ =

أو اتباع التقاليد (أي ما ألفوا عليهم آباءهم)(١). ليس ضرورياً أن أكرر ما كتبته

= ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٧]؛ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٥٩]؛ ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٠]؛ ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٩]؛ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ٤٧/ ١٤]، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٦]؛ ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٥٤/ ٣]؛ ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٤].

(١) انظر الآيات ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٠]؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ١٠٤]؛ ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٨]؛ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢٨]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٠]، ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٣]؛ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٧٨]؛ ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١/ ٦٢]، ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ١١/ ٨٧]، ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١١/ ١٠٩]؛ ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١٠]؛ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ

=

بهذا الشأن في الفصل الأول، بيد أني أود القول: إن الحقيقة المتمثلة في أن القرآن بدأ قصة الإنسان بطرح أهم سؤال عقائدي في تاريخ البشرية، أي في صميم أزمة الإيمان الحديثة الكبرى وأزمة العقل الصغرى، تبين أن القرآن لا ينكر مقاربة قضايا الإيمان عقلياً، ناهيك عن أول جانب من جوانب الطبيعة البشرية يظهرها القرآن ردّاً على ما يبدو متناقضاً هو العقل(١).

المسلمون اليوم مصعوقون بسبب حالة الأمة، ومتأكدون من إخفاقهم في الالتزام بجانب مركزي من جوانب الوحي، ومن ثم يعللون ضعفهم وتخلفهم عن بقية العالم. كيف وقع شعب قاد العالم ذات يوم في ميادين العلم والتكنولوجيا والقوة العسكرية، وكان أميناً على الوحي الإلهي الأخير، في مثل هذه الحالة المذلّة ؟ من التعليلات النموذجية هي أن كثيراً من المسلمين مهملون لواجباتهم الدينية وشعائرهم، أو أنهم لم ينجحوا في تطبيق الشريعة الإسلامية،

= ﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٥٣]؛ ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى النُّهَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٥٣-٥٤]؛ ﴿فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٢٤]؛ ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٧٤]؛ ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٣٦]؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢١]؛ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٤٣]؛ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٦٩-٧٠]؛ ﴿بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٢-٢٤].

(١) لابد من الاعتراف بأن التركيز والتأكيد على أهمية العقل في الوصول إلى الإيمان، قليل في أدب الحديث، وهناك خيط مناهض للعقل فيه، هو انعكاس للصراع بين المعتزلة وأهل الحديث.

أو أنهم ضالون عن جادة السنة النبوية، أو أنهم محكومون من دكتاتوريين طغاة. أنا لا أستبعد هذه الاحتمالات، ولكني أعتقد أن صميم المشكلة هو رفض إعادة تقويم التراث الهائل من العلم والعادات التي وصلت إلينا من أسلافنا، تقويماً نقدياً. أشعر أن المسلمين قد شلّوا أنفسهم فكرياً بجعل الكم الهائل من الفكر الذي ورثوه نوعاً من المعلبات الفكرية (المحفوظات الفكرية)، حَرماً مقدساً حُجبت فيه الحقائق المزعجة ولا يجوز الاقتراب منه، وأشعر أن الأزمة الكبرى التي تحل بالمسلمين اليوم هي أزمة فكر، أزمة رفض التفكير النقدي فيما يطلبه الإسلام حقاً. إن رفض العقل بسبب التقاليد والأعراف، المخالفة في واقع الأمر للقرآن قد أوهن الأمة وجمدها، وأدى في أمريكة إلى جعل المسلمين المولودين فيها يستبعدون المؤسسات الإسلامية في البلاد لكونها بعيدة عن واقعهم. حثثت في كتابي الثاني[١] مهاجرين مسلمين ومعتنقين جدداً للإسلام أن يعيدوا تقويم الفكر الإسلامي التقليدي والممارسات الإسلامية التقليدية تقويماً نقدياً؛ ولكني كتبت ذلك قبل عشر سنين، وتأكدت الآن، كما ظننت، أن ذلك كان أملاً بعيد المنال. أصبح اليوم من كانوا أطفالاً على أبواب التعقّل أو بلغوا فعلاً سن الرشد، ومعظمهم ينفرون من المسجد ؛ إن الأمر لا يحتاج إلى حشد كبير من الأفراد الذين ينصرفون لتغيير مسار التاريخ، فهناك الآن مجموعة صغيرة ولكنها بارزة من النشطاء المسلمين الأمريكيين الشباب المدركين تماماً للمشاكل التي تواجهها هذه الأمة، ويسعون بحماس لإيجاد حلول لها.

توضيحات للصراع

تعدُّ الأسئلة والتعليقات التالية التي تلقيتها مؤشراً على الحاجات والتعقيدات الموجودة في الجالية المسلمة الأمريكية. أطرحها على الملأ مناشداً المسلمين كافة أن يجتمعوا على مساعدة بعضهم بعضاً وطمأنة بعضهم بعضاً، خصوصاً أولئك الذين يناضلون للحصول على إجابات وحلول لهموم شخصية واقعية.

(١) (حتى الملائكة تسأل)، منشورات أمانا، بيلتسفيل، ١٩٩٧ . ودار الفكر، دمشق، ٢٠٠٥.

▪ السؤال الأول (من أمريكية اعتنقت الإسلام؛ تتعلق رسالتها بالحجاب)

اعتنقت الإسلام منذ بضع سنين؛ والواقع أني أجاهد نفسي بسبب الحجاب. إنني أؤمن به، وأرى أن ارتداءه يحرر المرأة المسلمة، ويقوي إيمانها. وأنا معجبة جداً بشجاعة المحجبات. حاولت ارتداء الحجاب سنة، ولكن لسوء الحظ كان مؤلماً تماماً لي. إذ صرت أتلقى النظرات الغاضبة من الناس، وعاملوني كأجنبية لا تستطيع تكلّم الإنكليزية، وواجهتني المضايقات التي كان على أطفالي أن يتحملوها في ذهابهم إلى المدرسة وفي عودتهم منها، والإحساس بأني فقدت تقدير نفسي، وزيادة وزني، ففاق ذلك كله مقدرتي على التحمل أو التعامل مع مثل هذه المضايقات. تابعت الصلاة والدعاء بأن يمنحني الله القوة، ولكني صرت أكثر اكتئاباً. وبعد أن أقلعت عن تغطية رأسي تحسنت ثانية، ولكني أعلم أن ذلك دليل على ضعف إيماني، وفقدت كذلك غالبية صديقاتي في الجالية الإسلامية. إني أطلب النصح. فهل تعتقد أن علي ارتداء الحجاب ثانية؟

يبدو من سؤالك أنك لا تسألين عن موازنة النقاشات المختلفة التي دارت بين المسلمين حول لباس المرأة التقليدي، تأييداً ومعارضة. وكان لدى كل طرف وجهة نظر مقبولة، وإذا كنا نعيش في مجتمع مسلم تغدو المسألة قضية مجتمعية تبحث وتناقش علناً، لأن ذلك ربما يؤدي إلى إصدار قوانين تتعلق بالحشمة العامة يطلب من كل امرئ اتباعها. أما في الولايات المتحدة، فهذه المسألة شخصية وخيار للمرأة تواجهه وحدها دونما أي أثر في المجتمع عموماً.

يبدو لي أنك مقتنعة بأن على المرأة المسلمة أن تغطي شعرها، لذلك سأقارب سؤالك من هذه الزاوية. تدل رسالتك على أن ارتداء الحجاب كان صعباً جداً عليك. أنا لست امرأة، ولكني أتخيل أن ارتداءه في هذه البلاد ليس سهلاً أبداً، خصوصاً للأمريكيات اللواتي اعتنقن الإسلام، لأن رد فعل المجتمع تجاه غير الأمريكية أكثر مرونة من رد فعله على الأمريكية مولداً، خصوصاً بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

على الرغم من أن زوجتي ليست أمريكية، فقد توقفت عن تغطية شعرها إثر تلك الحقبة المرعبة. وذات يوم من عام ١٩٩٢، حشر شخص متعصب ثمل مخبول زوجتي في سيارتها في موقف سيارات تابع لسوبر ماركت بعد مطاردة بالسيارة في شوارع لورنس الشرقية (East Lawrence). صرخ فيها مهدداً، لاعناً، شاتماً إياها بأوصاف عنصرية عرقية، وضرب بعنف سقف سيارتها ونوافذها بقبضته. استمر ذلك بضع دقائق. كان الناس في المنطقة يشاهدون الحدث، ولكن أحداً لم يهب لمساعدتها. جلست خلال الحدث تبكي وتتضرع إلى الله أن يعيدها إلى أولادها وزوجها[1]. كان ذلك الحادث هو القشة الأخيرة في سلسلة طويلة من الأحداث المؤلمة، التي أفضل ألا تتكرر.

لست مرتاحاً لتقديم نصيحة من هذا النوع (فأنا لم أنصح زوجتي أبداً بشأن الطريقة التي تسلكها بحجابها) ولكن إن كان الأمر صعباً ومؤلماً لك جداً فيمكنك ألّا تغطي شعرك وأرجئي ذلك إلى ما بعد. فيما يتعلق بوضع أقليتكم، هناك عدد من التعليمات الدينية لا يستطيع المسلمون تطبيقها بصورة فعالة في الولايات المتحدة الأمريكية. وبعض السيدات الأمريكيات المسلمات اللاتي يرتدين زياً إسلامياً تقليدياً يؤلمهن ذلك ويضرُّ بدينهن أكثر مما ينفع الدين؛ ويعتمد الأمر في الواقع على الفرد - فإن كنت ترين أن ارتداء الحجاب يشكل عبئاً عليك لا تستطيعين تحمله، فإن ذلك لا يقلل من شأن إسلامك ولا ينقص من دينك ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦]. كثير من المؤمنين والمؤمنات الذين يصرون بعناد تقي ورع على ضرورة تحجب المرأة المسلمة في أمريكة لم يكن لديهم يوماً شجاعة ليفحصوا الدين الذي ولدوا فيه فحصاً نقدياً (ويمحصوا كذلك الإضافات الثقافية التي تتماشى معه) ومن ثم يعلنون على الملأ رفضها

(١) أقترح على النساء المسلمات اللاتي يواجهن موقفاً مشابهاً أن يتوجهن بالسيارة إلى مركز شرطة، أو مركز إطفاء، إن أمكن.

كما فعلتِ أنت. إن اعتناق دين ما، خصوصاً عندما يكون هذا الدين في مرحلة الأقلية الدنيا، يتخذ شكلاً عميقاً من الإيمان. فيما يتعلق بالصحابي الذي سرب خبراً لقبيلته عن تقدم وشيك للمسلمين، أمر النبي الصحابة الذين أرادوا قتله، أن يتركوه لقبيلته، وقال: «فما يدريكم أن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1]. فأولئك الذين شاركوا في معركة بدر كانوا يحظون بأسمى درجات الاحترام، لأنهم اختاروا الإسلام مخاطرين عندما كان المجتمع كله يسير في الاتجاه المعاكس.

لا أعلم إذا كان ما كتبته هنا يساعدك. ربما لا أجيبك بالطريقة التي ترغبين. ولكن نصيحتي لك أن تعملي في جوانب أخرى من دينك حتى تشعري بما يكفي من القوة كي تعيدي كرَّة الحجاب.

إضافة إلى هذه النصيحة، ربما تطور بعض النساء والأمريكيات طريقة خاصة بها بفضل تجربة أنماط مختلفة من الحجابات، وطرق متنوعة لارتدائه: هناك أغطية، غير الحجاب التقليدي، قصيرة، وطويلة، مثلثة، ومربعة، ومستطيلة، بلون واحد عليه رسوم جذابة. ففي الصيف يكون الوشاح مريحاً أكثر إذا ما ربط وراء الرأس وثبت بملاقط في مكانه (من النوع النابض وليس من نوع المشابك). فوشاح حديث مع ثوب أو رداء قصير مع بنطال (مثلاً) يمكن أن يجعل المرأة تتطابق مع المشهد النسائي الأمريكي، مع محافظتها على كونها امرأة مسلمة متواضعة ومثقفة.

- **السؤال الثاني (من كاتب يسعى لتنويري في عيوب مختلفة في ديني. إن اتجاه معظم الرسائل التي تلقيتها من غير مسلمين قرؤوا كتبي أو اطلعوا على محاضراتي اتجاهٌ ودي، ونزعتها تعاطفية أو فضولية تماماً، أو كلتاهما معاً. ولكني أتلقى بين الفينة والأخرى رسالة كالرسالة الآتية. إن النقاشات التي تطرح في مثل هذه المراسلات حول الإسلام تشاهد غالباً في المواقع**

(١) يتعلق الحديث بحاطب بن أبي بلتعة. البخاري وأبو داود. وانظر «تاريخ الطبري» المجلد ٨.

الإنجيلية الإلكترونية، وهي جزء لا يتجزأ من الهجوم الغربي العنيف على الإسلام، ويرد عليها من حين إلى حين علماء مسلمون. وأرى أن هذا النقد القديم يسبب قلقاً للذين يتصفحون (الإنترنت) من مسلمي الجيل الثاني. لقد بحثت بعضها في أمكنة أخرى، ويمكن أن أخاطب بعضها باختصار؛ وأحيل القارئ للاطلاع على ذلك إلى الهوامش، في حين أجيب عن الادعاءات الباقية فيما يأتي):

كان سروري عظيماً حين استمعت إلى محاضرتك مساء أمس في جامعة ولاية كنساس، وتعرفت على حياتك ورحلتك من الإلحاد إلى الإسلام. وحزنت حقاً إذ علمت إدمان والدك على الخمر، مما كان له أثر في حياتك إلى أن وجدت القرآن ذات يوم على مكتبك. ووضحت أنك وجدت إجابات على أسئلتك عندما قرأت القرآن، مثل: «لماذا يسمح الله بهذا القدر من العنف والمعاناة في العالم؟» وذكرت أنك افترضت أن الله أوحى بهذا الكتاب، لأنك استطعت أن تجد فيه إجابات مُقنعة عن اعتراضاتك العقلية، ومن ثم بنيت إيمانك على هذا الافتراض[1].

هل فكرت في احتمال أن يكون رجل ماهر جداً قد كتب هذه الوثيقة[2]؟ أنا متأكد أنك تعلم أن محمداً لم يكن يقرأ ولا يكتب وأنه كان يستخدم ورقة بن نوفل ليكتب الوحي له. ولكن هل تعلم أن الوحي توقف تماماً بعد موت ورقة بن نوفل[3]؟

---

(١) هذا تبسيط مبالغ فيه مفهوم. انظر الفصل الأول، ص ١٦٢-١٦٩.

(٢) انظر الفصل الأول، ص ٤١-٤٥.

(٣) روي أن ورقة بن نوفل توفي في السنة الثانية أو الثالثة من البعثة عندما لم يكن قد أنزل من القرآن سوى قليل من الآيات القصيرة. ويذكر معظم المؤرخين أنه لم يكن قد أنزل من القرآن عندما توفي ابن نوفل سوى الآيات من [١-٦] من سورة العلق ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦﴾. واستمر النبي في تلقي الوحي =

أليس عدم كتابة هذه الوثيقة حسب التسلسل التاريخي للآيات أكثر غرابة، وأن السور رتبت حسب الحجم(١)؟

لقد قرأت القرآن أيضاً، ولكن خلفيتي مختلفة تماماً عن خلفيتك. كان لي أب محب وأم رائعة، الأم تيريزا الحقيقة. لم نعان كما عانيت. وكان والدي المجدّ دائم الحضور لخدمتنا. علمنا الخطأ من الصواب، وعلمنا أن نكون خيرين طيبين بكل ما في الكلمة من معنى. أقمت في الشرق الأوسط حوالي ثلثي حياتي، وأعرف عن المسلمين والإسلام أكثر مما ستعرفه بحياتك. ولكن عندما قرأت القرآن وجدته مادياً جداً، ولم أصدق أن الله يأتي بكتاب مليء بالأخطاء في الرياضيات والتاريخ والعلم، وفيما يلي بعض الأمثلة:

١. في قانون الميراث ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم

= حتى قبيل مماته أي إلى ما بعد عشرين سنة من وفاة ابن نوفل. انظر «موسوعة الإسلام» الطبعة الجديدة، المجلد (١١)، أبريل (٢٠٠٠) ص ١٤٢-١٤٣، حيث استشهد بابن حجر الإصابة.

(١) ليس واضحاً كيف يفترضون ذلك برهاناً على خداع القرآن. فالسور تتناقض في طولها بصورة غير منتظمة. وللاطلاع على نظام ترتيب السور انظر (حتى الملائكة تسأل)، منشورات أمانا، بلتسفيل (٢٠٠٠)، ص ١٣٩-١٤٣، و (الصراع من أجل الإيمان) منشورات أمانا، بلتسفيل (٢٠٠٠)، ص ٦٦-٦٧ . وللاطلاع على غياب التسلسل التاريخي في القرآن انظر، (حتى الملائكة تسأل)، بلتسفيل (٢٠٠٠)، ص ١٣-١٤، وهذا الكتاب الفصل الأول، السؤال الأول.

مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾﴾ [النساء: ٤/١١-١٢]، ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [النساء: ٤/١٧٦] عندما يموت رجل تاركاً ثلاث بنات، ووالدين، وزوجة، توزع ثروته عليهم: ثلثان للبنات وثلث للوالدين، وثمن للزوجة (١/٨)، فيبلغ المجموع (١/٨ ١). (أي أكثر من التركة).

٢. استغرق الله في خلق السماوات والأرض ستة أيام ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٥٤] وثمانية أيام ﴿۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٤١/٩-١٢].

٣. اليوم عند الله بألف سنة من سنوات البشر في قوله ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٢٢/٤٧] وبخمسين ألف سنة في قوله ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج: ٧٠/٤].

٤. يقول القرآن إن العجل الذي عبده الإسرائيليون قد صنعه السامريون في عهد موسى ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ

أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: ٢٠/ ٨٥-٨٧]. لم يكن السامريون موجودين حتى (٧٠٠ ق.م) أي بعد بضع مئات من السنين من زمن موسى.

٥. يذكر القرآن أن مريم كانت أخت هارون وأن الإنجيل كان موجوداً في زمن موسى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٧].

٦. في سورة الملك، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٦٧/ ٣-٥] وسورة نوح، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ٧١/ ١٥-١٦]، سبع سماوات، والنجوم في السماء الدنيا والقمر وسط السماوات السبع.

٧. في سورة الكهف ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٦]: الشمس تغرب في عين حمئة.

٨. ويقول القرآن: إن الله خلق من كل شيء زوجين ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٤٩].

إننا نعلم أن ذلك ليس صحيحاً في كثير من المخلوقات كالبكتيريا والفطريات حتى النباتات.

هذه أمثلة قليلة من نصوص كثيرة أخرى وجدت فيها إشكالات. وفيما يلي بعض الأمثلة الأخرى التي أعترض عليها بناء على أسس أخلاقية.

٩. وجدت القرآن يشجع المسلمين على كراهية غيرهم. ولا أعتقد أن الله يريدنا هكذا. في سورة التوبة الآية (١٢٣) يقول القرآن المترجم إلى الإنكليزية: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ وكلمة «قاتلوا» مشتقة من «قتل» التي تعني «اقتل» فهل هذا هو المجتمع الذي تريد العيش فيه؟ لقد ذكرت بالأمس أنك وجدت كلمة «معرفة / علم» تتكرر في القرآن (٨٤٦) مرة. دعني أسألك هل أحصيت كم مرَّة تتكرر كلمة «اقتل» أو ترجمتها الإنكليزية الأخف وطأة منها (حارب)؟

١٠. تحدثت عن الأهمية التي يوليها القرآن إلى (العقل) و(الاختيار) في النمو الروحي، ولكني وجدت القرآن في الواقع يفتقر إلى ذلك كثيراً عندما قرأته. يقول في سورة التوبة، الآية (٥) ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهنا يقول القرآن للمسلمين: إنكم أحرار في إجبار الآخرين على اعتناق الإسلام بالقوة وبالوحشية فإن لم يقبلوا فاقتلوهم. فأنا لا أرى هنا حرية الاختيار كما تراها أنت.

١١. يعد الله المسلمين الذين يموتون في الجهاد بأن لهم الجنة حيث يمارسون الجنس مع اثنتين وسبعين حورية، ويشربون الخمر، ويأكلون الطعام الشهي، وغير ذلك. أولاً، هل على المسلم أن يتخلص أولاً من زوجته ثم يأخذ اثنتين وسبعين حورية؟ أستغرب إن كان هناك مكان للزوجات الطيبات والأمهات في الجنة. ويقول القرآن ثانياً، إن الخمر من عمل الشيطان، فكيف يقدم الله ما يصنعه الشيطان في الجنة؟

١٢. وأخيراً، دعني أقل: إن القبول بوجود إله واحد بعد فترة طويلة من الإلحاد يحتاج إلى رجل قوي، ولكن: إيجاد الإله الحقيقي يحتاج إلى رجل أقوى. أعلم أنك وطدت لنفسك مكانة مرموقة في المجتمع بوصفك مسلماً غربياً، وأنك ألفت كتباً في الإسلام، من بين أمور عديدة تصب في مصلحتك. ولكن هل هذا جدير بحياتك الخالدة؟

لأسهل على القارئ الأمر سأذكّره بكل ادعاء قبل إعطاء الجواب.

١. قانون الميراث في النساء ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ [النساء: ٤/١١-١٢]، ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [النساء: ٤/١٧٦]، عندما يموت الرجل تاركاً بنتين(١)، ووالدين، وزوجة، توزع ثروته ٢/٣ للبنات و ١/٣ للوالدين و١/٨ للزوجة، ومجموع هذه الحصص (١ ١/٨)!!

إن النصوص المقتبسة يمكن أن تكون مركبة لأنها تضع مخططاً موجزاً مكثفاً لحالات الميراث، ومن ثم يمكن تفسيرها، بل فسرت، بطرق مختلفة. إن المعضلة المذكورة آنفاً موجودة في نصوص كلاسية لا حصر لها في الشريعة الإسلامية حيث يقدم حلولاً تفسيرية مختلفة. الآيات تقول:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ

(١) في اعتراض الرجل على المؤلف ورد «ثلاث بنات، وليس بنتين، والنص القرآني يقول فوق اثنتين». (المترجم).

مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ٤/ ١١-١٢].

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ٤/ ١٧٦].

بالإضافة إلى هذين النصين لدينا مبدأ واحد عريض يعود إلى النبي: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر»[1].

يقدم محمد علي في كتابه (دين الإسلام) قاعدة واضحة لحساب حصص الإرث المنسجمة مع الآيات المذكورة أعلاه والحديث، وتعالج بسهولة كل الحالات التي يمكن أن تنشأ. تفسير محمد علي يقوم على الافتراض الحسن بأن الأمر المتنامي في سورة النساء ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) صحيح البخاري.

كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١١] المتعلق بحصص الأبناء يضع قاعدة عامة تطبق على ما يبقى من أملاك المتوفى من الوالدين، بعد دفع الديون وتنفيذ الوصية(١). ثم حصص ثابتة للوالدين والزوجين كما هو مقرر في سورة النساء الآيتين [١١-١٢] ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾. ثم يبين أنه بموجب هذا الافتراض مع الآيات المذكورة أعلاه والحديث، يمكن معالجة كل الحالات المحتملة بما في ذلك تلك التي حيَّرت الفقهاء القدامى بأسلوب بسيط عادل. وفي ختام بحثه، يقدم الخلاصة الآتية(٢):

إن قانون الإرث كما وضعه القرآن، يُختصر على النحو الآتي: «إن بقي شيء بعد دفع الديون وتنفيذ الوصية، تؤخذ أولاً حصص الوالدين والزوج أو الزوجة، وبعد ذلك تذهب بقية التركة إلى الأولاد: للذكر مثل حظ الأنثيين؛ فإن لم يكن أولاد، وكانوا إخوة وأخوات، يعطى السدس للأخ أو الأخت إن كان أي منهما وحيداً، ويعطى الثلث إن كان أكثر من أخ أو أخت، وإذا لم يترك

(١) يسمح للمرء أن يوصي بما يصل إلى الثلث من أملاكه بعد سداد الدين.

(٢) للاطلاع على التفاصيل، انظر، محمد علي «دين الإسلام» أحمدية أنجومان. عشة إسلام (Ahmadiyya Anjuman Isha'at Islam) لاهور، ١٩٩٠، ص ٥١٨-٥٢٣.

المتوفى أولاداً ولا والدين تذهب الثروة كلها بعد اقتطاع حصة الزوج أو الزوجة إلى الإخوة والأخوات، وإن كانت أخت واحدة أو بنت واحدة تأخذ نصف الثروة، والأخ الوحيد تنطبق عليه القاعدة ذاتها؛ وإن كانتا أختين أو أكثر أو بنتين أو أكثر يأخذن الثلثين، والباقي يذهب إلى أقرب قريب ذكر حسبما ورد في الحديث؛ وإذا كان من يستحق الإرث قد مات وترك وراءه ذرية، فإن ذريته تأخذ مكانه أو مكانها؛ وإن مات الأب أو الأم تأخذ الجدة؛ أو يأخذ الجد مكانه / مكانها؛ أما بقية الإخوة والأخوات، سواء كانوا من ناحية الأم، أم من ناحية الأب، أم من الأم والأب فيعاملون بالتساوي، وإن لم يكن إخوة أو أخوات، فالأقربون بعدهم كالأعمام والعمات يأخذون مكانهم».

فإذا ما طبقنا هذه الخطة على الحالة الواردة في السؤال - فإن من يتوفى تاركاً أبوين، وزوجة، وبنتين، يُعطى الأبوان (بعد سداد الديون وتنفيذ الوصية)[1] كل منهما السدس، وتعطى الزوجة الثمن، ويعطى ثلثا ما تبقى للبنتين، وثلث ما تبقَّى يعطى لأقرب قريب من الذكور. إننا نحصل على عدم توافق رياضي في هذه الحالة إذا فرضنا على الأوامر الإلهية تفسيراً يقحم تناقضاً. إن خطة محمد علي ليست هي الخطة الوحيدة المحتملة المنسجمة مع القرآن وتتلافى التناقض الرياضي، بل هناك أيضاً أكثر الخطط استقامة وصراحة إلى جانب كونها عادلة[2].

٢. خلق الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٥٤]، وفي ثمانية أيام ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ

---

(١) إن أقصى ما يستطيع المرء أن يوصي به هو ثلث ثروته، بعد دفع الديون طبعاً.

(٢) محمد علي (دين الإسلام)، أحمدية أنجومان عشَّت إسلام، لاهور، ١٩٩٠، ص٥١٩-٥٢٥.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٤١/٩-١٢].

هذا مثال آخر على اصطناع تناقض عن طريق فرض تفسير غير ضروري على النص. إذ يجب أن يلاحظ أولاً أن كلمة «يوم» التي تترجم عادة إلى كلمة «day» تستخدم بالعربية لتدل على أي فترة زمنية، سواء كانت طويلة جداً (دهر لا نهاية له) أو قصيرة جداً (لحظة): وتطبيقها على اليوم الأرضي المكون من ٢٤ ساعة هو واحد من دلالات الكلمة[١]. ومن ثم، يقرر القرآن مباشرة بعد أن ذكر الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٤] أن «الجميع سيصعدون إليه في النهاية في يوم (يوم القيامة) الذي مقداره ألف سنة مما تعدون» ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٥] وفي سورة [المعارج ٧٠/ ٤] يقول القرآن: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

وعلينا أن نلاحظ أيضاً أن كلمة «ثم» التي تترجم إلى كلمة (furthermore) يمكن أن تعني «moreover» أو «then». لذلك إذا ترجمناها إلى كلمة (furthermore) أو (moreover)، عندئذ يكون كما شرح موريس بوكاي (Murice Bucaille)، الأمر على النحو الآتي: «ربما تكون إشارة بسيطة إلى أحداث متجاورة دون الاهتمام ببيان أن أحد الأحداث يتلو الآخر. على أي حال ربما تكون فترات خلق السماوات متزامنة بسهولة مع فترتي خلق الأرض... إذ لا يبدو أي تناقض بين النص المقتبس هنا ومفهوم تشكل العالم في ست المراحل الموجودة في نصوص أخرى في القرآن»[٢].

---

(١) محمد أسد (رسالة القرآن) دار الأندلس، جبل طارق (١٩٨٠)، ص ٢١١، حاشية رقم ٤٣.

(٢) موريس بوكاي: «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم» سيفرس (Seghers)، باريس، ١٩٩٧، ص ١٣٤-١٣٧.

٣. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٢٢/٤٧]، وخمسين ألف سنة، في سورة ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٧٠/٤].

كما ذكرنا قبل قليل تستخدم كلمة (يوم) بالعربية لتدل على فترة من الزمن، كما تبين الآيتان المذكورتان آنفاً. ولابد من الملاحظة أن كلاً من هاتين الحالتين تشير إلى حادثة مختلفة[1].

٤. يقول القرآن : إن السامريين هم الذين صنعوا العجل الذي عبده بنو إسرائيل أيام موسى ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: ٢٠/ ٨٥-٨٧]. إن السامريين لم يوجدوا إلا حوالي (٧٠٠ ق.م) أي بعد زمن موسى ببضع مئات من السنين.

النص المطروح للتساؤل، على النحو الآتي: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: ٢٠/ ٨٥-٨٧].

بصرف النظر عن التماثل الصوتي اللفظي مع كلمة (السامري)، فليس هناك ما يسوّغ افتراض أن تكون كلمة (السامري) العربية تشير إلى أحد أعضاء الطائفة

---

(١) يقول بوكاي في كتابه المذكور: إن هذه التقديرات لا تعني الكم المذكور حرفياً وبدقة، بل إنما هي إشارات إلى أن الزمن عند الله هو غير الزمن الذي نعرفه، ومن ثم عندما يقول الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إنما يعني في مرحلتين، الله وحده يعلم كم طولهما من الزمن. (المترجم)

السامرية اليهودية. يعرض المفسرون المسلمون شرحاً مختلفاً. يقول محمد أسد:

«مما لا شك فيه أن كلمة (السامري) هي صفة تدل على نسب الشخص أو أصله. ووفق تفسير الطبري والزمخشري تدل الكلمة على شخص من الطائفة السامرية اليهودية. أي المجموعة العرقية الدينية التي وصفت فيما بعد بالسامريين (الذين ما زال منهم بقية قليلة موجودة في نابلس في فلسطين). وبما أن الطائفة لم تكن موجودة في زمن موسى، فمن المحتمل - كما يقول ابن عباس (الرازي) - أن يكون الشخص المعني واحداً من المصريين الكثيرين الذين اعتنقوا دين موسى والتحقوا ببني إسرائيل لدى خروجهم من مصر : وهكذا فإن صفة (سامري) ربما تكون مرتبطة بالكلمة المصرية القديمة «شيمر» (Shemer) التي تعني : (الغريب / الأجنبي) ويتعزز هذا الظّن بإدخاله عبادة العجل التي هي، بلا شك، صدى لعبادة العجل المقدس عند المصريين. على أي حال ليس مستحيلاً أن يكون السامريون هم من نسل هذا الشخص، - أو اشتهروا أنهم من نسله - سواء كانوا من أصل عبري أو مصري ؛ وهذا يعلل جزئياً العداء المستحكم بينهم وبين بقية المجتمع الإسرائيلي»[١].

هذا فضلاً عن أن يوسف علي يضيف، ما يأتي: «إذا لم يقبل رد الكلمة إلى الجذر المصري، فلدينا الجذر العبري، شومر، (Shomer) ويعني «حارس» أو مُراقب، أو خفير ؛ المماثلة للكلمة العربية، سَمَرَ، يَسمُر، أي يظل يقظاً في الليل، يتحدث في الليل، والسامر هو الذي يسهر في الليل. والسامري يمكن أن يكون حارساً في الواقع، أو لقباً له»[٢].

٥. يذكر القرآن أن مريم هي أخت هارون، وأن الإنجيل موجود في زمن موسى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا

---

(١) محمد أسد، (رسالة القرآن)، دار الأندلس، جبل طارق (١٩٨٠) ص ٤٧٩، حاشية رقم ٧٠.

(٢) عبد الله يوسف علي (معنى القرآن الكريم)، منشورات أمانا، بلتسفيل (١٩٦٦)، ص ٧٨٢، حاشية رقم ٢٦٠٨.

عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٥٧].

يستشهد المستشرقون كلهم تقريباً بسورة ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ١٩/٢٨] حيث خاطبها أقرباؤها بـ (يا أخت هارون) بوصفها مفارقة تاريخية فاضحة. إن ازدواجية هذا النقد واضحة لكل من يعرف العهد الجديد حيث ابنة عم مريم اليصابات (اليزابيث) كانت تنادى «يا ابنة هارون»[١] إن تعابير مثل «يا ابنة...»، «يا أخا...»، «يا أخت....»، «يا عماه...»، «يا عمتاه...»، «يا ولدي / يا بني» تستخدم في الثقافات السامية وبين العرب والمسلمين مجازياً لتدل على الود والاحترام أو الاقتران الأسري أو السلالي. والمسلمون يخاطبون بعضهم بعضاً بـ (أخ) و (أخت). والأصغر عادة يخاطب من أكبر به بـ (عم)، (عمه) ؛ أما ما كان من نسله يشار إليه بـ «ابنة/ ابنها»، «ابنته / ابنتها». وترد عبارات مجازية مثل «ابن آدم» و «ابن داود» و «بنو إسرائيل» في الكتاب المقدس بصورة منتظمة.

فتعبير (يا أخت هارون) في سورة ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ١٩/٢٨] مناسب تماماً إذا قبلنا أن اليزابيث هي «ابنة هارون» - ابنته بصورة مباشرة. وبما أن مريم في العهد الجديد هي ابنة عم اليزابيث، فتكون مريم «أخت هارون» - ما دامت أنها تنتمي بالدم إلى الشيخ الجليل دون أن تكون ابنته بصورة مباشرة.

لا يأتي القرآن أبداً على ذكر الإنجيل في زمن موسى. فآية ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟

---

(١) لوقا (١ : ٥-٣٦).

﴿ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٥٧] تقول : إن أتباع النبي يجدون بشراه في التوراة والإنجيل. ويعتقد الكثيرون من المفسرين المسلمين أن العهد القديم تنبأ بمجيء نبي، مثلاً (سفر التثنية ١٨ : ١٥-١٨) الذي سيكون كموسى، وأن العهد الجديد يتنبأ بمجيء رسول آخر بعد عيسى، مثلاً: (متّى : ١٣ : ١٣، ٢١ : ٣٣-٤٤؛ مرقس، ١٢ : ١-١١ ؛ لوقا، ٢٠ : ٩-١٨؛ يوحنا، ١ : ٢٢، ، ١٤ : ١٦، ١٤ : ٢٦) كلها تشير إلى مجيء النبي محمد.

٦. وفق سورة الملك ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٦٧/٣-٥] وسورة [نوح ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ٧١/١٥-١٦]، هناك سبع سماوات، وضعت النجوم في السماء الدنيا، ووضع القمر في السماء الوسطى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٦٧/٣-٥]. ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ٧١/١٥-١٦].

إن ما يريده السائل ليس واضحاً تماماً، ولكن من تفسيراته للكلمات الجوهرية، يبدو أنه يشعر أن القرآن يشير إلى أن النجوم هي السماء الأقرب إلينا وأن القمر في سماء أبعد. لم يبين القرآن تماماً ما السماوات السبع أو ما السماء الدنيا، أو ما المصابيح التي يتحدث عنها في سورة [الملك ٦٧/ ٥]، ولذلك يختلف المفسرون المسلمون في هذه المسألة، ومع ذلك يتفق العلماء كلهم على التعريف الآتي: «السماء تعني أساساً كل ما هو فوق، وتستخدم عادة بصيغة الجمع لتصف (أ) السماوات المرئية (وأحياناً السحب)، (ب) والفضاء الكوني

الذي فيه النجوم والمنظومات الشمسية (بما فيها منظومتنا) والمجرات السائرة في أفلاكها، (ج) والمفهوم المطلق للقوى الصادرة عن الله (لأن الله بالمعنى المجازي للكلمة هو فوق، كل ما هو موجود)»[1].

ويعتقد غالبية المفسرين أن السماء الدنيا هي الفضاء الكوني الموصوف في (ب) آنفاً، ومن ثم فهو يحوي القمر والشمس والكواكب والنجوم وبقية الكون. فإذا قبلنا هذا التفسير فإنه يقودنا إلى عدم التناقض بين النصوص المقتبسة فيما ذكرنا، ومن ثم فهو مشمول فيها (فيهن - كما، هو موصوف في سورة ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ٧١/١٦].

٧. يقول القرآن في سورة الكهف ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ١٨/٨٦]: إن الشمس تغرب في عين حمئة[2]!!

٨. يقول القرآن: إن الله خلق من كل شيء زوجين ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/٤٩]. ونحن نعلم أن هذا ليس صحيحاً في كثير من المخلوقات مثل البكتيريا، والطفيليات، وحتى بعض النباتات. ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/٤٩].

بما أن الآية تقول: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ خلق الله أزواجاً، أفترض أن هذا يشير إلى الجانب الكوني الشامل من الخلق الذي يتجاوز الأشياء الحية أو ظاهرة التناسل التي يلمح إليها السائل. على ما يبدو. هناك نصوص يعتقد

---

(١) محمد أسد (رسالة القرآن)، دار الأندلس، جبل طارق (١٩٨٠)، ص ٣٥٦، حاشية رقم ٤.

(٢) انظر الفصل الأول، السؤال الأول للاطلاع على بحثي لهذه الآية ؛ وللاطلاع على تفسيرات أخرى انظر، عبد الله يوسف (معنى القرآن الكريم)، منشورات أمانا، بيلتسفيل (١٩٩٦)، ص ٧٣٢، حاشية رقم ٢٤٣٠؛ محمد علي (القرآن الكريم) مع ترجمة إنكليزية وتعليق، أحمدية أنجومان عشة إسلام (لاهور، ١٩٩٠ الحاشيتان رقم ١٥١٨، ١٥١٩، ص ٥٨٨ ؛ محمد أسد)، «رسالة القرآن» دار الأندلس، جبل طارق (١٩٨٠)، ص ٤٥٢، حاشية رقم ٨٥.

المفسرون الحديثون أنها تشير إلى تناسل النباتات والحيوانات والبشر[١]، ولكن التعليقات كلها التي وجدتها حول الآية ٤٩ من سورة الذاريات، سواء في الماضي أم في الحاضر، تتفق على أن القرآن يلمح هنا إلى «حادثة التناقض الكامل في الخلق كله، فيما هو حي وما هو جامد، هذا التناقض الكامل الذي يعبر عن نفسه بوجود القوى النقيضة والقوى التكميلية»[٢].

يعرض يوسف علي المشهد العام على النحو الآتي: «كل الأشياء أزواج: الجنس في النبات والحيوان حيث كل فرد يكمل الآخر؛ في قوى الطبيعة اللطيفة، الليل والنهار، والكهرباء السالبة والموجبة، وقوى الجذب والنبذ، وأضداد كثيرة، كل منها تحقق غايتها، وتسهم في عَالَم الله: وفي العالم الأخلاقي والروحي، الحب والكره، الرحمة والقسوة، العدل والظلم، الجهد والراحة، وما إلى ذلك - كلها تقوم بوظائفها وفق فنيّة الله وغايته الرائعة. لكل شيء نظيره، أو زوجه، أو مكمله. الله وحده هو الواحد، لا شيء مثله، ولا يحتاج إلى ما يكمله»[٣].

وهكذا تكون الآية ٤٩ من سورة الذاريات متناقضة مع العلم الحديث فقط إذا قبلنا توضيح السائل الخاص.

٩ . عندما قرأته وجدته يشجع المسلمين على كراهية غيرهم. فأنا لا أعتقد أن الله يريدنا هكذا. وفي سورة [التوبة ٩/١٢٣] يقول القرآن المترجم إلى الإنكليزية ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ وكلمة قاتلوا العربية مشتقة من جذر «قتل» الذي يعني «اقتل». فهل هذا هو المجتمع الذي يريده الله لنا ؟لقد ذكرت مساء أمس أنك وجدت كلمة (معرفة) مكررة في القرآن ٨٤٦ مرّة. فدعني أسألك هل أحصيت كم مرّة

---

(١) موريس بوكاي، (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم)، سيفهرس (Seghers)، باريس، ١٩٩٧، ص ١٨٨-١٩١، ١٩٨-٢١٠.

(٢) محمد أسد، المصدر نفسه، ص ٦٧٦، حاشية رقم ٨.

(٣) عبد الله يوسف علي، المصدر نفسه، ص ١٣٦٣، حاشية (٥٠٢٥).

تتكرر كلمة (اقتل) أو مرادفتها الإنكليزية الأخف وطأة منها (حارب) في القرآن؟

كتبت مطولاً في كتابيَّ السابقين عن ألفاظ القرآن في الحرب ما يغطي الهموم المثارة في هذا السؤال والسؤال الذي يليه. ولأنصف هذا الموضوع سأكرر ما كتبته في كتاب (حتى الملائكة تسأل) وكتاب (الصراع من أجل الإيمان)(١) ولكني سأركز على الشكاوى المبينة في السؤال توخياً للاختصار.

يؤكد السائل أنه عندما قرأ القرآن وجده يشجع المسلمين على كراهية غير المسلمين من الشعوب الأخرى. القرآن يحرِّم موالاة غير المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٨]؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ١-٢]، وخاصة من اليهود والنصارى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: ٥/ ١٥] ولكن ليس غير المسلمين ولا اليهود والنصارى كلهم، بل أولئك المعادين الكثيري العداء للمؤمنين(٢). ومن ثم فإن سورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٨] تطلب من المسلمين ألا يوالوا الكفار من دون المؤمنين(٣). ومع ذلك يكرر القرآن في السورة نفسها فيما بعد مع وصف الكفار

(١) (الصراع من أجل الإيمان)، (حتى الملائكة تسأل).

(٢) محمد أسد (رسالة القرآن)، ص ٨٥٥، حاشية رقم ٣.

(٣) كان المسلمون في حرب مع كفار مكة عندما أنزلت هذه الآية.

الأمر بتحاشيهم: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٨].

وبالمثل يوجه القرآن المؤمنين في سورة [المائدة ٥/ ١٥] ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ إلى عدم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، ولكن بعد بضع آيات يضيف القرآن هذه المواصفات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٧].

وأخيراً، فإن الآيتين الأولى والثانية من سورة الممتحنة التي أنزلت في العام الثامن الهجري، قرب نهاية بعثة النبي، تصفان الكفار الذين يجب عدم موالاتهم بأنهم هم أولئك الذين ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ و ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ على أي حال، يبين القرآن هنا للمرة الثانية في النص نفسه أنه لا مانع من أن يَبرَّ المسلمون غير المسلمين ويقسطوا إليهم: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٨-٩].

لذلك نرى أن القرآن في كل مرَّة ينهى المسلمين عن موالاة غير المسلمين يبين بوضوح الأسباب، وأن هذا الخطاب موجه فقط للذين يعادون المسلمين علناً بسبب إيمانهم ودينهم، أما الذين يناهضون العداء، فلا حرج في مصادقتهم.

يستشهد السائل بالآية الآتية ليبين أن القرآن يشجع العدوان على الآخرين

من غير سبب. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٣].

إن سورة التوبة التي يبدو أنها تتعامل مع قضايا الحرب والسلم تركز تركيزاً خاصاً على معاهدات السلام وكيفية الرد على من يخرقها. كانت القبائل المعادية تعقد دائماً معاهدات تحالف مشترك مع المسلمين، ولكن ما إن تحِنْ أول فرصة لنقضها حتى ينقضوها. وبعد سنوات من الخيانة، أعلن القرآن إلغاء هذه الهدنات مع استثناءين:

الأول، المعاهدات المعقودة مع القبائل التي ظلت ملتزمة بها وبتعهداتها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٤]، ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٧].

الثاني، لجوء كافر إلى المسلمين لحمايته. وعلى المسلمين أن يوصلوه إلى دار الأمان (أي إلى المكان الذي يختاره) دون أي إزعاج أو مضايقة ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٦].

وكل الإشارات المتعلقة بقتال الكفار الواردة في هذه السورة بما فيها الآية (١٢٣) المذكورة آنفاً تسير في هذا السياق.

وصادف أن كلمات (قتال) العربية و (قاتل) قد اقترنت بسلوك المسلمين (٤١) مرَّة في القرآن وهو عدد ليس كبيراً إذا ما اعتبرنا أن التنزيل يغطي سنوات عديدة من الحروب.

١٠. لقد تحدثت كذلك عن الأهمية التي أولاها القرآن إلى (العقل) و (الاختيار) في النمو الروحي، ولكنني وجدت، في الواقع، افتقاراً كبيراً لكليهما في القرآن عندما قرأته. ففي سورة [التوبة ٩/ ٥] يقول

القــرآن: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾. حيث يتيح القرآن للمسلمين أن يدخلوا غير المسلمين في الإسلام عنوة وبوحشية، وإن لم يفلحوا في ذلك فيحث المسلمين على قتلهم. فلست متأكداً من رؤية الخيار هنا كما تراه أنت.

هذه الآية يتمسك بها خصوم الإسلام، ممن يرغبون في إثبات أن القرآن يشجع على العدوان العسكري وأن الإسلام انتشر بالسيف. ولكن بتعزيز هذا الرأي المجحف، لابد من إسقاط أقوال عديدة تسمح بالقتال بصورة لا لبس فيها في حالات الدفاع عن النفس وعن الضحايا المضطهدين فقط. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٩-٤٠]. ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٧٥]. ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠-١٩٢]. ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٣]. ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦]. ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٤/ ٩١]. ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦١].

وكما بيّنا قبل قليل فإنّ آية ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/ ٥] تتعلق بالكفار الذين ينقضون العهد، ويخلّون بالتزاماتهم بممارستهم العدوان على المسلمين، كما توضح السورة نفسها في الآيات الآتية: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٤]. ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٧]. ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٣].

ومع ذلك فإن الاستثناء الوارد في [الآية ٥] من سورة التوبة ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول: إن على المسلمين أن يتركوا المشركين الذين نقضوا المعاهدات، ثم دخلوا الإسلام، يمكن أن تستخدم لترويج فكرة إجبار الناس على اعتناق الإسلام بالقوة، على الأقل في مثل هذه الحالة الخاصة. ومع ذلك تثبت الآية الآتية أن هذا الاستخلاص غير صحيح؛ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٦].

لذلك إذا ما نقض المشركون عهودهم يحاربهم المسلمون ما لم: يعتنقوا الإسلام، أو يلجؤوا إلى المسلمين، وفي هذه الحالة يجب إيصالهم إلى مكان آمن ملائم لهم. فلو كان الإسلام يريد إجبار هؤلاء على دخول الإسلام، لما طرح البديل الثاني. أما البديل الأول فيكرر في هذا السياق مبدأ إسلامياً موطداً، هو «إذا ما اعتنق الإسلام كافر عدو فإنه يغدو عضواً كامل العضوية في

الأمة الإسلامية، ويمنح جميع الحقوق والامتيازات، ولا يخضع للعقاب»؛ ومن ثم فإن الآية الآتية تذكر المؤمنين بما يلي: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١١].

في الظروف العادية يؤدي مجرد اعتراف المرء بالدين إلى قبوله في الأمة الإسلامية، ولكن، هذه النصوص تتعامل مع الذين يخلفون وعودهم باستمرار، لذا فهي تطلب منهم التزاماً أقوى: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

١١. يعد الله الذين يموتون في الجهاد بالجنة حيث يمارسون الجنس مع اثنتين وسبعين حورية، ويشربون الخمر، ويأكلون أشهى الأطعمة، وما إلى ذلك. أولاً، هل على المسلم أن يتخلص أولاً من زوجته ثم يأخذ ٧٢ حورية؟ وأتساءل أحياناً، هل هنا متسع للزوجات الطيبات والأمهات في الجنة. وثانياً، يقول القرآن: إن الخمر من عمل الشيطان، فكيف يقدم الله ما يصنعه الشيطان في الجنة؟

فيما يتعلق بالطبيعة المجازية لتوضيحات القرآن للوقائع والحقائق التي تقع خارج نطاق التجربة البشرية، بما في ذلك الجنة والنار، أحيل القارئ إلى السؤال الثالث من الفصل الأول[1].

يبدو لي أن مناقشة النصوص المجازية ليست سوى لعبة صبيانية، ولكني أريد تصحيح بعض النقاط توخياً للدقة: لم يذكر القرآن أن الشهيد له **٧٢** حورية - لقد ذكر في حديث في سنن الترمذي وابن ماجه ؛ أما القرآن فيقول: إن الخمر في الجنة غير مسكر ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٤٧]؛ ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ١٩] ويقول بصراحة مطلقة إن النساء التقيات يدخلن الجنة.

وأخيراً، لابد لي من ذكر أن هذه النقاشات نفسها التي يحاول السائل استخدامها ضد القرآن، قد استخدمها العلماء الغربيون ضد الكتاب المقدس

---

(١) انظر كذلك: (حتى الملائكة تسأل).

بقوة، وفاعلية أقوى. وبما أن السائل يؤمن، على ما يبدو، بأن كتابه منزل من عند الله، فهو إما جاهل بهذا العلم، وإما أن معاييره التي يستخدمها لتقويم الكتاب المقدس تختلف عن المعايير التي يستخدمها لتقويم القرآن.

- **السؤال الثالث (جزء من حديث مطول مع شابة مهاجرة مسلمة تجاهد من أجل أن تجد سلاماً فكرياً وروحياً في دينها الموروث؛ وهذا الجهاد يعد إحباطاً يتكرر ويعاني منه الشباب الأمريكي المسلم):**

> *ذكرت لك في رسالتي الإلكترونية الأخيرة أني كلما درست الإسلام أكثر وازدادت معرفتي به، تقلص إحساسي بالارتباط بالله أكثر. أنا متأكدة أن قولي هذا يبدو لك غريباً لأنك عرفت الله بفضل الإسلام. ولكن الواقع أني كلما دخلت في المسموحات والمحظورات التي يفرضها ديننا، أزداد بعداً عن الله. فمثلاً، كنت متدينة جداً في صلاتي قبل حوالي أربعة شهور، أؤدي خمس صلوات في اليوم في أوقاتها وكل ما يترتب عليها. ومع ذلك لم أشعر أبداً وأنا أصلي بحضور الله، ولم أشعر بالسلم. فصرت أصلي عساه يهديني إلى الحق ويرشدني إلى صراطه.*
>
> *وبعد فترة صرت أشعر أن صلاتي عبء علي. أشعر وكأني أؤديها لأنها هي كذلك، أو لأن الله أمرنا أن نؤديها. أردت أن أنتهي منها. أشعر أن ذلك ليس صحيحاً لي. أليس من المفترض أن تكون الصلاة لحظات هدوء مع الله، حيث نشعر بالارتباط بالله بدلاً من الشعور بالاشمئزاز من الصلاة، وأنها عبء علينا، ومن ثم تزيدنا ابتعاداً عن الله؟ لا أشعر أن عليَّ الإحساس بهذه العواطف السلبية في عبادتي له. وبعبارة أخرى، شعرت أني منافقة أقوم فقط بحركات الصلاة، في حين أني أشعر بالاشمئزاز من القيام بها.*

ثم بدأت أغضب، بالطبع، وشرعت أسأل نفسي: لماذا لا يريدني الله؟ لماذا لا يساعدني؟ لماذا لا يرشدني إلى الحقيقة مع أني أبذل قصارى جهدي وأتضرع إليه كي يساعدني ؟ لقد أسفر هذا الغضب كله والاشمئزاز إلى التوقف عن إقامة الصلاة (منذ ثلاثة أسابيع أو أربعة) وعن دراسة الإسلام.

إضافة إلى هذا أجريت حديثاً مرتين مع إمامي الذي صَدَّني. أشعر أن كل مسلم يحس بأن هناك مؤامرة على الإسلام وعلى المسلمين كافة في العالم، وأننا نحن الضحية دائماً، ولم نكن أبداً مجرمين. يشعرون أن ما يحل بالإسلام من مصاعب ومتاعب سببه اليهود. وأظنني تعبت من سماع ذلك كله لأننا لا نرغب أبداً أن نعرف أين نخطئ، ولا نقبل أبداً أننا يمكن أن نخطئ.

لا أريد، في الواقع، أن أثقل عليك بالحديث عن ذلك كله، بيد أنه ما زال لدي طاقة كبيرة، وغضب كثير، وصراع بشأن ذلك، مما يجعل هذا الأمر يخرج للتعبير عن ذاته. إني أسألك يا دكتور لانغ، لماذا لا يهدي الله بعضنا، في حين أننا نريد أن نغدو راشدين برغبة قوية ؟ لماذا لا يدخل الله في حياتنا في حين أننا نستسلم له ونتضرع إليه كي يدخل قلوبنا؟

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٣].

من الصعب الإجابة عن سؤال كهذا. فهو يكشف عن مشاعر عميقة بالعجز والمسؤولية. فكيف يمكن تحليل شيء شخصي جداً، وغير ملموس، وباطني ؟ الشخصية البشرية بحد ذاتها غامضة لا يسبر لها غور، فما بالك بالطبيعة الإلهية والتواصل فيما بينهما ؟ ليست المسألة مسألة تشخيص مشكلة السُّمنة مثلاً، ووضع برنامج غذائي. فالله لا يخضع لصياغاتنا وقواعدنا، بل

نحن الذين نخضع لقوانينه. وبما أنه يكمن وراء السؤال شوق وتوق، فإن جوابي لا يتعدى خيبة الأمل، لأن المشكلة من الجانب البشري عميقة الجذور مما يبعث على أمل العلاج السريع. الروحية متداخلة جداً مع مفاهيم الإنسان عن الحياة، والذات، والله، بحيث تتأثر بالتقاليد والتعاليم التي تعرضنا لها، وبأنماط الحياة التي عشناها، الأمر الذي يستدعي ضرورة إجراء إعادة توجيه. ورغم التنصل من الدين، فإن توسلاً كهذا لا يمكن تجاهله، حتى وإن كان كل ما نستطيع تقديمه هو النصيحة المبنية في الغالب على الخبرة، لأن الله يهدي من يشاء، وأحياناً يفعل ذلك من خلال مصفاة حدودنا وعجزنا.

من المهم محاولة تجنب الغموض في هذا البحث قدر الإمكان لأن خيالنا يمكن أن يصور لنا توقعات عالية جداً، بحيث يغدو ما نصبو إليه نادراً، هذا إذا كان يمكن الحصول عليه أساساً. ومن جهة أخرى، يصعب تحديد الأحداث الباطنية، وهي تختلف اختلافاً واسعاً في النوع والعمق من شخص لآخر. على أي حال، يجب أن نفترض أن الجهد من أجل الروحانية يعد جزءاً من الطبيعة البشرية وكلنا تقريباً قد شعر بأن هذه المقدرة قد أثيرت قليلاً، على الأقل في وقت ما، بتحريض ما. فتماماً كما لدينا القدرة على محبة غير الله، فمن المحتمل أن يكون لدينا المقدرة على تحريك روحانيتنا وإثارتها حتى بوسائل غير دينية.

فالمتعبدون الذين شاركتهم مواجهاتهم الروحانية في الصلاة يختلفون في أوصافهم. إن شروحهم كما هو متوقع تضرب جذورها على ما يبدو في خلفياتهم الدينية أو ثقافاتهم. كلهم يذكرون إحساسات روحية أو جسدية متمايزة، ولكن بكلمات مختلفة. يذكر بعضهم نوعاً من الشعور كأن السماوات المطبقة تهبط عليهم، وآخرون يشعرون كأن الملائكة تتنزل عليهم، وفريق يشعر وكأنه اغتسل بنور خفي، وقسم يشعر بالدفء يشع من داخله. وأفراد يشعرون كأنهم غمروا برحمة الله أو حبه، أو أن حب الله أو رحمته رفعتهم إلى السماء. ويصف بعضهم أنهم أدركوا وجود شيء غير ملموس. ومن الأوصاف الشائعة

أن المرء يحس ببرودة تجتاح بدنه، وبعضهم يرتجف بغير إرادته، ويشعر آخر بالقشعريرة تسري في جلده. ويختلف طول لحظات الإحساس هذه، فبعضها يدوم ثوانيَ، وبعضها يدوم طوال الصلاة، وبعضها إلى ما بعد ذلك، ولكن أغلبها يدوم فترات قصيرة، كما تتراوح شدة ذلك الشعور ضعفاً وقوة. وغالبية الذين تحدثت معهم أفادوا بأن هذه اللحظات لا تتكرر كثيراً. وكثيرون قالوا : إنها نادرة. ولابد من ملاحظة أن معظم الذين قابلتهم بشأن صلواتهم أفادوا بأنهم لم يشعروا بأي شعور من هذا القبيل، رغم أن كثيرين منهم أتقياء. وعندما سألت أولئك الذين تذكروا لحظات روحية في أثناء الصلاة إن كانوا يشعرون بمثلها خارج الصلاة والعبادة، اعترف الكثيرون أنهم يشعرون بمثل هذه الحالات في مناسبات نادرة، ويكون ذلك على الأغلب عندما يسمعون، أو يشاهدون شيئاً مثيراً أو جميلاً كأغنية موحية، أو كلام أو شعر مؤثر، أو مشهد طبيعي مثير. يقول معظمهم: إن هناك فرقاً بين هذه المشاعر التي تحصل في أثناء الصلاة وتلك التي تحصل خارج تأدية العبادة، بأن الأولى تحدث فجأة دون توقع ومن دون حافز إيحائي مُدرك، ويقول الكثيرون ممن يحصل لديهم مثل هذا الشعور : إنهم يغرقون في مشاعر الخجل أو الندم. يمكنني المجازفة بالقول، انطلاقاً من هذه التحقيقات غير الرسمية، والمجازفة بالحط من قدر التجارب الباطنية: إن هذه التجارب تشبه لحظات الخشية الفائقة التي تجتاح الناس عموماً عندما يتأثرون بعمق، كالأمريكيين عندما يسمعون النشيد الوطني أو يحضرون خطاباً مثيراً يروج لمثاليات، كالحرية العامة والأخوة والعدالة؛ أما الفرق الكبير الذي أستطيع إدراكه - على الأقل استنتاجاً مما قيل لي - هو أن التجارب الروحية تدوم، على ما يبدو، أكثر وشدتها أعظم من لحظات الإثارة غير الدينية ؛ وأنها تحدث دون توقع، وغالباً ما تحصل عندما يشعر المتعبد بتواضع وخشوع عميقين أمام الله، وبندم عظيم، وامتنان كبير لله وحب بالغ. وأرى شخصياً أن (الإحساس الروحي) الذي يجتاحنا لدى سماعنا أغنية مؤثرة أو خطاباً مُلتهباً هو نفسه الشعور الذي يوصل الله به رحمته إلينا في أثناء التعبد، ولكن الله خير العارفين.

وكما ذكرنا في الفصل الأول، تسير الروحانية والنمو معاً. فكلما ازداد نُموُّنا في الخصال والصفات الصادرة عن الله، ازدادت مقدرتنا على تلقي أسمائه الحسنى والإحساس بها، سواء في أثناء التعبد أم خارجه، وفي هذه الحياة وفي الحياة الآخرة. فالعبادة في الإسلام شمولية، والتسليم الذاتي لله يتجلى أكثر بسلوكنا اليومي تجاه الآخرين أكثر مما يتجلى بالشعائر الدينية. وتؤكد سورة الماعون هذه النقطة: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١٠٧/ ١-٧].

وهذا يعلل تلازم الصلاة[(١)] والزكاة[(٢)] في القرآن، لأن الإيمان والصدقات يعزز بعضها بعضاً ويغنيه[(٣)].

---

(١) تقام الصلاة في الإسلام خمس مرات يومياً. تتألف من أوضاع موصوفة، وتلاوة من القرآن مع أدعية شخصية . إنها الركن الثاني للإسلام.

(٢) الزكاة السنوية في الإسلام هي ٢,٥٪ من رأس مال الفرد الذي يحول عليه الحول. إنها الركن الثالث للإسلام.

(٣) انظر على سبيل المثال الآيات التالية : ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٣]، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٨٣]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٧]؛ ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١٦٥]؛ ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٥/ ١٢]؛ ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٨]؛ ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
=

نلاحظ أيضاً، أن الصلاة والزكاة ليستا تضرعاً تطوعياً وتضحية ذاتية، و(التضحية والتطوع) في الإسلام عاليتا التقدير، بل هما (الصلاة والزكاة) مفروضتان ومنظمتان بدقة. هذا هو الحد الأدنى المطلوب من الصلاة والزكاة الذي ينبغي أن يألفه المؤمن؛ تماماً كما ينبغي للرياضي أن يمارس حداً أدنى من التمارين، وللطالب أن يؤدي حدّاً أدنى من الواجبات المدرسية. فالنمو في الفضيلة أشبه بهذين الشكلين من التدريب الشخصي، لأن هذا الأمر يتطلب عزيمة وانضباطاً، ويتطلب الاستمرار ليس فقط لدى شعورك بأنه مفيد لك، أو أنك ألهمت لتقوم به، بل حتى عندما لا تشعر بأنه مفيد لك، أو تشعر أنه غير مريح، أو لا يستحسن من أي شخص غير الله. فضلاً عن أن الممارسة المنتظمة للشعائر الإسلامية تقوي الرغبة في خدمة الله وتنميها، وتحفز المتعبد على أن

= وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٢]؛ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٣١]، ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٥٥]؛ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٧٣]؛ ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤١]؛ ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٧]؛ ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٣]؛ ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٣١/ ٤]؛ ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٥]؛ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل: ٧٣/ ٢٠]؛ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٩٨/ ٥].

يقوم بأكثر مما هو مطلوب، كما ينمي الرياضيون والطلبة بصورة نموذجية الحاجة إلى «رفع مستوى» أدائهم.

ومع ذلك، لا يطلب الله الكمال قبل التشرب بمحبة الله. والواقع أن القرآن يقول: إن ما من أحد منا ينبغي أن يكون نقياً تماماً ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٣/ ٣٢] حتى ليذكر باستمرار أن في الأنبياء، المختارين من الله، نقاط ضعف ومواطن إخفاق.

ومع ذلك فهناك صفة واحدة تلين القلب بوجه خاص لتلقي نور الله، وخلافها يؤدي إلى قسوة القلب ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١-٢]. ورغم أن التواضع والخشوع يتعارضان مع الثقافة الأمريكية الحالية، فإنهما رمز المسلم وسجيته المناسبة[1]؛ ذلك لأنهما تميزان

---

(١) انظر الآيات التالية: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٥]؛ ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء: ٤/ ٣٦]؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤]؛ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٢-٤٣]؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود: ١١/ ٢٣]؛ ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٧]؛ ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٣٤ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٤-٣٥]، ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٢/ ٥٤]؛ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٢]، ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا =

وقفتنا الحقيقية أمام الله، والحقيقة أمر حاسم في الحب الحقيقي في أي علاقة، وخصوصاً في علاقتنا مع الله، منبع الحقيقة ومصدرها.

سمعت بمعتنقين للإسلام قلبوا حياتهم كلياً، وتخلصوا من كل مساوئهم السابقة منذ أن نطقوا الشهادة. ولسوء الحظ لم أكن أنا مثالاً موحياً. إذ كنت في بعض الأوقات أخوض صراعاً صعباً لإصلاح نفسي. وجاهدت جهاداً مريراً في تلك الفترة التي تلت اعتناقي للإسلام ضد عادات سيئة كانت متأصلة فيّ، وعانيت من نكسات لدرجة أن صلواتي الخمس اليومية كانت مبللة بدموعي ومشفوعة بتضرعاتي إلى الله كي يساعدني. وعرفت بكل ذرة من كياني حقيقة ضعفي واعتمادي الكامل على رحمة الله. ومع ذلك، في هذه الحالة من إدراك ضعفي الكلي خبرت أكثر صلواتي إثارة لمشاعري وشوقي لله. لا أعلم لماذا منّ الله علي بتلك اللحظات الروحية الشديدة، ولكني أعلم أني صليت بكل خشوع وندم، ورغم أن تلاوتي للقرآن كانت قصيرة وغير دقيقة إلا أنني قضيت وقتاً طويلاً في الصلاة أفرغ قلبي ندماً وتوبة.

ومرت فترات مطولة لم أشعر فيها بقرب من الله، فوقعت عندما شعرت بذلك أول مرة، في حالة من الفزع طال أمدها.

لماذا انسحب الله مني؟ هكذا تساءلت. تضرعت إليه ليجعلني أشعر بعناق رحمته ثانية، ليجعلني أدرك الطمأنينة والجمال اللذين كانا يأتيان إلي على السجيّة. ولكن برغم توسلي المُلحّ ظلت صلواتي غريبة يصعب وصفها.

= يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٧٦]؛ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٨]؛ ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٥]؛ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٦]، ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٣].

ورغم أني عانيت من فترة قنوط، فقد وجدت في النهاية عزاء لعدد من الاعتبارات. أولها طمأنة الله للمؤمنين في القرآن أنه قريب دائماً، ويجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وإن كنا غافلين عن ذلك في كثير من الأحيان. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٨٦].

أما الاعتبار الثاني فكان عندما لم أكن أشعر بالخشوع الذي كنت أتوقعه في صلواتي ؛ إذ كنت أكتسب الكثير منها. لقد أصبح مجرد نظام الصلوات الخمس اليومية في أوقات محددة مصدر قوة خلال فترة كنت فيها تحت تأثير ضغط هائل بسبب اختياري الإسلام. وغدت الصلوات كذلك رياضة روحية، وفرصة لأخرج نفسي بضع دقائق من الفوضى والتوتر الناجم عن متابعة الأمور الدنيوية الزائلة كي أعيد توجيه نفسي وأذكرها بغاية الحياة الحقيقة.

ثم هناك آية في سورة الكهف تخاطب النبي وتخبره بأن الوحي لا يأتي برغبة النبي، بل بإرادة الله. ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٣-٢٤][(١)].

مما تعلمته من هذه الآية أنه ما دام وحي الله والصلاة لمصلحتنا فعلينا بالتأكيد، أن نتذكر أن من غاياتهما الأساسية التسليم لله، وأنَّ الله ليس في خدمتنا وتحت تصرفنا، بل نحن في خدمته وتحت تصرفه. وهذا غيَّر رأيي في الصلاة. إذ أدركت أن الاعتقاد بأن الصلاة وسيلة للحصول على طمأنينة الله والخشوع يعني أنّ الله هو الذي في خدمتنا ومن ثم ننسف وظيفة الصلاة الأساسية.

وأخيراً، هناك توقف الوحي المشهور، إذ بعد تنزل الآيات الخمس الأولى من سورة العلق - مرّ زمن لم يتلق فيه النبي وحياً أبداً. لا يمكن تحديد طول التوقف بالضبط، ولكن يُقدر ما بين ستة شهور وثلاث سنوات. وكانت فترة حزن

---

(١) قيل إن النبي قال لأحد المستهزئين به: إنه سوف يتلقى وحياً حول أسئلتهم في اليوم التالي.

عميق للنبي. وكثيراً ما كنت أفكر لماذا قطع الله الوحي، خصوصاً وأن هذا الانقطاع وَلَّد قلقاً شديداً عند النبي وشكاً في نفسه. لم أجد تفسيراً لذلك، لا في الحديث، ولا في السيرة، ولا في التفسير. على أي حال، شعرت أنه إذا كان الله في حكمته جعل الرسول يعاني فترة طويلة من القلق والعزلة، فمن أنا حتى أصاب بالذعر من فترات لا تلحظ صلواتي؟! لابد لي، بالطبع، من فحص نفسي لأحدد فيما إذا كنت قد فقدت التركيز والهدف في صلاتي، أو إذا كنت قد ارتكبت خطأ في المرة الأخيرة، أو كنت قد تراجعت في إيماني، وكنت أحياناً أشعر بأن إيماني تراجع فعلاً، فأحاول تقويم نفسي، ولكني أعتقد أحياناً أن الله يتركني وشأني.

لذلك صممت أن أستمر في أداء الشعائر الإسلامية شاكراً، وجاهداً في تحسين نفسي، واستخلاص المنافع الإلهية العديدة الناجمة عن أدائها، وأترك مسألة اللقاءات الروحية بيد الله صاحب الشأن وحده. وقلت لنفسي: حتى لو لم أتمتع بعد بلقاء روحي طوال حياتي، فسأكون شاكراً لما منَّ الله علي به من أشياء أخرى.

وبعد ذلك، وقبل مضي وقت طويل، بدأت أشعر بأن الله أخذ يحيطني برحمته، أحياناً في الصلاة، وأحياناً في التأمل، حتى وأنا بصحبة آخرين أحياناً. ومع ذلك، فإن أكثر خبراتي الروحية كثافة وشدة هي تلك التي تعود إلى المرحلة الأولى من اعتناقي للإسلام. أعلم أنه من السخف محاولة شرح ذلك، ولكني أعتقد حقاً ما كنت لأصل إليها من دون ذلك، فعلى الرغم من قناعتي بأن القرآن منزل من عند الله عن طريق الوحي، وقناعتي وإيماني بنبوة محمد، فإن ذلك الإيمان كان يمكن أن يتراجع لولا عون الله. إذ بلغ الأمر بي أن لم أعد أشك في الإسلام فحسب، بل صرت أشك في نفسي أيضاً. فلم أكن أصدق أن بإمكاني التغلب على ارتكاب الأخطاء والآثام التي ألفتها، وشعرت في كثير من الأحيان أن عليّ الهروب من المجتمع بدلاً من البقاء فيه منافقاً، إلا أن لحظات الرحمة الإلهية هذه ألهمتني الصبر. وبعبارة أخرى، أشعر أن لحظات العطف الإلهي تلك لها علاقة برحمة الله وبضعفي أكثر من أي شيء آخر. أكتب ذلك

لأنني لا أريد للقراء أن ييئسوا من رحمة الله إذا لم يحظوا بلحظات روحية في صلاتهم، كما حصل للسيدة المذكورة. لأن ذلك لا يعني أبداً أنهم خسروا رعاية الله وعطفه. أعرف أتقياء كثيرين لم يحظوا بحياتهم، أو نادراً ما كانوا يحظون، بمثل هذه الفترات الروحية، ولكنهم ينعمون بسعادة هائلة وسلام داخلي - وهي حالة من الرخاء الداخلي الذي أخذ ينمو بالتدريج دون أن يدركوا ذلك، على مر السنين - بفضل الالتزام الثابت بالإسلام. وبقولي هذا أحاول أن أقدم نصيحة عملية للمسلمين الأمريكيين الشباب الذين أُحبطوا في صلواتهم.

بدأت ابنتي الكبرى - وهي الآن في السابعة عشرة من عمرها - تشكو منذ سنوات من خبرتها في الصلاة، وترى أنها جافةٌ جداً ولا معنى لها. وأخيراً تركت الصلاة كلياً، ولم تعد إليها رغم حثنا لها. وبعدما تباحثت معها في الأمر، قدمت في النهاية بعض الاقتراحات. قالت لي : إنه ليس لديها فكرة عما تتلوه بالعربية من القرآن، وأنها تشعر وكأنها مثل الببغاء تردد شيئاً بلا فهم، الأمر الذي جعل الشعائر الدينية في نظرها قاحلة جدباء تماماً. اقترحت عليها أن تصلي بالإنكليزية، حتى تلاوة الآيات القرآنية، لفترة من الزمن، وترى إن حصل أي فرق. ونصحت لها أن تتعلم، في هذه الأثناء، معنى ما تقرؤه من آيات عربية، ومن الأفضل أن تتعلم المعنى كلمة كلمة، وأني وزوجتي سوف نساعدها في ذلك بحيث تتمكن فيما بعد من انسجامها في صلاتها مع الفهم الحقيقي لها. وشاركتها في أن أتلو الآيات عندما أصلي وحدي بالعربية وأتبعها بترجمتي الخاصة بالإنكليزية، وأن تعمل هي مثلي في يوم من الأيام.

وقالت لي : إنها تجد من المستحيل التقيد بخمس صلوات في اليوم، وتملك قوة الإرادة اللازمة لذلك. فقلت : إن البدء بأداء خمس صلوات باليوم ربما يكون كثيراً عليها، ومثلها في ذلك كمثل من أراد أن يحافظ على لياقة جسمه بأن يركض عشرة أميال يومياً، ولكنه توقف بعد اليوم الأول لأنه اختنق وتعسَّر تنفسه. فاقترحت على ابنتي أن تبدأ بنظام مريح مثل أداء صلاة المغرب كل يوم، أو ربما صلاة العصر والمغرب، ونصحتها أن تواظب على ذلك، ثم ترفع المستوى عندما تشعر أنها جاهزة لذلك.

وقلت لها: إن بعض الناس يحبطون في تعبدهم بسبب آثامهم، إما بسبب أمور ارتكبوها في الماضي ولا يستطيعون نسيانها أو بسبب أمور يرتكبونها الآن ولا يستطيعون التغلب عليها. قلت لها في مثل هذه الحالة عليهم أن يخبروا الله بها في صلواتهم ويطلبوا مساعدته وعفوه، والأهم من ذلك كله أن يثقوا تماماً بأن الله سيساعدهم إن كانوا مخلصين في تضرعهم إليه.

نصحتها أن يكون معظم صلاتها فرصة للتعبير عن نفسها أمام الله ؛ وتخبره بمخاوفها، وآمالها ، ومشاكلها، وأن تطلب منه العون والهداية ؛ وأن تصلي وتدعو من قلبها. خطر لي أنه ربما لهذا السبب تعد الصلاة رتيبة ولا معنى لها، لأننا نميل إلى جعلها كذلك لكوننا شكليين جداً.

إنني أنصح أبنائي كلهم أن يكلموا الله من قلوبهم حتى ولو بكلمات قليلة في كل صلاة.

واكتشفت كذلك أنها تخاف الله خوفاً مرعباً يشلها عن العمل، كانت قد تشربته من الجالية الإسلامية عندما كانت صغيرة في طور النمو، وحوّل صلاتها إلى مجرد وقفة أمام من تراه إلهاً مخيفاً مرعباً. فطلبت إليها أن تعيد توجيه تفكيرها بشأن الله ؛ وأن تذكر نفسها بآيات القرآن الكثيرة، وأحاديث النبي التي تؤكد أن الله غفور رحيم، وأنه لا يطلب الكمال منا. وذكرتها أن القرآن أنزل على شعب كانت أكثريته تحارب الحقيقة، ولذلك حذرهم وهددهم، ولكنه يطمئن المؤمنين بالله والذين يجاهدون في سبيله. وقلت لها : إننا جميعاً نخطئ ونخفق، وإنها فتاة طيبة، وإن الله يقول في القرآن: إن الأشرار فقط هم الذين يعذبون في الآخرة.

أدركت بالطبع أن نصيحتي لابنتي لن تكون شفاء تاماً للشباب الذين لا يقيمون الصلاة، وأنا لا أقدم هذه النصيحة على أنها الوحيدة. بل كلي أمل في أن تشجع الآخرين على التفكير بصورة إبداعية، بطرق لمواجهة مثل هذه المشاكل. أما ابنتي فتركتها وشأنها مدة من الزمن. ولم أراقب مدى تقدمها، إذ شعرت أنه من المهم عودتها هي إلى صلاتها بمبادرة منها من أجل علاقتها بالله، بدلاً من أن تكون عودتها من العلاقة معي. وبعد شهر وجدتها تصلي عندما دخلت لأقبلها قبلة ما قبل النوم. فسألت زوجتي عنها فقالت: إنها تصلي بانتظام. وبعد

شهر آخر قالت لي زوجتي: إنها تقيم الصلوات الخمس يومياً. وبعد بضعة أسابيع سألتها عندما كنت أجلس وإياها وحيدين ذات مساء إن كانت قد جنت شيئاً من صلاتها فقالت: إنها جنت خيراً. لا أظن أن نصيحتي لعبت دوراً أساسياً في عودتها إلى الصلاة - إذ يدلني حدسي أن ذلك الأمر شخصيٌّ جداً بينها وبين الله - والله أعلم.

- **السؤال الرابع (من شاب في منتصف الثلاثينات من عمره، ويتعلق السؤال بالآية ٣٤ من سورة النساء بشأن ضرب الزوجة. معظم الذين يتصلون بي لبحث الدين هم من المسلمين الأمريكيين من أبناء الجيل الثاني أو المسلمين الجدد، ولكني أتلقى رسائل إلكترونية، أيضاً من أمريكيين غير مسلمين مهتمين بالإسلام. والقضية الكبرى لدى هؤلاء، بغض النظر عن جنسهم ذكوراً أو إناثاً، هي وضعية المرأة في المجتمع الإسلامي. وأكثر موضوع يطفو على السطح في هذا المجال هو، ضرب الزوجة، وهو أكثر المواضيع سخونة في الإنترنت).**

ما زلت أفكر في اعتناق الإسلام، ولكني لا أستطيع تجاوز بعض القضايا. معظم مشكلاتي تتعلق بمعاملة المرأة. وفي رأس القائمة الآية ٣٤ من سورة النساء التي تأمر الأزواج أن يضربوا زوجاتهم العاصيات. أنا آسف، ولكن أن تضرب زوجتك لمجرد أنها لا تستجيب لأوامرك - بصرف النظر عن مدى معقولية هذه الأوامر - يعد خطأ فادحاً. إنني مهتم بمعرفة موقفك من هذه المسألة.

- **السؤال الخامس (هذا السؤال أيضاً حول ضرب الزوجة، طرحه أحد المسلمين الجدد في أواخر العشرينات من عمره) :**

كنت أبحث في الإنترنت، ذات يوم، عن معلومات حول وضعية المرأة في الإسلام. تقدم المواقع غير الإسلامية التي تقتبس من مصادر إسلامية صورة مروّعة، وكذلك بعض المواقع الإسلامية الأكثر تحفظاً.

فلاحظت أن معظم صفحات المواقع الإسلامية التي تدافع عن وضع المرأة في الإسلام لا تتعرض لأكثر الأحاديث المربكة التي تستشهد بها المواقع المسيحية.

كما عثرت على العديد من المواقع الإسلامية التي تقول : إن كلمة (ضرب) الواردة في الآية ٣٤ من سورة النساء لا تعني المفهوم التقليدي، بل لها معان حميدة أخرى مثل: (ينفصل) أو حتى (ممارسة الجنس)، فكان رد فعلي الأول : «أوه يا له من انفراج !!». كما كنت أشعر دائماً أن الدفاع العام السائد الذي يقول: إن (ضرب) في هذه الآية تعني في الواقع (ربَّت)، أو نقر بسواك، أو «ضرب ضرباً عنيفاً بمنشفة» إنما هو تفسير تجميلي. وعلى الرغم من أنني انتشيت بادئ الأمر لاحتمال كون معنى ضرب ليس هو المفهوم التقليدي، فقد فكرت فيما بعد أن ذلك ربما يكون مجرد محاولة يائسة للتمسك بأي شيء يمكن أن يخرج الإسلام من الصنارة. أعني هل كان المسلمون يفهمون هذه الكلمة خطأ طوال هذه القرون؟! وبدلاً من أن أهيم بفك الأفكار، دعني أوجه إليك سؤالاً بسيطاً: هل تعتقد أن لهذا النقاش اللغوي أي منفعة؟

الرجال هم الذين يعيلون النساء وينفقون عليهن من أموالهم، لذلك فضلهم الله عليهن درجة(١).

---

(١) إن الآيتين السابقتين للآية ٣٤ من سورة النساء تبين بجلاء أن للمرأة نصف ما للرجل من الميراث ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٤/ ١١]، ويشار إليها هنا . نص الآيتين كما يلي: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٣٢ وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا
=

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٣٤-٣٥][(١)].

كانت هذه القضية من أصعب القضايا الشرعية الإسلامية التي تأملت فيها كثيراً منذ اعتناقي للإسلام. وفي كلِّ مرة أفكر فيها أتذكر أمي وما كانت تتحمله من والدي تلك السنين كلها. وأعلم كم تجرح الأولاد معاملة الأب السيئة للأم.

والحقّ أقول: إنني لم أنتبه لهذه الآية عندما قرأت القرآن أول مرَّة، أو ربما اختار المترجم عبارة أكثر غموضاً، أعتقد أني لو قرأت هذه الترجمة المذكورة من قبل لوضعت القرآن جانباً وتخليت عن الفكرة منذ ذلك الحين. ولكن، مرة أخرى، ربما يكون السبب هو كون هذه الآية قريبة من بداية النص وعند تلك النقطة التي كنت مهتماً بما يقوله القرآن عن معنى الحياة، لذلك فاتتني هذه الآية لأنها لا تتعلق مباشرة بهذه القضية. وبعد أن اقتنعت بوجود الله وبأن القرآن منزل من عنده لم تعد حيرتي بشأن آية تهز إيماني، بل صرت أشعر بأن من واجبي أن أتفاهم معها. وعلى القارئ أن يغفر لي إذا ما بدَوْت منكباً على الخلفيات لأوفق هذه الآية مع المفاهيم والمشاعر الغربية. فأنا متأكد من أن الكثيرين منهم قد نشؤوا في بيوت يسودها الحب والوئام، ولن ينظروا إلى الآية (٣٤) من سورة النساء بوصفها بطاقة بيضاء تخول الرجال ضرب نسائهم ؛ فغالبيتهم سوف يرضون باقتباس ما رآه علماء المسلمين الأقدمون والمحدثون الذين يقولون : إن هذا الإذن إنما هو رمزي في جوهره. ومع ذلك، يراودني طيف من الطبع المتوحش الغاضب الذي يرفض هذا الرأي أو لا يعترف عليه،

= مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ٣٢-٣٣].

(١) الوعظ يعني النصح، ومخاطبة الضمير، والتحذير، والحث والتذكير.

ويستغل ما يراه رخصة منحت له من الله للسيطرة على زوجته بالعنف. وأعلم أن ما أكتبه هنا لن يؤثر في مثل هذا الموقف، ولكني أفعل ذلك تعاطفاً مع الذين يرتادهم الكابوس نفسه.

سأنظر إلى هذا النص من زوايا مختلفة. أولاً : سوف أركز بوجه خاص على الترجمة وعلى بعض الكلمات الجوهرية في النص ومعانيها المحتملة، فأترك جانباً، وبصورة مؤقتة، كل الأدلة الخارجية من الحديث وتفسيرات العلماء. ثم أدرس بعض أهم الأحاديث التي يستشهد بها في هذا الموضوع. وأخيراً، أذكر كيف فهم الفقهاء المسلمون الآية (٣٤) من سورة النساء ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

حاولت أن أكون حرفياً قدر الإمكان في الترجمة المذكورة قبل قليل للآيتين (٣٤ و ٣٥) من سورة النساء. تفسير النص يعد أمراً مباشراً، ولكن هناك أربع نقحرات[1] لعبارات عربية تطرح بعض الصعوبات. إن وصف النساء الفاضلات المطيعات بأنهن (قانتات) ربما يعني أنهن مطيعات لله، كما يتبين بوضوح بالمقارنة مع الآيتين (٣١ و ٣٥) من سورة الأحزاب ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، والآية (٥) من سورة التحريم ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾؛ أو ربما تعني

(١) النقحرة كتابة كلمة من لغة برموز أخرى من لغة أخرى، مثل نقحرة الكلمة العربية «قانتات» هي (qanitat)، وبموجب النقحرة التي ابتكرها مترجم هذا الكتاب تكتب (q* anitat) . (المترجم).

المطيعات لأزواجهن، ويبدو لي المعنى الأول مفضلاً أكثر لأن كلمة (قانتات) تستخدم هنا لتصف (الفاضلات، التقيات، الصالحات)، ومن ثم فهي تدل على صفة دينية.

كلمة (الغيب) تعني (غياب) أي: (الغائب، المخفي، غير المرئي، غير المدرك أو السر). معظم المفسرين يفضلون معنى : (الحافظات للسر). وهذا يتفق مع الحديث المشهور[1] الذي سنأتي إليه بعد قليل. وأما المعنيان الأولان فيتوافقان مع التوجه الكلي للآية ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٤/ ٣٤] التي تحاول التعامل مع الخلاف الزوجي سرّاً فيما بين الزوجين، قبل اللجوء إلى تحكيم خارجي كما هو موصوف في الآية (٣٥) من السورة نفسها ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾.

ليس لدى المعاجم ما تقوله في الاسم (نشوز). إذ تعني عموماً (الحقد)، أو (العدوانية) أو (العداء) أو (كراهية) أو (تنافر). تقدم المعاجم عموماً معنى «عصيان الزوجة لزوجها» إذا طبقت الكلمة على المرأة المتزوجة، و«وحشية الرجل تجاه زوجته» لدى وصف الرجل المتزوج. يبدو أن هذين المعنيين المتعلقين بالزواج والجنس ليسا جاهليين بل يعكسان أثر التشريع الإسلامي. وفيما بعد في السورة نفسها، الآية (١٢٨) ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ يبحث القرآن ما على المرأة أن تفعل في حال نشوز زوجها، ومرّة أخرى، نفترض أن سامعي القرآن الأوائل أخذوا بهذا المعنى الأشمل «الكراهية، العداء.. إلخ».

---

(١) انظر الحديثين (١ و ٢) اللذين سيذكران.

إن الفعل (ضرب) في صيغته الأمرية «اضربوا» الذي يرد في هذه الآية غني بمعناه. يفرد بحث لين (Lane) في قاموسه الشهير بضعة أوراق لمعنى هذا الفعل. ومن بين عشرات الدلالات المدرجة ما يلي : «يقرع»، «يضرب»، «يصفع»، «يطلق النار على»، «يعزف»، «يفصل»، «يفترق»، «يفرض»، «يبتعد عن»، «يتحاشى»، «ينفر»، «يلدغ»، «يهمل»، «يتجاهل»، «لا يأبه ب». ومع ذلك، ليس من الصعب حصر معناها في قتال معين، كما يبدو للوهلة الأولى، لأن الأفعال بالعربية تكتسب دلالات تعني «ابتعد عن، ترك، تجنب، نفر من»، وفي النص المطروح في السؤال فإن فعل «ضرب» لا يقترن بأي من حرفي الجر هذين. ومع ذلك يبين لين (Lane) أن صيغة الأمر «اضربوا» مع حرف الجر «عن» أو من دونه يمكن أن تعني «تجاهلوا» أو «لا تأبهوا» أو «ابتعدوا عن» مثل «يضرب»، «يقرع»، «يصفع» أو بالتناوب «أبعدوهن، تجاهلوهن، انفروا منهن».

يقول المفسرون: إن الآية (٣٤) من سورة النساء تطرح سلسلة من أولويات خطوات لا تتخذ بآن واحد. إن تعاظم القسوة في الأعمال التالية تدعم وجهة النظر هذه. وهكذا نحصل من التحليل المذكور آنفاً على إجراءين محتملين بناء على المعنى الذي نعطيه لكلمة «اضربوا»، يمكن أن يلجأ إليهما الزوج الذي يخشى تعاظم كراهية زوجته له ونفورها منه. فإذا فسرنا كلمة «اضربوا» بـ «اقرعوا» فمعنى ذلك أن على الزوج أن ينصح زوجته ويحذرها أولاً. فإن لم يُجد ذلك، يهجرها في الفراش فترة من الزمن. وإن أخفق هذا الإجراء فعليه أن يضربها، رغم أن علماء المسلمين يصرون على أن يكون الضرب خفيفاً. وإن ظلت على كراهيتها له، وظل عنده أمل في أن ينقذ الحياة الزوجية عندئذ، كما تقول الآية (٣٥) من السورة ذاتها يؤتى بحكم من أهله وحكم من أهلها للمساعدة في إصلاح ذات البين. هذا آخر إجراء يلجأ إليه، بالطبع، ذلك لأنه عندما يتدخل الأهل في النزاع بين الزوجين، فإن المرارة التي تتولد تجاه الصهر أو الكنة تستمر ولو طوى الزوجان صفحة الخلافات، الأمر الذي يمكن أن يولد شقاقاً زوجياً فيما بعد.

فإذا ما افترضنا أن معنى «اضربوا» هو «ابتعدوا عن» فإن كل ما قلناه في الفقرة السابقة يتفق مع هذا المعنى، ما خلا الخطوة الثالثة. انطلاقاً من هذا

المنظور إذا ما أزعجت زوجة زوجها بعدائها له، وإذا لم تسفر النصائح والتحذيرات، التي يتبعها هَجرٌ في الفراش مدة معينة، عن المصالحة بينهما، عندئذ يحاول الزوج إهمال زوجته زمناً ما. وإن ظل بعد ذلك كله زواجهما مضطرباً، يؤتى بممثلين عن أسرتي الزوجين ليكونا حكماً بينهما.

ومن المنظور العقلاني البحت، يعد هذا التفسير هو المفضل لأنه فيما يتعلق بمفهوم الضرب فإنه من الصعب فهم كيف يمكن أن يخفف العقاب المادي من اشمئزاز الزوجة من زوجها. إذ يظن المرء أن مثل هذا العقاب يولد العكس. ومن جهة أخرى يُعد التوجه إلى ضمير المرأة، ومن بعد ذلك التوقف عن ممارسة الجنس معها مدة، وبعد ذلك اللجوء إلى المعالجة الصامتة، كلها خطوات سابقة غير شديدة، يمكن أن تنقذ الزواج إذا كان لدى الزوجة بقية من حب عميق في قلبها لزوجها. هذا التفسير لكلمة «اضربوا» يتوافق مع التوصيات الأخرى كلها بما فيها الخطوة الرابعة وهي إحضار حكمين من أهليهما ليصلحا بينهما.

وقبل الالتفات إلى أدب الحديث لمزيد من التوضيح، نستكمل باختصار فحصنا للنشوز الزوجي في القرآن بفضل دراسة هذه الآية ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ١٢٨].

نلاحظ هنا غياب الخطوات الواردة في الآيتين (٣٤ و ٣٥) من سورة النساء الآنفتين. بعد تأكيد القرآن بأنه لا حرج في أن تحاول المرأة حل المشكلة مع زوجها بالتفاهم فيما بينهما، يبحث القرآن موضوع انفصال الزوجين. إن العبارة التحذيرية ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ توحي بأن على الزوجة أن تلتزم جانب الحذر في محاولتها حل الإشكال مع زوجها فيما بينهما لأن مواجهة الزوج العدواني تتمخض عن مجازفات ومخاطر. ولهذا السبب ينتقل القرآن فوراً إلى الانفصال، ومن ثم إذا كان الزوج يبدي عدواناً على زوجته فإن عليها أن تحاول إصلاح الأمر سلماً، ولكن ربما تكون مصلحتها أفضل في الانفصال عنه رسمياً،

وخاصة إن ازداد عدوانه عليها أو إذا هجرها عملياً. وعند هذا الحد يمكن أن تلجأ إلى أسرتها إما لإصلاح ذات البين أو لإنجاز الطلاق.

رأينا حتى الآن أن التفسيرين اللغويين للآيتين (٣٤ و ٣٥) من سورة النساء محتملان، أحدهما يسفر عن إجراء يتضمن ضرب الزوجة، والآخر يسير في اتجاه بعيد عن العنف الجسدي. أعتقد أن المسلمين في العصر الحاضر يفضلون التفسير الثاني، ما دامت الغاية واحدة، ولكن إذا ما أخذنا الأحاديث النبوية التي تتعامل مع هذا الموضوع تضعف الحجة.

يتضمن أدب الحديث عدداً من الأحاديث التي تبحث مسألة ضرب الزوجة. وفيما يلي أحاديث (رُقِّمَتْ من أجل الرجوع إليها فيما بعد) مأخوذة من أكثر الصحاح ثقةً وتقديراً.

١. عن عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب : «... وذكر النساء فقال: يعمد أحدكم يجلد امرأته جلد العبد فلعله يضاجعها من آخر يومه. ثم وعظهم في ضحكهم من الضرطة، وقال: لم يضحك أحدكم مما يفعل؟..»[١].

٢. عن عمرو بن الأحوص قال: حدثني أبي أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ... فقال: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا وإن لكم على نسائكم حقاً ولنسائكم عليكم حقاً، فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، وألا حقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»[٢].

---

(١) البخاري رقم (٤٦٥٨).

(٢) رواه الترمذي، وهذا جزء من رواية أطول في صحيح مسلم.

٣. عن لقيط بن صبرة... قال : قلت يا رسول الله إن لي امرأة، وإن في لسانها شيئاً، يعني البذاء قال: «فطلقها إذن»، قال: قلت: يا رسول الله: إن لها صحبة ولي منها ولد قال: «فمرها، يقول: عظها، فإن يك فيها خير فستفعل، ولا تضرب ظعينتك كضربك أُميَّتك....»[١].

٤. روى معاوية بن حيدان قال، قلت: يا رسول الله نساؤنا، ما نأتي منهن وما نذر؟ قال: «ائت حرثك أنّى شئت، أطعمها إذا طعمت، واكسها إذا اكتسيت، ولا تقبح الوجه، ولا تضرب»[٢].

٥. أخبرني أحمد بن يوسف المهلبي النيسابوري... عن جده معاوية القشيري قال: أتيت رسول الله ﷺ قال فقلت: ما تقول في نسائنا؟ قال: «أطعموهن مما تأكلون، واكسوهن مما تكتسون، ولا تضربوهن ولا تقبحوهن»[٣].

٦. عن حكيم بن معاوية القشيري عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت...»[٤].

٧. عن إياس عبد الله بن أبي ذباب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تضربوا إماء الله» فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذئرن النساء على أزواجهن، فرخَّص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال النبي ﷺ: «لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم»[٥].

---

(١) أبو داود، رقم (١٤٢).
(٢) أبو داود، رقم (٢١٤٣).
(٣) أبو داود، رقم (٢١٤٤).
(٤) أبو داود، رقم (٢١٤٢).
(٥) أبو داود، رقم (٢١٤٦).

٨. عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ قال: «لا يسأل الرجل فيما ضرب امرأته»[١].

٩. (انظر الحديث رقم (٢) هو نفسه.

إن أول ما نلاحظه في بحثنا عن الأحاديث النبوية التي تتعامل مع ضرب الزوجات هو ندرة ذلك في كتب الحديث الأقدم والأصح. فموطأ الإمام مالك (المتوفى ١٧٧هـ = ٧٩٣م) أقدم مجموعة حديث تصل إلينا، لا تتضمن أقوالاً مباشرة للنبي من هذا النوع. وصحيح البخاري (المتوفى ٢٥٦ هـ = ٨٦٩م) ليس فيه إلا حديث واحد من هذا النوع، يستنكر بشدة ضرب الزوجة [الحديث (١) المتقدم]. وفي صحيح مسلم (المتوفى ٢٦١هـ = ٨٧٤م) حديث واحد [الحديث (٢) المتقدّم] يتعامل مع هذا الموضوع. وبالمقابل فعندما نأتي إلى سنن أبي داود (المتوفى ٢٧٥هـ = ٨٨٨م) نجد ستة أحاديث تتعلق بضرب الزوجة [الأحاديث من (٣-٨) السابقة]. في الحديث (٣) يمنع النبي صحابياً من ضرب زوجته الناشز. والأحاديث من (٤-٦) تعد نسخاً مختلفة لحديث واحد من مصدر واحد، الأمر الذي يجعلنا نحار أي معاوية روى الحديث معاوية القشيري أم معاوية بن حيدان)[٢] هذه الصيغ الثلاث من الحديث كلها تحرم ضرب الزوجة وشتمها. أما في [الحديث (٨) السابق] فإن النبي يحرم في البدء ضرب الزوجة، ثم يسمح به، وبعد ذلك يلوم الذين يفعلون، ويؤنبهم بقوله: «وهم ليسوا خياركم». في حين أن [الحديث (٨) السابق] يطلق يد الزوج في المسألة. أما [الحديث (٩)] الذي في صحيح الترمذي، فيبدو أنه نسخة أخرى من [الحديث (٢)] إنه يبين الموقف المتفق عليه باختصار. وتشترط معظم الأعمال الكلاسية - التي تبحث ضرب الزوجة - ألا يكون الضرب مبرحاً، وأنه لا يسمح به إلا في حالات السلوك السيئ الفاضح، كما هو وارد في هذا الحديث (٢) المتقدم.

---

(١) أبو داود، رقم (٢١٤٧)

(٢) ما لم يكن الاثنان واحداً نفسه في الواقع، وأن معاوية بن حيدان من قبيلة قشير. يبدو أن ابن حيدان هو مصدر نحو اثنين وأربعين حديثاً.

من دون أن ندخل الصيغ المختلفة للحديث في الحساب نجد الروايات المذكورة المتقدمة مقسمة بالتساوي بشأن هذه القضية: ثلاث تستنكر ضرب الزوجة وثلاث تسمح به، على الرغم من أن واحداً من هذه الأحاديث الثلاثة الأخيرة، يعنِّفُ من يضرب زوجته [الحديث (٧) المتقدم] ضرباً مبرحاً. وحديثان آخران هما (٢) و (٩) المتقدمان يضعان قيوداً على قسوة العقوبة أو التأديب، ويبين متى يسمح بالتأديب. لا نجد لدى العلماء الأقدمين تفسيراً واضحاً لهذا التباين: حرَّم النبي أساساً ضرب الزوجة، ولكن بنزول الآية (٣٤) من سورة النساء عدّل موقفه. حتى إن حديثاً يشهد بذلك ويؤيده: حدثنا الحسن أن رجلاً لطم امرأته فأتت النبي ﷺ فأراد أن يقصها منه، فأنزل الله تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء: ٣٤/٤] فدعاه النبي ﷺ، فتلاها عليه، وقال: «أردت شيئاً، وأراد الله غيره»[(١)].

على الرغم من أن هذا الحديث يقدم تفسيراً أيضاً فإن علماء المسلمين يشكون فيه.

لأنه أولاً: برواية شخص واحد هو الحسن البصري، وهو حديث مرسل[(٢)].

ولأنه ثانياً: يشير إلى أن تحذيرات النبي بهذا الشأن قبل نزول الآية (٣٤) من سورة النساء كانت موقفاً شخصياً، وهذا ينافي ما هو معروف أن النبي في أحاديثه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

لا يحتاج التوفيق بين الأحاديث من (١-٩) وحقيقة أن الأحاديث كلها كانت بوحي، وتوقيت نزول الآية التي في ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ

(١) الرازي «التفسير الكبير» الآية (٣٤) من سورة النساء.

(٢) مرسل (غير كامل) تعني أنّ صحابياً رواه عن النبي، ولكن من دون تحديد الصحابي الذي رواه.

أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٣٤] إلى عبقرية كبيرة. فالحل الأبسط افتراضنا أن النبي منع في الأصل ضرب الزوجة، ثم نسخ هذا التحريم [الحديث (٧)]، وكل ذلك بوحي من الله، وكان بعد أن نزلت الآية (٣٤) من سورة النساء. ومن هذا المنظور إن أخذنا كلمة «اضربوا» بمعنى الضرب التقليدي تكون الآية منسجمة مع السُّنة الموحاة، لأن الآية نزلت بعد أن ألغى النبي حكمه في منع ضرب الزوجة وسمح بذلك. هذا هو موقف الإمام الشافعي الذي استشهد [بالحديث (٧)][1].

اقتبست الأحاديث المذكورة قبل قليل من كتب الأحاديث التي يقدرها أهل السُّنة تقديراً عالياً[2]. ويعد صحيحا البخاري ومسلم أكثر مصادر الحديث ثقة، ويؤمن معظم المسلمين بأن ما ورد فيهما من أحاديث صحيحة قطعاً. أما سنن الترمذي وأبي داود فموثوقان كذلك على نطاق واسع كصحيحي البخاري ومسلم رغم أنهما يحتويان بعض الروايات المشكوك فيها. على كل حال، لم أستطع أن أجد تعليقات سلبية على أي من هذه الأحاديث على أسس التحليل الإسنادي، رغم أن ذلك لا يؤكد أن هذه الأحاديث لم تتعرض إلى النقد، بل يعني أني أنا لم أستطع أن أجد مثل هذا النقد.

يقيد علماء الحديث نقدهم للحديث بالإسناد فقط، ولكن فحص متون الأحاديث ربما يقدم دليلاً على صحتها. وأعتقد أن المبدأ العام الذي يمكن قبوله هو أنه كلما كانت التعاليم الأخلاقية للحديث متقدمة على زمانها ازداد احتمال كونها تعاليم نبوية أصيلة. لأنه لو تحدى أي مفهوم تلك الثقافات التي أنتجت أجيال المسلمين القليلة الأولى، لكان من الصعب التخيل كيف حاز

---

(١) الرازي «التفسير الكبير»، الآية ٣٤ النساء . واستنتج الشافعي بناء على هذا الحديث أن ضرب الزوجة، مسموح به، ولكنه غير مفضل ولا محبب . ويبدو أن الشافعي إما أنه لم يطلع على الحديثين (٢) و (٩) المتقدّمين، وإما أنه لا يثق بهما، لأنه لم يستشهد بأي منهما لدعم رأيه.

(٢) ٨٥٪ تقريباً من مسلمي العالم من أهل السنة.

على قبول واسع النطاق، ما لم يكن صدر فعلاً عن النبي نفسه. ومن ثم، فنحن واثقون بناء على هذه الأسس وحدها، بأن الأحاديث المذكورة التي تحرم ضرب الزوجة مبنية على تعليمات نبوية صادقة وصحيحة. ولا بد لنا من أن نتذكر أن النساء كن أدنى درجة من الرجال في الحضارات التي خضعت لحكم المسلمين في القرنين الهجريين الأولين. إذ كان وضع المرأة مقابل الرجل كوضع أولاده، وكثيراً ما كانت المرأة تتزوج مباشرة بعد بلوغها الحلم. ومن هذا المنظور، لم تكن المرأة، في العاطفة والفكر، أكثر من طفل، إذ كانت مهمتها في المجتمع محصورة بالحمل وتربية الأطفال وإشباع حاجة الرجل الجنسية. ففي هذه البيئة حيث الزوجة في رعاية زوجها أساساً وتحت مسؤوليته، يعد منع الرجل من تأديب زوجته التأديب الجسدي أمراً غريباً عن حضارة العصر[1].

حتى في الجزيرة العربية أيام الجاهلية حيث كانت المرأة أكثر حرية وأقل معاناة من النساء في الثقافات المحيطة والأكثر تقدماً، كن أدنى درجة من الرجال. وكان النظام العشائري الأبوي العربي ينظر إلى المرأة على أنه مخلوق غير عاقل، عابث، مشغول بتزيين نفسه وتجميلها واكتساب الحلي. والقرآن يقدم التفصيلات الصارخة الآتية في هذا الأمر: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/١٦-١٨]. ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٥٧-٥٩].

رأينا هنا عَرَضين متطرفين متبادلين من الاحتقار المَرَضي للمرأة : الهيام بموضوع خيالي مستحيل المنال من موضوعات رغبة الرجال، وفي الوقت نفسه خنق وتحقير للأنوثة الحقيقية.

---

(١) جمال، أ. بدوي، «وضع المرأة في الإسلام»، MSR & US & Canada (١٩٧٦)، ص ٥-١٠.

إن كراهية النساء في ذلك العصر انعكست كذلك بالطرق الواقعية التي كانت المرأة تعامل بها بوصفها ملكاً للرجل. إذ كانت القبائل تغزو بعضها بعضاً لأخذ النساء غنائم. وكان مالكو العبيد يجبرون إماءهم على البغاء ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٣].

وكان الرجل يستطيع الحصول على عدد غير محدود من الزوجات والسراري. وكان الرجال يضايقون النساء ويراودوهن عن أنفسهن في الطرقات[1]. ويبدو أن النساء كن ينظرن إلى أنفسهن النظرة ذاتها، لأن القرآن يوصي كثيراً بالاحتشام في اللباس[2]، وينهى عن السلوك الفاسق والعاهر

(١) انظر الآيات: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/ ٦٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٩].

(٢) انظر الآيات: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٢٤/ ٣١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/ ٥٨-٦٠]؛ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ =

والمثير للشهوات[١]. وعن الزنى[٢]؛ كل ذلك يدل على أن كثيراً من النساء كن يرين أنفسهن مجرد موضوعات جنسية للرجل. كشفت مسألة تشييئ الأنوثة بصورة صارخة في عادة الظهار التي بموجبها يطلق الرجل زوجته، ولا يسمح لها مع ذلك بمغادرة بيته أو الزواج من غيره، وبمجرد أن يقول الرجل لزوجته: «أنت عليّ كظهر أمي» يستطيع هجرانها بصورة دائمة وفي الوقت نفسه يحبسها في بيته. وبهذه الطريقة يستطيع الاحتفاظ «بنسائه» اللاتي لم يعد له بهن حاجة. ويبدو أن هذا السلوك كان متأصلاً جداً لدرجة أن القرآن أدانه مرتين: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ

= فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٨-٦٠].

(١) انظر الآيات: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١٥-١٦]؛ ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٢٤/ ٣١].

(٢) انظر الآيات: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٢]؛ ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٢٤/ ٢-٤]، ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ٢٤/ ١٣]؛ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٨]؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ١٢].

أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤]. ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢].

يمكن الحصول على مزيد من الأدلة عن كراهية النساء في الجزيرة العربية قديماً من المصادر التاريخية، وقد يكون مبالغاً فيها، ذلك لأن الثقافة التي تغفر الممارسات المذكورة فيما تقدم تحتقر المرأة. وهذا يعيدنا إلى تأكيدنا السابق بأن منع ضرب المرأة كان منافياً للثقافات التي خضعت للحكم الإسلامي في مطلعه، وبناء على المبدأ المذكور آنفاً تزداد قناعتنا أن منع ضرب الزوجة يعود أصلاً إلى النبي، ولكن هل نستشهد بالمبدأ ذاته لدعم [الحديث (٧) السابق] الذي يعنّف ضاربي الزوجات، و [الحديثين (٢) و (٩)] اللذين يسمحان فقط بضرب لطيف للزوجة ؟ أليست هذه الأحاديث خارجة عن سياق ذلك الزمن؟ ربما، ولكن أليس منظر الزوجة كريهاً وهي تضرب بعنف حتى عند أكثر الرجال احتقاراً للمرأة؟ فحظر ضرب المرأة وجلدها يمكن قبوله كحماية لها من القسوة أما حظر العقوبة الجسدية كلها فيعد اعتداء على سلطة الرجل. والنقاش هنا أقل تأثيراً، لأن الأحاديث، على ما يبدو، تحجم عن سياسة أكثر تقدماً.

صحيح أن تحريم ضرب الزوجة، كما يبين [الحديث (٧) السابق] يعد ليبرالياً جداً في الجزيرة العربية زمن القرن السابع. فإذا كان الحال كذلك، فإن تعديل الحظر يفسر على أنه تنازل إلى بدائية ذلك العصر، وأن فرض الحظر الأصلي يمكن أن يكون مثالياً عندما تسمح الظروف. ربما يصر آخرون على أن كلمة النبي الأخيرة نسخت الأولى، مهما كانت الأسباب. وربما ترى أن أي مقاربة أكثر ارتياباً في هذه الأحاديث تهيئة لنظام أبوي يأتي بعد مرحلة النبوة. تعتمد أمور كثيرة على درجة الثقة بهذه الأحاديث المتبقية. كل هذه الأحاديث، كما ذكرنا قبل قليل، صحيحة عموماً، ولكن يمكننا أن نفحص متونها وما يمكن أن يصمد للحقيقة.

لم نقل حتى الآن بشأن [الحديث (٨) السابق] إلا القليل. إنه يُعَدُّ أكثر الأحاديث صعوبة عند أعداء النظام الأبوي. يعد هذا الحديث من أكثر الأحاديث

وروداً في المواقع المعادية للإسلام، ولا يلقى أي اهتمام من الكتاب المسلمين، وهو حول وضع المرأة في الإسلام. ربما يكون السبب أن الحديث لم يُقبل على نطاق واسع، ولكني لم أجد ما يؤكد ذلك. يمكن اعتبار هذا الحديث من دون الأحاديث التي ذكرت كلها خارجاً عن السياق، أي يختلف اختلافاً كبيراً عن البقية. إذ إن الأحاديث الأخرى كلها، تحرم ضرب الزوجة أو تكبحه أو تنظر إليه شزراً، أما هذا الحديث إذا ما أخذ على ظاهره، فيبدو أنه يطلق حرية الرجل في كيفية معاملة زوجته. وبسبب طبيعة هذا الحديث الشاذة، وبالنظر إلى حث القرآن المتكرر على معاملة المرأة معاملة لطيفة وعادلة، أشك أن يمثل هذا الحديث تعاليم النبي الصحيحة.

ينسب [الحديثان (٢) و (٩) السابقان] نصائح النبي بشأن معاملة المرأة إلى خطبته في حجة الوداع. فإن كان ذلك صحيحاً فإن قراءة «اضربوا» في سورة [النساء ٤/ ٣٤] ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ بمعنى «ابتعدوا عن» لا يمكن الدفاع عنها. حسب هذا الوصف، فإن النبي يعلق بلا شك على الآية (٣٤) من سورة النساء، وإن قوله: إن فعلن ذلك اضربوهن ضرباً خفيفاً، يؤكد أن صيغة الأمر «اضربوهن» تعني الضرب التقليدي. ولكن هناك سبب يدعو إلى الشك في صحة هاتين الروايتين، رغم قبولهما بصورة شاملة تقريباً. لأن النبي فيهما يقول بوضوح: إنه إذا ما دعت الزوجة رجالاً آخرين إلى فراش زوجها يمكن أن يطبق الزوج الآية (٣٤) من سورة النساء، شريطة ألا يكون الضرب مبرحاً. أفترض الآن أن عبارة «إلى فراشك» تتضمن ممارسة الجنس مع رجل غير الزوج فإن كان الحال كذلك، يكون لدينا قانون متساهل جداً في معاملة الزوجة الزانية حتى بمقاييس هذه الأيام: أولاً، انصحها، فإن أصرت، اهجرها في الفراش فترة، وإن ظلت مصرة، عاقبها بلطف، فإن ارتدعت، فاعف عنها ولا تتماد في أكثر من ذلك؛ وإلَّا فالجأ إلى حكمين من أهلك وأهلها. أفترض

أنه بموجب المبدأ المذكور، ندخل في إيمان مزدوج: نؤمن أن هذا المبدأ في معاملة خيانة الزوجة هو مبدأ نبوي، وبالوقت نفسه نقبل أنه خارج عن سياق القرآن، لأن القرآن يعدُّ الزنى من الكبائر التي يعاقب عليها بالرجم عقاباً رادعاً للزنى نهائياً. ومن ثم فإني أرى أن الأمور التي نظرنا فيها كلها تجعلني أشك في صحة هاتين الروايتين.

وهذا يقودنا في النهاية إلى [الحديث (٧) السابق]. هذا الحديث في مسند الشافعي، وسنن أبي داود، والنّسائي، وابن ماجه، والطبري، والحاكم. وهو صحيح أورده الإمام النووي في كتابه (رياض الصالحين)، وكذلك السيوطي في (الجامع الصّغير). رواه عن عمر بن الخطاب الذي يعد من أنصار معاملة المرأة بحزم. ففي حين أن شهرته في القسوة ترسخت في الحقيقة، فإن قيام عمر بهذا الدور بصورة متكررة في أدب الحديث يجعل المرء يتساءل: ألم يكن عمر شخصية يمكن معها أن تنسب إليه الآراء القاسية بشأن المرأة؟! ويمكن أن يشك المرء في أن النبي يوبخ الرجال على ضربهم لزوجاتهم بعد أن سمح لهم بذلك، ويعترض على القسوة التي يعامل بها بعضهم زوجاتهم. على مستوى العقيدة، هناك أحاديث عديدة تشير إلى أن عمر وصحابة آخرين كباراً كانوا يضربون زوجاتهم، في حين أن هذا الحديث يستبعدهم من نخبة المجتمع، وهكذا تعود مسألة القسوة ثانية لتكون نقطة خلاف ونقاش. وباختصار ليس في [الحديث (٧) السابق] نقطة جوهرية تدعو إلى الشك. يعدّ فحص متون هذه الأحاديث محدوداً، ولكن حتى إذا كان النقد أعمق وأكثر إتقاناً فربما لا يسفر عن نتائج حاسمة. إذ، ما من شك، أن غالبية المؤمنين سوف يصرون على صحتها بصرف النظر عن سلامة النتائج المكتشفة. هذا لا يعني أن يشعر المسلمون المقيمون في الغرب أنهم على خلاف مع إدانة المجتمع الأكبر لإساءة معاملة الزوجة. فما من نص كتب في الشريعة الإسلامية، قديماً ولا حديثاً، إلا ويؤكد عدم شرعية ضرب الزوج لزوجته ضرباً مبرحاً. ويؤكد معظم الفقهاء أنه يُسمح للرجل أن يعاقب زوجته فقط في حالات السلوك الفاضح، وحتى في هذه الحالات يفضل تجنب العقاب. ويقول العلماء : إنه لا يسمح بضرب الزوجة على وجهها، أو أن

يُسبب لها أي ضرر جسدي أو يُترك أثر على جسمها، أو تضرب بعنف. إن معارضة العلماء لأي عمل يوصف في القانون الغربي المعاصر بأنه إساءة للزوجة، لا يعد أبداً تحسين صورة للإسلام أو تبييضها. إن دعاة المساواة بين الرجل والمرأة في العصر الحديث سيرفضون بالطبع على أسس إيديولوجية أن يكون للزوج حق في ضرب زوجته مهما كان الضرب لطيفاً، لأنه حتى لو كان هذا التصرف رمزياً كما يؤكد بعض الكتاب المسلمين المحدثين، فإنه يظل رمزاً على هيمنة الرجل على المرأة.

أنا، شخصياً، أميل إلى تفسير كلمة (اضربوهن) بـ (ابتعدوا عنهن) أكثر من (اضربوهن) بالمعنى التقليدي لفعل (ضرب). لأن مفهوم الابتعاد أو الهجر يتلاءم مع طبيعة التوصيات الأخرى المناهضة للعنف والواردة في الآية (٣٤) من سورة النساء. فضلاً عن أن الأحاديث المؤيدة للتفسير التقليدي كلها عدا حديث واحد تحتوي على أقوال تبدو متضاربة مع القرآن. حتى الرواية التي تقول : إن النبي حرم أولاً ضرب الزوجة، ثم سمح به، ثم وبّخ الذين استغلوا هذا السماح تبدو لي مختلقة. أنا أسلم بأن قروناً من الإجماع على تفسير كلمة «اضربوهن» هو ضد ما أرى بقوة، ولكن الأحاديث التي تمنع ضرب الزوجة يمكن أن تكون من آثار الخلاف في الرأي حول هذا الموضوع.

■ التعليق ١

(من مسؤول مدرسي أمريكي كبير: يشيع في هذا الجيل الشك والفوضى التي يعبر عنها الصراع الناشئ، خصوصاً عن النزاعات القائمة بين الجانب «السحري» لمعتقدات الآباء والمحاكمة النقدية التي يؤكّد عليها في المدارس):

أرسلت لك بريداً إلكترونياً، إن كنت تذكر، حول إشكالات بيني وبين زوجتي. دعني أشرح لك عن نفسي أكثر.

والداي محافظان، ولكنهما ليبراليان بآن واحد. أعني أنهما غارقان في القيم التقليدية، ولكنهما في الوقت نفسه أكثر تساهلاً من الآباء المسلمين الآخرين. لذلك كنت أشعر وأنا أكبر في العمر أني أملك أفضل مقاربة. إذ كنت دائماً

متديناً، ولكن باعتدال، أي كنت أذهب إلى المسجد باستمرار، ولكن ليس كل يوم، ولم أكن أحضر الحلقات، في غالب الأحيان، ولكني لم أكن أنفر منها، وكنت أحضرها أحياناً. أنا واثق بنفسي. واستمر حالي هكذا في المدرسة الثانوية بالرغم من أني كنت المسلم الوحيد في مدرسة الكاثوليك للذكور، حيث كانوا يمطرونني بالعقائد الكاثوليكية، ومناقشاتها العقلية. فلم أشك لحظة في إيماني، بل انتفعت، في واقع الأمر، من مناقشات الصف هذه. إذ كانت غالباً ما تعزز إيماني.

توافر لدي وقت كاف في عطلة الصيف بين السنة الأولى والسنة الثانية، وقضيت معظم هذا الوقت في المسجد وفي دراسة القرآن وتعلم اللغة العربية. وكنت أمكث في المسجد كل يوم من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء أشارك في بعض الأنشطة. في حين أني كنت أستمتع بهذا الوقت كثيراً، وكان إيماني يزداد، راودني خوف من أن ينغلق عقلي على الدين. إذ شعرت كأني وجدت الدين الصحيح، وأنه ينبغي أن أغلق عقلي به، وأحجبه عن الآراء التي لا تتفق مع ديني وآرائي، لأنها ربما تفسد إيماني. شرعت بدراسة الفلسفة التي اختلطت بعقلي وأنا أتبنى هذا الموقف العدائي من الرأي الآخر.

بعد ذلك الصيف من الانصراف إلى التعبد الكثيف، أصبحت مقاربتي للإسلام نظرية أكثر منها عملية، أي صرت أصلي لأجد إنجازاً تحقّق. ولكن كلما أحسست بالاقتراب من الله أكثر كنت أضع نفسي في موقع عال جداً أخشى السقوط منه سقوطاً مروعاً. حصل هذا لأني نسيت قيمة الفكر الحر والنقاش المفتوح. صرت مغلق الذهن. لذلك عندما دخلت صف الفلسفة وكان إيماني مهزوزاً، لم تكن استجابتي كما ينبغي أن تكون، باستخدام العقل لدعم قناعاتي. بل حاولت، بدلاً من ذلك، أن أحجب الأسئلة عني. جعلتني هذه المقاربة أفقد إيماني بسرعة أكبر. أي إني أردت الإيمان بالله ولكني لم أستطع تعليل هذا الإيمان، لأن إيماني أصبح باطنياً غامضاً أكثر مما هو عقلاني، أظنك تعرف ما أعني.

استمر ذلك سنتين. كنت فيهما أتحسَّن أحياناً وأسوء أحياناً أخرى، لم ينته الأمر أبداً. منذ الصيف الماضي وأنا أحاول استخدام العقل والمنطق لطرد هذه الشكوك. ولكني لم أفلح بعد. من الصعب أن أنسى السلم الذي كنت أشعر به بفضل إيماني البسيط، وكلما حاولت محاكمة الأمر عقلياً، شعرت بأن علي أن أحسم الأمر على الفور، لأنني ربما أموت غداً فأذهب إلى جهنم بسبب شكّي بالله. لم تقدني هذه المقاربة إلى أي نجاح، لأني كنت أضع حداً مصطنعاً لمستوى فهمي. حتى الآن ما زلت أفهم المناقشات لتقوية الإيمان بالله وتفوق الإسلام، ولكني لا أستطيع، مهما حاولت، ترجمة ذلك إلى إيمان راسخ. ربما أشعر أني بخير مدة أسبوعين، ولكني أنكفئ، عاجلاً أو آجلاً، إلى الشك، وقد دمرت هذه الشكوك حياتي.

أبدو للناظر متديناً جداً، واثقاً من صحة ديني، فيحترمني الناس. في هذه الحالة أشعر أن علي أن أكون مؤمناً، لأن الناس يظنونني كذلك. ولكني لم أكن أبداً مؤمناً كامل الإيمان. ربما أؤمن بأن الله موجود، وأن القرآن حق، ولكني كلما قرأت عن الغيبيات في القرآن، بدا قلبي غير راغب في الإيمان. فأضيع ضياعاً مطبقاً، في هذه الحالة لا أدري ماذا أفعل. ربما أقرأ بعض السور التي يقال إنها تحمي المرء من الشيطان، أو ربما أصلي النوافل، ولكني لا أؤمن بهذه الأمور رغم أني أقوم بها، ومن ثم لا تؤثر فيّ. ربما أؤمن بها، ولكنه إيمان ناقص، متأرجح. وليس هذا التأرجح كتأرجح الإيمان الذي يمر به كل شخص، بل هو أعقد من ذلك قليلاً. إنني دائماً على حافة الإسلام، أحياناً أكون فيه وأحياناً أكون خارجه. إنها لطريقة صعبة في الحياة. ربما تفهمني لأنك ممن اعتنقوا الإسلام. لا أفهم لماذا أشعر بعدم الرغبة في متابعة القرآن عندما أقرأ عن الملائكة والجن أو الآخرة أو عيسى. هل ذلك لأن مقاربتي خاطئة أم لأن الشيطان مهيمن علي؟ أم أن ذلك مجرد خيال؟

لا أعرف كيف أنهي هذا التمرد على دين الله. أعني أن أسرتي متدينة جداً، ولم يتطرق إليها الشك أبداً كمثل ما تطرق إلي، لذلك فهم لا يفهمونني. يرى

والدي أن عليَّ أن أكف عن مثل هذا التفكير. وأنا لا أتفق معهم على ذلك. ويقول إخوتي: تابع التفكير في هذه الأمور فإنها ستختفي وحدها، ولكن من المستحيل أن أحاكم الأمور بالطريقة التي ينبغي أن أحاكمها بها ما دامت صحتي تتدهور يوماً بعد يوم. فأنا لا أستطيع حتى التأمل، ولا أستطيع اتخاذ قرار، ولا أستطيع تغيير حياتي. ما زلت في هذه الحالة زمناً طويلاً، ولا أدري كيف أضع حداً لهذه الشكوك. يبدو الأمر أحياناً وكأني فقدت حماسي للبحث عن الحقيقة، وأني أبحث فقط عن مخرج سواء باتباع الحقيقة أم باتباع الزيف، بحيث لا أعاني ثانية، ولكن يبدو أن المشكلة معقدة جداً.

عندما أرى الذين اعتنقوا الإسلام أشعر أني أعرف أكثر منهم، وأني أفضل منهم، رغم الشكوك التي تساورني، من الواضح أني مرتبك بمقاربة غبية، ولكني لا أستطيع التخلص منها. كنت دائماً شخصاً لطيفاً أتحاشى المواجهات مهما كلف ذلك من ثمن. يبدو أني أفتقر إلى الشجاعة للوقوف ومتابعة الحقيقة، وأنا حائر في كيفية استعادة هذه الشجاعة.

زرت إمام الحي الذي أجرى علي فحصاً ليرى إن كنت منذوراً، أو محسوداً أو مسحوراً. وبما أنني نشأت في أمريكة، أجد من الصعب أن أومن بمثل هذه الأمور. أعلم أن النبي قال شيئاً عن النذر، لذلك أعترف أنه لابد أن يكون موجوداً، ولكني لا أعرف كيف أؤكد أن ذلك حقيقة. تلك هي المشكلة الأساسية، في ظني. أعلم أن النبي حق وصادق، ولكني لا أستطيع الالتزام بتعاليمه مدى الحياة. لم يكتف قلبي بذلك، ولست متأكداً إن كان ذلك بسبب مشكلة ما في بحثي، أو بسبب مشكلة سحرية غامضة أو أي شيء آخر؟ أنا لا أعرف، حقاً. لا أستطيع أن أفسر لماذا أشعر بأن أموراً مغلوطة ولا أجرؤ على القول: إنها مغلوطة فأنساها وأتبع ما هو صحيح وعدل. أعلم أن هذا تفسير غامض، ولكني لا أعلم لمن ألجأ ليشرح لي ذلك، وأعتقد أنك الشخص المناسب لأنك مَرَرت بمرحلة من الشك.

■ التعليق ٢

(من طالبة جامعية مسلمة أمريكية. غالبية الرسائل التي أتلقاها من نساء الجيل الثاني، تشكو، كما في هذه الرسالة الإلكترونية من معاملة النساء في المجتمع الإسلامي):

لست متأكدة إن كنت قد أنجزت كتابك الجديد، ولكن لدي بعض الأفكار أودُّ أن أشاركك فيها. إنني مسلمة أمريكية من الجيل الثاني، وتعاملت مع جماعتي من المسلمين الذين لم يصلوا بعد إلى القرن الحادي والعشرين، لذلك فكرت أن أرفدك بأفكاري عساها تساعدك في تأليف كتابك.

منذ بضعة أيام ذهبت إلى مسجد جاليتنا لتناول إفطار رمضان. إنني أفطر عادة في بيتي مع أسرتي، ولكن الأسرة كانت هذه المرَّة خارج المدينة، لذلك قررت أن أذهب إلى المسجد مع بعض صديقاتي. كنا قد سمعنا أنهن يتناولون إفطاراً جماعياً كل يوم، خصوصاً العزَّاب (ادعيت أني عزباء).

في المسجد مستويان. غرفة قرنفلية اللون في الطابق العلوي مخصصة لصلاة النساء، وبجانبها غرفة الأطفال. وفي الطابق العلوي كذلك مكتبة المسجد، وغرفة لأغراض متعددة، ولكنهما مغلقتان من جوانب الأخوات، أما الطابق السفلي كله فمخصص لصلاة الرجال. ظل الباب الأوسط من جهة الأخوات مغلقاً بعد صلاة المغرب. قالت لي إحدى الأخوات اللاتي يداومن على لقاء الإفطار: إنهم ينسون الأخوات عادة فلا يقدمون لهن التمر ليفطرن عليه. حسناً، كان معي قطعة من الشوكولاته في محفظتي. فقسمناها فيما بيننا وأفطرنا عليها.

بعد الصلاة سمعنا أحد الإخوة يصعد إلى الطابق العلوي ويفتح الباب، فدخلنا غرفة الطعام. لم نكن نعرف سوى القليل، لم تستخدم الغرفة للطعام، بل طلب إلينا الانتظار حتى يقدم لنا الإخوة الوجبات. انتظرنا إلى أن سألنا أحدهم عن عدد الأخوات الموجودات؛ وأخيراً فتح الباب وإذا بأحد الإخوة يحمل ستة أطباق من الطعام وأدخلها من شق الباب. فشعرت كأننا كلبات يقدم لها الطعام، يا سبحان الله.

كل الأخوات مسلمات أمريكيات، وأصابهن الهلع من هذه المعاملة. لذلك فتحنا الباب وحدثناهم عن شعورنا حول عدم مقدرتنا على المساهمة في لقاء الإفطار الفعلي. فأثار ذلك أكثر مما توقعنا، لأن الأخوات أطلقن مشاعر الإحباط لديهن كلها تجاه نظام المسجد بأكمله. وقلنا لهم إن تصرف «الفصل مع المساواة» لا يطبق في مجالات عديدة في المسجد. مثلاً البنية التحتية للمسجد غير عادلة. فإذا ما كان لدى الأخوات سؤال لا يستطعن طرحه لعدم وجود ميكروفون كالذي في الطابق السفلي. نسمع فقط ما يقال، حتى ذلك، فإنه يُغَمُّ علينا أحياناً. وكان في يوم الجمعة، إعلان يسأل الناس إن كانوا يفضلون تغيير وقت الجمعة إلى الساعة الواحدة أو الثانية عشرة والنصف بعد الظهر. وكان دور الأخوات أن يسمعن إخوانهن في الطابق الأسفل يصوتون. ولم ينخرطن في عملية اتخاذ القرار. الشورى احتفظ بموقع «رئيسة الأخوات»، ولكن هذا هو الموقع الوحيد الذي سمح للإناث أخذه. إذ لا تصوت الأخوات إلا لهذا المنصب، ولا يسمح لنا أن نصوت لاختيار الإمام أو أي عضو من أعضاء مجلس الشورى. ولم أتخيل أبداً أن يحدث مثل هذا الأمر في أمريكة. يتألف مجلس الشورى من بالغين مولودين في الخارج يتمسكون بمقولة : «غير المسلمين كفار لا علاقة لنا بهم من بعيد أو قريب». إن هذا محبط جداً.

أقمت في أيوا (IOWA) طوال حياتي، وأقمت في مدينة أيوا عشر سنين. منذ خمس سنين كان مسجدي في قبضة ثلة من السلفيين[١]. يبدو أن الإخوة لم يستطيعوا الصمود ضد أيديولوجية هؤلاء الزعماء المتشددة وفرضها على الآخرين. حتى إن القيادة لم تكن تتحدث مع الأخوات، لذلك لا فاعلية لمحاولاتنا (كالتي بذلناها في لقاء الإفطار). إذ ما يزعجني هو كيفية معاملة الأخوات العالميات للأخوات الأمريكيات (بمن فيهن الجيل الثاني).

---

(١) السلفية: حركة إسلامية معاصرة نشأت في السعودية، ويجب التفريق بينها وبين حركة الإصلاح التي أسسها محمد عبدو في مصر (١٨٤٩-١٩٠٥).

منذ بضعة أسابيع حاولت مع بعض صديقاتي استخدام المكتبة للدراسة ولكنهم أمرونا بمغادرتها، وقيل لنا : إنها مكتبة الإخوة. لم يدخل هذه المكتبة أحد من الإخوة طوال الوقت الذي قضيناه هناك. شرحنا لهم كيف يمكن وضع جدول بحيث يستفيد من المكتبة الذكور والإناث معاً، ومع ذلك طلبوا إلينا الخروج. ووضعوا قفلاً على باب المكتبة الذي يدخل منه الإناث. المفتاح مع الإمام ومع رئيسة الأخوات، ومع ذلك لا تستطيع رئيسة الأخوات فتحه من دون إذن الإمام وطبعاً لم يسمح لنا الإمام، بالدراسة فيها. ما هذا - أطالبان حتى لا يتلقى العلم إلا الذكور ؟ لا يمكن لأي مجتمع أن يزدهر من دون النساء المثقفات.

وعندما أرادت أخت أن تعقد حلقة دراسة لأخوات أمريكيات قيل لها : لا يمكن أن تظهر آراء مختلفة عن آراء المسجد. وأخفقت في الامتحان السلفي. حتى الشيعة طردوا من المسجد لأنهم اعتبروهم تهديداً. وبدلاً من محاورتهم ومناقشتهم سلكوا معهم سلوك الجبناء، وطردوهم من المسجد، وقالوا لهم : لا تعودوا إليه حتى تؤمنوا بما يؤمن به القياديون.

هذه دكتاتورية طاغية.

كنت رئيسة لمؤتمر السنة الماضية، وكان بعض الإخوة من المسجد يقولون: إن علينا ألَّا نعكس الأدوار، وإن واحداً من الإخوة ينبغي أن يكون رئيساً للمؤتمر، وبلغ بهم الأمر أن قالوا لي: عليك أن ترأسي لجان رعاية الأطفال في البيوت أو لجان طعام. على أي حالة تتشكل جمعيتا MSA[1] من طلبة مسلمين أقوياء منفتحي العقول. كنت هذه السنة رئيسة برنامج، وكانت لجنة الإطعام كلها مليئة بالإخوة، ليست هذه مشكلة، وليست هي قضية. لأنني أومن أن جيل المسلمين الجديد - أولئك أقوياء بما يكفي للحيلولة دون وقوف التخلف (آسفة لم أجد كلمة أفضل منها) في طريق إيمانهم.

---

(١) MSA جمعية الطلبة المسلمين (Muslim Student Assoiation)، جمعية مظلة للمسجد.

اطلعت إحداهن على الإسلام في السنة الماضية ونطقت الشهادة وحدها. ثم استجمعت شجاعتها وذهبت إلى المسجد، والتحقت بالجالية الإسلامية. جاءت مرَّة إلى المسجد، ولم تكن تعرف من أي باب تدخل فدخلت من الباب الرئيس (مدخل الرجال). فتحت الباب وإذا بعض الإخوة يطلبون منها المغادرة قائلين لها: «كل النساء البيضاوات يأتين هنا للبحث عن زوج، ألهذا أنتِ هنا؟».

ولي أنا نفسي قضية مع المدخل. إذ دخلت ذات يوم من المدخل الرئيس لأني أوقفت سيارتي أمامه، ولم أشأ إخراج مفتاحي من مخزن السيارة الخلفي. إذ كان الجو بارداً فلم أشأ أن أدور حول المسجد لكي أصل إلى باب النساء في الطابق العلوي. وفعلت ذلك حوالي عشرين مرة من قبل، ولم يكن الوقت وقت صلاة عندما يكون الإخوة موجودين هناك؛ أما هذه المرَّة، فتحت الباب وإذا باثنين من الإخوة يقفان هناك. فصدما لدى رؤيتي وحولا الموضوع إلى قضية. وصفوني بأني غير محتشمة وأساؤوا إلى مقصدي من استخدام ذلك المدخل. وتراءى لي أنهم كانوا يتوقعون مني أن أختبئ نهائياً عن الرجال حتى يكون الفصل كلياً. ليس هذا معقولاً!! ففي القرآن أمر للرجال أن يغضوا البصر أولاً، وفي الآية التالية يؤمر النساء أن يغضضن من أبصارهن وألا يعرضن زينتهن. بعض هؤلاء الإخوة معتادون على البقاليات الرجالية فقط في بلادهم، ومن ثم فإن مجرد رؤية امرأة وإن كانت مُغطاة تكفي لصدمتهم. ومؤخراً أرادت فتاة اعتنقت الإسلام حديثاً أن تكلم الإمام عن مشكلتها. فطلب إليها أن تدخل غرفة النساء فبقيت هناك. وأخذ يكلمها من وراء الجدار. هذا تطرف كبير.

عندما بدأت أرتدي الحجاب لم أكن أظن أنه سوف يفسد هويتي، كان الحجاب يميزني في إسلامي، ولكن، على ما يبدو، صار وكأنه لافتة تقول: هذه أجنبية وليست أمريكية، لأن من يلبسن الحجاب ليسوا أمريكيات. وبدا لي كأنه ينبغي أن أطوف بين الناس لأبرهن أني لست من أولئك النسوة اللائي يقبلن أن يضطهدن أو أن يخضعن لهيمنة الرجال. ومع ذلك، لست من الطرف الآخر - النساء الخاضعات للرجال، لأنهن لا يتعدين كونهن موضوعاً جنسياً. إنه لميزان خبيث لا أستطيع الاحتفاظ به في أغلب الأحيان.

هذه الإشكالات كلها التي تحدث في المساجد تزعج الأخوات المسلمات الأمريكيات، لأنهن لم يألفن مثل هذه التصرفات. لقد نشأنا في مجتمع نستطيع فيه أن نعبر عن آرائنا، ونُحَثُّ على أن نستجوب الأحكام والسلطات. لقد تعلمنا كيف نحلل ونتأمل، ولا نقبل ما يقال لنا على علاته. ففي اختصاصي الذي أدرسه وهو الدين، وما قبل الحقوق يجب أن أكون موضوعية وناقدة. لذلك عندما نتعامل بمثل هذه القضايا مع إخوتنا العالميين الذين لم يألفوا أخوات مثلنا، يكشف هذا التعامل عن صدام حضارات. فمثلاً، عندما لم تؤخذ همومنا في لقاء الإفطار مأخذ الجد، لم نتراجع، بل دعانا ذلك إلى «ثورة». إذ بدأنا نذهب مجموعات إلى الطابق السفلي ونصلي وراء الإخوة. تلقينا نظرات قذرة، وألقيت أحذيتنا خارجاً، وهددنا بالطرد بالقوة. إن الله قد منحنا، على أي حال، الحق في أن نصلي في الغرفة ذاتها، وهكذا تابعنا تمردنا. من المحزن أن يكون سوى التمرد هو الأسلوب الوحيد الذي يجعل هؤلاء يهتمون بنا وبمشاكلنا بصورة جدية، ووصموا تصرفنا بأنه فتنة[1]، ولكن ما هذه إلا (كليشية). الفتنة صراع، ولكن الصراع الفعلي هنا هو كفاح الأخوات من أجل استرداد حقوقهن التي منحهنّ الله إياها.

■ التعليق ٣

(قدم لي هذا التعليق مجموعة من النساء المسلمات من الجامعة التي تدرس فيها صاحبة التعليق السابق. لقد بدأت بنات الجيل الثاني ينظمن أنفسهن أكثر ضد أدوار المرأة التقليدية في المجتمع الإسلامي):

الإخوة، الأخوات، الأصدقاء:

نسعى أن نبدأ سنتنا الجديدة بإصلاحات لمسجدنا بالحصول على حقوق متساوية للجميع. نستطيع، إن عملنا معاً، أن نصلح النظام ونحسّن وضع الجالية. فيما يأتي نعرض همومنا الأساسية:

---

(١) الفتنة هي، المحنة، الإثارة، الإغواء، الانشقاق، الخلاف، الحرب الأهلية .

١. لا تُجرى الانتخابات كل عام

إن موقع الإمام ليس دائماً في المسجد، لذلك، كانت الانتخابات في الماضي تجرى سنوياً لمنح فرص للناس كي يتقدموا. أما الآن فلا تجرى الانتخابات إلا بعد أن يمارس ضغط على القيادة. وآخر انتخابات أجريت لهذا المسجد كانت عام ١٩٩٩. في جاليتنا قادة من ذوي العلم والمعرفة، ويستحقون أن يأخذوا فرصتهم لقيادة الجالية.

٢. لا يسمح للنساء بالمشاركة في اختيار الإمام (هذا إذا أجريت الانتخابات)

القيادات الحالية لا تسمح للنساء الإدلاء بأصواتهن لمنصب الإمام، قائد المسجد. ليس لهذا الموقف أساس في الإسلام. بل الإسلام في الواقع حرر المرأة ومنحها حق التصويت.

٣. ليس في المجلس سوى موقع واحد للنساء

إما أن يمنع النساء من المساهمة في عملية اتخاذ القرار، أو يثبطن عن ذلك. قبل بضعة أسابيع مثلاً، أعلن بيان بشأن وقت صلاة الجمعة الجديد. وعندما كانت النقاشات تدور في الطابق الأسفل في منطقة الرجال، كانت النسوة في الطابق العلوي يستمعن عبر المكبرات. وبعد ذلك، أرسلت ورقة ممهورة إلى لوحة الإعلانات في الطابق السفلي حيث يستطيع الرجال المساهمة في الإدلاء بآرائهم. أما النساء فلم يقمن بأي دور في اختيار وقت الصلاة. إذ لا تؤخذ آراء النسوة عادة في مثل هذه القرارات. ولم يكن في الطابق العلوي ميكروفون كي تتمكن النساء من التعبير عن آرائهن أو إصدار إعلان أو حتى توجيه سؤال.

٤. لا تجري جمعية الطلبة المسلمين انتخابات، ولا تشمل النساء:

في الجامعة نحو ثلاث مئة طالب مسلم، ومع ذلك يعين الإمام كل سنة رئيساً للجمعية. كما يعين الإمام هيئة الجمعية. هناك طلبة كثيرون من الإخوة والأخوات المؤهلين والراغبين في قيادة الجمعية، يجب منح هؤلاء فرصتهم.

والجمعية لا تنفذ نظامها الداخلي الذي ينص بوضوح على وجوب إجراء انتخابات في كل سنة.

وفي الاجتماع الأخير للجمعية استبعدت النساء، كالعادة. عقد الاجتماع في الطابق الأسفل المخصص للرجال. وقال رئيس الجمعية في إعلان موجه فقط للذكور: «أيها الإخوة، يرجى البقاء لحضور اجتماع الجمعية بعد صلاة الجمعة».

٥. عينت رئيسة أخرى للأخوات من دون انتخابات أو مناقشة

رفضت إحدى الأخوات أن تعمل مع رئيسة الأخوات الحالية أو تتعامل معها بسبب توتر شخصي. وبدلاً من تنحية هذه الإشكالات جانباً، والعمل معاً، شكلت هذه الأخت فريقاً مستقلاً من الأخوات من خلال حلقاتها الأسبوعية. فعينها الإمام رئيسة للأخوات رغم أن الأخت الأولى كانت قد فازت بمنصب رئاسة الأخوات في انتخابات عام **١٩٩٩** بالأكثرية. لدينا اليوم حلقتا دراسة تقود كلاً منهما رئيسة أخوات. إحداهن فقط منتخبة، ولو منذ ثلاث سنين.

ومؤخراً وضعت رئيسة الأخوات أقفالاً على أبواب المكتبة بعد أن أخفقت في محاولاتها منع الطالبات من دخول المكتبة. للنساء حق في المكتبة، ومن الظلم أن يكون في المسجد مكتبة واحدة اسمها «مكتبة الإخوة».

٦. الآراء السلفية / الوهابية لا تمثل آراء الأكثرية

إمام جاليتنا وهابي علناً (سلفي AKA)، التي هي تفسير قاس وجامد للإسلام تتبناه كذلك حركة طالبان. لا يستحق مثل هذا الزعيم المتعصب لآرائه أن يكون إماماً. ولا لنساء هذا المسجد أن يكون لهن رئيسة – تستطيع معاملتهن على قدم المساواة، وتتيح لهن التعبير عن آرائهن، ويشجعنها. لا تنتمي أكثرية المسلمين في هذه المدينة إلى الوهابية، ونحن بحاجة للتأكد من أن هذا التفسير الجامد للإسلام بعيد عن العقائد الإسلامية.

عُلّقت مقالة مؤخراً في الطابق السفلي في قسم الرجال تقول: إنه محرم على النساء ارتداء البنطال. لقد نبذ المسلمون هذا النوع من الإيديولوجية الوهابية على الفور، ومع ذلك ظلت المقالة معلقة نحو شهر، ولم يتصَدَّ لها أحد.

وفي ١٢ أيلول/ سبتمبر عندما شجع بعض المسلمين قيادة المسجد على إقامة صلاة على ضحايا ٢٠٠١/٩/١١ تكلم رئيس جمعية الطلبة المسلمين (MSA) بالنيابة عنهم ورفض ذلك. لأنه شعر أنه من غير الملائم أن يصلي المسلمون على غير المسلمين. وعلى الرغم من وجود مئات المسلمين العاملين في مركز التجارة العالمي (WTC) لم تفلح القيادة في إدراك المبدأ الإنساني الذي مفاده أن المسلمين وغير المسلمين كلهم خلق الله. أقامت غالبية المساجد في أيوا (IOWA) صلاة على أرواح ضحايا ٩/١١ ؛ ويجب ألا يختلف عنهم مسجدنا.

من المهم أن نلاحظ أن جمعية الطلبة المسلمين لم تستدع خطباء خلال السنوات الثلاث السابقة سوى الوهابيين، ذلك لأن الإمام يقوم بفحص الخطيب وغربلته قبل دعوته (والخطيب دائماً ذكر)، وإذا ما اقترح امرؤ أن يكون خطيباً غير وهابي يقال: إنه لا يتمتع بالمعرفة الكافية.

تشجع قيادة المسجد، القيام برحلة كل سنة إلى مؤتمر الجمعية الإسلامية لشمال أمريكة (IANA) توزع إعلانات، وتستأجر حافلات، وتوزع باليد استمارات تسجيل. ومع ذلك يضللون الناس فلا يذكرون أن هذا المؤتمر وهابي. إن أكبر مؤتمر إسلامي وأكثر المؤتمرات الشعبية في هذا البلد هو مؤتمر الجمعية الإسلامية لشمال أمريكة (ISNA) ويعقد كذلك مرَّة كل سنة في شيكاغو Chicago. لم يوزع العاملون على هذا المؤتمر دعوات، ولم يذيعوا إعلانات أبداً. كما أن مؤتمر الولاية السنوي حول الإسلام يتم تجاهله كلياً، رغم أن المساجد وجمعية الطلبة المسلمين في الولاية لا يحضرون المؤتمر فحسب، بل يساعدون أيضاً في تنظيمه.

تحرش رجل غير معروف تحرشاً شفهياً بطالبة مسلمة في احتفال إسلامي في الجامعة مؤخراً. عَبَّرت عن قلقها وهمومها وفي أثناء عقد الاجتماع. وعلى الرغم من أن قيادة جمعية الطلبة المسلمين حاولوا تحديد هوية المتحرش، قاموا بتقويم الموقف بصورة غير عادلة. إذ افترضوا أنها أقحمت نفسها في الموقف، ولكي تتلافى مثل ذلك الحدث عليها أن يقتصر حضورها على اللقاءات التي يتم فيها فصل الإناث عن الذكور. وليس لهذا الأمر صلة بالموضوع الذي يتلخص في أن شخصاً ما ضايق فتاة وتحرش بها. ويجب أن يتحمل ذلك الشخص المسؤولية كاملة، ويجب ألَّا يسوغ سلوكه، وينبغي ألا تلام ضحيته معه.

■ هذا ما نريده :

شكلت لجنة انتخابية من مسلمين مختلفين. وسوف يرأس هذه اللجنة ويشرف عليها شخص محترم من جالية مسلمة أخرى في أيوا. ستحدد اللجنة موعداً للانتخابات يشمل المناصب الآتية، وليست محددة بها ؛ الإمام، أعضاء مجلس (العضوية مفتوحة للجنسين)، ورئيس جمعية الطلبة المسلمين، والمجلس التنفيذي للجمعية. تجمع اللجنة أسماء المرشحين، وتعلم الجالية بالأسماء وبآرائهم وقوتهم، إما عن طريق نشرات، أو رسائل (إلى الجنسين)، أو بأي طريقة أخرى. ستجرى الانتخابات وترسل النتائج بالبريد.

لا يصدق أن مثل هذه الأحداث العتيقة تحدث في أمريكة القرن الحادي والعشرين. أرجوك أن تساعدنا في تغيير هذا الوضع.

■ التعليق ٤

(إن نساء الجيل الثاني في كندا يعترضن على الوضع الراهن كما تبين الرسالة).

لقد عدت لتوّي من أحدث المناظرات والمجادلات. قضية جدل قديمة جديدة. القضية هي أين ستصلي النساء. معلومات خلفية. كان مسجد ريجينا Regina كنيسة سابقة تستخدم الآن مسجداً. لذلك فإن تصميم المسجد مختلف

عن غيره من المساجد، أي إنه توجد قاعة رئيسية في الطابق الرئيسي. وفي الطابق العلوي صفوف وغرف أخرى، خصصت إحدى هذه الغرف لتكون «مصلى للأخوات». منذ سنوات والأخوات يناضلن بقوة ليكون تحديد مكان صلاة الأخوات بناء على اختيارهن. ومع ذلك، هناك رجال يريدون أن تكون الكلمة العليا في هذا الشأن لهم.

ضوء إلى الأمام اليوم: بما أنني موظفة محظوظة في المدينة حصلت على إجازة اليوم. كنت أخطط لتخصيص وقت أذهب فيه إلى صلاة الجمعة. تهيأت نفسياً مع قليل من الاضطراب، لأنني لم أذهب إلى المسجد منذ زمن. حوالي الساعة العاشرة من هذا الصباح، هتفت لي صديقتي، فذكرت لها في أثناء الحديث أني سأراها في صلاة الجمعة. فقالت: إنها لن تذهب لأن مجلس المسجد أعلن يوم الجمعة الماضي أن على الأخوات أن يصلين الجمعة القادمة في الغرفة الصغيرة في الطابق العلوي. لأن ضيوفاً سيأتون إلى المسجد من الجامعة (أستاذ وطلابه يدرسون الإسلام). ومن ثم فلن يكون هناك متسع للأخوات. فانزعجت وقررت عدم الذهاب هذا الأسبوع. فأحبطت أنا كذلك. إذ كنت أتطلع للذهاب إلى الجمعة وأستمتع بلحظات روحية. طار صوابي كذلك من هذا القرار. من أعطى الرجال حقاً ليحددوا أين نصلي وأين لا نصلي ؟ فقررت ألا أذهب أيضاً. ولكني غيرت رأيي في اللحظة الأخيرة. إذ قررت أنهم بغيابي يكسبون وأخسر أنا. كنت قد خططت للذهاب إلى الجمعة ولي الحق في الذهاب. لذلك قررت أن أذهب وأصلي في القاعة الرئيسية. كنت غاضبة، ولا أعرف ماذا سيحدث. وصلت في أثناء الخطبة. دخلت قاعة الصلاة الرئيسية. فرمقتني نظرات استغراب وأنا داخلة. يبدو أن لكل شخص راداره الذي يرصد به الأخوات، أمر مضحك.

جلست أصغي إلى الخطبة. وبعد بضع دقائق، قام أحد الإخوة من كرسيه (مع أنه كان يصلي على الكرسي لكن لديه القدرة أن يأتي لينصحني) من الصف الأمامي واتجه من بين المصلين إليّ مباشرة حيث كنت أجلس.

الأخ: عليك أن تصعدي إلى الطابق العلوي.

أنا : اخترت أن أصلي هنا.

الأخ : ليس هنا سواك فلا تستطيعين أداء صلاة الجمعة وحدك. لابد من أن تصعدي إلى الطابق العلوي.

أنا : لا. إنني أصلي هنا.

الأخ: الأخوات الأخريات كلهن في الطابق العلوي، وعليك أن تذهبي إلى هناك لتصلي معهن.

ظن ذلك سوف يغريني، فأخضع وأصعد إلى الطابق العلوي. ولكني بقيت.

أنا : حسناً، يمكنهن الصلاة هنا إن شئن.

وبعد بضع دقائق قدم أخ آخر.

الأخ الثاني: يا أخت، لقد أجريت ترتيبات هذا الأسبوع لكي تصلي الأخوات في الطابق الثاني.

أنا: إنني أصلي هنا في الطابق الأسفل.

الأخ الثاني: لكن تقرر ذلك، فقط لهذا الأسبوع.

أنا: إني باقية هنا.

أظن أنه لم يشأ إحداث جلبة، لذلك تركني وعاد إلى مقعده. استمرت الخطبة، وبعد بضع دقائق أخت أخرى جلست بجانبي. وعندما انتهت الخطبة، صليت وهذه الأخت معاً حيث كنا جالستين. وبعد الصلاة، لاحظت الأستاذ القادم من الصف فذهبت إليه وتحدثت معه قليلاً.

أنا : مرحبا !! هل أنت من UR؟[١]

الأستاذ : نعم. أنا كذلك، وأُدرّس الإسلام في الجامعة.

---

(١) UR : University of Regina

أنا : هل أحضرت طلبتك ؟

الأستاذ : نعم. فقدمني إلى طالبه الذي كان يجلس بجانبه. احسبيهم : اثنان آخران في قاعة الصلاة. وهناك طالبتان في الطابق العلوي.

بعد ذلك ودعت الأخت الأخرى وشرعت في الخروج من المبنى. كان لابد للأخوين اللذين تكلما معي في أثناء الصلاة من كلمة أخرى معي.

الأخ الثاني: يا أخت كان ينبغي أن تذهبي إلى الطابق العلوي ما دام قد تقرر ذلك. لقد أعلن القرار الأسبوع المنصرم بسبب قدوم الضيوف هذا الأسبوع فقط.

أنا: يا أخ، لم يكن من الضيوف سوى أربعة، ويمكن تدبر الأمر بوجودهم بسهولة. وأنا لم يعجبني قدومك إلي والتحدث معي في أثناء الخطبة، لقد أفسدت علي سماع الخطبة.

الأخ الثاني: وأنت أفسدت علي سماعها أيضاً. كان ينبغي أن تصعدي إلى الطابق العلوي.

أنا: يا أخ. لن أصلي في الطابق العلوي. ولا أوافق على قرار المجلس. وأعتقد أن عليهم أن يناقشوا الأمر مع أعضاء الجالية كلهم. ولا يعجبني أن أعامل بهذه الطريقة عندما آتي إلى المسجد. اقتطعت من وقت عملي لآتي كي أؤدي الصلاة.

الأخ الثاني: نعم. جيد جداً أن تأتي لتصلي.

هراء. وفي هذه الأثناء كان لابد للأخ الذي كان جالساً على الكرسي من أن يقول بضع كلمات وداع.

الأخ الأول: كان ينبغي أن تصعدي إلى الطابق العلوي عندما قلت لك ذلك. إنه المبدأ. كنت وحيدة.

أنا: لا، بل كانت معي أخت ثانية.

الأخ الأول : دخلت عندما رأتك. كان ينبغي أن تصعدي إلى الطابق العلوي. فهي لم تعرف أن بقية الأخوات كن هناك.

إنه يلومني الآن على إفساد تلك الأخت. ثم بدأ يشرح: كيف أني لا أستطيع الصلاة وحدي، رغم أني أفهمته أننا كنا اثنتين، والواقع أني كنت أصلي مع أعضاء الجالية كلهم.

أنا: يا أخ ؛ لن أناقشك في هذا الموضوع ما لم تأت ببرهان على ما تقول. على أي شيء تبني رأيك؟

الأخ الأول : حسناً ! ليس لدي برهان، لذلك أعتقد أنه لم يعد بالإمكان المناقشة.

أنا: حسناً.

ثم تركتهما وسرت في طريقي السعيد البهيج.

■ التعليق ٥

(من امرأة مسلمة من شمال إفريقية. تلقيت رسائل تشجيع كثيرة من مسلمين من وراء البحار. كما تلقيت رسائل إلكترونية أكثر نقداً من مسلمين، وكان بعضها يذمّ كتبي ومحاضراتي. تعبر هذه الرسالة - التي لم أكن أتوقعها - عن أمل مشترك بين أولئك الذين يتصلون بي من الخارج: تقول: إن الذين يعتنقون الإسلام سوف يتابعون قبل كل شيء إعادة تقويم الفكر الإسلامي والممارسات الإسلامية بصورة نقدية. وبقدر ما أُعجب بالعواطف الداعمة المؤيدة، فإني أعتقد أن أي حركة في الفكر الإسلامي لا تأتي من العالم الإسلامي التقليدي لن تصمد).

أنا متأكدة أنك تلقيت رسائل إلكترونية كثيرة تشكرك على كتابيك. على أي حال، لا يسعني إلا أن أعبر عن امتناني لك لما تبذله من جهود لمساعدتي والمسلمين كافة وغير المسلمين على حد سواء في فهم ديننا بصورة أفضل. كنت في رحلة عمل الأسبوع الماضي وحالفني الحظ أن قرأت كتابك الأول، وأنا

الآن في منتصف كتابك الثاني. وبعد أن كان لابد من إجراء الفحص الأمني قبل تحميل الطائرة منذ ١١ أيلول/ سبتمبر «إنني أرتدي حجاباً وأعمل مستشارة هندسية في الصناعات البتروكيميائية، لذلك أسافر كثيراً وأصور وأكتب عن سيرتي باستمرار»، احتجت إلى قراءة شيء يذكرني بسبب جعل هذا الأمر جزءاً من «الجهاد» بحيث أتحمل تفاقم الأمور والإثارة ببشاشة. وقدمت كتبك الفحص الأول المطلوب للسلامة العقلية في وقته.

أود القول: إني وجدت طريقة تفكيرك مربكة وعرضك للحقائق دقيقاً ومفعماً بالمعلومات. الإسلام دين الله، غايته البشر كافة، وأنت شاهد حي على أن الذين يعتنقون الإسلام أقدر على اكتساب المعرفة الإسلامية أكثر من المسلمين بالولادة[١] أنا ولدت مسلمة ونشأت في مجتمع إسلامي في شمال شرق أفريقية، ولكني حصلت على ميزة التعرف في وقت مبكر إلى المسيحية عبر المنهاج المدرسي الذي التحقت به. قلة هم الذين حازوا على منفعة التعرف في سن مبكرة إلى أديان مختلفة، سواء من المسيحيين أم اليهود أم المسلمين، أم الذين انتفعوا من توجيه آبائهم لهم كي يفكروا قبل أن يقرروا لأنفسهم أو يحكموا على الآخرين... إن لهم أن يحكموا أن المقدرة على التفكير خارج نطاق بيئة المرء متوافرة عموماً لدى الذين يتخذون خطوات جريئة كاعتناق دين آخر. ومن ثم، يجب الاستفادة من هذه النقطة القوية لدى معتنقي الإسلام من أجل تطوير أمتنا الإسلامية وتنميتها[٢]. أخشى أن يتردد المسلمون بالولادة كثيراً عندما تتعرض بعض المعتقدات الإسلامية للتساؤل، وعندما لا يكونون قد فكروا في القضية بعناية قبل اعتناق الدين، فإنهم نادراً ما يستطيعون الدفاع عنه إذا نشأ حوار. فضلاً عن أننا نجد صعوبة في أن نضع أنفسنا مكان الآخرين. لقد جرى حوار محبط مع مجموعة من المسلمين بالولادة والمثقفين جداً في رمضان المنصرم، وجدت نفسي الوحيدة التي أرى أن مفهوم الإيمان بالله يتجاوز الأديان كلها

---

(١) هذه عواطف لطيفة، ولكني عندما أنظر إلى أخطائي الناجمة عن إهمال في محاضراتي وكتاباتي السابقة أشعر بأني أفتقر إلى المعرفة.

(٢) الأمة هي الكلمة العربية المرادفة للكلمة الإنكليزية (مجتمع Community).

ويسمو عليها، وأنه إذا كنا نؤمن حقاً بأن الله رحيم فلا ندين الطيبين الخيّرين من الشعوب والأديان الأخرى وأن لا نحكم عليهم باللعنة الخالدة، لمجرد أنهم لم ينطقوا الشهادة فإذا كانت المجموعة تمثل عينة من نخبة أمتنا المثقفين، فإن المسلمين بالولادة أشد حاجة إلى كتبك من الذين يعتنقون الإسلام حديثاً. من الصعب جداً على المسلمين بالولادة أن يضعوا أنفسهم مكان الآخرين ولو لفترة قصيرة، ومع ذلك يتوقعون أن الجميع قادرون على رؤية الخير في الإسلام مع كل ما يحيط به من انحرافات، ومحدودية المعطيات اللامتحيزة التي يتلقاها العالم الغربي.

إن أمل أمتنا، هذه الأيام، هو التعاطف الإنساني الأساسي والتسامح والانفتاح العقلي والفكري والإيمان المثقف والواثق بالله، فأرجوك أن تتابع إسهاماتك في مساعدة المسلمين وغير المسلمين على فهم الإسلام.

■ التعليق ٦

(من شابة تزوجت رجلاً غير مسلم. لقد أصبح اليوم زواج مسلمات الجيل الثاني من غير مسلمين شائعاً):

إني أقرأ كتابك (الصراع من أجل الإيمان) وجدته ممتعاً جداً، وأعتقد أن الطريقة التي أسلمت بها مؤثرة جداً. رأى والدي على ظهر غلاف الكتاب أنك أستاذ في جامعة كنساس، فبحثت في الإنترنت وحصلت على عنوانك الإلكتروني. إني بحاجة إلى مساعدتك في وضع أختي. كانت أختي متدينة جداً وترتدي الحجاب، ولكنها تركت الإسلام مؤخراً. وتقول: إنها تؤمن بالله، ولكنها لا تؤمن بدين معين أو نبي معين. وهذا مزيد من التفاصيل.

كانت أختي متدينة طوال حياتها ووضعت الحجاب عندما كانت في السنة الثانية من الكلية. انتسبت إلى MSA[1] وكتبت مقالة تقارن فيها بين المرأة في

---

(١) MSA جمعية الطلبة المسلمين.

اليهودية والمسيحية والإسلام. وألقت خطباً عديدة حول حقوق المرأة في الإسلام.

وقبل تخرجها بستة شهور مهندسة قالت لأمي: إن لديها بعض الأسئلة حول الإسلام. أجابتها أمي عليها ورضيت بها. ثم قبل التخرج بأسبوعين قالت لأمي: لم أعد مسلمة، لأنها لا تفهم «القَدَر»[١] ولا تفهم بعض القضايا النسائية. دعا والدي أربعة علماء متخصصين في الإسلام إلى بيتنا في مناسبات مختلفة. جلست مع كل واحد منهم وأعطوها إجابات جيدة، ولكنها ما زالت مصرة على عدم انفتاح قلبها على الإسلام ثانية.

حصلت على منحة دراسية كاملة لأفضل كلية هندسة. ولم يستطع والدي منعها من قبولها. كانت الكلية تبعد عن المنزل أربع ساعات. وفي كل مرَّة تأتي أختي لزيارتنا يجري نقاش في الدين. والداي متدينان جداً فلم يستطيعا القبول بارتدادها عن الدين. وبعد سنتين قرر والدي التبرؤ منها. وبعد خمسة شهور اكتشف الوالدان أنهما لا يستطيعان الاستمرار على هذه الحال فقررا إعادة العلاقة معها. تلقت أختي خلال ثلاث سنوات عروضاً بالزواج عديدة من شباب مسلمين، وكانت في كل مرَّة تختلق الأعذار وترفض. وعندما عادت إلى العلاقة معنا طرحت شرطين:

(١) ألا نكلمها في الدين إطلاقاً.

(٢) أن نقبل بمن تختاره زوجاً لها.

وافق والداي على هذين الشرطين. جاءها عرض بالزواج بعد ستة شهور ولكنها رفضت، لذلك سألتها أمي إن كان هناك شخص في حياتها، فأجابت، نعم. وبدأت تبكي، وأخيراً أخبرت أمي أن شاباً ملحداً أحبها منذ أيام الكلية وطلب يدها. فصدته لأنها لا تريد أن تخيب أمل أسرتها فيها، فسافر إلى أوربة، قالت أختي : إنها حاولت أن تجد آخرين، ولكنها لم تستطع نسيانه. فسألت أمها إن كان بإمكانها الزواج منه.

---

(١) القدر هنا تعني به القضاء والقدر، انظر الفصل الأول السؤال السابع.

قالت أمي إنها مهتمة بأختي، وبزواجي يوماً ما. ورغم أن أختي ليست مؤمنة، لم يكن أحد من الجالية الإسلامية يعلم بذلك. فاشترطت أمي عليها إن كانت تريد الزواج منه أن ينطق الشهادة ويتزوجها بالطريقة الإسلامية، ويتحدث إلى عالم إسلامي. فوافق على نطق الشهادة والزواج بالطريقة الإسلامية.

تقول أختي: إن مشاعرها كانت قوية جداً، وأنها عرفته منذ كانت في الكلية، ولكنه أثر فيها تأثيراً إلحادياً وربما حرفها عن الإسلام. حاولت قبل تخرجها أن تقنعه بالإسلام، ولكنه أبعدها بدلاً من ذلك عن عقيدتها.

إننا نريد أولاً شخصاً يقنعه بوجود الله. فإن اقتنع تأتي الخطوة التالية وهي التحدث معه عن الإسلام، فإن آمن، ربما يعيدها إن شاء الله، إلى الإسلام. فهل لك أن تبعث إليه برسالة إلكترونية، كنت ملحداً قبل أن يهديك الله إلى الإسلام؟ إننا نثمن حقاً مساعدتك لنا، أعرف أن رسالتي طويلة، فمعذرة. ونرجو أن تعلمنا إن كنت تستطيع مساعدتنا.

■ الجواب

إنني راغب في الحديث مع هذا الرجل، ولكن الأفضل أن يبادر هو. فليس هناك من سبب وجيه يجعل امرأً غريباً يدفعه إلى الإسلام، فإن ذلك ربما يجعله أكثر إصراراً وعناداً. أعتقد أن أفضل استراتيجية هي محاولة استرداد أختك واكتسابها أولاً. فإن عادت إلى الإسلام فإنها ستؤثر في زوجها بلا ريب؛ أما الاستراتيجية المعكوسة فهي أكثر عرضة للإخفاق. ولتحقيق هذه الغاية، أو للسير في هذا الاتجاه على الأقل، من المهم أن تحافظوا على العلاقات الوثيقة مع أختك وزوجها. ادعواهما للمشاركة في لقاءات الأسرة، والصيام في رمضان، والاحتفالات الدينية وما إلى ذلك. لا أشجع أسرتك أن تكون مندفعة أو مقهورة مع أختك وزوجها، بل أعطوهما فرصة الإعجاب ببعض الأمور الخيّرة والجيدة في حياتكم وسلوك أسرتكم الناجم عن الدين. فإن ظلت أختك

قريبة ووثيقة الصلة بأسرتها فربما تشعر يوماً ما بالحاجة إلى إعادة النظر في إلحادها، وبالرغبة في استكشاف الإسلام بصورة أعمق.

أعتقد أني أعرف بشكل تلقائي ما عانته أختك. أنا كذلك أجد أن المعتقدات ذات الصلة بالقَدَر - التي تمثل اتجاهاً واحداً في الفكر الإسلامي، واستغرقت مئات السنين حتى تبلورت - مخيبة للآمال جداً. وأرى كذلك أن محاولة المجتمع المسلم تبييض العديد من الإشكالات ذات العلاقة بمعاملة النساء المسلمات غير مقنعة. يبحث كتابي الثاني (حتى الملائكة تسأل) هذه المشكلات وغيرها. فأنا لا ألوم أختك ولا والديك. إني أتعاطف معكم جميعاً وأشعر بالحزن من أجلكم. وهناك نساء أمريكيات مسلمات يخضن هذه التجربة المؤلمة هن وأسرهن.

إن الطريقة التي تعلم بموجبها الجالية الإسلام وتطبقه ربما تكون نافعة ومُجدية في المجتمعات الإسلامية التقليدية. بيد أن كثيرين من الشباب الأمريكيين المسلمين لا يستطيعون الانتماء إلى آراء وأفكار متأثرة ثقافياً تأثراً قوياً، خصوصاً بعد أن يدخلوا الجامعة، ويتعرضوا إلى آراء بديلة يدافع عنها أصحابها ببراعة.

الآن، ربما يفضل والداك شخصاً آخر ليكلم أختك وزوجها، يكون أكثر التزاماً بالنظرة التقليدية، ومع ذلك أكون سعيداً جداً أن تكلموهما إن كانا يرغبان بالاتصال بي.

■ التعليق ٧

(تعبر عن شكوك خطيرة حول الإسلام. تلقيت رسائل عديدة مماثلة من مسلمي الجيل الثاني. ليس في ذلك ما يسبب صدمة، فكثير من الشباب الأمريكي من كل دين يمرون بمراحل من الشك، ولكني دهشت بالعدد الهائل من الرسائل الإلكترونية التي تلقيتها من ملحدين من الجيل الثاني لأبوين مسلمين. ليس تحول هؤلاء الشباب إلى الإلحاد هو الذي أذهلني - فكثيرون هم الذين يفعلون هذا من الأمريكيين - ولكن الذي أذهلني هو الجهد الذي بذلوه

للاتصال بي لبحث مسألة تركهم الإسلام، إن خروجهم عن طريقهم لكي يبحثوا عمن يفترض ألا يمجد قرارهم لأمر عجيب. وفيما يلي مقتطف من محادثة طويلة جرت بيني وبين سيدة على مدى شهور. أخبرتني في رسالتها الإلكترونية الأولى أنها تخلت عن إيمانها بالله. ومع ذلك لم يطل الزمن حتى عادت بملء إرادتها وحريتها إلى الإسلام، وإن كان ذلك مصحوباً بكثير من الأسئلة والترددات. هذا المقتطف من رسالة إلكترونية بعثتها لي بعد عودتها للإيمان):

أحبذ لو تستمر في البحث معي، خصوصاً بشأن مكان الحديث، السيرة والتفسير وعلاقتهما بفهم القرآن. أسأل ذلك لأنك أثرت في كتابك الأول سؤالاً حاسماً صدمني. لقد سألت، حسبما أذكر، لماذا نحتاج إلى مصادر نصية للإرشاد الديني غير القرآن؟ طرحت السؤال على نفسي عندما بلغت الثامنة عشرة من عمري، فكان جوابي مختلفاً عن جوابك. وكلما فكرت في السؤال أكثر ازددت يقيناً أنني في ما أنا فيه من مأزق كان بسبب الطريقة التي أجبت بموجبها عن السؤال. أذكر أني كنت أسأل نفسي في ذلك الوقت ما الفرق بين اليهودية والمسيحية والإسلام؟ شعرت أن الجواب هو أن كتابنا بصيغته الأصلية الصرف ليس وحده، بل شعرت كذلك أنه خلافاً للمسيحيين واليهود، لدينا الحديث، كان ذلك مهماً بالنسبة إليَّ، لأني شعرت أنه لم يترك الأمر للتفسير. فالحديث في رأيي يمكن أن يخفف ويقلص الاختلافات في الفهم التي تنجم عن التحيز المتأثر بالثقافة. فكنت دائماً أستشهد بالحديث الذي ترويه عائشة ومفاده أن محمداً كان قرآناً يمشي على الأرض. وهذا يعني عندي أنه لا يفسر القرآن فحسب، بل أيضاً يعلمنا كيف نأخذ ذلك المعنى ليكون في حياتنا وسلوكنا، كما يعني أن هناك جوانب من البشر لا تتغير. وجاء الإسلام فأعطى أحكاماً نوعية محددة لهذه الجوانب البشرية والمظاهر الحياتية. وهذا ما قادني إلى النقطة التي وصلت إليها قبل شهر تقريباً عندما أحسست أنه لم يعد بإمكاني أن أومن بالإسلام. فلم أعد أرى القرآن كتاباً يدفع للتفكير، بل هو كتاب يعطي أحكاماً، ويضع قواعد لكيفية العيش، والحديث يساعد على الحد من كمية تفسير القرآن.

هذه النتيجة السطحية قادتني إلى الالتحاق بمجموعة من الناس ينشرون شكلاً من الإسلام يقول : إن ما من مشكلة في الحياة إلا ولها حل دقيق في القرآن والحديث. فكان ذلك يلائم نمط الأسئلة والهموم التي كانت تشغلني عندما التقيت هذه الجماعة. وقد أخبرتك عن تجربتي معها في رسالتي الأولى. أعتقد أنه كان لدي هموم وأسئلة مشروعة عندما التقيتها، ولكن الإجابات التي وجدتها كانت سهلة وليست تلك التي أنا مقتنعة بها.

عندما بلغت التاسعة عشرة ازداد انخراطي في الجالية الإسلامية، أحببت الإسلام كثيراً وكنت تواقة للتعبير عنه. وأعظم شعور لدي كان شعوري بأن حولي شعب مسلم. كان لدي إحساس بالسلم والوحدة. ولكن، كلما تعاظم الإحساس بالسلم والوحدة هذا ازداد إدراكي لمشاكل الأمة. وفجأة رأيت على شاشة التلفاز المسلمين البوسنيين يقتلون، وكانت لي صديقة قدمت مؤخراً من البوسنة، الأمر الذي جعل من الصعب أن أفهم ما يجري. صرت حساسة جداً تجاه قضايا فلسطين وكشمير وغيرهما. بدا لي كأن كل بلد مسلم يعيش في أزمة. تُقتَل يميناً وشمالاً، وتُستغل، وأذكر أني ذهبت إلى اجتماع نسائي ليلي. وأتذكر أني قلت لأحد المتكلمين والدمع يترقرق في عيني: إننا بحاجة لأن نتوحد، وبحاجة إلى أن نجعل كلينتون يرى الأمور من جانبنا.

تغيرت استجابتي بعد ذلك بوقت قصير. إذ لم أعد أرى أننا بحاجة إلى مساعدة كلينتون، ولكن بما أن الإسلام هو الحق فيجب أن يكون عنده الحل لهذه المشكلة ولغيرها من المشاكل، وبما أنه ليس لدى الكفار إسلام فلا يمكن أن نعتمد عليهم لمساعدتنا. بل هم في واقع الأمر، كما استنتجت، سبب المشكلة.

عند هذه اللحظة من حياتي التقيت بمجموعة من المسلمين يروجون لأفكار مماثلة للتي أنميها في ذهني. تنتسب هذه المجموعة إلى جماعة تسمى «حزب التحرير»[1] لن أتعرض لهم بأي حال، والواقع أني أحببتهم جداً. جعلوني أتعاطف

---

(١) هو حزب التحرير الإسلامي الذي أسسه تقي الدين النبهاني في فلسطين.

مع الإسلام، وهم الذين جعلوني، إلى حد كبير، أفكر في الإسلام وفي سبب كونه الحقيقة. وجعلوني أفكر بتلك الأمور بطريقة لم أعهدها من قبل. هم أول من قالوا لي: إن بإمكاني التفكير في الإسلام وفي كونه الحقيقة. وكأنهم يعبرون عما يجول في خاطري ويعتلج في نفسي. جعلوني أعتقد أن عقلي يجب أن يكون له دور. فإذا كان هذا هو الحال، فلا شك أنك سوف تعجب لماذا أنا الآن إذن في هذا الموقع، غير متأكدة مما أومن به.

ربما لأني أظن أنهم يروجون لاستخدام مقيد للعقل. يتحدثون عن دور العقل وكيف أننا بوصفنا بشراً يمكن أن نصل إلى حقائق شاملة معينة كالعقيدة[١] الإسلامية، ولكن لا نستطيع السؤال فيما وراء ذلك. لا يمكننا أن نسأل لماذا طلب الله إلى النساء أن يرتدين الحجاب، أو لماذا لا نستطيع أكل لحم الخنزير. ولا نستطيع الاعتراض على زواج الرجل أربع نساء، ولا يجوز للمرأة إلا أن تتزوج رجلاً واحداً، لأن ذلك سيقودنا إلى إعطاء أسباب مقيدة بثقافتنا وتاريخنا، أي موصومة بانحيازاتنا. حتى إنهم قالوا : لا يجوز البحث في القرآن عما يجعلنا نؤمن بأنه الحقيقة. وقالوا: إن سبب ذلك هو أن القرآن يتحدث عن الغيب[٢]، وما يخفى، ونحن غير قادرين على التفكير في هذه الأمور. لذلك من الغباء استخدام ما في القرآن ليكون دليلاً على أنه حق. بل علينا أن ننظر ببساطة إلى كيفية تنزيله، إذ يكفي ذلك دليلاً على صدقه وأنه حقيقة. لقد بدا لي ذلك معقولاً، لأنني شعرت مرَّة أخرى أن الطريقة الوحيدة لتضييق الشقة بين المسلمين هي تقييد التفسيرات وتحديدها. ولكن لسوء الحظ قادني هذا المسار المنطوي على حسن النية إلى الاختناق. من المضحك أنه عندما وصفت تجربة الإلحاد بأنها مبدئياً شعور بالحرية، شعرت أنا بالحرية عندما قررت ألا أكون مسلمة. شعرت وكأني صرت في النهاية قادرة على التفكير، وعلى أن أحدد بنفسي ما هو خطأ وما هو صواب. أما عضويتي في الحزب فقد جمدتني لدرجة

(١) العقيدة هي جوهر الدين.

(٢) ما وراء الطبيعة، أو ما لا يرى ولا يُعلم.

أني لم أعد أعرف ما هو خطأ وما هو صواب. ربما أتوسع قليلاً ولكن إن لم يقل أحد ما ينبغي أن أقوله في الحلقات[١] حتى إني لا أعرف ما أقول عندما أقوم بممارسة الدعوة[٢].

والأغرب من ذلك كله أني عندما أجلس في الحلقة أشعر بالدونية وكأني دائماً على خطأ، ومع ذلك عندما أخرج للتحدث مع الناس في الأمة[٣] أكون متغطرسة. سارعت إلى القول : إن الجميع على خطأ. لاحظ شخص عرفته في المدرسة أنني بعد أن يحدثني شخص ما، يبدأ جوابي دائماً بكلمة «ولكن». لم أعد أصغي للآخرين ؛ شعرت أن الحزب هو الطريق الوحيد. شعرت أن الخلاف يجب أن يكون في حده الأدنى، لقد جررت مصيبتي بنفسي. بدأت أدرك ذلك في مطلع أكتوبر. شعرت أني بدأت أدرك ذلك عندما كنت أتحدث إلى أستاذي - الذي أكن له احتراماً كاملاً وكلياً - على الهاتف. أصغى إلي وأنا أشكو الآخرين وألومهم لعدم قدرتي على فهم أستاذي في دراسات الشرق الأوسط. قال أستاذي المفكر الهادئ هذا بطريقة لطيفة جداً : «أنت تعلمين أن أعظم شيء في العالم أن تَري الأمور من منظورين». استغرقت شهراً آخر حتى أدركت أني قضيت سنة كاملة أتحدث معه عن الإسلام - ولم يكن الحديث مناقشة أو بحثاً، بل أنا أتحدث - وهو صامت، لأنه كان يسعى لرؤية وجهة نظري كاملة. ولم أحاول حتى لحظة واحدة أن أكلّف نفسي فأصغي إليه وأعرف وجهة نظره. إذ كنت مقتنعة دائماً أن رأيه فاسد. وكنت أشعر أن الكفار لا يمكن أن يفهموا الإسلام إلا إذا صاروا مسلمين. والآن، بعد أن أخذت أفكر في الأمر، وجدت أن هذا الاعتقاد يشبه كثيراً اعتقاد المسيحيين الذين يقولون : إنك لا تؤمن حتى تحل فيك الروح القدس، وعندما تسألهم كيف تحل في الروح

(١) حلقات دراسة يعقدها حزب التحرير لأعضائه لمناقشة القضايا المطروحة في المجتمع وفي العالم.
(٢) دعوة الناس إلى الإسلام.
(٣) المجتمع الإسلامي.

القدس؟ يقولون: عندما تؤمن. كنت أعتقد أن مثل هذه المناقشات التي تدور في حلقة مفرغة يجريها المسيحيون وليس المسلمون، أو أنا. وكلما فكرت في السنوات التي خلت من حياتي ازددت انزعاجاً وإحباطاً، وازددت إدراكاً لأهمية أن يتمكن المرء من رؤية الجوانب المختلفة وأن يستمر في طرح الأسئلة. من المضحك أني مكثت نحو شهرين - قبل أن أكتب إليك - لا أكلم المسلمين لأني كنت محبطة ومشمئزة. بل كنت أتحدث فقط مع الكفار. شعرت وكأنه ما من مسلم استطاع أن يشغل عقلي، ويحفز فكري. لم أكن أصدق أن انشغال المرء، والتفكير، والنمو بطريقة إبداعية يمكن أن يكون خطأ. ومع ذلك، ما التقيت بمسلم إلا وقال لي: إن ذلك خطأ فعلاً.

أظن أن ما أحاول قوله لك هو أن قراءة كتبك كانت مركباً صعباً وطريقاً وعراً، ولكني تعلمت الكثير منها. وأهم ما تعلمته هو أن عليَّ أن أستمر في طرح أسئلتي، والأهم من ذلك أن أتابعها. سأفعل ذلك إن شاء الله. أشكرك على كل شيء. وآمل ألا تجد غضاضة في متابعة التواصل معي. إذ ليس هناك ممن هم حولي سوى القليل يتمكنون من منحي الوقت الكافي لأتعلم، وأطرح الأسئلة مثلك، فأشكرك شكراً جزيلاً.

أخبرت أمي وأختي منذ نحو أسبوع بما أنا عازمة عليه. وكان غباء مني أن فعلت ذلك، لأنهما ردّا علي بغضب واشمئزاز. لقد هدأتا الآن وتدعيان أنهما سيحاولان فهمي، ولكنهما في الواقع لا تفهماني وأنا لست متأكدة من أنهما ستستطيعان فهمي ولو حاولتا. إذ إن أختي ما تفتأ تقول لي: إنني بحاجة لرؤية الأمور من المنظور الإسلامي، وأمي تقول: ينبغي أن أكف عن طرح الأسئلة، لأن ذلك سيدخلني في فوضى أكبر، واضطراب أشدّ. لذلك أنا ممتنة لك حقاً، لأن ردك لم يكن كردهما، ولأنك نصحتني أن أحافظ على شجاعتي وتصميمي تجاه الوضع الصعب الذي أنا فيه.

- **التعليق ٨**

(من امرأة في أيوا مهتمة بالإسلام. تبين هذه الرسالة مرَّة أخرى المصاعب التي تواجهها المرأة الأمريكية في الحصول على ثقافة المسجد، والشكوك التي تواجههم باستمرار في هذه العملية):

أردت أن أعبر لك عن إعجابي الشديد بمحاضرتك في مؤتمر أيوا الإسلامي الأول. أنا خريجة من جامعة ولاية أيوا، ولست تقليدية (أو قديمة). بدأت دراستي للإسلام في الصيف الماضي. رغم أني أشعر بانجذاب قوي للإسلام، لكنني لم أنطق الشهادة بعد. من الأسباب إحساسي بالانفصال عن هذا الدين ؛ أنا متأكدة أن السبب الفعلي ثقافي. ومع ذلك أجد نفسي أتكلم مع قلة من الرجال قريبين مني، أو أبحث عن معلومات في الإنترنت.

بنيت محاضرتك حول الـ (٢٥٪) المفقودة[١]. إن ما أشعر به ليس شخصياً أبداً. فكوني امرأة وبيضاء ومهتمة بالإسلام يثير الشكوك في أذهان المسلمين هنا. لست متأكدة ولكني أشعر أنهم يظنونني مهتمة بالإسلام كي أجد زوجاً لي. وعندما سمعتك تقول: إن هذه مشكلة الكثير من النساء شعرت بأني أفضل من قبل. سأستمر في دراستي للإسلام وآمل أن أظل على صلة بصديقاتي الجديدات اللاتي تعرفت عليهن في المؤتمر.

أشكرك على ما قضيت من وقت وما أبديت من اهتمام للبحث عن شيء يهمني شخصياً والحديث عنه.

---

(١) بينت في محاضرتي أن غالبية الأمريكيين المسلمين - حوالي ٧٥٪ منهم - ولدوا في الولايات المتحدة الأمريكية، ومع ذلك لا يُرى في المساجد والمراكز الإسلامية سوى حفنة قليلة منهم ومن الجيل الثاني . وقدرت في بداية هذا الفصل أن الذين ينفرون من الجالية الإسلامية من المسلمين المولودين في أمريكة يقدرون بـ (٨٠٪). هذه التقديرات تقريبية، ولكن النسبة المئوية الحقيقية عالية بالتأكيد.

■ التعليق ٩

(من طالب هندسة من الجيل الثاني اعتنق المسيحية، ثم ترك الكنيسة، ولا ينتمي الآن إلى أي دين. لقد شكا لي عدد كبير من الشباب افتقار الإسلام إلى الروحانيات. والمشكلة الكبرى لديهم أن غالبيتهم لا يفهمون اللغة العربية التي هي لغة الشعائر في الدين الإسلامي)[١] :

أريد فقط أن أخبرك بأني استمتعت حقاً بسماعك تتحدث في نهاية هذا الأسبوع، وأفدت كثيراً من المحاضرات. لا أعرف إن كنت تتذكر أني قلت لك: إني لا أومن، في الواقع بشيء الآن.

ما كنت أود قوله لك، ولكني لم أستطع الوصول إليك لكثرة من يودون الحديث معك، هو سبب وصولي إلى هذه النقطة من عدم الإيمان بأي شيء. أتذكر ما ذكرته بإيجاز عن التجربة الروحية والعاطفية التي خضتها وأنت تقرأ القرآن. لقد خضت التجربة ذاتها، ولكن في المسيحية. فالإسلام كان بالنسبة إلي «ديناً ميتاً». أعني أنه مجموعة من الأحكام الفارغة والعلاقات الخالية ؛ وليس فيه أي نوع من العلاقة أو الراحة الملموسة. أعلم أن الوضع لم يكن كذلك في حياة النبي، ولكن هكذا كانت تجري الأمور، وما زالت كذلك بالنسبة إلي.

ربما أستغرق وقتاً طويلاً لأشرح بالتفصيل تجاربي في المسيحية. لقد قبلت المسيح، الأمر الذي جعل أسرتي وأصدقائي يغضبون غضباً شديداً، ولكني تركت المسيحية بعد أن بحثت عن مصداقية الكتاب المقدس والديانة المسيحية، ولكن عندما كنت أبحث عن الحقيقة وأسأل الله أن يهديني إليها كنت أشعر بصدق أني أُوجَّه نحو المسيح. وكنت أشعر، بأمانة، عندما أصلّي له، بأن شخصاً ما كان يسمعني ؛ كانت أكثر الأمور التي حصلت عليها واقعية، حتى وإن كان ذلك غير ملموس أبداً. أظنك تعرف ما أعني بالعبارة الأخيرة.

على أي حال، لم أحظ بالاتصال بالله من قبل إطلاقاً، ولم أحظ بذلك في الإسلام. قيل لي : إن هذا اختيار أو ما أشبه ذلك، ولكني لا أستطيع حل لغز

---

(١) انظر السؤال رقم (٣).

الحقيقة التي مفادها أنني أشعر أحياناً باتصال روحي، وأحياناً لا أشعر بشيء. وكلما ازددت بحثاً وتأملاً، ازددت جنوناً. لذلك تركت. يبدو أن الأمر تافه لا معنى له. ما زلت أشعر بالغضب والقلق اللذين يضربان جذورهما في أعماق نفسي ملازمين لي لا يفارقانني. أحاول ألا أفكر في الأمر.

ليس هناك بديل للاتصال الروحي مهما بدا سليماً في الفكر. أفترض أنك تعتقد الإسلام حقيقةً، ولكني أريد أن أقول لك: لماذا لم أومن بشيء. ولا أعلم إن كان القرآن يقول شيئاً بهذا الصدد، وإن كان يقول شيئاً أرجوك أعلمني به.

■ **الجواب**

أشكرك على كلماتك اللطيفة جداً. التقيت أناساً كثيرين في ذينك اليومين، ولا أستطيع أن أتذكر بالضبط الذين قابلتهم، ولكني أظن أني أتذكرك.

لست متأكداً مما سأقوله بشأن خبراتي أو خبراتك الروحية. لم تشتمل محاضرتي على تفاصيل خبراتي، لأنها كما ذكرت غير ملموسة ومن ثم فمن الصعب شرحها. كانت محاضرتي كلها تقريباً حول الجوانب العقلانية لقراءتي الأولى للقرآن، لأنني أشعر أن هذا الجانب أيسر توصيلاً للناس، وأسهل على الناس الارتباط به. والصعوبة الأخرى هي أن التجارب الروحية شخصية جداً ؛ ومن ملاحظاتي لحلقات الذكر الصوتية، واللقاءات المسيحية الساحرة، يبدو لي أن التجارب الروحية ذاتية الإغراء.

وبما أنني ألمحت إلى تجاربي الروحية في أثناء قراءة القرآن دون أن أصفها، وبما أن ما قلته قد اتفق مع ما ترى، فسوف أشركك ببعض خصوصياتها ؛ ولكن لا تنس أنه ما من سبب يجعلك تتوقع أن تكون متطابقة مع خصوصيات تجربتك. وإذا لم تشترك لحظاتك الروحية مع معالم لحظاتي، فلا ينتقص ذلك من أصالتها وصدقها.

بدأ بحثي عقلانياً، لأني أومن أنه إذا كان هناك إله فلابد أن يهبنا عقلاً - وهو، برأيي، أقوى ملكة وهبنا إياها - لغاية ما. واعتقدت أنه إذا كان الله

موجوداً حقاً فلا بد أن يساعدنا العقل على حمايتنا من اتباع معتقدات خاطئة بشأنه، أو تطور معتقدات كهذه. كما شعرت أن المقاربة العاطفية النفسية الروحية إلى الإيمان غير جديرة بالاهتمام، لأن عواطفنا، برأيي، أكثر عرضة للخطأ من العقل المدرب المنظم. ومشكلتي هي أن العقل كان يتعارض لا محالة مع المعتقدات التي أحقق فيها. لذلك كانت قراءتي للقرآن استكشافاً عقلانياً، اتخذت فيما بعد ومن دون أي توقع شكلاً روحانياً. وعندما بدأت أقرأ القرآن أول مرَّة، لم يكن لدي أي ميل للإيمان بالله، ولم أشعر بالتجربة الروحية إلا بعد أن استنفدت في الواقع جميع المناقشات ضد وجود الله. ولابد من القول: إنني لم أتوقع، ولم أسع إلى الوصول لأيّة رابطة روحية. بل بالعكس كنت أقاوم اللحظات الروحية التي تنتابني. كنت أحاول إبعادها عني وتعليلها تعليلاً غير روحي. لم أسع إليها، ولم أرغب في السعي إليها؛ ولكنها حصلت.

أعتقد أنك محق في قولك إن الروحانية جزء حيوي من الإيمان. وأستطيع فهم كون تجربتك الإيمانية في الإسلام قاحلة روحياً. هذا هو رأيي بوصفي قادماً من خارج الإيمان، ولكن المسلمين، كما يبدو لي، قد قتلوا الرسالة الروحية الإسلامية والطاقة الروحية القوية للشعائر الإسلامية بالتشدد في الأحكام والأنظمة والعقوبات والشكليات والسياسات التي تقترب من استبعاد البعد الروحي والأخلاقي الذي هو رسالة القرآن المهيمنة. ما زلت أسمع خطب الجمعة منذ أكثر من عشرين سنة، ولم أسمع قط بمحاضرات تربط الإيمان والأعمال الصالحة بالروحانية وبعلاقتنا بالله. فلو كان مصدري الوحيد الذي أستقي منه المعلومات حول الإسلام هو خطب الجمعة والأحاديث التي أجريها مع المسلمين، فإني سأفهم الله وكأنه قوى حاسدة متحاملة بلا حدود، تفرض علينا قرارات وأوامر فقط لاختبار مدى طاعتنا له، ثم يتربّص الله بنا حتى إذا ارتكبنا أوهى خطيئة، صب جام غضبه وأقسى عقوباته علينا. أو ربما أرى الإسلام مجرد حركة سياسية مهمتها جعل المسلمين القوى الأعظم في العالم لينتقموا من الإذلال والمعاناة اللذين لحقا بهم منذ انهيار حضارتهم.

إن ما أحاول قوله هو أنه إذا ما افتقد شاب أمريكي مسلم روحانية الإسلام، فإن عليه أن يرود طريقه بنفسه بعيداً عن انشغالات الجالية الإسلامية الحالية، وليبدأ بالقرآن مفتوح الذهن قدر الإمكان، متحللاً من الالتزامات التي تلقّنها من قبل. يخوض بعض الناس الروحية من خلال الصوفية، التي لا أؤيدها أنا شخصياً، لأنها لا تتوافق مع شخصيتي وطريقة تفكيري، ولكن لكل منهجه وشرعته.

أرى أن العقل عنصر جوهري من عناصر الإيمان. لا أعني بذلك أن المرء لا يكون متديناً أصيلاً من دون روح شخصي متماسك، أو من دون خوض تجربة لحظات روحية، بل أعتقد أنه إذا ما شعر امرؤ أن إيمانه خالٍ من الروحانيات أو يتناقض مع العقل، فذلك يعني وجود خطأ ما في مكان ما، وعليه أن يتابع البحث عن الحقيقة. وفي حالتك، يبدو أنك تجد سلاماً حقيقياً في أي دين تتعرف عليه. فقد انجذبت إلى المسيحية، وشعرت أن المسيح يسمع صلواتك، ولكن المسيحية لم تجذبك عقلانياً. ومن ناحية أخرى، كان الإسلام كما تعلمته «إيماناً ميتاً» بالنسبة إليك، ولسوء الحظ أني لا أعرفك جيداً فأتمكن من تقديم نصيحة معمقة متقنة. ما دمت تؤمن بالله فمن المعقول أن تتابع البحث عن هدايته، وربما يكون هو الآن يوجهك إلى طريق الهداية، ولو لم يبد لك الأمر كذلك. ونصيحتي إليك ألا تستسلم، لأن الإنسان بلا إله خسارة كبيرة وضياع. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٦].

لقد كنتَ مباشراً وصريحاً في إشراكي في مشكلتك، وحاولتُ أن أكون كذلك في جوابي، راجياً ألا تكون قد انزعجت من شيء قلته؛ إذ من السهل أن يؤذي المرء من غير قصد مشاعر الآخر لدى بحث أمور حميمية كهذه. وأعتذر إن فعلت ذلك. وإن كنت ترغب في بحث هذه القضايا أو سواها أكثر من ذلك فأرجوك ألا تخجل في أن تبعث إليَّ رسائل إلكترونية.

■ التعليق ١٠

(غالبية الأمريكيين الذين اعتنقوا الإسلام في العقدين الأخيرين من النساء، غالبيتهن خريجات جامعات يملن إلى اليسار اجتماعياً وسياسياً. وأظهرن حتى الآن التزاماً وقوة أكثر من أقرانهن من الرجال، وهو أمر مذهل، لأن معظم المساجد والمراكز الإسلامية تروج عادات ومواقف تجاه المرأة تصطدم مع القيم النسائية. تبين هذه الرسالة الإلكترونية القصيرة بعض الإحباطات التي أصابت السيدات اللائي اعتنقن الإسلام والمدى الذي وصلن إليه في محاولات التعامل مع هذه المسألة).

أعتذر عن الكتابة إليك لأني أعرف أنك غارق في العمل. ارتحت كثيراً لكتابيك الأولين بوصفي أدين بالإسلام منذ سبع سنوات حيث ناضلت مع مثيلاتي الأمريكيات من التنظيم الديني الإسلامي لرعاية المجتمع. سمعت بك، فعلاً، قبل أربع سنوات في مؤتمر الوحدة حيث ذكرك أحد المتكلمين وشاهدت شريط الفيديو الذي أصدرته مؤخراً حول تربية أطفالنا في الإسلام أو الاحتفاظ بهم في الإسلام، ورأيت عاطفتك التي جعلتك تبكي وجعلتني أنا أيضاً أبكي معك. كنت تتحدث نيابة عني بشأن التجارب الرهيبة التي خضناها مع المتشددين في الشريعة، المقيدين بثقافتهم، المهووسين بالأحكام، المجانين في الحديث. لقد طُردت من مسجدي المحلي حيث باءت محاولاتي لدعم معتنقات الإسلام بالخيبة عندما طلبت زوجة الإمام، وهي أمريكية من النمط الطالباني، من النساء أن يتجنبنني ويتحاشينني لأنني رفضت ارتداء الحجاب في الخارج. ولأنني أذهب إلى مسجد الصوفيين في فيلادلفيا، وهو أحد الأماكن التي أشعر أني مقبولة فيها. لي صديقات عديدات متعلقات بالإسلام بخيط واهٍ ويتجنبن الجالية للأسباب ذاتها. يذهب بعضهن إلى الكنيسة عندما يشعرن أنهن بأمس الحاجة إلى مزاملة روحية غير قضائية. يبعد المسجد الصوفي عنا حوالي ساعة. وأحياناً أبكي وأقول: «لماذا صرت مسلمة؟» ولكني أشعر أني مُسَيَّرةٌ روحياً إلى توحيد الإسلام مع قضايا العدالة التقدمية، وقضايا مساواة المرأة، ومساعدة أصدقائي وصديقاتي ومن هم مثلي من الناس

ليصبحوا مسلمين، مع احتفاظهم بأمريكيتهم، نشيطين اجتماعياً وسياسياً، ولا يضغط عليهم ليرتدوا الجلابية والكوفية، ويعملون بأنفسهم وينخرطون في المجتمع عموماً. أريد ذلك أنا أيضاً. حاولت بصورة غير رسمية أن أشكل نظام دعم لمعتنقي الإسلام، وأقوم حالياً بتنظيم مأوى وملجأ للنساء اللاتي يعتنقن الإسلام أو المنسحبات من المجتمع ممن يردن طريق الوسطية في الإسلام. جعلني كلامك أشعر أني أفعل ما هو صحيح، وأن عليَّ أن أتابع. وعندما قلت: إن على المرء أن يتابع القول والعمل حتى الممات وإن لم يصغ إليه أحد، قلت لنفسي: «وأنا كذلك». وأظن أنني لست مجنونة. كانت شبكة المسلمين التقدميين عوناً كبيراً لي، وأدت نساء عديدات هذا الأسبوع أول صلاة جمعة في منطقة (مركز المدينة). وبحثنا احتمال أن تصلي النسوة مع الرجال في القاعة ذاتها، ولكن النساء في صف والرجال في صف بعضهم بجانب بعض كل في جانب، وتبادل الخطب مع نساء تؤم الصلاة. لقد طرحت هذه الأمور على بساط البحث، على الأقل. أشكرك على أية حال، أشكرك، أشكرك، وإن كان لديك قائمة بعناوين إلكترونية. أخبرني عندما يصدر كتابك التالي.

■ التعليق ١١

(هذا سؤال أكثر مما هو تعليق، ولكني فقدت الاتصال بالمرسل ولم أستطع إجابته عليه. ومن خبرتي السابقة أرى أنني لو باشرت مع هذا الشاب في بحث ربما نتعرض إلى كثير من الموضوعات الواردة في الفصل الأول. إن العدد الكبير من مثل هذه الرسائل التي وردتني جعلتني أضمن هذا الكتاب فصلاً آخر عن غاية الحياة. لم أعلم شيئاً آخر من المراسلات مع الشباب الأمريكي المسلم، بل علمت أن المؤسسات الإسلامية الأمريكية، عموماً، إما أنها خارج الموضوع، أو أنها غير مهتمة بهمومهم ومشاكلهم).

إنني أعاني من مشكلة خطيرة. آمل أن تجد وقتاً تجيبني فيه على همومي. أومن بأن هناك قوى خلقت هذا الكون. المسلمون يعرِّفون هذه القوة بأنها الله.

ولكني أشعر أن الله ليس عادلاً. لماذا يسمح بتعذيب الأبرياء وقتلهم في إفريقية وآسية؟ لماذا يعاقب الناس بأنماط غريبة من الأمراض. وأشعر بأنه إن كان الله خيراً وطيباً، فإنه لا يسيطر على كل شيء، ولهذا نعاني في هذا العالم وتحل بنا المحن، فلو كان هو القوي العزيز المهيمن فلماذا لا يكون طيباً مع الناس أجمعين ؟ إن الله، من وجهة نظر المسلمين، مهيمن وطيب. وهاتان صفتان متضاربتان في رأيي. فماذا بعد ؟ هل ذلك يجعلني غير مسلم؟

غالباً ما أشعر أنه من الأفضل ألَّا آخذ الدين مأخذ الجد، بل أقيم الصلاة وأدفع الزكاة وأصوم على خير وجه، وأهمل البقية. وأريد أن أجعل هدفي من حياتي الإسهام بسعادة الآخرين قدر المستطاع. ولكني لا أريد أن أكون عميق الإيمان بالله، وليس هو، في نظري، بلا عيوب، ولا هو بحاجة إلى أن يتذكره الإنسان باستمرار ويواظب على عبادته بلا انقطاع، وأخيراً، لم يوضح الله الأمور في رسالته الأخيرة، القرآن. فلماذا أكرس وقتي في مزيد من القراءة عنه؟ فهناك أمور أخرى يعملها المرء في حياته كالاهتمام بعمله ورعاية أسرته. وأشعر أنك إذا تابعت التفكير في الله والدين فلن يبقى عقلك سليماً.

وبما أنه منحنا حرية التفكير، فلا أظن أنه سيعاقبنا ما دمنا لم نؤذ أحداً. وهكذا لا حاجة للمرء أن يكون مسلماً ليكون خيِّراً ولينجو من العقاب. ربما هناك مسيحيون أو حتى ملحدون سينجون من العقاب. ولكن هل يمكن أن يكون من مثلي ليس لديه إيمان حازم بالله مسلماً؟ إنني أنتظر جوابك على أحر الجمر.

■ التعليق ١٢

(من رسالة إلكترونية طويلة ملتهبة العواطف من طالب دكتوراه زائر من قبرص. لقد شاركني كثيرون من الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً أو من أبناء الجيل الثاني شكوكهم بشأن أدب الحديث الشريف، ولكن يبدو أن الارتياب في جدارة هذه المادة آخذ بالتنامي بين الشباب المسلمين في مختلف أنحاء العالم).

بوجود الفساد الواسع في الممارسة الإسلامية، فإن هذه الممارسة لا تعد إسلاماً بحد ذاتها - وعليها أن تجدد نفسها وتنقي ذاتها باستمرار حتى تعيش. لا خيار في ذلك، كما أرى، وليس هناك من سبيل إلى التحديد والتطهير ما لم نتخلص من خوف طرح الأسئلة والتعرض إلى الأسئلة. أوافق، أو لا أوافق هذا هو المبدأ الذي يجب اتباعه في الخطاب الاجتماعي.

هناك في الممارسة الإسلامية الحالية كثير من الشرك، وعلينا أن نقبل ذلك، ولكن الراغبين في التفكير، مجرد التفكير، في هذا الاحتمال، قلة قليلة. ليس الانشقاق مستحباً لأن الوحدة من أجل الوحدة محببة أكثر من الحقيقة. أعتقد أن الأشرار قد حقنوا الممارسات الإسلامية عبر قرون من الزمن بأمور مختلقة يحددها الإيمان. ومع ذلك، يبدو بصورة عامة أن المسلمين غير تواقين لممارسات إسلامية نقية، أو ممارسات إسلامية جذورها في كتاب الله، بل يفضلون إنتاج مجلدات فوق مجلدات حول ما يفترض أن النبي محمداً قاله أو فعله.

غالبية المسلمين يعتقدون أن تفسيرهم للإسلام هو التفسير الوحيد المقبول، لأنه ليس لهم الرغبة في تدقيق هذه الممارسات التي أحيطت بهالة «حماية مقدسة» من الحديث والسنة. لقد وصلت إلى قناعة بأنه آن الأوان أن نعود إلى القرآن الذي منه استخلصنا غالبية ممارساتنا وأن نتخذ موقفاً استقصائياً تدقيقياً شديداً تجاه الحديث والسنة.

وأعتقد أنه يجب أن نلتزم بالقرآن بوصفه المصدر الوحيد للإسلام، لأن الله ليس بحاجة إلى ما يكمل كتابه ولا يطلب ذلك. فقد ضمن لنا الله في القرآن أنه هو بنفسه يحمي القرآن (فمهما كان فهم الآية (٩) من سورة الحجر مختلفاً ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، ومهما كان عمق هذا الفهم متبايناً، فإن الفكرة الأساسية بأن الله يحمي القرآن واضحة تماماً). وبما أنه لا يوجد كتاب آخر يتمتع بمثل هذه الحماية الإلهية، فليس لدينا خيار سوى قبول القرآن مصدراً كافياً لنا.

الإسلام في النهاية هو بين الفرد والله. فلماذا أعتمد على الآخرين كي

يجعلوا هذا حلالاً وذاك حراماً؟ وكيف تجيِّر إرادة امرئ للآخرين المعرضين للخطأ مثلي؟ هل هناك دعم قرآني ؟ أعتقد أنه لا يوجد دعم قرآني. ولهذا السبب لا أستطيع قبول أية قيود دينية غير المذكورة في القرآن لأن الله يعلم ما يحرم ويحلل.

أود لو أرى في يوم من الأيام النساء يصلين في المساجد كلها الصلوات الخمس، بغض النظر عن حالتهم الجسمية، وإعطائهن نصف المكان المخصص للصلاة، ليس خلف الرجال بل في منطقة تقع على يمينهم أو يسارهم. أنا من قبرص، حيث لم أر قط مثل هذا الفصل للنساء كما هو الحال في مساجد أمريكة. لقد تراجعنا تماماً في المسجد الذي أصلي به في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يسمح للنساء أن يصلين في الخلف على الأقل.

فأمي وجدتي لم ترتديا حجاباً أو برقعاً يغطيهما من الرأس إلى أخمص القدم حتى تكونا صالحتين. والآية (٣١) من سورة النور ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يمكن فهمها بطرق مختلفة. إن الآية التي تأمر النساء بتغطية صدورهن أسيء فهمها، وفسرت بأن على النساء أن يغطين رؤوسهن، وهكذا، وإن لم يرد ذكر للرأس أو الشعر في الآية.

كثيراً ما يهمل جواب (إذا) في آيات كثيرة كما هو الحال في النص الذي يشرح الظروف التاريخية التي جعلت شهادة امرأتين مقابل شهادة رجل واحد أمراً ضرورياً، أو كالنص الذي يبين الظروف التي يسمح فيها بتعدد الزوجات. إذ لم ترد أداة الشرط (إذا) أبداً. القرآن يذكرها ولكن أحداً لا يتحدث عنها.

أعرف مسلمين لا يأكلون الجيلي، لأنه يحتوي على مادة الجيلاتين التي يمكن أن تستخلص من عظام الخنازير، ولكن القرآن يحرم لحم الخنزير بالتحديد، وليس عظامه أو أجزاءه الأخرى. وليس هناك مثال أفضل من الآية (١٤٦) من سورة الأنعام ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ التي تبين أن الله إذا أراد أن يحرم شيئاً بصورة نوعية دقيقة، فإنه يفعل. القرآن يحدد بصورة خاصة أربعة أنواع من اللحم ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٥/٣] و ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٥] إذا كانت هذه «القوانين الإلهية» مبنية على الحديث، فإن علينا أن نسأل، على ماذا بُني الحديث ؟ هل الحديث أو السنة ؟ فإن كان الأمر كذلك، كيف يفترض بعضهم أن قولاً للنبي أو سلوكاً له يضع قيوداً إضافة إلى قيود القرآن؟

وهناك قضية أخرى، هي الوضوء قبل الصلاة. يخبرنا القرآن كيف نقوم بذلك بالتحديد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٥/٦] ويتحدث عن التيمم[1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ

(١) استخدام التراب النقي للتطهير.

ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: ٤/٤٣]؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٥/٦] في حالة عدم وجود الماء. ومع ذلك، يشعر كثير من المسلمين - إن لم تكن غالبيتهم، بأنهم ملزمون بالقيام بأعمال إضافية في أثناء الوضوء وبترديد أدعية رسمية وما إلى ذلك. ولا نسأل أبداً إن كان النبي يضيف إلى أوامر الله أو يحذف منها، خصوصاً عندما تكون الأوامر واضحة صريحة في القرآن. أنا لا يهمني إن كان حديث هنا أو هناك، يخبرني بالكيفية التي كان النبي يتوضأ للصلاة. من الأسهل والأوثق مئة في المئة أن يُقرأ القرآن والاعتقاد بأن النبي كان يمارس القرآن حرفياً. فهل هناك فرصة، ولو ضئيلة جداً، بأن نزيد على كلمة الله شيئاً آخر.

لا أظن الناس يعاملون القرآن كما ينبغي أن يُعامل. فكيف تساوى كلمة الله أو تستكمل بكتاب ألفه بشر عن إنسان؟ ويبالغ بعضهم بالقول: إن الحديث هو وحي لم يضمنه النبي في القرآن. وحكاية الآية الضائعة التي تأمر بقتل الزاني والزانية برجمهما تبين خطورة مثل هذه المقاربة، فكل شيء يصل إلى هذا الحد ليفرض إسلاماً فاسداً ليس سوى شيء بغيض وممقوت. يجد الكثيرون حكمة عظيمة في ممارسات النبي المفترضة الواردة في الحديث الذي نثق فيه ثقة لا تهتز ولا تقل عن ثقتنا بالقرآن دون الاهتمام بما إذا كان النبي قد تصرف هكذا بوصفه بشراً أم بوصفه نبياً ورسولاً. أرى أن كتب الحديث ليست، في أحسن الأحوال، سوى روايات تاريخية ؛ وأقول : «في أحسن الأحوال»، لأن كثيراً من مصادر الروايات ضبابية وآتية من أجيال متأخرة من

الرواة الموثوقين (بموجب تقدير مجموعة معينة ذات مصالح قوية). والجدال في علم (الحديث) أمر مضحك، لأنه يسير على خطا المنطق نفسه الذي يتبعه علماء الكتاب المقدس الذين يقولون بمصداقية النص التوراتي وسلامته من الفساد، بناء على أنه كان في ذلك الزمن حديث وتقليد قوي يؤكد الحكايات التي نُقلت إلينا دون انتقاص ودون أن يصيبها أي فساد. إن الحوار الكلي للمحدثين والتقليديين قد وصل إلى هذا التساؤل: أين نبحث عن تفسير ما ليس بواضح في القرآن ؟ أنا أرى أن هناك اتجاهاً واحداً لا ثاني له : هو كلمة الله، والله وحده لا إله إلا هو، كما أوحى في تنزيل خاتمة الكتب على خاتم الأنبياء.

▪ التعليق ١٣

(واحدة من رسائل عديدة من مهاجرين مسلمين إلى أمريكة خرجوا من دينهم، ولكنهم يشعرون بالاهتمام المتجدد في الإسلام عن طريق زواجهم من متدينين من أبناء ديانات أخرى. نلاحظ في حكاية هذه السيدة الشابة التشديد على أهمية العقل والمنطق في بحثها الروحي. بعض أسئلتها في مكان آخر من هذا الكتاب):

إنك لا تعرفني، ولأكون صادقة لم أسمع بك إلا منذ أسبوعين فقط، حين أخبرتني إحدى صديقاتي في المسجد الذي أتردد عليه بكتابك (حتى الملائكة تسأل) فاشتريته وقرأته. وقبل أن أبين لك سبب اتصالي بك، أود أن أقتطع من وقتك دقيقة لأخبرك بأن كتابك قد ردّ إلي شيئاً كنت قد افتقدته في إيماني؛ ألا وهو الأمل. ذكرني كتابك بالجمال والمعنى الروحيين للإسلام، الذي أخشى أن يختلف عما تعلمه ومارسه كثير من المسلمين اليوم. شجعني كتابك أن أتابع طريقي في رحلتي الروحية لأجد الله.

الآن، أبين لك سبب اتصالي بك. أنا مسلمة بالولادة. ولدت في تركية، ونشأت فيها. ليست أسرتي متدينة كثيراً. فوالدي يؤمن بالله ؛ ولكنه لا يؤمن بدين منظم، وأمي مسلمة ولكنها لا تمارس الشعائر بدقة. وعندما بلغت السادسة

عشرة من عمري جئت إلى أمريكة بمنحة دراسية ولكن انتهى بي المطاف إلى ترك الجامعة وبقيت هنا في النهاية. أقيم الآن في ساوذرن أورنج كنتري (Southern Orange Country) في كاليفورنية.

كان لي دائماً اهتمام بالأديان كلها وخصوصاً اهتمامي بفهم الإسلام. ولسوء الحظ لم أبحث بجد، أو ربما عندما كنت أبحث وأطرح الأسئلة كان من حولي يفعلون ذلك بالطريقة العادية السطحية ؛ أي «هناك أمور ينبغي ألا تسأل عنها»، «ذلك ما يقول القرآن»، «حسناً كان ذلك طبيعياً في عهد النبي». «وهي أجوبة لا معنى لها، وجعلتني أتنحى عن البحث. وبمرور الزمن، فقدت الاهتمام بالوصول إلى الحقيقة إلى أن تزوجت أمريكياً مسيحياً. فبلقائه وحبي له ومعرفتي المزيد عن المسيحية من خلاله انبعثت في الاهتمام بالله، وبالدين والحقيقة ثانية. لذلك بدأت أبحث عن الله مرَّة ثانية.

شرعت بالذهاب إلى مسجد وألتقي بمزيد من المسلمين. كنت أبحث عن شخص ذي معرفة عالية بالإسلام أستطيع أن أبحث معه ما يخطر لي من قضايا وأطرح عليه أسئلة، دون أن يدينني أو يصدر فيّ أحكاماً بسبب طبيعتي الاستفسارية الاستقصائية. والحمد لله كان الإمام هو ذاك الشخص. سألته إن كان لا يجد غضاضة في دراسة القرآن معي. فقال سيرتب وقته لهذا الأمر. وما زلت أدرس معه القرآن منذ شهرين، والواقع أني مستمتعة بذلك. إنه إمام رائع، لطيف، متفتح الذهن، طيب النفس. إننا ندرس القرآن سورة، سورة. ومع ذلك ما زالت لدي أسئلة كبيرة لم يستطع هو الإجابة عنها بما يرضيني. وأحياناً تكون هذه المسائل عقبة كأداء أمامي وتلقي بالظلال على إيماني. ولدى قراءتي لكتابك ورؤيتي لمقاربتك إلى الإسلام وبعض الأسئلة، خطر لي أن بإمكاني أن أتوجه إليك ببعض الأسئلة. يبدو أن تقارب الأشياء من وجهة نظر منطقية وتحليلية تصف في واقع الأمر المنهج الذي أتبعه لأجد الله. وأعتقد أنك ستستطيع الإجابة على بعض أسئلتي منطقياً.

وبما أنني أدرس الإسلام والقرآن، وبرزت أمامي أسئلة لم يستطع الإمام الإجابة عليها بما يرضيني، فهل لي أن أطلب منك العون ؟ أعلم أن لديك

برنامجاً مشغولاً جداً، وأن مساعدتي هي آخر ما لديك من وقت كي تفعله: غريبة تسألك لتقتطع من وقتك لتجيب عن أسئلتها. على أية حال، أعتقد أنك على بصيرة ومعرفة كافيتين لتلقي بعض الضوء على بعض الأمور التي أراها مزعجة في الإسلام، وفي القرآن، وحتى في حياة النبي. أود، حقاً، لو تساعدني في بحثي عن الله، وأعذرك إن لم يكن لديك الوقت لذلك.

■ التعليق ١٤

(من شاب مسلم مهاجر يناضل من أجل الدفاع عن دينه. معظم المهاجرين المسلمين إلى أمريكة يأتون من بلدان حيث لا يجوز الحط من قدر الإسلام. وبالمقابل يتعرض أبناؤهم غالباً إلى نقد لاذع لعقيدتهم. وفيما يلي عينة مما يواجهون. أعلق بما يأتي، وفي الهوامش، باختصار على بعض النقاط. ليست غايتي هنا تقديم دفاع، بل غايتي بيان أنواع المواجهات الفكرية التي يتورطون فيها[١]).

أعرف شخصاً يجادل شخصاً آخر في حقوق المرأة في الإسلام. يرسلان إلي ذلك شارحين بعض النقاط التي نوقشت. سأحتاج بعض المساعدة في مناقشة هذا الموضوع والبحث فيه. فإن كنت تستطيع إرسال ما تقدر عليه سأكون ممتنة لك. حتى الآن ما زالت مناقشاتي ضد المصدر، لأنني أشعر أن الخميني لا يمثل الإسلام. فإن كنت تستطيع تزويدي بمراجع أو (URLS)[٢] فإن ذلك سيساعدني جداً. أرسل له معارض الأخ المقتطفات التالية من أحد كتب الخميني[٣].

---

(١) للاطلاع على مثال آخر مفصل من هذا النوع؛ انظر النقد الذي قدمه نيوتن ورفيق الحق على الموقع الإلكتروني (.debate.domini.org/Nlewton/womeng.htm)

(٢) URL : Uniform Resources Loactor موجود الموارد الموّحد. مصطلح في علم الكمبيوتر يساعد على إيجاد العنوان المطلوب للاتصال به والحصول على المعلومات. (المترجم).

(٣) كتاب آية الله الخميني (تحرير الوسيلة) (تعليق على الوسيلة [في الخلاص لـ س. عبد المحسن أصفهاني]) هو تعليق على عمل لعالم سابق هو س. عبد المحسن أصفهاني الذي يستشهد بأحكام تعود إلى عدة قرون سابقة . ولسوء الحظ لم أستطع الحصول =

تعاليم آية الله الخميني الدينية حول الزواج والطلاق والعلاقات، مقتبسة من كتاب تحرير الوسيلة، المجلد الرابع، دار العلم، قم، إيران، ١٩٩٠[١].

(١) يستطيع الرجل الزواج من فتاة يقلُّ عمرها عن التاسعة ولو كانت طفلة ترضع[٢]، ويحرم على الرجل، مع ذلك، ممارسة الجنس مع من يقل عمرها عن التاسعة، أما المداعبات الجنسية كالمعاشرة، والملامسة والتقبيل واللواط فهي متاحة[٣]، ولا يكون الرجل الذي يمارس الجنس مع من هي أقل من التاسعة مُجرماً، بل مخالفاً، إذا لم تتضرر الفتاة بصورة دائمة.

على نسخة من الكتاب أو على ترجمة إنكليزية له لتدقيق مدى صحة ما هو وارد فيما تقدم . إن المقتبسات الثلاثة الأولى هي آراء آية الله الخميني، أما البقية فهي آيات من القرآن الكريم (الشواهد ٤، ٥) ومن صحاح الحديث (الشواهد ٦-٩). ما عدا استثناءات قليلة ترد الأحاديث في الصحاح المقتبسة ولكنها لا يمكن أن تكون جزءاً من كتاب آية الله الخميني لأنه بوصفه عالماً شيعياً لا يعتمد على المصادر السنية، وفي الأمثلة المشافهة كلها، كان المعارض يستخدم المصادر المختلفة المتوافرة لديه ليقيم قضيته، ولا يدعي أنها من نص واحد.

(١) لابد أن نذكر دائماً أن أعمالاً شرعية تقليدية كهذه تحاول استباق أية مشكلة شرعية يتصورها المرء، بغض النظر عن بعدها أو عدم واقعيتها. انظر مثلاً: مقدمة توضيح أسئلة، ترجمة غير موجزة لرسالة توزيع المسائل لآية الله خميني، ترجمة ج. بوروجيردي (J.Borujerdi) مع مقدمة لفيشر (Fisher) و م. أبيدي (M.Abedi).

(٢) في الثقافات الإسلامية التقليدية يمكن أن يفصل بين الزواج الرسمي والعيش معاً بضع سنوات . وبعد الاحتفال الرسمي بالزواج تكون اللقاءات بين الزوجين مراقبة بشدة حتى يحين الوقت للمشاركة في البيت والفراش . وفي حين أنه يمكن إقامة احتفال بالزواج الرسمي، لكنه لا يسمح بالاتصال الجنسي ما دام أحد العروسين أو كلاهما ما زال في سن الطفولة حتى يبلغ رشده. لذلك بحث سيناريو مستحيل جداً في ما سيأتي، فإن كان هذا الشاهد صحيحاً، وثانية أقول: إن هذا النوع من الإفتاء المطلق شائع في «الكتيبات» التقليدية هذه المتعلقة بالقضايا الشرعية . لقد بحث موضوع الزواج بين الإنس والجن في بعض المقالات. ولابد من ملاحظة أن زواج الأطفال كما هو موصوف أصبح نادر الذكر في البلدان الإسلامية تلبية لمطالب التحديث.

(٣) يجيز الشيعة اللواط بين الزوج وزوجته، أما أهل السنة فيحرِّمونه.

ولكن هذه الزوجة الصغيرة لا تحسب من الزوجات الأربع الدائمات. ولا يسمح للرجل أن يتزوج أخت هذه الفتاة الصغيرة[١].

(٢) لا يسمح للمرأة ذات الزوج الدائم أن تخرج من البيت من دون إذن زوجها؛ ويجب أن تظل تحت تصرفه لتلبية أي رغبة من رغباته[٢] ويجب ألا تمنعه من ممارسة الجنس معها إلا لأسباب دينية سارية. فإن تطعه في هذه الأمور، فإن عليه أن يزودها بالمأكل والملبس والمأوى وغير ذلك من الضروريات، وإن لم يفعل، يكون مديناً لها بذلك كله، سواء كان قادراً أم لم يكن.

(٣) المرأة التي تمنع نفسها عن زوجها ملامة، وربما لا تطلب منه مأكلاً ولا ملبساً ولا مأوى أو أية علاقات جنسية لاحقة. ومع ذلك يظل لها الحق في مهرها[٣].

■ تعليق للمعارض:

لا تفهموني خطأ، فهناك كثير من النقاط الإيجابية أيضاً، ولكن كانت هذه النقاط هي التي صدمتني أولاً، يمكن ألا تكون كلمات الخميني غير صالحة دينياً، لأنه كان متعصباً فجر حرباً أهلية في إيران[٤]؟ أم أن هذا ما قيل لي من

---

(١) ج. شاخت، أصول الشريعة المحمدية، أكسفورد ١٩٥٠، ص ٥٨ - ٨١؛ م.م. برافمان، الخلفية الروحية لفجر الإسلام، دراسات في المفاهيم العربية القديمة، ليدن، ١٩٧٢، ص ١٢٣ - ١٩٨؛ ج. هـ. ا. جانبول، دراسات حول أصول الحديث الإسلامي واستخداماته، فيريورام (١٩٩٦).

(٢) الرغبات المشروعة (ضمن حدود الشريعة) متضمنة هنا لأن الخميني يقول مباشرة بعد «رسالة توزيع المسائل» ما يلي: «ليس للرجل حق في إجبار زوجته على خدمة البيت» انظر «توضيح المسائل»، ص ٣١٨ ث ٢٤١٤.

(٣) ليست مثل هذه الآراء (النقاط ١-٣) غير شائعة بين علماء المسلمين؛ والواقع أن اعتراض المسلمين المقيمين في الغرب على هذه النقاط يؤكد الحاجة إلى مراجعة نقدية للعلم الإسلامي ماضيه وحاضره.

(٤) لم يكن هناك حرب أهلية في أثناء حكم الخميني، ولكن العراق هاجمت إيران وتفجرت بذلك حرب دامت سنين عديدة.

قبل مسلمين آخرين، على الأقل. ولكن انظر إلى الآيات التالية من القرآن: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٣٤].

■ تعليق المعارض :

حسناً، أنت ترى مشكلتي لأسباب واضحة. ولكن هذه ليست هي المشكلة الكبرى : فأنا أعرف عن هذه المشكلة منذ زمن بعيد.

﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١٥-١٦][1].

■ تعليق من المعارض :

لم أدرك بعد مدى عمق المعايير المزدوجة. فأقوال محمد الآتية تعطي الرجال سلطة دكتاتورية على أزواجهم.

(٦) قال النبي ﷺ: «لو أن رجلاً أمر امرأته أن تنقل من جبل أحمر إلى جبل أسود، ومن جبل أسود إلى جبل أحمر لكان نولها أن تفعل».

(٧) عن عبد الله بن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ: «فلا تفعلوا فإني لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها كله ولو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه»[2].

---

(١) انظر تعليقي فيما سيأتي.

(٢) رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان.

(٨) عن قيس بن طلق عن أبيه طلق بن علي قال : قال رسول الله ﷺ: «إذا الرجل دعا زوجته لحاجته فلتأته وإن كانت على التنور»[١].

(٩) عن أبي هريرة.... قال : قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح»[٢].

(١٠) عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا»[٣].

(١١) عن أبي سعيد الخدري قال خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال: «يا معشر النساء تصدقن فإني أُريتكن أكثر أهل النار. فقلن وبم يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن. قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله. قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى. قال: ذلك من نقصان عقلها. أليس إذا حاضت لم تصلي ولم تصم؟ قلن: بلى. قال: ذلك من نقصان دينها»[٤].

(١٢) عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال.. «فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[٥].

(١٣) قال النبي: «إن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس»[٦].

---

(١) الترمذي، رقم (١١٦٠).
(٢) البخاري، رقم (٣٠٦٥).
(٣) الترمذي، رقم (١١٧٤).
(٤) الشاهدان، ١١، ٢٣ من الحديث نفسه في البخاري رقم (٢٩٨).
(٥) مسلم، رقم (٢٧٤٢).
(٦) البخاري.

(١٤) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل لم يَخْنِزِ اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر»(١).

(١٥) عن أم سلمة قالت قال رسول الله ﷺ: «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة»(٢).

(١٦) عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ قال: «لا يسأل الرجل فيما ضرب امرأته»(٣).

(١٧) عن عبد الله بن أبي ذباب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تضربوا إماء الله، فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذئرن النساء على أزواجهن، فرخَّصَ في ضربهن فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال النبي ﷺ لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم».

(١٨) عن عبد الله بن عمر وأن رسول الله ﷺ قال: «لا يجوز لامرأةٍ عطيةٌ إلا بإذن زوجها»(٤).

(١٩) عن أبي سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تسافر امرأة مسيرة يومين ليس معها زوجها أو ذو محرم، ولا صوم يومين؛ الفطر والأضحى ولا صلاة بعد صلاتين بعد العصر حتى تغرب الشمس وبعد الصبح حتى تطلع الشمس...»(٥).

---

(١) النص الحرفي للحديث هو «لولا بنو إسرائيل لما فسد اللحم، ولولا حواء لما خانت زوجة زوجها». إن التعليق على حوار تعكس حكاية سفر التكوين من التوراة عن الزوج الأول حيث أغوت حواء آدم فأخرجته من الجنة، ولا تعكس حكاية القرآن. البخاري رقم (٣١٥٢).

(٢) الترمذي، رقم (١١٦١).

(٣) لابد أن نذكر أن الأحاديث الثلاثة في أبي داود التي تذكر ضرب المرأة، اثنان يحرمان ضربها وواحد لا يشجع على ضربها. (أبو داود، رقم ٢١٤٧).

(٤) الشريعة الإسلامية لا تسمح كذلك للزوج أن ينفق شيئاً من مال زوجته من دون إذنها . وهذا يعني أن كلاً منهما مستقل مالياً عن الآخر. أبو داود، رقم (٣٥٤٧).

(٥) وجدت في هذه الروايات، الصيام التطوعي فقط، البخاري، رقم (١٧٦٥).

(٢٠) «أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة»[١].

تعليق معارض: ومن جهة أخرى يستطيع الرجل تطليق زوجته من جانب واحد.

(٢١) «تحرم المرأة بطرق شتى من حضانة طفلها. حتى حليبها ملك لزوجها». (البخاري)[٢].

(٢٢) انظر الحديث رقم (١٩) أعلاه. هو نفسه[٣].

(٢٣) عن ابن عمر بن حصين عن النبي ﷺ قال: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»[٤].

(٢٤) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح»[٥].

(٢٥) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء»[٦].

(٢٦) عن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان»[٧].

---

(١) أبو داود (٢٢٢٦).

(٢) ليس في صحيح البخاري مثل ذلك (المترجم).

(٣) نص الحديث ما يلي: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة، وليس معها ذو محرم» . إذا ما أخذنا مخاطر السفر في تلك الأيام في الاعتبار، لا يكون هذا الحديث غريباً. البخاري رقم (١٧٦٥).

(٤) المقتبسان ١١ و ٢٣، مأخوذان من الحديث نفسه . البخاري، رقم (٣٠٦٩).

(٥) البخاري، رقم (٣٠٦٥).

(٦) البخاري، رقم (٣١٥٣).

(٧) الترمذي، رقم (١١٧٣).

(٢٧) عن عبد الله بن مسعود قال: «كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، ليس معنا نساء، فقلنا: ألا نختصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخص لنا أن نستمتع، فكان أحدنا ينكح المرأة بالثوب إلى أجل»[١].

(٢٨) عن عبد الرحمن بن سلام أن رسول الله قال: «تزوجوا الأبكار فهن أعذب أفواهاً وأنتق أرحاماً، وأرضى باليسير»[٢].

(٢٩) عن عليٍّ أن رسول الله قال: «إن في الجنة لسوقاً ما فيها شراء ولا بيع إلا الصور من الرجال والنساء، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها»[٣].

■ تعليق المؤلف:

ليست هذه الشواهد - كما أشرت في حواشٍ عديدة - مباشرة بل صيغت بصورة متحيزة، ربما يكون المعارض قد وجد هذه الأحاديث في الإنترنت. فهذه المعلومات ترد ليس فقط في المواقع الإلكترونية الإنجيلية التي تهاجم الإسلام، بل أيضاً في مواقع المسلمين المحافظين التي تبحث مكانة المرأة في الإسلام. إن تفسير القرآن [النساء ٤/ ١٥-١٦] في النقطة الخامسة ليس دقيقاً. إن التفسير الأكثر حرفية هو على النحو التالي: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١٥-١٦].

الفرق الجوهري بين هذا النص وترجمة المعارض هو أن كلمة «رجلين» لم ترد بل وردت كلمة «اللذان» التي تعني بالعربية أولئك الاثنان والتي يمكن أن

(١) البخاري (٤٣٣٩)

(٢) رواه الطبراني.

(٣) هي صيغة أقل فحشاً من الصيغة التي أوردها المعارض . ويبدو أن الحديث يوحي بأن المرء يستطيع اختيار الشكل الخارجي له في الجنة . ذكره الترمذي في «غريب الحديث» (٢٥٥٣).

تعني إما «تلك المرأة وذلك الرجل»، أو «ذينك الرجلان» وذلك حسب السياق. وليس هناك ما يسوغ الافتراض بأن الآيتين غير مترابطتين. بل العكس هو الصحيح. ومن ثم فإن القراءة الطبيعية للآية «١٦» من سورة النساء تكون على النحو الآتي: «أولئك الاثنان (امرأة وجدت مذنبة بارتكاب فاحشة كما جرى بحثه في الآية (١٥) وشريكها الرجل في الفاحشة أو حتى رجلان ارتكبا فاحشة ما) فأي منكم مذنب بهذه الفاحشة، عاقبوهما. ثم إذا تابا وأصلحا، فدعوهما وشأنهما، إن الله تواب رحيم»[١].

وهكذا يعلق محمد علي: بالرغم من أن كلمة فاحشة تستخدم أحياناً لتعني الزنى، فإن السياق هنا يبين أنها تعني سلوكاً غير أخلاقي دون الزنى، لأن عقوبة الزنى واردة في الآية (٢) من سورة النور ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. إن كلمات الآية التي ترد بعد كلمة فاحشة تشير إلى عمل غير أخلاقي مماثل من طبيعة العقوبة غير المحددة تدعم هذا الاستنتاج، لأن عقوبة أي عمل دون الزنى تختلف باختلاف طبيعة الجريمة. وهكذا المرأة المدانة بسلوك غير أخلاقي يُحدُّ من حريتها. فإن صلحت حالها أو تزوجت إذا كانت غير ذات زوج، فإن الله يفتح أمامها الطريق وتستعيد حريتها، فإن لم تصلح حالها فإن تقيَّدُ حريتها حتى مماتها. والجريمة التي يتحدث عنها القرآن في هذه الآية هي كتلك التي ورد ذكرها في الآية السابقة. المقترفان هما اثنان[٢].

بالإضافة إلى أن بعض الشواهد قد أعيدت صياغتها بصورة متحيزة ومغرضة فإن نقاد الحديث قد حكموا أيضاً على العديد من الأحاديث بأنها مشكوك فيها. ومع ذلك بالرغم من عدم الدقة، هناك ما يستحق النظر لخلق حالة مقنعة بأن الإسلام يضفي على المرأة دوراً تابعاً استسلامياً في الزواج. يمكن مناقشة هؤلاء

(١) هذه ترجمة للآية، وليس نصها العربي.

(٢) محمد علي (القرآن الكريم، مع ترجمة إنكليزية وتعليق)، لاهور (١٩٩٤) الحاشيتان (٥٥١، ٥٥٢) . انظر كذلك محمد أسد (رسالة القرآن)، دار الأندلس، جبل طارق، (١٩٨٠) الحاشيتان (١٣، ١٤).

الآن بأن التنظيمات القرآنية ومعظم التشريعات الواردة في الأحاديث والتي يستشهد بها لدعم فكرة هذا الدور التابع للمرأة يعكس بيئة اجتماعية - تاريخية معينة، وأنها في هذا الوسط تكون قد حَسنت وضع المرأة ورفعت من قيمتها. وانطلاقاً من هذا المنظور، يمكن أن يكون هذا التشريع نموذجاً لإصلاح العلاقة بين الجنسين ينبغي أن يحاكى، ويوسع ويعزز كلما سمح تطور المجتمع بذلك. ومع ذلك هناك عقبتان في وجه هذا الرأي: الأولى، أن بعض الأحاديث النبوية (كبعض الأحاديث المقتبسة فيما تقدم) يصعب التوفيق بينها وبين هذه الفكرة، والعقبة الثانية، أن غالبية علماء المسلمين والعلمانيين يرفضونها.

■ التعليق ١٥

(قصيدة من معتنقة للإسلام في العشرينات من عمرها، من سيدار رابيدز (Cedra Rapids)، أيوا. تعبر عن العزلة بين المجتمع الأوسع والجالية الإسلامية التي يشهدها الكثيرون من معتنقي الإسلام):

ممزقة بين عالمين
كارلي كاريس (Carly Caris)

أبحث عن هويتي
موزعة بين عالمين
أبحث عن مكان أعتزل فيه
حيث أجد نفسي.

أنظر في المرآة
ولكن من تلك التي تحدق بي ؟
أشعر كفتاة بريئة
فقدت عذريتها

أنظر إلى الناس
أحملق فيهم وأصفر وأنا أمر بهم
يدعونني (خائنة)
معتقدين أن إيماني مجرد كذبة

أبحث في أعماق نفسي
أسأل ذاتي الداخلية
أصلي من أجل جهادي
من أجل السلام والتضامن.

أجمع شجاعتي

لأفصح عمن أكون

معلقة على حيث أنا

فخورة بهذا الموقف

إني ممزقة بين عالمين

لست منسجمة مع هذا ولا ذاك

تكيفت لأتم العالَمَيْن

دون أن أشعر بالاختناق

يحكم الناس علي قبل أن أتكلم

ينتقدون ويحللون

يحاولون إضعافي

فأصرخ فيهم : «أنا لست أمةً»

أسير ببطء على الأبواب

مهيئة روحي ونفسي

مدركة أنه لا يهمني ما يقولون

سأظل كلاً موحداً

لست منسجمة هنا ، ولا هناك

إني في مكان ما بينهما

ربما تضيع هويتي

ولكني في النهاية سأظل أنا

■ **التعليق ١٦**

(أغنية ناقدة قاسية من أمريكي اعتنق الإسلام عمره تسعة وعشرون عاماً. ليست العواطف التي يعبر عنها غريبة بين المسلمين المواطنين. إنها انفجار وخيبة أمل من ثقافة المسجد)

لتر ما ترى

أغنيات وشرح لكيل ويليام أندرس (Kyle William Anderss)

كتبت سنة (٢٠٠٣)

عندما أتحدث يقولون: إنني لا أحترم النبي

ولكن لو يصغون، إني لا أحتقر حتى البخاري.

كل ما أقوله مهما كان طويلاً

شرحه، قطعه، صنفه، سأقول:

كتاب واحد، صنارة واحدة أمسكتني

الله يحميها، ولم يصنعها بشر

كأنه كان لديهم قرآن فيه الحكمة

لكنهم لم يحبوه ولم يستوعبوه، ثم نسوه، ولكن

ليس قبل أن يقفلوه بمفتاح بلعوه.

أفسدوا هديه، وأهملوه، وأساؤوا إليه.

والآن، ترك ما تبقى بنا مع مئات السنين من تقدمهم ؟

ألم يقرؤوه ؟ أعني أن (اقرأ) كانت هي الكلمة الأولى

إن تنظر إلينا الآن، ربما تفكر بكلمة (اقرأ)

ألم تكن فيه،

أم كانت محذوفة منه أم شطبت أم عدنا إلى البداية،

أم الكلمة الأخيرة التي لم يسمعوا بها أبداً
لأنهم لم يصلوا إلى ذلك البعد
عندما ألقوا بالكتاب على الرف أو ربما على الأرض.

حسناً، ربما أكون قاسياً. هناك البعض، لا شك،
قد حصلوا عليه منذ زمن بعيد،
أو على بعضه، أو قليل منه، واستخدموه.
لكن ذلك لا يعني أنه يجب ألا نفعل أو لا نستطيع أن نفعل
أو أننا لسنا أذكياء بما يكفي لنفسر الحكمة التي وجدوها
مجتمعة مع الزمن الذي مضى ومعرفة اليوم،
بيد أن المشكلة هي أنها مازالت محجوبة بعيداً عنا،
ألا تحصل عليها ؟ هيا، أنت تعرف ما أقول.
أو، نستطيع قراءته، تأكد أنك لا تقول ما حصلت عليه.
سيستلُّ أحدهم تقليداً ويرديك به قتيلاً على الفور
قل، ليس هذا ما جنيت، وأنك لا تفهم ذلك.
وأنك بحاجة إلى خمسة عشر كتاباً أخرى لتوضح الأمر.
ألفها فتى لا تعرفه ذكي حقاً، لا يقود سيارة أو برنامج VCR،
لأنه لا يوجد أحد، حتى الآن،
أعني أن لديه جملاً،
وليس ذلك بشيء، ولكنه يسير
حتى يريك أنك لا يمكن أن تكون ذا بصيرة قويمة، انظر
لو شهدت زمناً ما في القرن الثالث عشر.

ما زلت أعود إلى الوراء إلى أفكاري الرئيسة التي أضعف فيها

صخبي وهذياني اللذين يجعلانك تعبر.

يا إلهي !! هل أنا أفعل ذلك ؟

لقد استخدمت كلمتين في أغنيتي، من (أغنيتك)

للسيد إلثون جون، وهو مسرور

ولكنه ألحق باسمه في النهاية اسم يحيى

وهناك ما هو أسوأ من السرور، بالرغم من أني لا أحبه

ولكن بعضكم أيها المسلمون، لو أتيحت لكم الفرصة لقتلتموه.

وإلهي ؛ أليس ذلك أسوأ ؟

هذا يعيدني إلى نقطتي التي انطلقت منها، وهي

أننا طوينا القرآن، وأحرقناه، وتصاعد دخانه.

أعني، ولم لا ؟! فالورق مصنوع من قنّب

ربما نستفيد منه شيئاً

ومن يحتاجه أصلاً ؟ انظر حولك،

لا أحد يرى في ذلك عاراً

لأن لدينا خمسة عشر غازليون كتاباً آخر بالعنوان نفسه.

ولكن من ألفها ؟! أنت تعرف من.

نعم. أنا وأنت نعرف.

أي إنسان في الموقع، وآخر من عرفت، ظن المسلمون

أن الله لم يدخل خلقه، وأنه هو الله.

أعني عندما أستشهد بالله - أستشهد مباشرة من القرآن.

لكننا نقول، قال النبي هذا، وقال ذاك، كما نشاء

أو هذا صواب وذاك خطأ لأنه كان كما تعلمت

في الإسلام نفعل هذا ، أو كمسلمين نشعر
بأصوات وكأننا نتكلم عن الله
ولا أستطيع أن أومن أن ذلك واقعي
أعني آخر شيء أود فعله

هو أن أثبت قدمي في فمي لدى محاولتي وضع نفسي مكان الله.
لا تفهموني خطأً ، أعني لو قالها النبي
لتبعته.
هناك من يقول لي : «قال، قالت
أشتريه ولا أبتاعه
ثم أطلب إليهم أن ينتجوا أوقية واحدة من الأدلة
التي تثبت بلا أدنى شك
أن الكتب التي في أيدينا
ليست من صنع الإنسان، وأنها إلهية مشعّة
كالنور والحكمة الصادرين عن كتابي.

الكتاب الذي يقرأ ، الكتاب الذي يُقرأ.
كلمة القرآن تعني، الكتاب الذي يقرأ.
الكتاب الذي يقرأ ، الكتاب الذي يقرأ.
فليُغَذِّ رأسك بالمعرفة ، قبل أن تموت.

عندما قال الله قولاً محدداً ، اجعلوه عاماً
ثم خدعونا

ونصبوا أنفسهم جنرالات.
وعندما جعله الله عاماً، قالوا : بل هو خاص
ابحث في أي كتاب بغض النظر عن شرعيته
املأ الفراغات كلها التي ظنوا أن الله غفل عنها
لا تثقوا بحكمته، لا تثقوا بكلمته
أخذوا حكاياته كلها ومسخوها فصارت سخيفة
أو خاطئة، أو غبية، أو فقدت معناها.
ولكنهم حصلوا بجهودهم على توقيع كتاب
ووقعنا كلنا بالشَّرَك
لأننا توقفنا عن قراءته بأنفسنا
وبدأنا نجادل فيما هو غامض
كما تبعنا قادتنا إلى جهنم.

والآن بعد وقت طويل، تُرِكَ مجتمعنا بإيمان
اغتُصب واستغل لمكاسب شخصية
ترك على زاوية الطريق لتلتقط المافيا منه النفاية
أو الإرهابيون، عندما ندعوهم بافتخار
كما نحث كل ليلة في المسجد
إن «التفجير الانتحاري أمر حسن،
إن حصلت اليوم على فتى راغب وقنبلة»
وبالنسبة لدين لم يسمح بالكهنوت
لماذا فيه كهنة أكثر من المسيحية ؟
إننا ننوء برؤوسنا ونتنحى ونقف

فقيل هذا الشيخ وذاك الشيخ.
علينا أن نبيع الشيوخ كلهم ونتخلص منهم

ثم ما شأن هذه الكلمة «دين»
الذي أعتقد أنه الإسلام، أو أعني الاستسلام،
وأنه كان (سبيلاً) أو على الأقل ما أراد العلماء أن نقوله
إلى غير المسلمين على الأقل
ولكن عندما يغطون، ويصرخون
خير لك أن تضع أنفك في التراب، ليس هذا سبيلاً، إنه دين
فيه عقيدة، وإفراط، وفلاحون أميون.
ثم ما الذي تظنه خطأً
كيلا يكون قرار عالم

الكتاب الذي يقرأ، الكتاب الذي يُقرأ.
كلمة القرآن تعني، الكتاب الذي يقرأ.
الكتاب الذي يقرأ، الكتاب الذي يقرأ.
فلتُغَذِّ معرفته رؤوسنا، قبل أن نلقى ربنا.

اقرأه مرات عديدة
مراراً وتكراراً،
اصعد هذه التلة ماشياً
إلى العالم الآخر.
يريدك الكثيرون أن تكون غبياً

ذلك ما لا تفهمه، وأنه لن يكلمك.

وأنك بحاجة إليهم كي تعانقهم وتقبلهم وتنحني لهم

ولكن ضع ثقتك بالله بدلاً من وضعها في أفواههم.

وهكذا، كلهم يصغون، لا تصغي إلي،

اقرأ القرآن فحسب، ثم انظر

ماذا ترى

وبقولي اقرأ القرآن، أعني، اقرأ القرآن

وليس أي كتاب آخر لا يمكن الاعتماد عليه.

ملاحظات فراق

إلى الإخوة والأخوات الأمريكيين الذين نشؤوا في الوطن

إن مجتمعنا في أمريكة اليوم غارق في صراع حاسم سواء كنا مدركين لذلك أم لم نكن، أو سواء اعترفنا به أم لم نعترف، وإننا نتكبد خسائر فادحة. أعداد هائلة من الأولاد والأحفاد المسلمين، الذين اعتنقوا الإسلام، وسعوا إلى الروحانيات تتخلى اليوم عن المجتمع الإسلامي، وكثير منهم يتخلون عن الدين نهائياً. ليست المواجهة عسكرية - بالطبع - بل هي مواجهة على الصعيد الفكري. ديننا يهان عن وعي وعلناً من قبل وسائل الإعلام في جبهة، وتقوم المواقع الإلكترونية المناهضة للإسلام بالهجوم، في جبهة أخرى، على الدين الإسلامي بانتقادات استشراقية عتيقة منبوذة ولكن يعاد إحياؤها الآن.

وفي جبهة ثالثة حملة من التفسير السام وغير المعقول على العقيدة الإسلامية مع دعم كبير من الخارج لمسرح مركزي في المشهد العالمي. وفي جبهة رابعة، تقوم غالبية مساجد هذا البلد بفرض تقاليد ومعتقدات مشكوك فيها باسم الإسلام تشوش رسالة الله الجوهرية التي جاءت في آخر تنزيل للبشرية، وتخرج الأفراد زرافات من الدين، وتؤكد لكثيرين من الشباب ذوي الأبوين المسلمين، وللذين

اعتنقوا الإسلام من الأمريكيين الانطباع السائد عن الإسلام الذي يؤمن به المجتمع عموماً. وبدلاً من أن يرى هؤلاء المسلمون المتحررون الإسلام سبيلاً إلى النمو الروحي والتنوير والإنجاز، فإنهم يرونه آسناً، رجعياً، أبوياً، بقية من ثقافة متخلفة غارقة بجدال لا معنى له وشكلية فارغة لا حياة فيها.

إذا كان لابد من مواجهة هذا الوضع فإن دون ذلك جهود فكرية ضخمة وشجاعة، وإن الذين يقع على عاتقهم هذا العبء والتحديث هم الجيل الثاني ومعتنقو الإسلام من الأمريكيين الذين ما زالوا متمسكين بدينهم بالرغم من التحديات الكثيرة التي تواجههم. أنتم يا شباب الإسلام الأمريكيين المسلمين النشطاء، واعتنقتم الإسلام، بالرغم من قلة عددكم، قد وُضِعتم في الدور المحوري. وبفضل تربيتكم الأمريكية، فإنكم تفهمون المجتمع المحيط بكم وتعرفونه تمام المعرفة ؛ وبفضل حبكم لله والتزامكم به وبدينكم، وكونكم في بيئة تختبركم باستمرار، قد أصبحتم بالضرورة وبالطبيعة الجسر الحاسم بين دينكم ومستقبله في هذا البلد. إنكم في أفضل وضع يؤهلكم للرد العقلي على الذين يحطون من شأن الإسلام، وللتواصل مع أبناء وطنكم رجالاً ونساء، وتبينوا لهم ماذا يعني أن يكون المرء مسلماً حقاً. إنكم تفكرون كما يفكرون وتتكلمون كما يتكلمون وتقدرون همومهم وما يسبب لهم اضطراباً وفوضى. وأنتم كذلك في أفضل موقع لإعادة تقويم التراث الواسع الذي ورثناه باسم الإسلام. وبما أنكم لم تنشؤوا في ثقافة إسلامية تقليدية، ولأنكم تعلمتم منذ اليوم الأول في المدرسة على البحث والسؤال والنقد والتحليل، فأنتم المرشحون الأساسيون لمحاولة فصل الدين عن الثقافة، وللتمييز بين ما هو ضروري وجوهري للإسلام من التفسيرات المقيدة بزمان ومكان. أنتم الأقدر على فهم الشباب المسلم الساخطين والتواصل معهم. هذا جهادكم، جهاد العقول والقلوب، جهاد الفكر والعقل والمنطق.

لذلك أشجعكم على تسليح أنفسكم، يا إخوتي وأخواتي الأصغر مني، بالكتب والأقلام والحواسيب الشخصية وبأدوات التعلم الأخرى كلها، سلحوا أنفسكم بمعرفة تراثكم الديني وأعمال عقوله الكبرى في الماضي وأفكارهم،

وسلحوا أنفسكم كذلك بالتقنيات الحديثة للبحث النقدي والتحليلي والتحقيقي كي تتمكنوا من دراسة الإسهامات الماضية في العلوم الإسلامية ونقدها. تعلموا كل ما تقدرون على تعلمه في عملكم، وخصوصاً في حقول كحقول الدراسات الدينية والتاريخ وعلم الإنسان واللسانيات. وسلحوا أنفسكم، كذلك، إن كان لديكم استعداد وميل، بدرجات عالية متقدمة في حقول البحث هذه، لتكونوا قادرين على نقد تقاليد مجتمعنا وإعادة تقويمها. وسلحوا أنفسكم بالتواضع، لأنه حيوي وضروري للموضوعية، وسلحوا أنفسكم بالشجاعة والصبر والمثابرة، أيها الإخوة والأخوات، لأنكم ستواجهون معارضة من خارج المجتمع الإسلامي ومن داخله على حد سواء. وتذكروا أن تتابعوا دائماً البحث عن الحقيقة، لأن الله هو الحقيقة، وصلُّوا له دائماً وثقوا بهدايته. وسلحوا أنفسكم أيضاً بتقوى الله، ولا تنسوا أنكم أسلمتم أنفسكم له وحده - وليس للتقاليد، ولا للحديث ولا للمذاهب الفكرية أو الجالية المحلية أو الثقافة أو الإرث العلمي - واعلموا أن حياتكم وكفاحكم وتضحياتكم ومماتكم كلها لله.



مستخلص

هذا الكتاب صرخة استغاثة من أجل المسلمين الجدد في أمريكة وأبناء المسلمين المهاجرين إليها.

تناول الكتاب في أساسه للمشكلات التي يتعرض لها هؤلاء في أمور دينهم وفي صلتهم بالمجتمع الأمريكي، تلك الصلة التي توقعهم بتناقضات واضطرابات في عقيدتهم، وفي التزامهم بالدين.

عرض المؤلف أولاً تجربته في انتقاله من الإلحاد إلى الإيمان عن طريق دراسة القرآن دراسة نقدية من أجل المعرفة. وطرح من خلال ذلك أسئلة ضد الله، حتى وقع على أجوبة شافية، قادته للإيمان العميق.

ثم عرض للأسئلة التي كانت تأتيه على الموقع الإلكتروني من المسلمين الجدد الأمريكيين ومن أبناء المسلمين المهاجرين (الجيل الثاني) وكانت أسئلة محرجة تظهر مدى المشكلات النفسية والاجتماعية والعقائدية التي يعانون منها.. وكانت تلك الأسئلة تتعرض لموضوع المرأة ومكانتها في الإسلام ومعاملة القائمين على المراكز الإسلامية لها، ومشكلاتها في الشارع ومع الحجاب. كما تعرض لمسألة تعدد زوجات الرسول وزواجه من عائشة، وأشار إلى مسألة خلط المسلمين عاداتهم وتقاليدهم بالدين الذي أودخلوا عليه ما ليس منه. وعرض مشكلة الهيمنة التي يفرضها القائمون على المساجد وفرضهم جواً معيناً خاصاً من الأفكار وعدم السماح بالمناقشة. وأشار إلى موضوع الميراث، ودافع عن القرآن ضد خصومه الذين يعرضون آيات يتوهمون أنها من ثغرات الكتاب.

الكتاب مملوء بالمشكلات التي يعاني منها المسلمون الأمريكيون في إسلامهم، ويدعو إلى المناقشة، وقبول الآراء المجددة، وفحص الممارسات الإسلامية الحالية التقليدية، وتمييز ما هو جوهري في الدين عما هو داخل عليه، ليتلاءم الدين مع العصر الحاضر فهماً وشرعاً على أسس متينة، لئلا يرتد المسلمون الجدد، ولا ينهزموا أمام عدوهم المتربص بهم.

بنك القارئ النهم

بعد التطور المذهل في وسائل الاتصال والمعلوماتية أصبح من الضروري التواصل مع القراء الأعزاء عبر شبكة الإنترنت والبريد الإلكتروني نظراً لسرعته وفعاليته وقلة كلفته .

لهذا استبدلت الدار بقسيمة القارئ النهم الورقية رقماً تدخله من خلال موقع الدار ، فتنفتح لك بطاقة تسجل عليها المعلومات، ويصبح لك رصيدك من النقاط، وتستلم نشرة عن إصدارات الدار ونشاطاتها الثقافية، و تستفيد من حسومات خاصة على الكتب.

هذه اللصاقة نافذتك للاشتراك في بنك القارئ النهم .

بتواصلك معنا، نرتقي بصناعة النشر

اطلب أيقونة بنك القارئ النهم في موقع دار الفكر وأدخل رقم الكتاب الآتي على الموقع .

520 3540578 6120

ضياع ديني

e-mail:fikr@fikr.net

LOSING MY RELIGION
A CALL FOR HELP
Ḍayāʿ Dini
JEFFREY LANG



يبحث جيفري لانغ خلال هذا الكتاب في انسلاخ الأكثرية الساحقة من المسلمين الأمريكيين الذين نشؤوا في الوطن عن المساجد ونفورهم منها.

يسوي المؤلف في كتابه هذا كثيراً من التساؤلات التي طرحها عليه أمريكيون من أبوين مسلمين، وأمريكيون اعتنقوا الإسلام منذ صدور كتابه (حتى الملائكة تسأل) عام 1994م.

ويؤكد أنه لا بد للمؤسسة في أمريكة، أن يكون لديها رغبة في الإصغاء إلى شكوك وشكاوى الساخطين على الإسلام وغير الموالين له. وهذا يستدعي الانخراط في مناقشات مفتوحة حول قضايا لا يرتاح لها كثيرون من أبناء الجالية الإسلامية، ويجزم أن الحوار المفتوح سيكون أجدى وأنفع للمسلمين الأمريكيين الشباب الذين يتصارعون مع عقيدتهم، أكثر من المناقشات المغلقة والنمطية المألوفة، وأجدى كذلك من عدم إجراء هذه المناقشات أصلا.

ولهذا السبب، يشعر أنه من المهم، بل من المفيد ((أن يكون المرء صريحاً وموضوعياً وألا يتحاشى الجدل والمناظرات؛ لأن تقرير حالة ما ضد موقف معين أو معه بصورة غير ملائمة ولا وافية، خصوصاً عندما يكون الأمر متعلقاً بتحدي التقاليد والأعراف، لا يسفر إلا عن مزيد من إبعاد المرتابين وتنفيرهم. بالإضافة إلى ما أجراه المؤلف من تمحيص لقضايا الحكمة الإلهية من السماح بوجود الشر، وصحة الحديث النبوي الشريف، والممارسات التجريدية ضمن الجالية المسلمة الأمريكية، فقد ضمن كتابه شهادات وأدلة وتحقيقات واستقصاءات مما يجعل هذا الكتاب مفعماً بالثقافة.

SROUR ALWANI 2007



ISBN 978-9933-10-577-8